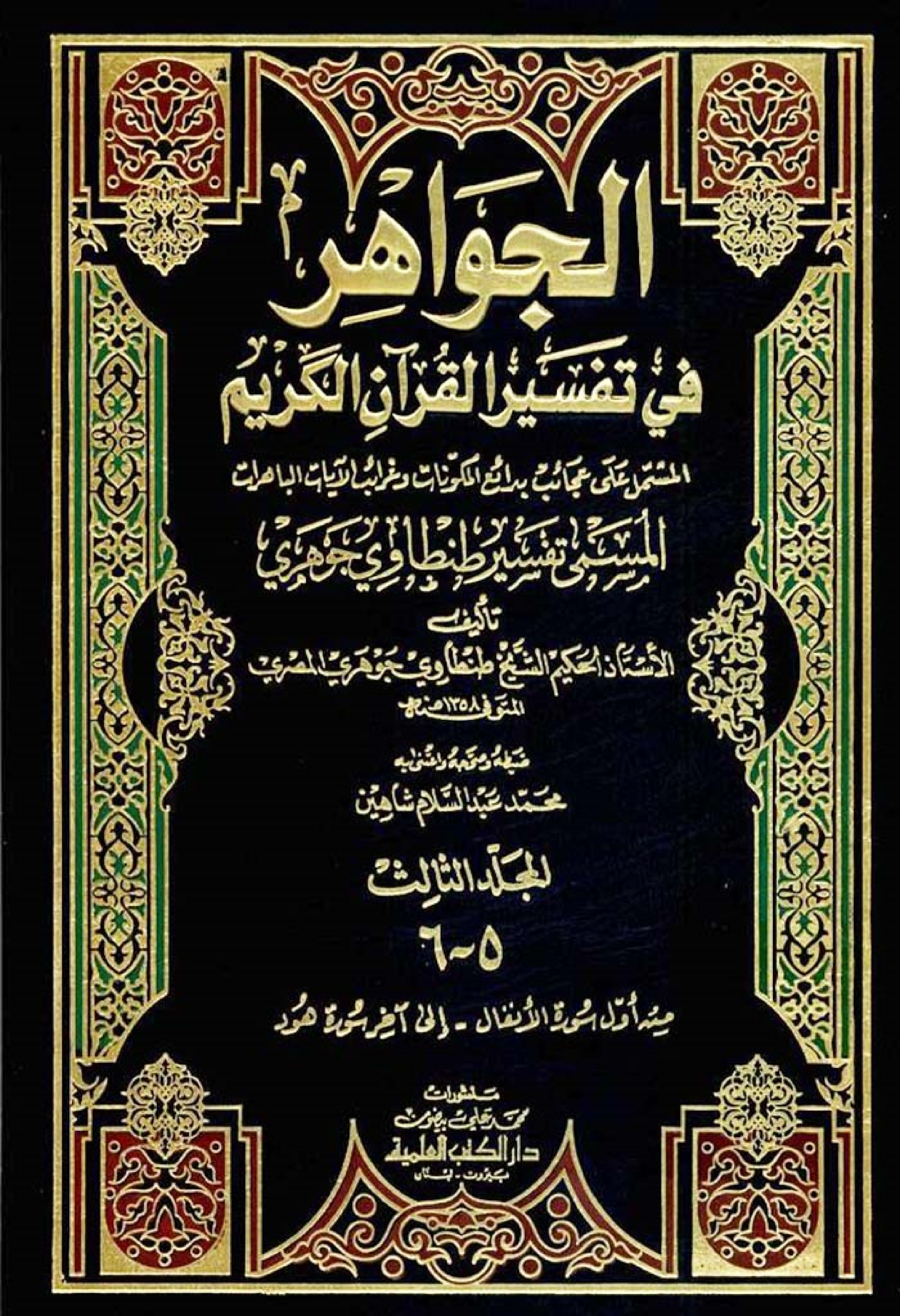

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الثالث
٥-٦
من أول سورة الأنفال - إلى آخر سورة هود
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الجواهر في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

٥ - ٦

المحتوى:

من أول سورة الأنفال - إلى آخر سورة هود

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[ق: ٣٧]

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية، وهي ست وسبعون آية

وهي تشتمل على خمسة أقسام

القسم الأول: من أول السورة إلى قوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾، في صفات المؤمنين الكاملين.

القسم الثاني: في ذكر غزوة بدر، من قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴿٥﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

القسم الثالث: في وصايا ومواعظ للمسلمين، من قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

القسم الرابع: في ذكر ضلالات الكفار وخبائثهم مع وعيدهم وزجرهم، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴿٣٠﴾﴾، إلى قوله: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

القسم الخامس: في قسمة الغنائم، وكيف يعامل الأسرى. وصايا عامة في الحرب والاحتراس من الأعداء، من قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ﴿٤١﴾﴾، إلى آخر السورة.

مقدمة السورة

اعلم أن الله عزّ وجلّ لما أبان في سورة «البقرة» الأحكام الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج وجعل «آل عمران» للدلالة على الله، ولإزالة الشبهات عن رسالة بعض الأنبياء، وأكمل في سورة «النساء» الأحكام التي في «البقرة»، فبيّن الميراث وأحوال الأزواج والأقارب، وأتبعها بالمائدة ذات الفائدة مبينة ما يحلّ من الصيد وما يحرم، وجعل «الأنعام» ميدان الحكمة والعلم. و«الأعراف» لتعريف زوال الملك وموت الممالك التي نام ملوكها وشذ أفرادها عن النهج القويم، فهلكت مدنهم بعد أن بارت تجارتهم.

ولما انتهى الكلام إلى هذا المقام ناسب أن يؤتى بعدها بسورة «الأنفال» ليؤسس مجداً إسلامياً جديداً، ويرفع شأن أمة جديدة، ويبني لها صرحاً على أنقاض الأمم السالفة في سورة «الأعراف».
فهو عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ كما جاء في سورة «المائدة الآية: ٣»، وذلك لم يكن إلاَّ بعد أن شرح في «البقرة» كثيراً من الأحكام الشرعية، وكذا في سورة «النساء».

وأبان في «آل عمران» النصرانية والإسلامية، وأبان في «الأنعام» المحرّمات والمحللات، وفي «الأعراف» ذكر القصة التي استبان فيها كيف تكون سيئات الأخلاق من أسباب الفضيحة والحرمان، وكيف تصبح ديار الإسلام قاعاً صفصفاً متى زاغت عقائد أهلها، وتولوا عن النصائح، وأعرضوا عن القويمات الصحائح، وبخسوا الناس أشياءهم، وعثوا في الأرض فساداً وبغوا وطغوا. هنالك تقرعهم القارعة، وتنزل عليهم الصاعقة، وتمحقهم الماحقة، وتذرهم حصيداً خامدين. هذا هو المقصود من سورة «الأعراف».

وإذا كان هو المثل القديم للأمم الغابرة، فقد ذكر في سورة «الأنفال» و«التوبة» بعد ذلك ليبيّن للمسلمين كيف تفنى الأمم وتبيد، ويقول: هاأنا ذا فعلت بالأمم السالفة، قد أنلتكم قوة وأعطيتكم خلافة الأرض، ومكنت لكم فيها، وكيف تحاربون وتعاهدون. وإياكم أن يغركم أني جعلتكم أقوياء، فإذا تكبرتم وأبيتم فاقرؤوا «الأعراف» إن شئتم، و«يونس» و«هود» إن أردتم، ولا تغرنكم سورتا «الأنفال» و«التوبة» الدالتان على أن لكم شأناً وأنكم منصورون. فالأعراف ويونس وهود المكتنفات للأنفال والتوبة تشهدان أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وما مثلكم إلاَّ كمثل الأمم قبلكم، وأنا الحكم العدل. ولذلك لما انصرم الزمان وذهبت تلك الأيام، سلطت الفرنجة عليكم كما سلطت أمماً ودولاً وحوادث جوية وزلازل أرضية على الأمم المذكورة في «يونس» وفي «هود» وفي «الأعراف».

ولقد تبيّن صدق هذا المعنى المأخوذ من الترتيب المذكور باجتياح الفرنجة بلاد الإسلام وغلبهم عليهم، فصاروا في ذلّ بعد عزهم، وفي شقاء بعد سعدهم، وفي شر بعد خيرهم، وفي ضر بعد نفعهم.
﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣].
وقد آن أوان أن أشرع في تفسير سورة «الأنفال»، فأقول:

القسم الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

التفسير اللفظي

اعلم أيها الذكي أن هذه السورة مدنية كلها، وهي ٧٦ آية. واعلم أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر كيف تقسم، ومن الذين يستحقونها: المهاجرون أم الأنصار؟ وورد أن الشبان تسارعوا إلى الهيجاء فقتلوا سبعين وأسروا سبعين، ثم طلبوا الغنائم، وكان المال قليلاً، فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا ردءاً لكم وفئة تنحازون إليها، فنزلت الآية، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء، فلم يخص الشبان لقتلهم وأسرهم الأعداء، ولا الشيوخ لمحافظتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا المهاجرين لسبقهم في الإسلام، ولا الأنصار لنصرهم الرسول صلى الله عليه وسلم وإيوائهم النبي والمهاجرين، وهذا قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ أي: الغنائم، يعني: حكمها، وإنَّما سميت الغنيمة نفلاً لأنها من فضل الله وعطائه، والنفل في الأصل الزيادة ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ أي: أمرها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمر الله به.

وقد علمت آنفاً أن النبي صلى الله عليه وسلم سوّى بين المحاربين في القسم، وقد نزل بيان القسمة بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾[الأنفال: ٤١] الآية، فتلك الآية تبيان لكيفية القسم، فتكون هذه الآية محكمة كما قاله عبد الرحمن بن زيد.

ولما كان أمر الغنائم أمراً دنيوياً والأمور المادية تنزل بالنوع الإنساني إلى دركات الأخلاق ونقائص الأعمال، أخذ سبحانه يردعهم عن ذلك ويردهم إلى الفضائل الخلقية، لأن التمادي في المادة يقطع الأرحام ويفرق الجماعات ويولد البغض، فقال: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في الاختلاف والمشاجرة والتنابذ والشقاق في حوز الغنائم ﴿ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ حقيقة وصلكم أو أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، ولا تصلح أحوال الألفة إلاَّ بالمساعدة والمواساة وتسليم الأمور لله تعالى، لا بالمشاكسة والمشاجرة ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ فيما أمرتم به من الغنائم وغيرها ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ كاملي الإيمان.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «نزلت فينا معاشر أصحاب بدر، اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا، فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء».

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته منه، فقال: ليس هذا لي ولا لك، اطرحه في القبض، فطرحته وبي ما لا يعلمه إلاَّ الله من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلاَّ قليلاً حتى نزلت سورة «الأنفال»، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: سألتني السيف وليس لي، إنه قد صار لي فاذهب فخذه». اهـ.

ومقتضى هذه الآية أن كمال الإيمان بطاعة الأوامر واتقاء المعاصي وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان، ثم أخذ يبيّن صفات كاملي الإيمان، فوصفهم بخمس صفات، وهاك بيانها:

(١) أن توجل قلوبهم وتفزع لذكره استعظاماً وتهيباً من جلاله. وهذا الخوف عند العصاة من العامة يكون من العقاب، وعند الخواص يكون من الهيبة والعظمة، لأنهم يعلمون عظمة الله فيخافونه

أشد خوف، فالخوف على مقتضى المراتب. وفي آية أخرى: ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[الرعد: ٢٨] والاطمئنان إنَّما يكون بالمعرفة المذكورة في الصفة الثانية، وهي:

(٢) أنهم إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً، فمن كانت الدلائل عنده أكثر كان إيمانه أقوى فالعامة يكفيهم دلائل الدين والقرآن، والخاصة يفكرون في ملكوت السماوات والأرض وعجائب النبات والحيوان والإنسان وعجائب هذا الوجود. ومما يزيد الإيمان عند الطائفتين العبادات ومزاولة الأعمال الدينية، ومتى كان المرء وجلاً من خشية الله، موقناً به لتتابع الآيات الكونية والقرآنية على قلبه، توكل عليه وفوّض أمره إليه. وإليك بيان الوصف الثالث:

(٣) وهو التفويض لله، فلا يخشى إلاَّ هو ولا يرجو إلاَّ ربه.

(٤ و٥) صفتان عمليتان، وهما: إقامة الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها، وإنفاق الأموال فيما أمرهم الله به من الإنفاق فيه كالزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الإنفاق في أنواع البر، وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الكاملو الإيمان ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فزعت لذكره ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ ﴾ أي: القرآن ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ لزيادة المؤمن به أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين، إما بالآيات القرآنية، وإما بالأدلة الكونية التي يشير لها القرآن، وإما بالعمل بما تقتضيه الآيات ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ومن وثق بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره، وهي درجة عالية ومرتبة شريفة. وهذه الصفات الثلاث وهي: الوجل، وزيادة الإيمان والتوكل، من أعمال القلوب.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أي: الذين يحافظون عليها ويؤدونها كاملة تامة حاضرة قلوبهم، وينفقون المال لمستحقه فلا تربط قلوبهم، كما حصل للذين تشاجروا لأجل الغنيمة، فهؤلاء وأمثالهم خير لهم ألا يجعلوا المال مقصوداً لذاته، بل هو وسيلة والوسيلة للمحبوب غير المحبوب، والمحبوب هو الكمال والفضائل والوصول لله بما قدموا من أعمال مبرورة وأفعال مشكورة.

وقوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي: لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإيقان والتوكل ومحاسن أفعال الجوارح من الصلاة والصدقة، و«حقاً»: مصدر مؤكد، ﴿ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ مراتب بعضها أعلى من بعض، وتلك المراتب والدرجات على مقتضى تلك الصفات، فمن الناس من يعرف جمال الله في السماوات والأرض ولكنه غير واثق به قلق القلب.

ومن العامة من هم متوكلون على الله واثقون به، ولكنهم لا يعرفون جلال الله، ومنهم المتوكلون الموقنون، ولكن الأموال شغلت بالهم، وقلوبهم لا تحضر في الصلاة، وإن حضرت كانت غير تامة الحضور.

فبهذه المراتب المتفاوتة تكون درجات الإنسان بعد الموت ويوم القيامة على مقدارها، وهي إلى الزهد في الدنيا والولوع بالله وآياته أقرب، فهؤلاء لهم درجات عند ربهم ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لما فرط منهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أعدّ لهم في الجنة لا منتهى له.

لطائف القسم الأول لسورة الأنفال

اللطيفة الأولى

اعلم أيها الذكي أن المسلمين اليوم قد نسوا حظاً من هذا القرآن، وإلاَّ فكيف تخاذلوا وتنابذوا وتشاجروا، فترى ملوك العرب في الجزيرة، ورؤساء القبائل في بلاد المغرب، وبعض عظماء المصريين، متقاطعين متدابرين متكالبين على الأموال والعظمة والرياسة جهالة ونذالة وقلة كمال.

أوَمارأوا أهل أوروبا مع تباعد مذاهبهم الدينية، فهذا «كاثوليكي» وهذا «بروستانتي» ومع تباعد مطامعهم فإنهم يتقاتلون على دول وممالك، أفلا ينظر رؤساء المسلمين إلى هؤلاء وهم يجلسون على المنضدة ويتحاسبون ويصطلحون، حقناً للدماء وحفظاً للجوار وراحة للشعوب.

أما هؤلاء الأمراء الإسلاميون فإنهم يتقاتلون على أمور صغيرة، أوَما قرؤوا هذه الآية فاطلعوا على فعل الله ورسوله، وكيف نزلت الآية عند التشاجر على الغنائم فقسمها صلى الله عليه وسلم بين المجاهدين بالسوية، فكيف لا يفعل هؤلاء ما فعله نبينا صلى الله عليه وسلم؟ وكيف لا يقيمون الوزن بالقسط، ولا يجلسون مجلساً يدلي فيه كل بحجته؟ ومتى ظهر الحق أطاعوه واتبعوه ولن يفعلوا ذلك إلاَّ إذا كانوا كاملين في الإيمان.

فهؤلاء لا بالإسلام عملوا ولا بالعقل اصطلحوا ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦]، وقد شغل قلوبهم عرض الدنيا فغشي على قلوبهم غشاء كثيف.

واعلم أن الدنيا لا تنقاد إلاَّ لنفوس عالية وقلوب واعية بعيدة النظر، فإن الموادّ والأعراض نتائج المعاني، فلا عمل إلاَّ بعد فكر، ولا نتائج إلاَّ بعد تعقل. فهؤلاء الذين ملكوا الممالك لهم آراء أدّتهم إلى ذلك، ولهم مواهب وعقول وجيوش، فلا مادة إلاَّ حيث يكون صدق وعدل وفكر، وتكون المادة على مقتضاه، وهذا بأحد أمرين: إما بدين يذكر المرء بصفات المؤمنين، وهي هذه الخمسة وغيرها، وإما بعقل كما اتفق لكثير من ملوك الفرنجة، فبعض أمراء الشرق المسلمين لم ينالوا نصيباً من الحكمة ولا حظاً من الدين، فلذلك يتقاتلون على صغائر الأمور ومحقرات الأشياء وهم ساهون لاهون، والفرنجة من حولهم على أذقانهم يضحكون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون، فهلا وجلت قلوبهم؟ وهلا ذكروا ربهم؟ وهلا نظروا نظرة في المال الذي تعادوا لأجله فعرفوا أن اتصافهم بجميل الصفات يعطيهم ملكاً أوسع ورزقاً أشرف، والله هو الولي الحميد. اهـ.

اللطيفة الثانية

اعلم أيها الذكي أن المتوكل على الله يستفيد فائدتين:

الأولى: ألا يحزن في الحال للمستقبل.

الثانية: أنه يجد التوفيق عند حصول مأموله في المستقبل.

وليس يكون متوكلاً حقاً إلاَّ إذا أتقن عمله إتقاناً تاماً، وقام بشروطه على الوجه اللائق، وفكر فيه وعمل ولم يدّخر وسعاً، ولم يبق إلاَّ أن تبعد عنه الآفات النادرة والأحوال العارضة، فهذا هو التوكل حقاً. فأما الكسالى الساهون اللاهون الذين لا يعملون ويدّعون أنهم متوكلون فأولئك هم المغرورون وهم كثير من عامة المسلمين. اهـ.

اللطيفة الثالثة

تبيّن من هذه الآية أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح. ألا ترى أن الإيمان بالله وخشيته والاطلاع على عجائبه والتوكل عليه مقدمات على الصلاة والزكاة، وهذا من لطائف القرآن. إن أعمال القلب وتوافرها عند الناس تنيلهم خيري الدنيا والآخرة. ولقد أجمع العلماء أن أثر القلب في أحوال الإنسان أقرب إلى الثواب من أثر الجوارح، ولولا النية وهي من أعمال القلب لكانت العبادات كلها باطلة، وهكذا في أحوال الدنيا. فانظر كيف أصبح الناس في هذا الزمان وفي غيره لا صلح بينهم ولا اتحاد ولا التئام إلاّ بنظافة البواطن، ولذلك ترى أمم الإسلام المتخاذلة إنّما حصل لها ذلك بالجهل السائد بمصالح الدنيا والآخرة. والجهل من صفات القلب. ومن أعظم الجهل أنهم أعرضوا عن عجائب هذه الدنيا وما فيها من البدائع واللطائف التي تزيد المرء إيقاناً بربه، وهي التي جاءت في قوله: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾.

فهذه الدنيا كلها من آيات الله، ومعرفتها عمل قلبي، ولا سبيل إلى استثمار ما فيها من معادن ونبات وحيوان إلاّ بعد العلم، فهؤلاء الأمراء لما جهلوا آيات الله نقص إيمانهم، ولما نقص الإيمان انحصرت عقولهم فيما بين أيديهم من موارد ضئيلة، فتقاتلوا وتحاسدوا وتعادوا، ذلك لجهلهم بآيات الله وهي إحدى الخصائل القلبية الثلاثة.

ولقد جعل الله صلح ذات البين وطاعة الله ورسوله معلقين على هذه الأمور القلبية، فمن فقدها فقد الطاعة والصلح، ومن جمعها نال الصلح، وهؤلاء المسلمون أعرضوا عن جمال الله في هذا العالم، فلم يدرسوا عجائب هذه الدنيا وفرحوا بما عندهم من العلم الضئيل والمال الكثير ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[هود: ٨]، فلا سبيل لرقيهم وصلحهم وطاعتهم لربهم إلاّ بما يأتي:

(١) أن ينتشر العلم بينهم بعجائب هذه الدنيا، وما علم أدب اللغة والتاريخ إلاّ مقدمة لذلك العلم الشريف.

(٢) أن تهذب النفوس حتى يخشى الناس ربهم، وذلك بذكر الآيات والأحاديث الزاجرة والمخوفة ببطش المنتقم الجبار.

(٣) إقامة الصلوات وبذل المال، فهذه هي المهذبة للنفوس وأهمها تعميم العلوم العصرية.

حكم ظهرت في هذه الآيات

قد يظنّ القارئ أن هذا العنوان كغيره مما يجعل للتشويق أو للمبالغة والإغراق. ولكن أقول إن المقام مقام علم وحكمة. وإذا كان صدق الكتب الدينية مرجعه العلم كان ذلك أثبت.

ألا ترى إلى ما ذكره علماؤنا كالإمام الغزالي إذ يقول: «إذا أردت أن تعرف صدق هذا الدين فاعمل ببعض ما فيه ثم انتظر النتيجة»، مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩]، وكقوله صلى الله عليه وسلم: «من استعفّ يعفّه الله ومن استغنى يغنه الله»، فإنه جعل صدق النتائج للحديث أو للآية هو المعيار لصدقهما.

قد قدمت لك هذا لتنظر في تركيب هذه السور كما أشرت إليه سابقاً. ولكن يجدر بي هنا أن أعطي المقام حقه وأبينه، فأقول:

قد قلت سابقاً: إن سورة «الأعراف» جاءت إنذاراً للكافرين وذكرى للمؤمنين بنص الآية في أولها. وهاأنت ذا قد اطلعت على هلاك الأمم السالفة مثل قوم نوح وعاد وثمود الخ، وختمها بثلاثة أشياء:

(١) أن يصفح الإنسان عن الجاهلين ولا يتبع خطوات الشيطان في العداوات.

(٢) وأن يسمع القرآن وينصت له.

(٣) وأن يذكر ربه في نفسه مع المراقبة.

هذان هما اللذان جاءت بهما سورة «الأعراف» مضمون السورة كلها ونصائح في آخرها؛ فانظر في سورة «الأنفال» و«التوبة» اللتين جاءتا في أمر الغنيمة والحرب والنصر، فهاهنا أمران:

(١) أمر مقاصد السورة العامة، وهذا يطول الكلام على مناسبته لهاتين السورتين.

(٢) وأمر مناسبة آخر سورة «الأعراف» لأول سورة «الأنفال». فلأتكلم عن ثاني الأمرين أولاً ثم أتبعه بالأول الذي هو المقصود بالحكم، فأقول:

المناسبة بين السورتين: أي بين آخر «الأعراف» وأول «الأنفال»، أن آخر «الأعراف» كما اشتمل على الإعراض عن الجاهلين، وترك العداوة والبغضاء، وعلى الإنصات للقرآن، وعلى ذكر الله ذكراً بحضور القلب، هكذا أول سورة «الأنفال» ففيها الصلح بين المتخاصمين، وهو راجع للأول، وفيه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، وهما راجعان إلى الثاني والثالث.

فهذا هو تمام الكلام على ثاني الأمرين، وهو المناسبة بين آخر «الأعراف» وأول «الأنفال»، أما الكلام على أولهما وهو ملخص «الأعراف» وملخص «الأنفال» و«التوبة» وهو المقصود من ذكر الحكم، فأقول مفصلاً بعد أن ذكرته مجملاً في آخر سورة «الأعراف»:

اعلم أن هذا العلم لا يمكن معرفته إلا في زماننا الحاضر، لأننا جئنا بعد ١٣ قرناً فشاهدنا بأعيننا وقرأنا في كتبنا وتاريخنا ما دلنا على حسن نظام هذا القرآن.

إن سورة «الأعراف» فيها هلاك الأمم التي فسقت، وبماذا فسقت؟ فسقت بالترف والنعيم والظلم وأكل أموال الناس بالباطل والتعالي على الناس الخ. كل هذا مع الكفر، هؤلاء هلكوا، وقد أنذر الله الكفار به وذكر المسلمين بما ذكرهم، ذكرهم بأنكم أيها المسلمون يوماً ما ستفتح لكم البلاد وستجوسون خلالها وستعمرون أرض ربكم، فلتعلموا أيها المسلمون أني أنا الحكم أنا العدل، أنا لا أبقي في أرضي من لا ينفع الناس، إن الناس جميعاً عبادي فكل من ساعدهم أحببته، وكل من حافظ عليهم ساعدته، أنا أساعد الطيور في أعشاشها، والأسود في آجامها، والحشرات في مخابئها، فكيف أترك الإنسان سبهللاً بلا نظام.

فهاأنتم أولاء أيها المسلمون قد ملكتم الأرض في العصور الأولى فصدقتم، ثم بعد ذلك فسقتم أنا وعدتكم بالنصر في سورة «الأنفال»، وقسمت الغنائم بينكم، وهي التي تأخذونها من عبادي، وهكذا توالى النصر عليكم، وذقتم البأساء والضراء، وكانت الحرب سجالاً، كل ذلك في «الأنفال» و«التوبة»، ثم كانت الغلبة لكم مع علمكم بأن سورة «الأعراف» لم تزل ماثلة أمامكم تقرؤونها بحيث إذا أخللتم بنظام عبادي أهلكتكم وأذللتكم ولن تجدوا لسنتي تبديلاً.

سورة «الأعراف» منذرة، وسورة «الأنفال» و«التوبة» مبشرتان بالنصر والغنيمة. مضى العصر الأول بعد نبيكم فماذا حصل؟ تفرقتم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض، وأصبحت الخلافة ترفاً ونعيماً، وصار الملك للعلوّ والفساد، ومن أراد العلوّ في الأرض أو الفساد أذللته وأهلكته، فلما توالى الملك في العباسيين أجيالاً واستناموا إلى مماليكهم، سلطتهم عليهم فأخذوا يحبسونهم ويقتلونهم. وقال شاعرهم:

خليفة في قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له ... كما تقول البيغا

فكيف تكون حال قوم خليفتهم عبد لعبدين من عبيدهم، وهما «وصيف وبغا». وسبب ذلكم أنكم تركتم الشورى التي سميت سورة باسمها ولا قائمة للإسلام إلاّ بها، ولما تماديتم في الضلال أرسلت التتار فأزالوا الدولة العباسية، وهكذا في الأندلس استفحل ملككم، ولما فسقتم واكتفيتم بالشعر والشعراء وتركتم مواهبكم وعقولكم، سلطت عليكم الفرنجة فاحتلوا بلادكم.

ثم إن الأمة التركية أصابها ما أصاب العرب، فهي في أولها حازمة وفي آخرها اضمحل ملكها بسبب الترف والنعيم وجهل الملوك وفساد النظام والظلم، وهذا لترك الشورى كما تقدم التي هي أقرب إلى إصلاح ذات البين المذكور هنا.

أيها المسلمون، هاأنتم أولاء ذقتم الأمرين وأصبحتم من أضعف الأمم، لماذا هذا؟ لأني أنا الذي جعلتكم خلائف الأرض مريداً بذلك أن ترقوا النوع الإنساني وقد حصل فعلاً، ولما فشلتم وتنازعتم وتقاتلتم على الملك أذللتكم للفرنجة.

أتدرون لماذا هذا كله؟ لأن علماءكم وأدباءكم وحكماءكم لم يريدوا أن يدرسوا لكم القرآن وسره، ولم يفهموكم لماذا وضعت سورة «الأعراف» قبل «الأنفال» و«التوبة»، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم: «إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون». قد استخلفتكم في الأرض كما قلت في كتابي، وكما قال نبيكم، ونظرت كيف تعملون، فرأيتكم في الزمان الأخير لا تصلحون لقيادة أهل الأرض، فنحيتكم عن الملك وأقصيتكم عن الرياسة على عبادي.

إن خليفتي لا بد أن يتخلق بأخلاقي، ألم تدرسوا ما جاء في سورة «هود» بعد «يونس»؟ ألم أقل لكم فيها: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، فهاأنا ذا استخلفتكم وأنا بصير بعملكم، فنحيتكم عن السيادة في الأرض. إني أنا القائل: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٦-١٧].

قدّمت سورة «الأعراف» على سورتي الغنائم والحرب والنصر، وذكرتكم بعدها بعدم الطغيان فهاأنتم إذن قد طغيتم وبغيتم، فأقصيتكم عن قيادة خلقي. هذا هو الذي فهمته الآن من ترتيب هذه السور الأربعة: سورة للإنذار، وسورتان للغنائم والحرب، وسورة فيها الأمر بعدم الطغيان.

انظر لم يقل الله لنا: لا تطغوا في سورة «الأعراف» وهي مكية، بل أخرها بعد ذكر الغنائم والنصر في السورتين، لأنه هنا يمكن الطغيان.

هذا هو السر في ذكر النهي عن الطغيان في سورة «يونس» لا في سورة «الأعراف»؛ فانظر أيها الذكي كيف كان ترتيب السور مفيداً معاني قد حققتها الحوادث وأظهرها الزمان.

وقد كنت في آخر سورة «الأعراف» ذكرت معنى حديث ذم الدنيا، وهاأنا ذا الآن أذكره بنصه: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله، فقال: إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، فقال رجل: أوَيأتي الخير بالشر؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأينا أنه ينزل عليه، فأفاق يمسح عنه الرحضاء، وقال: أين هذا السائل؟ وكأنه حمده، فقال: إنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلمّ، إلاّ آكلة الخضر، فإنها أكلت حتى امتدت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم ربعت، وإن هذا المال خضر حلو، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة» أخرجه الشيخان والنسائي. ويحسن أن نذكر تفسير بعض ألفاظ هذا الحديث الشريف، فنقول: زهرة الدنيا: حسنها وبهجتها. الرحضاء: العرق الكثير. الحبط: النفخ، يقال: حبط بطنه، إذا انتفخ فهلك فيه. يثلط: إذا ألقى رجيعه سهلاً رقيقاً. وفي الحديث مثلان: أحدهما للمفرط في جمع الدنيا، والآخر للمقتصد في أخذها والانتفاع بها. انتهى من كتاب تيسير الوصول لجامع الأصول.

دواء هذا الداء

عليّ أنا وعليك أنت وعلى كل مطلع على هذا التفسير أن نجعل كل حياتنا وقفاً على إرشاد الأمة الإسلامية في قرانا وبلادنا وأممنا، فنقول لهم: لنرجع مجد الإسلام ومجد أممنا السالفة، وأن نسلك سبيلاً أخرى غير ما يسلكها المتأخرون من المسلمين، فلنعمم التعليم، ولنعلم الصغار كيف ينظرون في هذه الدنيا، وإذا أسمعناهم القرآن فلنعطهن نماذج من الطبيعة جميلة حلوة سارة شارحة للصدور، فإذا قرأ التلميذ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] رسمنا له صورة الشمس، وذكرنا له منافعها وجمالها، وشرحنا صدره بالجمال والحكمة التي أبدعها الله فيها، وأرنا له سبل العلم فيها كما ستراه إن شاء الله في سورة «الشمس» عند تفسيرها هناك، وكيف كان الفحم والنبات والماء والرياح كلها مسخرات بضوء الشمس، وهي التي سخرها الله. فيخرج الطالب من تلك الصور بعلم وحكمة لا حفظ مجرد ولا معان مدمجة لا تثير في النفس إعجاباً وتشويقاً. هكذا فليكن القرآن ودرسه، أي: أنه يكون مصحوباً بجمال العلم حتى يعشقه، ويعشق النظر والبحث الطلاب من صغرهم، فبهذا يستوي صغار المسلمين على عرش الحكمة في إبان صغرهم، فيدربون على النظر والجمال، فيشبون على البحث عاكفين، وعلى الدراسة مجدين. وهذا أولاً: شكر لله، والشكر واجب وجوباً عينياً، وثانياً: زيادة في التوحيد، وثالثاً: زيادة في حب الله، ورابعاً: زيادة في نمو عقولهم للبحث فيما خبأه الله في هذا العالم من المنافع التي يكون استخراجها فرض كفاية، ليقوم بها أمر المعاش في هذه الدنيا. هذا هو الذي قصر فيه المسلمون فناموا، وهذا هو الذي سيكون العمل به بعد انتشار هذا التفسير، وستكون التعاليم الإسلامية مخالفة كل المخالفة لما عليه المتأخرون من قديم، بل ويصبح في الإسلام جيل هو خير الأجيال، ويكونون رحمة للعالمين لأنهم ورثة من خصه الله بهذا الوصف الجميل. انتهى.

الحكمة العامة في هذه الآيات

إن هنا مراتب ثلاثاً : وجل عند ذكر الله ، وزيادة الإيمان بزيادة الدلائل ، وتوكل على الله بحيث يفوّض أمره إليه ولا يرجو ولا يخاف غيره ، لعلمه أن العالم نظام تام ، وهو سبحانه وتعالى قد تكفل بالجليل والحقير من خلقه . هذه أعمال القلوب ، وهناك عملان للجوارح ، وهم : إقامة الصلاة وإنفاق المال في الوجوه المطلوبة ؛ فمن اتصف بهذه الصفات الخمسة فهو المؤمن حقاً . قال الواحدي : من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد ، لأنه عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين ، فتكون معرفة الله أقوى فيزداد اليقين . انتهى .

والدلائل المذكورة سمعية وعقلية على حسب درجة المستدل ، ثم إن المؤمن يخاف الله لعصيانه أو لهيبة جلاله ، وتطمئنّ نفسه باليقين متى كثرت الدلائل ؛ فالإيمان إذن يشمل الأعمال القلبية والأعمال الجسمية ، ويؤيده حديث الشيخين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلاّ الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» . اهـ . فالإيمان يزيد وينقص على مقتضى أعمال العبد .

قال عمر بن حبيب وكان له صحبة : إن للإيمان زيادة ونقصاً . قيل له : فما زيادته؟ قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته ، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه . اهـ .

أقول : ولما كانت هذه الآيات بهذه المثابة بحيث تجمع فروع الدين من العقلي والعملي ، وبها وبحديث الشيخين صار المؤمن حقاً عزيز الوجود ، فإن اتصف بوصف نقص آخر . أقول : لما كانت كذلك أورثت خلافاً بين المتقدمين الأجلاّء من أمة الإسلام . هل يقول المسلم : أنا مؤمن حقاً ، كما في هذه الآية ، أم عليه أن يحترس؟ .

وأصحاب أبي حنيفة رحمه الله لا يمنعون المسلم أن يقول أنا مؤمن حقاً ، وأصحاب الشافعي رضي الله عنه يقولون : الأولى للمسلم أن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله .

وسأل رجل الحسن البصري رضي الله عنه ، فقال : أمؤمن أنت؟ فقال الحسن : إن كنت سألتني عن الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا بها مؤمن ، وإن سألتني عن قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا أدري أنا منهم أم لا .

هذه جملة صالحة من مجامع أقوال ساداتنا وآبائنا المتقدمين ، فهل تحب أن ألقي إليك ما نتيجة هذه الأقوال للمسلمين في المستقبل؟ أقول لك : إن آباءنا السابقين قد أحضروا لنا الحجارة والآجرّ والجصّ والزجاج والخشب والحديد وجميع ما يلزم لبناء البيت العظيم وهو الإيمان ، وقالوا لنا : هذه تركناها لكم فابنوا مساكن الإيمان وأسسوه ، وهانحن أولاء قد مهدنا لكم الطرق وسهلنا لكم السبل ، فعلينا الأساس وعليكم البناء .

هذا ملخص ما ذكروه في هذا المقام ، اجتهد أبو حنيفة واجتهد الشافعي في هذه الآية ، وهذا الحسن وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، فاسمع ما وقر في نفسي مفصلاً موضحاً .

اعلم أيها الذكي أني مسؤول عن العلم وعن الأمة ، وأنت وجميع من قرؤوا هذا الكتاب وأمثاله عن هذه الأمة مسؤولون ، المسؤولية مشتركة بين أهل العلم لا فرق بين متقدم ومتأخر .

أقول: اعلم أن الإنسان في أول أمره يجول بخاطره أمور مجهولة عمومية وهو يحاول فهمها فلا يقدر، حتى إذا كشف الحجاب كان ذلك اطمئناناً للنفس، والاطمئنان هو سعادة الدنيا والآخرة، يسمع الوعيد ويخاف ربه من ذنوبه، فإذا أكثر الاستغفار والاعتبار والنظر فاستبصر، عرف الحقائق فاطمأن قلبه، وللأول الإشارة بقوله: ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، وللثاني بقوله: ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾، وقوله في سورة أخرى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[الرعد:٢٨] لا تطمئن القلوب ولا يكون الإيمان حقاً مستكملاً جميع شرائطه إلاّ إذا قمنا بما جاء في حديث الصحيحين في الإيمان، وأتينا بشعب الإيمان كلها. الله أكبر، ما الإيمان الحق؟ الإيمان الحق علم وعمل، العلم له فروع والعمل له فروع، فروع العلم كثيرة والعمل فروعه كثيرة، ذكر الله إجمالاً لهذا كله في هذه السورة خمسة أمور، ولكن حديث الشيخين جعله جميع فروع الحياة صغيرها وكبيرها، جلّ العلم وجلت الحكمة ونصح العلماء وجدّ الأئمة وصدق رسول الله الذي هو أفضل من الجميع، وكيف لا يكون كذلك، إنه جعل الإيمان أشبه بإنسان. الإنسان له عقل يفكر وجوارح وحواس، الإنسان لا تتم إنسانيته إلاّ بجميع الحواس والعقل وسائر الأعضاء حتى الظفر والشعر، وهكذا الإيمان إن لم يستكمل هذا كله فإنه لا يكون حقاً، كما إذا لم يستكمل الإنسان جميع هذه القوى والقدر فإنه لا يكون تام الأعمال.

إن النبوة أنارت الموضوع وشرحته، ولكن الأئمة تَحيّروا واختلفوا وكل له حجة، الإنسان إذا نقص ظفراً أو إصبعاً أو عيناً أو أذناً فإنه لا تسلب منه صفة الإنسانية، ولكنه يكون غير متمكن من جميع مطالبه، بل ينقصه بعضها ما دام أنه من نوع الإنسان، هكذا الإيمان لا يقال إنه قد ذهب من الإنسان إذا نقصت بعض الأعمال، ولكن لا يكون مستوفياً جميع ما يكون به الكمال.

ولكن هنا حكمة عجيبة وآية غريبة وبدائع مدهشة، يقول الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الخ، لم يقل: المؤمن، بل قال: المؤمنون، كأنه فتح لنا باب حل المشكلة التي حيّرت الألباب، بل فتح الباب على مصراعيه فعلاً، وهاأنا ذا أدخل معك في ساحات العلم الواسعة، وأشرب معك من رحيقها المختوم والشراب المعتق اللذيذ للشاربين.

علم الله قبل أن يخلق الناس وقبل أن ينزل القرآن أن الحياة لا كمال لها إلاّ بالاجتماع، والناس في اجتماعهم أشبه بإنسان واحد، فكل واحد عليه عمل لا يناسب الآخر، فإذا لم يقدر صاحب العلم على عمل ما قدر عليه صاحب العمل، وترى النجار والحداد والزجاج وصانع الكهرباء وسائق القطار وصانع السفن ومحرك الطيارات والمنطاد كل واحد قام بعمل لا يحسنه الآخر، فباجتماع هؤلاء يكونون قد أكملوا الإيمان في الأمة.

ثم إن علماءنا رحمهم الله هم الذين قالوا إن هذه فروض كفايات؛ فمتى قصرت الأمة في أمر منها عذب المجموع في الدنيا بالذلة، وفي الآخرة بجهنم على التقصير؛ فالأمة كلها متضامنة هنا في الدنيا والآخرة، فأنا مكلف أن يكون في بلاد الإسلام كل صناعة وكل علم، ومعنى ذلك أن أكون مساعداً بالفكر أو بالمال أو بما أستطيع فعله، ومتى قصرت كان إيماني ناقصاً على مقدار تقصيري في منفعة المجموع؛ فمتى استكمل في الأمة أهبتها بما يطابق زمانها، كان الناس في حال تشابه حال تمام الإيمان، ولكل فرد قسطه من الكمال الذي يناسبه ويلائمه. فإذا سمعت أصحاب الشافعي يحترسون من قول

القائل: أنا مؤمن حقاً، وإذا سمعت الحنفية لا يمتنعون أن يقولوا: أنا مؤمن حقاً، وإذا سمعت الحسن يقول: أنا لا أدري حالي فيما عدا الإيمان بالله. الخ.

فاعلم أن ما ذكرناه لك واف بما قالوه كاف. إن الحسن يعلم أنه لا يقدر أن يقوم بجميع الأعمال ففي حديث الصحيحين: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلاّ الله» الخ. وقد تقدم ذكره قريباً في هذا المقام.

إذن الإيمان لا يذر زراعة ولا تجارة ولا صناعة ولا سياسة ولا طرقاً تمهد ولا أنهراً تحفر إلاّ دخلت فيه، فإذا كان الكناس والزبال ومصلح الطرقات للقطرات، ورجال مصلحة المجاري التي في القاهرة التي لا عمل لها إلاّ إخراج المواد البرازية منها إلى جهة الجبل الأصفر بالخانكة.

إذا كان هؤلاء كلهم أعمالهم من الدين الإسلامي بنص نفس الحديث. فإذن الإيمان في ديننا قد ابتلع جميع الفنون والصناعات، هذا هو الدين، وهذا هو الذي أخاف الشافعي والحسن أن يقولا نحن مؤمنون حقاً. وعلى هذا يكون المؤمنون في هذا الزمان مقصرين حقاً، ولا يقولون: إننا مؤمنون حقاً، لأننا قصرنا في الأعمال العامة التي نصّ بعض علماء الأصول أنها أفضل من فرض العين.

هذا هو الجواب الذي فتح الله به في هذه المسألة، وصار الإيمان حقاً يرجع لشيوع النظام العام في الأمة؛ فعلى مقدار استتاب النظام وكمال العلوم والصناعات يقال: إن هذه الأمة إيمانها حق وكامل، وعلى مقدار النقص يكون النقص، والأفراد في الأمة متضامنون لم يخلق الإنسان وحده.

يذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: «إماطة الأذى»، ومعنى ذلك المحافظة على راحة الجمهور ورفاهيته، وهذا لا يتم بالأعمال الفردية البتة، إننا لم نقدر أن نخرج القاذورات من القاهرة إلاّ برجال متعلمين.

إذن علينا أن نجمع شملنا لسائر مصالح الحياة، فمتى كملت كنا مؤمنين حقاً، ويكون الفرد الواحد إيمانه على مقدار ما أثر في هذه الحياة العامة. هكذا يقول هنا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، ولم يقل: المؤمن مشيراً بذلك إلى الاجتماع العام كما في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: ٥] بالنون لا بالهمزة مشيراً للجميع.

وإياك أن تظن أني أريد إيماناً خيالياً للمجموع، كلا، بل أقول: إن كمال المجموع في المصالح الدنيوية والأخروية يدعو لتكميل إيمان الأفراد، وذلك بتعاونهم واتحادهم. فالمؤلف يعين القارئ على إحداث الأعمال النافعة، والقارئ يعاضده إخوانه فيحدثون أعمالاً في نظام الأمة، وهذه الأعمال ينتفع بها الكاتب وغيره من عباد الله. ومن أهم أعمال الإيمان الصلح بين المتخاصمين عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾.

الصلح في بلاد الإسلام

يقول الله: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾، إن هذا من أهم شعب الإيمان، ولذلك ذكرها هنا، فإذا كان الإيمان يدخل فيه إماطة الأذى من الطريق، فما أحرى أن يدخل فيه ما ذكره الله هنا من الصلح بين المتخاصمين، فإن إماطة الأذى من النفوس وإحياءها بالمودة والمحبة أفضل وأفضل آلاف الآلاف من إزالة الأذى من الطريق.

إن الأمة المتفرقة المتباغضة لا ترفع مناراً، ولا تدفع عاراً، ولا توري ناراً، ولا تحفظ الحرث ولا النسل، بل يقربها البلا، ويجر عليها أذياله الردى، وتنغمس في العداوات، وتغرق في بحر الضلالات، ويحيط بها الأعداء، ويستفحل الداء ويستعصي الدواء.

ولعمري ما قلل الإيمان ولا أضعف شوكة أهله إلاَّ الجهل الفاضح الذي غمر هذه الأمم المسكينة، إذ جعلوا بأسهم بينهم شديداً، فهم في غمرة ساهون، والجهل مرتع وخيم، وأعشاش تبيض فيها وتفرخ نواعب الغربان ومنذرات الدمار.

أمر الله عزَّ وجلَّ بصلح ذات البين في هذه السورة، ثم ذكر حقيقة الإيمان أو الإيمان الحق، وحار العلماء في وصفه وعرفت مقصود القرآن والسنة والأئمة أنه عبارة عن حقيقة جامعة لجميع أعمال الحياة الدنيا والآخرة، فالإيمان أمر واحد، كما أن الإنسانية عبارة عن الجسم والروح من حيث الكمال فالجسم بلا روح ليس بإنسان، والروح بلا جسم نسميها جناً أو ملكاً، فما دمنا في الأرض فعلينا حفظ الأمرين «الجسم والروح» هكذا الإيمان، وهذه الحقيقة الإيمانية التي شرحها النبي صلى الله عليه وسلم في معنى الإيمان هي ما شرحته لك الآن من النظام العام في الأمة. ولكن هذه الحقيقة لم يرد الأئمة رضوان الله عليهم أن يوضحوها، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أحاط بها في حديث الشيخين، لأنهم رأوا أن السائلين لم يستعدوا لفهمها. وهكذا الحسن رضي الله عنه، فكل من هؤلاء الأعلام نحا نحواً في الإيمان يناسب زمانه وعصره. ولكن هذا هو الزمان الذي يلقى العلم فيه صريحاً ولا يوجه إليه طعن ولا لوم ولا قدح.

إن نور النبوة يظهر في هذا الزمان حقاً، حقاً هذا هو نور النبوة ظاهر، نعم ظاهر في هذا التفسير ظاهر أشدّ الظهور أن المسلمين اليوم مساكين متعطشون إلى العلم يريدون الهدى، والله لقد جاء الهدى ووضح الحق وجاء النصر، وهذه بشائر بنت اليوم هي بشائر العلم والهدى والنور المبين.

هذا هو الزمان الذي يحق لنا أن نكشف النقاب عن تلك الأنوار المحجبة التي منع ظهورها للناس فيما مضى نوازع الملوك فألجموا العلماء؛ فخاطبوا الناس على قدر عقولهم، وما يسمح به زمانهم في حقيقة الإيمان، فالإيمان حقيقته اليوم في هذا التفسير مشرقة مسفرة ضاحكة مستبشرة، وخصال الإيمان ترفع أعلام الدنيا والدين.

وقد أوضحنا لك فيما تقدم أن أهم خصال الإيمان صلح ذات البين، ولذلك خصصها الله بالذكر في هذا المقام.

الكلام على صلح ذات البين

قد ذكرت في المقام السابق مضار التفرق والشقاق، وأزيد الآن إيضاحاً فأقول:

إن المسلمين اليوم في قراهم وفي مدنهم وفي أممهم ابتلوا بأمرين: أولهما شر من ثانيهما، وهما الجهل والشقاق.

إن الشقاق يكون على مقدار الجهل، والعلم هو الذي يجمع القلوب، وأين العلم في الإسلام الآن، فتش في القرى وفي المدن لا تجد إلاَّ جهلاً فاضحاً وشقاقاً شديداً، وربّما يقوم النزاع بين بعض الأفراد على شيء لا يذكر وقد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

القرى

لقد ولدت في بلاد الشرقية من البلاد المصرية، وكنت أرقب حركات الناس في إبان صغري، فكنت أراهم يحقرون كل صادق ويمقتون كل صريح العبارة ويعدّونه رجلاً لا وزن له، وعندهم الرجل العظيم هو الذي يخادع الناس ويخدعهم ويقول بلسانه ما ليس في قلبه.

المدن

ثم إني وجدت أهل المدن الذين عاشرتهم عدة من السنين لا يعيشون إلاّ بالمحاباة والمباجلة. ولما قلت سعادة القلوب لعدم الإخلاص اخترع الناس سعادة لفظية. أما للعظماء فألقاب الفخامة كقولهم «سعادة الباشا» و«معالي الوزير»، ويلقبون سلاطينهم وأمراءهم بأصحاب الجلالة أو أصحاب الدولة أو ما أشبه ذلك. كل هذا لكي يسمعوا باسم السعادة من جلسائهم، وهذه قامت مقام ما كان الشعراء في العصور الأولى يقومون به من مدح الملوك والأمراء. كل هذا ليستعيض الإنسان عن اللذة والسعادة الحقيقية النفسية بالسعادة اللفظية. وليس معنى هذا أن كل من أطلق عليه لقب من هذه الألقاب لا عمل له أو لا سعادة، كلا، فكثير منهم يحسون في نفوسهم بسعادة عظيمة لما لهم من الأعمال، ولكن المقام مقام بحث وتنقيب، فإن قلة الإخلاص وعدم السعادة النفسية حملت بعض الأمراء في الأزمان السالفة على اختراع هذه الألفاظ السمجة ليستظل في ظلها الذي هو ﴿مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ﴾ [الواقعة: ٤٣-٤٤] و﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣١]، بل هو شرر يرمى به عليهم ويورثهم ذلاً ومهانة ويتحملون ذلك لأجل المظاهر الكاذبة ويسعدون سعادة لفظية أي ليقال لأحدهم «سعادتك».

وإذا كانت هذه حال المدن فإن التقاطع والتدابر يحصل بين القلوب إذ لم يجتمع على فضيلة إلاّ قليل، فلذلك كثر الشقاق والنفاق، كل هذا للعلم الناقص أو للجهل المبين.

الأمم الإسلامية

اعلم أيها الذكي أن الأمة من الفرد، فأخلاق الفرد هي أخلاق الأمم، فالذي رأيته في قريتي ورأيته في بعض المدن رأيته بين أمم الإسلام قاطبة.

الأمم الإسلامية وجمعية الأمم في أوروبا

انظر رعاك الله، نحن أولاء في عصرنا الحاضر كيف نسمع أوروبا لها جمعية أمم وإن لم تقم بواجبها، بل ظهر أنها تريد ابتلاع الشرق وهضمه. وأهم بلاد الشرق بلاد الإسلام. فلماذا ترى أمم الإسلام لا رابطة بينها ولا قوة تحفظ توازنها ولو صورة كجمعية الأمم الصورية، فإن هذه الجمعية وكذلك محكمة «لاهاي» ربما تأتيان بالغرض على طول الزمان، وهم الآن يلجؤون إليها عند الاصطدام، فلماذا نرى المسلمين ليس بين دولهم مثل هذه الجماعات.

الإصلاح العام

واعلم أن دواء هذا الداء في الأمم الإسلامية يجب له الشروط الآتية:

(١) أن كل من يعنّ له فكر يجب أن يبديه بإخلاص.

(٢) يجب تعميم التعليم العقلي والديني، ولكن بشرط التعقل والتفكر، فقد مضى زمن الحفظ بلا عقل، وفي هذا التفسير بعض طرق التفكير مطوّلة.

(٣) أن تلقى آيات الأخلاق والمواعظ للمسلمين بهيئة جذابة، ولا يتكل الناس على المفسرين، بل يطبعون نفوسهم بطابع الكمال فيؤثرون في السامعين.

(٤) أن تلقى إلى الناس آيات العلوم التي تبلغ ٧٥٠ آية، بشرط أن يكون إلقاؤها بهيئة تعشقهم في مخلوقات الله، فيحبونه بجمل صنعه وبديع أفعاله، كما ذكرنا في هذا التفسير غير مرة.

(٥) أن يبتعد الناس عن التغالي في الألقاب، فكل أمة ارتقت أقلعت عن هذه العادة العقيمة التي هي بالأطفال أولى منها بالرجال.

(٦) أن يتعلم الناس التعقل والإخلاص والاستقلال الفكري فكفى ما أضعناه.

(٧) ويجب الاتجاه الكلي لتعميم التعليم.

هذه هي التي تحدث في العقول انقلاباً وفي الأمم رجالاً، وهاهنا نقدر أن نقول: تؤلف جماعات في كل قرية وفي كل مدينة وفي كل أمة لإصلاح ذات البين، وإذن تقبل النفوس قول المصلحين. فأما الآن فحسبنا الله ونعم الوكيل.

تحسر المؤلف على الأمم الإسلامية

فيا ليت شعري، متى نسمع بالتعليم العام «الإجباري» في الإسلام؟ ومتى نسمع اتحاداً بين الأمم الإسلامية كاتحاد الأمم الأوروبية ضد الشرقيين؟ ومتى نسمع شيوع العلم والصناعات بينهم؟ ومتى يكون لهم جمعية عامة للفصل في مشاكلهم المادية والأدبية، بل متى يكون فيهم حكماء ناظرون وعلماء مدققون وخلفاء لله في الأرض دارسون ينظرون في أمر الأمم الإسلامية كلها شرقيها وغربيها؟

إن الله وضع المسلمين في وسط الأرض بين الشرق الأقصى وأوروبا، فمتى يقومون بهيئة الوساطة بين الطائفتين، ويكونون حكماً عادلاً بين الشرق والغرب؟ هذا هو المركز العام لأمم الإسلام.

هذا ما سطرته ليلة الجمعة ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٦، وسأتبعه بمقالة كتبتها قبل ذلك في بلدة المرج توضح ما في آخر هذا المقام إيضاحاً شافياً، فأقول: لله كتابان: كتاب بيده، وهو عالم النبات والحيوان ونحوهما وكتاب أنزله كلاماً نسمعه، وهو الكتب السماوية. والكتابان متطابقان.

تفسير القرآن في الحقول والحشرات

هل لك أيها الذكي أن أحدّثك حديثاً عجيباً يطول شرحه ويحسن وضعه؟ إن جمال الطبيعة وبهاءها نورها وإشراقها وبدائعها شاخصات أمامنا ظاهرات بهجات، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً وهم عن التفكر معرضون. إن صلح ذات البين نتيجته الاتحاد وحسن النظام في الأمة بأسرها. وفي سورة «الحجرات» خاطب الله الناس جميعاً لأنهم عباده، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الآية: ١٣]. هاتان الآيتان في القرآن: صلح ذات البين بين المسلمين، وتعارف بين جميع الناس. والمسلمون اليوم لم يقوموا بأولاهما ولم يسمعوا وصية ربنا في ثانيتهما. ﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

فهأنا ذا أحدّث المسلمين المعاصرين لنا والذين من بعدنا، وأذكر لهم نظرتي في الحقول، إذ توجهت إلى ناحية المرج من ضواحي القاهرة بمصر لأمور زراعية، خرجت وأنا كاره لأنني يزعجني كل ما يقطع النظر العقلي عليّ، فركبت القطار في الطريق الموصل من القاهرة إلى بلدة المرج، فماذا

حصل؟ عاودني الله بعادة الإكرام. ذلك أنه قابلني بعض قراء هذا التفسير وهو مفتش من مفتشي الزراعة، وقد توجه للمرج ليشرف على أعمال فرقته من العمال التي تقتل الحشرة الفاتكة بالأشجار المسماة «بق الهبسكس الدقيقي»، فقلت له: صف لي هذه الحشرة. فقال: إن «بق الهبسكس الدقيقي» من الفصيلة النصفية الجناح، وهي ذكور وإناث، والذكر أصغر حجماً من الأنثى:

(١) وطوله من ملليمتر تقريباً إلى ملليمتر ونصف.

(٢) له أجنحة.

(٣) عدد أفراده أقل من عدد أفراد الإناث.

(٤) الأنثى لونها قرنفلي فاتح، بيضاوية الشكل، تعلو جسمها طبقة شمعية.

(٥) طولها من ملليمترين إلى ٣,٥ ملليمتر.

(٦) تضع الأنثى بيضاً من ١٥٠ بيضة إلى ٣٠٠ بيضة، والبيضة لا ترى إلاَّ بالمنظار المعظم.

(٧) يكون البيض في كيس شمعي يسمى كيس البيض، وبعد ٦ إلى ٩ أيام يفقس حسب حالة الجو، وتخرج صغاره نشطة جداً شكلها كشكل الحشرة الكاملة، وتكون هذه الصغار في أول أمرها ذات أرجل، ثم تغير جلدها أكثر من مرة فتترك الأرجل معها. وهكذا الزوائد التي تحس بها، وتكتفي بأن تضع خرطومها في النقط المهمة في الأغصان وتتعلق بها وتمتص العصارات، ولا تزال تلك الصغار تتغذى أربعة أسابيع، ثم تستعد للحمل كأمهاتها، وهذه لا تحتاج إلى الذكور، فبعضها يلقحها ذكورها وبعضها يتكون البيض فيها، ولا تحتاج إلى ذكر، وهذا من العجب، فقد أطلعني ذلك المفتش على الكتاب المطبوع فوجدته كما قال، وقال: إن الذكور أكثرها يموت.

(٨) إن هذه الحشرة تفرز مادة كالدقيق على جسمها، وقد رأيتها أنا بعيني رأسي، وهذه المادة تقيها المؤثرات الجوية، وهذه الحشرة تنام في أوائل أكتوبر إلى حوالي نصف مارس وبعد ذلك تستيقظ. فسألته: في أيّ تاريخ جاءت هذه الحشرة إلى مصر؟ فقال: من سنة ١٩١٢ ميلادية، أحضرها رجل إنجليزي اسمه المستر «براون» من الخارج، قلت: وكيف ذلك؟ قال: أحضر نباتاً من بلاد أوروبا يسمى «الهبسكس» فسميت باسمه، وقد كان مصاباً بهذه الحشرة فأخذت تنتشر من هذا النبات الذي زرعه ببلادنا للزينة فقط إلى أشجارنا من التوت والنبق واللبخ والخرنوب والقطن والبامياء والتيل، وانتشر في القاهرة وضواحيها والجيزة وبني سويف والفيوم وسوهاج ومركز جرجا والإسماعيلية والسويس. كل هذا حصل بسبب ذلك النبات الذي أتى به المستر «براون» الإنجليزي. فقلت: وكيف تكون العدوى؟ فقال: تكون بالماء والهواء وبالحيوانات، وذلك أن الهواء يمر بالشجر فيحمل معه تلك الحشرات إلى شجر آخر سليم، وهكذا الماء والإنسان والحيوان، فالماء تعلق به تلك الحشرة وكذلك يد الإنسان وثوبه، وهكذا الحيوانات يعلق بها إذا لامست هذا الشجر. ثم إن هذه الحشرات لا تمتص إلاَّ في النقطة التي فيها نمو الشجر، ومتى امتصت العصارة رأيت الورق بجانبها يتقلص ويتجمد، وهكذا الغصن كله ثم الشجرة، وهكذا الشجرات حولها. ثم أخذني المفتش وأراني العمال يرشون الشجر والورق والأغصان بالماء الذي فيه «بترول ثقيل» أي لم يصفَّ، وهذا البترول مستخرج من البلاد المصرية بقرب السويس، ومع هذا أيضاً طين من طين «قنا» والأجزاء هي واحد

من البترول و٢ من الطين و١٢ من الماء، ومتى رشوا الماء على الورق غمر الحشرة فسدَّت المسام بالطين والبترول فمات الحيوان.

هذا ملخص العمل الذي يقوم به المفتش وعماله، وقد كان معي صديق لي من أهل العلم، فقال: ما فائدة هذا الكلام؟ فقلت: فيه تفسير آيات كثيرة والآية التي نحن بصددها. قال: هذا شيء بعيد المرمى فأوضحه. قلت: ألست ترى أن هذه الحشرة في أكثر أحوالها أنثاها لا تحتاج للذكر، بل يكون بيضها الذي قد يصل إلى ٣٠٠ بيضة بلا ذكر. قال: بلى. قلت: أفلست ترى أن الله قد أعطى هذه الحشرة وقاية من الحر والبرد وعوارض الجو بما تفرزه على ظاهرها مما هو كالدقيق. قال: بلى. قلت: أفلست ترى أن الأرجل إذا جاء وقت الاستغناء عنها خلعها الحيوان وعاش بلا أرجل كما ذكرناه. قال: بلى. قلت: أفلست ترى أن العدوى تنتشر من هذا الحيوان كما تنتشر عوامل الإلقاح في النبات، فكما كان الإلقاح في النبات بالرياح وبالحيوان وبغيرهما كما ستراه في سورة «الحجر» مفصلاً. هكذا هنا نرى الإلقاح في الهلاك والتدمير يشبه الإلقاح في الإصلاح هناك. قال: بلى. قلت: ألست ترى أن الإنسان يحارب هذه الحشرة ومع ذلك تنتشر بسرعة هائلة؟ قال: بلى. قلت: إن نظر الإنسان للعلوم على قسمين: نظر يؤدي إلى المنافع المادية، ونظر يؤدي إلى ما فوق المادية.

أما النظر إلى المنافع المادية فإن الطبيب والمهندس وعالم الزراعة كل يبحث عن المنفعة المادية التي هو بصددها. وليس يرتفع نظره إلى ما أعلى كهؤلاء الذين يقتلون هذه الحشرة في الحدائق المصرية فليس لهم مطلب وراءها. فأما النظر لما هو أعلى من ذلك فهو نظر يرتقي إلى عالم أعلى من عالمنا. فهاهنا يرى الإنسان أن الله تعالى هدى هذه الحشرة وحفظها ونحن نحاربها. وهذا قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى: ١-٣] فالله أعلى، وإذا كان أعلى فيستوي لديه جميع خلقه في النظام. رأى المصلحة توجب أن تكثر الحشرات الملقحة للأشجار والحشرات القاتلة لها فأكثر منهما، وجعل الإنسان سعيداً بالأولى شقياً بالثانية، وهذا قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: ٣٥]. علم الله أن هذه الشجرة سيحاربها الإنسان بكل الوسائل، فأمدّها بالذرية الكثيرة، وجعل الأنثى لا تحتاج إلى ذكر ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤]، وهذا قوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١].

قال: هذا حسن ولكن لم نصل للمقصود هنا. قلت: فلننظر إلى الذكور والإناث من هذا النوع. أليس هذا الحيوان قامت فيه الأنثى مقام الذكر والأنثى؟ وهذه أشبه بنوع من النبات يشتمل على الذكر والأنثى معاً، ويسمونه خنثى، كالداتورة والبنج كما تقدم في سورة «الأنعام». قال: ثم ماذا؟ قلت: فاتحاد الذكورة بالأنوثة ظاهر في هذه الحشرات من الحيوان، وفي بعض النبات، وقد ظهر الخنثى في نوع الإنسان، فهذا معناه أن الطبيعة تنطق قائلة: «إن الذكران والإناث في كل حي متحدة بحسب أصلها». ولذلك تجد النوعين يتجاذبان على تباعد الديار، وجميع أحوال هذا الإنسان كأحوال الذكور والإناث أي: إنهم متحدون متضامنون مشتبكة مصالحهم، فكما نرى الذكور والإناث ظهر اتحادهما في الطبيعة ونوادرها، هكذا نراهم متحدين غاية ونتيجة ومقصداً، لذلك يتعارفون. هكذا سائر شؤون الحياة.

فأهل الشرق وأهل الغرب جميعاً يحتاج بعضهم إلى بعض. قال: ثم ماذا، زدني إيضاحاً. قلت: إن اتحاد الذكر والأنثى في أدنى النبات وأدنى الحيوان وشواذ الإنسان رمز إلى اتفاقهما مقاصد وغايات تجمعهما. والذكورة والأنوثة المذكورتان لا فرق بينهما وبين سائر أعمال الحياة، فأهل الشرق والغرب يحتاج بعضهم إلى بعض.

ألا ترى أن الحشرة المذكورة وهي «بق الهبسكس» قد انتقل مع الشجرة من الأقطار البعيدة ونقل العدوى إلى القطر المصري في أشجاره؟ قال: وما فائدة هذا؟ قلت: فائدته أن كل مصيبة تحلّ بأمة تضر بغيرها على هذه الأرض. فالطاعون والجدري والحمى وأنواع كثيرة من الأمراض تأخذها الأمم بعضها عن بعض، ولذلك ترى لكل أمة على حدودها مكاناً تمتحن فيه القادمين لينظروا أفيهم مرض معد أم لا، وهكذا، وإذا حصل قحط في أمة أثر في غيرها من الأمم.

ولقد كان للحروب الأهلية في بلاد الصين في هذه الأيام، ولاعتصاب عمال مناجم الفحم في بلاد الإنجليز أثر سيئ في رخص أسعار القطن المصري، وساعده على ذلك كثرة القطن الأمريكي. فانظر كيف صار الناس على الأرض متضامنين وهم يجهلون أنهم متضامنون، متصلين وهم يجهلون أنهم متصلون، بينهم علاقة كبيرة في السراء والضراء وهم يجهلون، عمهم السلك الكهربائي وأحاط بهم من كل جانب نظام بريدي وآخر جوي، واتصل الشرق بالغرب، وحلقت الطائرات التي صنعها الإنسان في الجو. وفي هذه الأيام فبراير ١٩٢٧ صنع الألمان طيارة تحمل جميع ما يلزمها مدة، بحيث تطير حول الكرة كلها وترجع إلى مكانها من غير احتياج إلى ذخيرة أخرى.

أليس هذا بعض قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]، هذا هو بعض التعارف قد ابتدأ. فقال: يا سبحان الله، قد كان أول الكلام لا يشعر الإنسان فيه بأن له مناسبة لهذه الآية حين ذكرتها، لم ندر أيّ مناسبة بين نبات «الهبسكس» وبين هذه الآية، فظهر أن الذكورة والأنوثة في العالم الإنساني والنباتي والحيواني قد اتحدتا في بعض أفرادها وكان ذلك في الإنسان رمزاً إلى توثيق الروابط في سائر مصالحه. فللأول رمز بقوله: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، وللثاني الرمز بقوله: ﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾.

فقلت: إذن هذه الآية وردت لخطاب العقل الإنساني العام، ومعنى هذا أن المسلمين يحسن لهم أن يقوم فيهم حكماء وفلاسفة، ويدرسوا نظام الوجود ويعرفوه كالذي ذكرته في كتابي «أين الإنسان» الذي عرفه أهل أوروبا أنه خطاب للأمم كلها ويبينوا للأمم أن العقل يبين أن الناس متحدون أصلاً وغاية، وأنه يجب أن يكون هناك نظام عام يمنع الضرر والضرار من أي نوع، ويسمون هذا النظام التعارف. قال لي: ولكن المسلمين الآن ليسوا قادرين على ذلك. قلت: نعم، والسبيل إلى ذلك أن يقوم فيهم مفكرون ويعمموا التعليم في الأمم الإسلامية ويجعلوا لهم نظاماً يسمى «إصلاح ذات البين»، وهو المذكور في هذه الآية: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

فهاهنا درجتان في الإصلاح: درجة إصلاح ذات البين بين المسلمين، والدرجة الأخرى درجة التعارف العام بين أمم الأرض كافة. قال: وما السبيل إلى ذلك؟ قلت: السبيل إليه هو ما ذكرته في هذا التفسير وما يذكره غيري من علماء الأمم الإسلامية في أقطار الأرض.

أقول: فليقم كل مفكر في الإسلام بفهم المهم من هذه الآراء في الإسلام، وليعمم التعليم، لأنه لا حياة ولا سعادة للأمم إلاّ بالعلم. وقيل في المعنى:

ما الفضل إلاّ لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

وهناك يظهر المصلحون الذين يصلحون ذات البين بين أمم الإسلام، حتى يكونوا على الأقل أشبه بالممالك المتحدة بأمريكا التي ليست عندها هاتان الآيتان، أو كأمم الألمان الذين لا يقرؤون هذه الآيات. اللهم إنك أنت الذي زرعت النبات، وخلقت الحيوان، ونظمت الإنسان، وأعطيت كل شيء خلقه وهديته، وجعلت الذكورة والأنوثة في الإنسان رمزاً إلى اتحاده أصلاً وغاية، وألهمت أمماً أن تعمل لهذه الغاية بالبريد الجوي والأرضي والطرق البرية والبحرية، وأنمت المسلمين قروناً وقروناً وقروناً، ثم أنت الذي جعلت أمثال هذا التفسير في الأمم الإسلامية، والآراء التي تصدر من كبار الأمة في عصرنا موقظات لشعوب الإسلام أن يدرسوا نظام الوجود ويعمموا التعليم كما قدمنا، ويبتدئوا بصلح ذات البين بين المسلمين. ومتى تعارفت هذه الأمم كانت سبباً في التعارف العام، أو على الأقل قبلت هذا من المصلحين في جميع الأمم، فإصلاح ذات البين المذكور في هذه الآية يتقدمه دروس العالم.

فإذا كنا نرى أننا قد طلب منا التعارف العام بآية «الحجرات» ونداء الله للناس جميعهم، فبالأولى علينا صلح ذات البين بيننا الذي هو في هذه الآية. فانظر كيف كان التعارف العام لسائر الناس، والصلح الخاص بين الأمم الإسلامية.

ولا جرم أن الصلح والمودة أخص من التعارف العام، وهذا عجيب إذ وضع في كل آية ما يناسبها؛ فالتعارف للعموم والمصالحة للخصوص، أي: لخصوص الأمم الإسلامية. اللهم إن المسلمين لم يعملوا اليوم لأخص الأمرين فضلاً عن أعمهما، ولن يوقظهم إلاّ أن يتذكر عقلاؤهم في أمثال ما نكتبه في هذا التفسير. اللهم إنك أنت الذي حكمت على الإنسان أن يحتاج إلى الطيور في أوكارها لتنقي له الحشرات الآكلات لزرعه، كأبي قردان والغراب وغيرهما مما مر ذكره في سورة «المائدة» في مقدمتها، وهكذا العنكبوت الآتي في سورته، إذ يأكل الحشرات أيضاً ليبقى زرعنا سليماً، فكأنك جعلت هذه المخلوقات الحية كأسرة واحدة.

وقلت في سورة «الأنعام الآية: ٣٨»: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ الخ؛ فجعلتها أمماً أمثالنا، ثم أبنت في العلوم في الشرق والغرب أننا ملزمون بالمحافظة عليها لتساعدنا في بقاء نباتنا؛ فالطيور مساعدات وذوات الأربع من البهائم والأنعام مساعدات، فهذه أمم أمثالنا فلنحافظ عليها لأجل حياتنا ومعاشنا.

وإذا كان هذا شأننا مع الحيوان الأعجم فهانحن أولاء مع الإنسان العام علينا أن نسعى للتعارف معه كما نتعرف بالحيوان وندرسه، ثم هاهنا في هذه السورة أتيت لنا بأخص من ذلك وهو صلح ذات البين بيننا.

اللهم إن الأمم الإسلامية اليوم في قصور معيب وتقصير مخجل، فلا بينهم اتفقوا، ولا مع الأمم تعارفوا، ولا للأمم الحيوانية درسوا، ثلاث درجات جهلوها: درجة الحيوانية والإسلامية والإنسانية المذكورات في «الأنعام» و«الأنفال» و«الحجرات» على هذا الترتيب.

وأخص هذه الدرجات ما نحن بصدده الآن في هذه السورة، وهذا هو تفسير آياتنا التي نحن بصددها، وهي: ﴿ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾، وهذه أول الدرجات اعتقاداً وعملاً، ويليها التعارف العام المذكور في «الحجرات»، ويليها دراسة الأمم الحيوانية على اختلاف أنواعها، هذا هو الذي يجب على المسلمين فليدرس ولينظر.

ما فوق المادة

تذييل لهذا المقام

قال صاحبي: لقد قلت: إن هناك نظراً يؤدي إلى ما فوق الأمور المادية، فما معنى هذا؟ وهل الإنسان يرتفع عن المادة في هذه الأرض؟ قلت: اعلم أننا نحسّ في نفوسنا في هذه الحياة بنزعة شريفة إلى حال عالية، وذلك كما في هذا المقام، يتعالى الإنسان عن ملابسات الأجسام إلى أقصى مرام؛ فخبرني رعاك الله ألم أبيّن لك أن كل عالم بعلم قد حصر عقله فيه؛ فعالم الهندسة يبحث عن الأشكال ونتائجها، وهكذا علماء الزراعة لا يدرسون إلاّ ما يخص ما هم فيه، كهؤلاء الذين يقتلون الحشرات، إن هؤلاء لا يستلذون اللذة التي يجدها صاحب العلم العام.

إن الإنسان على الأرض مغلوب على أمره، خاضع لهذا الجسم، يسعى لنموه ولحفظه، فشغله ذلك عن النظر العام والتفكر في بديع صنع الله، وهذا التفكر هو لبّ الدين الإسلامي، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقد اصطفى الله أناساً وهم الأنبياء، فلهم نزعة إلى النظام العام، فإذا نظروا في أمثال هذه الحشرات وفي سعادة الأمم وشقاوتها وفي نظام السماوات والأرض وفي الحياة والموت وفي القحط والجدب والخصب، كانوا عند ذلك النظر كالمجردين عن هذه المادة. اللهم إن عقولنا التي غمست في أجسامنا قد حبست عن عالمها الجميل. إن هنا نظاماً أدركناه، وهذا النظام استوى فيه ما يؤلمنا وما يسرنا، فإن حشرات الهلاك وحشرات الحياة قد ساعدهما الله وحفظهما ورزقهما.

إذن نظام هذا الوجود الذي نعيش فيه، تكافؤ الخير والشر والضر والنفع. ولذلك تجد عندنا موتاً وحياة، امرأة تلد وملك يقبض الأرواح، فهاهنا تعاون بين الحياة والموت والخير والشر، ونحن بذلك ممتحنون. لو كانت العاطفة الإنسانية كاملة لاستوى عندها الموت والحياة والخير والشر. إن نظام الوجود ساوى بين الأمرين ونظام الوجود محكم.

إن العقل الإنساني متى قرأ الحكمة عرف أن هذا النظام جميل، وأن الموت والحياة والخير والشر، ضروريان لنظام هذا الوجود، ومع هذه الحكمة التي يعرفها نراه يحزن ويفرح، وهذا نقص مشين مزر بنا، دالّ على نقصنا في هذا الوجود، ولعلنا في عالم بعد هذا يتساوى عندنا الخير والشر، فتكون عواطفنا سائرة على نظام عقولنا.

اللهم إن العواطف لا تكون كاملة إلاّ إذا كانت جارية على نسق نظامك العالي، ونحن اليوم على الأرض أطفال في أحوالنا، ونحن سائرون إلى هذه الغاية حتى توازي عواطفنا نظامك، ونكون ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الصافات: ٤٤] لا همّ ولا حزن، ونكون راضين رضاء تاماً بنظام هذا الوجود الذي هو على أتم نظام.

إن الإنسانية الجاهلة اليوم سترتقي إما في الأجيال الآتية وإما في عالم الأرواح، ولا سبيل لسعادة الإنسان إلاَّ بالاتحاد العام والوئام التام بين الأرواح، بحيث يكونون في العالم الروحي متحدين متحابين وتزول الفوارق بينهم فليكن المسلمون اليوم مبتدئين بصلح ذات البين بينهم، ثم يتبعون ذلك بالتعارف العام بقدر الإمكان حتى يعم الإصلاح، ويوم القيامة يوضع الناس في مراتبهم وأحوالهم: إما في نعيم، وإما في جحيم. إن صلح ذات البين والتعارف العام للأمم من الأنوار التي يقذفها الله في قلوب الخواص من عباده لتهتدي الأمم ويستنير الوجود.

قال صاحبي: اضرب لي مثلاً لهذه الصفة العالية. قلت: إن مثلها كمثل الطبيب، فإنه أفضل وأرحم للمريض، يقطع عضوه وهو رحيم، فليس يكون المريض منتفعاً بالطبيب حق الانتفاع إلاَّ إذا أدرك الغرض من عمله، فالطبيب برحمته لا يبالي بالآلام التي تعتري المريض من جراء تعاطي الدواء هكذا الله تعالى والعوالم التي تتولى نظام هذه الدنيا يريدون الإصلاح العام، ولا يبالون بحشرة تأكل الزرع، وطاعون عام وأمراض فاتكة، لأنهم يدبرون التدبير العام؛ فالأرض كلها أشبه بإنسان واحد، فموت أمة وحياة أخرى وسعادة أمة وشقاوة أخرى، أشبه بما يعتري الإنسان من حلق شعره وتقليم أظافره تارة وتطويلها أخرى، ومرض عضو وصحة آخر، فنظر العالم الأعلى الذي يتلقى الأمر عن الله هو هذا النظر. فقال: من أين أتى هذا القول؟ فقلت: أنا لم أقلد أحداً، وإنَّما هذه خواطر هجمت على النفس، ونفوسنا لها اتصال بعوالم أخرى، فأنا أحس الآن بأن هذا المعنى حق، وأن هناك عوالم أرقى منا نظرها للأرض، هذا هو النظر لأني أنا وأنا في هذه الأرض أجد في نفسي سروراً ولذة وانشراحاً عند إدراك نظام هذه الحشرات الفاتكة بأشجارنا المهلكة لزرعنا، فلماذا هذه اللذة، وكيف أدركتها نفسي كما أدركت وسرت بنظام الحشرات اللاتي تكون سبباً في إلقاح النبات، فإذا كانت نفسي على هذا النمط، أي: تسرّ بحسن النظام سواء أكان لشهوتها أو لضدها، فهذا دليل أن هناك عوالم هذا دأبها، تشرف على عملنا وتجعله أمامها كأنه مدرسة أو حيوان لا تفعل فيه إلاَّ المصلحة العامة.

إن سرورنا بالنظام العام وابتهاجنا به سعادة وبهجة وجمال. فقال: وهل السرور بذلك واللذة تكون لكثير من أهل العلم، وهل هذه دائمة؟ قلت: كلا، إن نفوس الحكماء تشعر بها في أوقات قليلة ثم تغلب عليهم العوالم الأرضية، فيحزنون ويفرحون كبقية الناس، وإنَّما يتسلون بالحكمة تارة وبالرضا أخرى، فأما عدم الإحساس بالألم فهذا غير معقول. اللهم إذا ذهل الإنسان ذهولاً علمياً أو دينياً أشبه بذهول المنوَّم ـ بالفتح ـ المغناطيسي.

ولقد شرح هذا الإمام الغزالي في الإحياء فاقرأه هناك في «باب الحب»، ويشير إلى هذه المرتبة قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، فمن أيقن أن الله هو الذي أعطاه ومنعه فإن ذلك يخفف الألم، ومع المداومة والصبر يصير الألم كالمعدوم. قال صاحبي: ما ملخص هذا الموضوع كله؟ فقلت: نحن في تفسير: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فدرسنا حشرة «الهبسكس» وهي تؤذي الأشجار وتعدي أشجار الأمم الشرقية بعد الغربية، وقد حفظها الله لهذه الغاية، وذلك يوجب تعاون الأمم جميعاً لاشتراكهم في الضراء، وأنثى هذه الحشرة لا تحتاج لذكر،

وكذلك بعض النبات فيه الذكورة والأنوثة معاً، وهكذا الخناثى من بني آدم، فالذكران والإناث في الأمم متحدون أصلاً وغاية، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾[الحجرات: ١٣] فما فرّقهم إلاّ ليجمعهم، فرّق الشعوب والقبائل، وهاهو ذا يجمعهم كما فرّق بين الذكر والأنثى وجمعهم، وهذا الآن واجب على حكماء أمة الإسلام، وأخصّ من ذلك صلح ذات بينهم.

ثم إن هذا النظر شريف وعال وحكيم، إذ يجعل للإنسان منزلة ملكية لأنه ينظر للعوالم نظر الحكيم والملك ويحبه الله ويحب هو الله تعالى، لأن الحب على قدر العلم والتفكر والتبصر. قال: إن الحشرة المذكورة تفرز مادة على نفسها لتحفظها من الجوّ. فقلت: فائدتها عظيمة جداً، إنها تعطينا درساً أن جسم هذه الحشرة قد اكتفى بنفسه، ففرز منه نفس المادة التي تحفظه من الجوّ، كجلود الأنعام وأشعارها وأوبارها، فهي كلها نسيج أجسامها.

هكذا الإنسان له نفس معذبة بالأطوار والأحوال والجهل، فبماذا يكسوها فيحفظها من الهوان؟ لا سبيل إلى ذلك إلاّ بأن تفرز النفس مادة تحفظها، ولا إفراز لها إلاّ العلم والعمل، فكل عمل وكل علم يرجع إلى النفس فيعطيها قوة. ولا جرم أن النظر العام الحكمي الذي نحن فيه الآن هو السند الأقوى والمقام الأعلى، وكلما زاد الإنسان اتساعاً في النظر والحكمة اشتدت قوته الروحية ونزعاته الفكرية وأمياله الملكية، وإذن يصلح ذات البين ويكون سبباً في تعارف الأمم في الأقطار.

تذكرة

سترى أيها الذكي إن شاء الله في سورة «الحجرات الآية: ١٣» عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ كيف كان خلق الذكر والأنثى في العالم الإنساني متساويين تقريباً، وكيف كانت عقول الناس واستعدادهم موزعات على الأفراد بحسب الحاجة العامة للنظام المطلوب، وكيف كان ذلك موجباً تعاون الأمم عموماً، وكيف كان اختلاف استعداد الأرض واختلاف استعداد العقول يوجبان ذلك، وهكذا من المباحث التي وضعتها في كتابي «أين الإنسان»، ولخصه العلاّمة «ستتيلانة» الفيلسوف الطلياني في مجلة العلوم الشرقية، وهكذا ذكره الأستاذ البارون «كراديفو» في كتابه «مفكري الإسلام». وسترى ذلك التلخيص هناك وما بعده وما كنت لأعلم أن ذلك الكتاب كله داخل في معنى تلك الآية.

تبصرة في كتاب «أين الإنسان» الآتي في سورة «الحجرات» ومناسبته لما هنا

وبيان أنه ملخص الآية هناك، وكيف كانت سورة «الحجرات» فيها الأمران معاً

الصلح بين المسلمين، والتعارف بين جميع الأمم

اعلم أيها الذكي أني أول ما خطر لي تأليف كتاب «أين الإنسان» كنت أفكر في تعداد الذكور والإناث على سطح الكرة الأرضية، فوجدت أن هذا العدد متقارب في كل بلدة وقرية ومدينة وأمة وشرق وغرب، فأخذني العجب كل مأخذ، وقلت في نفسي: كيف يتساويان؟ ولم كانا على قدر الحاجة؟ أليس ذلك بعناية خاصة؟ وعسى أن تكون جميع الصناعات والعلوم قد جعلت لها استعدادت في الفطرة، كما ظهر ذلك في الذكورة والأنوثة. بحثت هذا الموضوع بحثاً كثيراً، ورأيت أن

الأذكياء يقلون، وأصحاب الأجسام العملية يكثرون على مقتضى المطلوب. ثم نظرت إلى نفس الأرض فوجدتها مختلفة البقاع استعداداً للمنافع المختلفة، فثبت في نفسي أن هذه الدنيا وضعها عجيب من حيث الأرض ومنافعها للناس واستعدادهم، فألفت الكتاب، انتشر في أوروبا بلا قوة مني، لأني ليس لي معينون في هذا، لأن الشرق ليس له عهد بعمل مثل هذا، وذكرت في الكتاب أن الناس لا يهنأ لهم عيش إلاَّ إذا استخرجوا جميع القوى في الإنسان وفي الأرض، ولا يتم هذا إلاَّ بأن يكون الناس كأسرة واحدة.

ولما عرف هذا أهل أوروبا قرّظوه ولخصوه كله. وسترى في سورة «الحجرات» ملخص الكتاب بقلم الكتّاب الأوروبيين. انظر إلى سورة «الحجرات» تر هناك آيتين: الأولى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[١٠]، والثانية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ﴾[١٣] الخ. فالآية الأولى تتفق مع ما هنا، فالمسلمون يكون بينهم الصلح والمودة، ثم بعد ذلك يتعارفون مع غيرهم. إن في «الحجرات» الأمرين معاً: فأولهما هو في السورة من الصلح بين المسلمين، وثانيهما هو التعارف العام. وأهم ما في هذا المقال أن آية التعارف هي ملخص كتاب «أين الإنسان».

ألا ترى رعاك الله أن مسألة الذكور والإناث التي في أول الآية هي عينها التي كانت أول ما فكرت لظهور الكتاب. وأن مسألة التعارف التي في آخرها هي بعينها التي قررتها في آخر الكتاب.

أفلا تعجب معي أن يكون هذا الكتاب تفسيراً لآية واحدة من القرآن، وتلك الآية متممة للآية هنا. فإن السلام العام يحتاج لأمرين: صلح خاص بين المسلمين، واتحاد الأمم في الأعمال العامة. وانظر كيف كانت آية الصلح بين المسلمين جاءت في هذه السورة التي هي مقدمة في الترتيب على تلك السورة، وأيضاً هي في «الحجرات» أيضاً مقدمة. ذلك هو العجب الذي ستراه واضحاً هناك. وهذا يدعو المسلمين إلى أمرين: صلح بينهم، وتعارف بين الأمم. وقد ابتدأ ثانيهما وشرع عقلاء المسلمين في أولهما، فليبشر المسلمون بعدنا، وهذه من عجائب ومعجزات القرآن في هذا الزمان.

كيف قصر المسلمون في قوله تعالى:
﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾

إن المسلمين ينقصهم الرقي في كل شيء، إن المودة لا تكون إلاَّ بعلم، ومادام العلم قليلاً كانت المودة ضعيفة بل هي معدومة، لا نرى بين المسلمين اليوم مودة كالتي نراها بين الأمم الأخرى، نعم المسلمون مودتهم مخبوءة وليس يظهرها إلاَّ الحركة العلمية والعملية.

وإني ليحزنني ألا أقرأ للمسلمين مثل ما قرأته اليوم ١٢ يناير سنة ١٩٢٧ أن أول محادثة جرت بالتلفون الذي لا سلك له جرت يوم٧ يناير المذكور بين صاحب جريدة «النيويورك ورلد» وبين رئيس تحرير «الديلي اكسبريس» بلندن وبينهما ثلاثة آلاف ميل، أي نحو ثمن الدائرة المحيطة بالأرض، وقد تبادلا التحيات والأخبار عن جو البلدين «نيويورك ولندن»، وأخذت صورة كل منهما وهو في بلده، وأرسلت صورة الأول حالاً بطريق اللاسلكي، وهكذا صور الأمواج عند تكلمه، ونشر هذا كله في جريدة «الديلي اكسبريس».

هذه هي مودّات الفرنجة والأمريكان . أيها القارئ لهذا التفسير ، فكّر فيما أقول ، وقل لي هل سمعت مثل هذا بين مصر وبغداد ، أو بينهما والإستانة والأفغان ، أو بينهما وبين شمال أفريقيا ؟ كلا ، فهذه أمم أقعدها صغار العلماء عن العلوم وعن الصناعات ، فجهلوا العالم الذي نعيش فيه وجهلوا أنفسهم . وسيكون هذا التفسير من مبادئ النهضة العلمية والعمل بعد العلم . انتهى .

فريدة مشرقة في سورة الأنفال والتوبة ثم القتال والفتح والحجرات

ومن عجائب القرآن أن ذكر الصلح جاء قبيل الكلام على القتال والنصر في هذه السورة ، ذلك لأن قتال العدو لا يتم إلاَّ بعد اتفاق المجاهدين كما قدمنا ، فإذا تباغضوا فلا قتال ولا نصر . وانظر إلى سورة « الحجرات » التي بعد سورة « القتال » ثم سورة « الفتح » كيف ذكر فيها الصلح بين المسلمين والتعارف بين الأمم ، كأنه يقول هنا : لا جهاد إلاَّ بعد اتفاق الأمة واتحادها . ويقول هناك : إذا جاهدتم وفتحت البلاد فعليكم أمران : صلح فيما بينكم شامل كما كنتم قبل القتال ، ثم تعارف مع الأمم ، وتكون النتيجة هكذا صلح دائم قبل الحرب وبعدها في الأمة . ثم إنكم إذا ملكتم الأمم فتعارفوا مع دوام الصلح . هذا ما يؤخذ من ترتيب السور والآيات ، والله على ما نقول وكيل . انتهى الكلام على القسم الأول .

القسم الثاني

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ

جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

مقدمة في سبب غزوة بدر

روي أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام في عير قريش في أربعين راكباً من كفار قريش، منهم عمرو بن العاص، ومعهم جمال تحمل عطراً وميرة وبزاً [وهذا هو معنى اللطيمة]، حتى إذا كانوا قريباً من بدر ـ وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة ـ فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم فقال لأصحابه: «هذه عير قريش فيها أموالهم» وحرّضهم على الخروج إليهم، فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، فلما سمع أبو سفيان بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم ويخبرهم أن محمداً في أصحابه قد عرض لعيرهم، فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة، وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعتها، فأخبرت بها أخاها العباس بن عبد المطلب قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته قائلاً: ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث. فأرى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، فصرخ مثلها بأعلى صوته: ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث. ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا ودخلها منها فلقة. فقال العباس: والله إن هذه الرؤيا فظيعة فاكتميها ولا تذكريها لأحد.

ثم ذكر العباس الرؤيا للوليد بن عتبة واستكتمه إياها، والوليد ذكرها لأبيه عتبة، وفشا الحديث. قال العباس: فعمدت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا. قال العباس: فلما فرغت من طوافي أقبلت إليهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم؟ قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التي رأت عاتكة. قلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟! لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث. فستربص بكم هذه الثلاث، فإن يكن ما قالت حقاً فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً بأنكم أكذب أهل بيت في العرب.

قال العباس: فأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً؛ ثم تفرقنا، فشاع قول أبي جهل في الناس، فلم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني؛ فقلن: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم حتى تناول النساء وأنت تسمع؛ فأين الغيرة؟. فاحتدم الغيظ في صدر العباس وأقسم أن يتعرض له ويقتص منه. قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أنه قد فاتني شيء أحب أن أدركه منه. قال: فدخلت المسجد فرأيته؛ فوالله إني لأمرّ نحوه أتعرّضه ليعود لبعض ما قال فأوقع به، إذ خرج نحو باب المسجد يشتدّ.

قال العباس: فقلت في نفسي ما له لعنه الله أكلّ هذا فرقاً مني أن أشاتمه؟. قال: فإذا هو سمع ما لم أسمع، سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره؛ وقد جدع بعيره وحوّل رحله وشق قميصه؛ وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة ـ تقدم معناها ـ هذه أموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد في أصحابه، ولا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث. قال: فشغله عني وشغلني عنه ما جاء من الأمر، فخرجت قريش سراعاً، ولم يتخلف إلا أبو لهب وقد بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه لليال مضت من شهر رمضان، حتى بلغ وادياً يقال له: «ذا قرد» فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بـ«الروحاء» أخذ عيناً للقوم فأخبره بخبرهم، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عيناً له يدعى «أريقط» فأتاه بخبر القوم، وسبق العير رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء الوحي ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ إما العير وإما قريش، فكانت العير أحب إليهم، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، فقال بعضهم: هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له؟ أما أخرجتنا للعير؟ فرد عليهم وقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام أبو بكر فقال وأحسن، وكذلك عمر، وكذلك المقداد بن عمرو إذ قال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك، والله ما نقول كما قالت بني إسرائيل لموسى عليه السلام ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[المائدة: ٢٤] ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكم مقاتلون. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير، ثم قال سعد بن معاذ من الأنصار وأحسن في المقال، فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشّطه ذلك، فقال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم.

روى مسلم عن أنس بن مالك: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثه عن أهل بدر قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى».

قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم فقال: «يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً». فقال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال: «ما أنت بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردّوا عليّ شيئاً». فلذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ يعني طائفة أبي سفيان مع العير، وطائفة أبي جهل مع النفير. إذا عرفت أيها الذكي هذه المقدمة الوجيزة؛ فما أسهل تفسير الآيات.

يقول الله: الأنفال ثابتة لله والرسول ـ مع كراهتهم لذلك ـ ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك ـ يعني بالمدينة ـ لأنها مهاجره ومسكنه؛ أو بيته فيها مع كراهتهم، وهذا قوله: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ أي: أخرجك في حال كراهتهم، ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ

فِي ٱلْحَقِّ ﴾ في إيثارك للجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقي العير عليه، ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ أنهم ينصرون أينما توجهوا بإعلام الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي: يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم إذ روي أنهم كانوا رجّالة وما كان فيهم إلا فارسان، وفيه إيماء إلى أنهم كانوا فزعين رعباً، ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾، وقوله: «أنها لكم» بدل من «إحدى» ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ يعني: العير، إذ لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، فتمنوها وكرهوا النفير، والشوكة الحدّة مستعارة من واحدة الشوك، ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ أن يثبته ويعليه ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ الموحى بها في هذه الحال ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ويستأصلهم؛ يعني: إنكم تريدون أن تصيبوا مالاً ولا تلقوا مكروهاً بملاقاة العير، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق بملاقاة النفير، فعل ما فعل ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ذلك.

واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن لم تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه، فقال أبو بكر: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. وأيضاً كان الصحابة يقولون: ربنا انصرنا على عدونا، أغثنا يا غياث المستغيثين. وذلك لما علموا أنه لا محيص من القتال، وهذا قوله تعالى ـ مبدلاً من قوله: «إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين» ـ ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى ﴾ أي: بأني ﴿ مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ بكسر الدال وفتحها، أي: متبعين، فهم على الأول كانوا ساقة الجيش، وعلى الثاني كانوا مقدمته، ويقال: ردفه: إذا تبعه، و: أردفته إياه: إذا أتبعته، ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي: الإمداد ﴿ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾ أي: إلا بشارة لكم بالنصر ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ فيزول ما بها من الوجل لقلتكم وذلتكم، وظاهر الآية يفيد أنهم لم يقاتلوا. ولذلك قال بعض العلماء: إنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا، ويقول بعضهم: إنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا في سواه من الأيام، وهناك روايات وردت في نزولهم يوم بدر وقتالهم، لا نطيل بذكرها هنا. ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أيها المؤمنون فثقوا بنصره، ولا تتكلموا على قوتكم وشدة بأسكم وما كثرة الجيوش ولا إمداد الملائكة ولا قوتكم وكثرتكم إلا وسائط لا تأثير لها. فلا تحسبوا النصر منها ولا تيئسوا منه بفقدها. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ قوي منيع لا يقهره شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في تدبيره ونصره، ينصر من يشاء ويخذل من يشاء.

ولما كان المسلمون قليلي العدد، وكان أهل مكة كثيراً عددهم، اعتراهم الخوف على أنفسهم أن يغلبوا ويقهروا، ومما زاد الطين بلة أن المسلمين نزلوا ذلك اليوم «يوم بدر» على كثيب رمل أعفر؛ تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب؛ وكان المشركون قد سبقوهم إلى ماء بدر فنزلوا عليه، وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب، وأصابهم العطش، فوسوس لهم الشيطان وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين، فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم؟.

فهذه أمور خمسة: الأول: الخوف من غلبة العدو. الثاني: ما أصابهم من الحدث والجنابة والعطش. الثالث: وسوسة الشيطان لهم، وكيف يكونون على الجوع وهم بهذه الحال. الرابع: عدم الوثوق وزلزلة القلوب. الخامس: أن الأقدام لا تثبت في ذلك الكثيب الأعفر الذي لا ماء فيه. فلذلك أكرمهم الله بإزالة الخوف في قوله بدلاً ثانياً من «يعدكم» ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ «النعاس»: النوم الخفيف، «أمنة منه»: أي: أمناً من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم، وهو مفعول لأجله، وذلك أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم، فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلاً على الأمن وإزالة الخوف، وكان ذلك النوم نعمة في حقهم لأنه كان خفيفاً بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله إليهم وقدروا على دفعه عنهم، وهذا كالمعجزة، لا سيما إذا كان ذلك النعاس وقع دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم كما قيل.

وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة، فهذا هو الأمر الأول من الأمور الخمسة، وهو: الأمن المزيل للخوف.

وأشار إلى الثاني وهو: ما أصابهم من الحدث الخ، بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ فأنزل عليهم المطر، فشربوا واغتسلوا من الجنابة والحدث.

وأشار إلى الثالث وهو: الوسوسة بقوله: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: وسوسته، وذلك أنهم أمطروا ليلاً حتى جرى الوادي، واتخذوا الحياض على عدوته، وسقوا الركاب، واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة والاضطراب.

وأشار إلى الرابع بقوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالوثوق بلطف الله.

وأشار إلى الخامس بقوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي: بالمطر، حتى لا تسوخ في الرمل، أو: بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

فهذه الأمور الخمسة التي أنعم الله عليهم بها لإزالة ما ابتلوا به من نقائضها.

واعلم أن هذه القصة اشتملت على ثلاثة أقسام: الملائكة والمؤمنين والكافرين، فهاهنا أخذ سبحانه يشرح لكل طائفة ما يناسبها، فقال في الطائفة الأولى وهم الملائكة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾ بدل ثالث من «إذ يعدكم» ﴿إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ في إعانتهم وتثبيتهم، وهو مفعول «يوحي» ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالبشارة وقووا قلوبهم. ولقد تقدم في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن السنة والعلم الحديث في أمريكا وأوروبا على اتفاق أن الأرواح الشريرة وهي الشياطين لها قوة تلقي بها الوساوس في قلوب بني آدم وتثير فيها الشر، وهكذا للملائكة قوة الإلهام بالخير في قلوب الناس، فالأول وسوسة، والثاني إلهام، فهذا هو التثبيت، ومنهم التبشير بالنصر والظفر وربما تعدّى ذلك القلب إلى الظهور عياناً نادراً كما في هذه الغزوة.

قيل كان الملك يمشي في صورة رجل أمام الصف ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم عليهم، ومن صور التثبيت قوله تعالى للملائكة: قولوا للمؤمنين: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: الفزع، ثم خاطب الله المؤمنين قائلاً: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: أعالي الأعناق التي هي المذابح أو الرؤوس ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ جمع بنانة، وهي أطراف أصابع اليدين، أي: حزوا رقابهم

واقطعوا أطرافهم، فضرب الرأس به هلاك الإنسان، والبنان به يتمكن الإنسان من مسك السلاح وحمله والضرب به، فإذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: بسبب مشاقتهم لهما، واشتقاقه من: الشقّ، لأن كلاً من المتعادين في شق خلاف شق الآخر ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعيد لهم بما أعدّ لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القتل والأسر الذي نزل بكم أيها الكفرة واقع ﴿فَذُوقُوهُ﴾ عاجلاً في الدنيا، وإنه ليسير بالإضافة إلى ما أعدّ لكم في الآخرة من العذاب ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ منصوب على أنه مفعول معه، كقولك: سرت والنيل، أي: ذوقوا ما عجل لكم من العذاب مع ما عجل لكم في الآخرة وقد وضع فيه الظاهر موضع المضمر دلالة على أن الكفر هو السبب في جمع العذاب العاجل مع الآجل.

ولما انتهى الكلام على خطاب الملائكة وما يتبعه، شرع سبحانه يخاطب المؤمنين وهم الطائفة الثانية، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ وهذا حال من الذين كفروا، والزحف: الجيش الذي يرى لكثرته كأنه يزحف، أي: يدب دبيباً، من: زحف الصبي إذا دبّ على استه قليلاً قليلاً سمي بالمصدر؛ فالمعنى: إذا لقيتم الذين كفروا كثيراً عددهم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ بالانهزام فضلاً عن أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم، أي: إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلا تفروا فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، وهذه مزية أولي الهمم العالية الذين يتكلون على ربهم ولا يبالون بما يعترضهم من كوارث ومحن ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ يريد الكرّ بعد الفرّ وتغرير العدو فإنه من مكايد الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ منضماً ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التي هو فيها وهما حالان من فاعل «يولهم» المضمر ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ واعلم أن المتحيز يشمل من تحيز إلى فئة بعيدة، لما روى ابن عمر رضي الله عنهما «أنه كان في سرية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففروا إلى المدينة، قال: فقلت: يا رسول الله، نحن الفرارون؟ قال: بل أنتم الكرارون وأنا فئتكم».

واعلم أن أكثر أهل العلم يقولون: إن المسلمين يحرم عليهم الفرار يوم الزحف إذا كان العدو مثليهم فأقلّ، أما إذا أكان أكثر من مثليهم فإنه يجوز الفرار، وذلك لأن هذه الآية مخصوصة بما يأتي في قوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾[الأنفال: ٦٦]، فأفادت الآية أن الواحد يغلب اثنين. قال ابن عباس: من فرّ من ثلاثة لم يفرّ، ومن فرّ من اثنين فقد فرّ. وقال آخرون: إن الفرار كان كبيرة يوم بدر فأما يوم أحد ويوم حنين فقد خفّ الأمر في الآيات، كقوله في الأولى: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾[آل عمران: ١٥٥]، وفي الثانية: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾[التوبة: ٢٧].

والقول بأن التولي ليس كبيرة بعد غزوة بدر، وأن المسلمين بعضهم فئة بعض، فيكون الفارّ متحيزاً إلى فئة، فأما في يوم بدر فلم تكن لهم فئة يتحازون إليها، لو انحاز انحازوا إلى المشركين، مروي عن الحسن وقتادة والضحاك.

وأكثر أهل العلم على الأول كما تقدم، فإذا كان المسلمون على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفرّوا منهم ويولوهم ظهورهم، وإن كان العدو أكثر من مثلي المسلمين جاز لهم أن يفرّوا منهم.

روى مجاهد أنهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر، كان الرجل يقول: أنا قتلت فلاناً، ويقول الآخر: أنا قتلت فلاناً، فنزل قوله تعالى: إن افتخرتم بقتلهم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ يعني بنصره إياكم وتقويتكم عليهم وإمدادكم بالملائكة يبشرونكم ويلهمونكم ويربطون على قلوبكم بل يكثرون سوادكم ويحاربون معكم على قول، ثم إن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول صلى الله عليه وسلم كفاً من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم، وقال: «شاهت الوجوه» يعني قبحت الوجوه، فلم يبق مشرك إلاّ دخل في عينه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شيء، فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم.

ومعلوم أنه ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفاً من الحصى في وجوه جيش، فلا تبقى عين إلاّ وقد دخل فيها من ذلك شيء، فصورة الرمي صدرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأثيرها صدر من الله عزّ وجلّ. فلهذا المعنى صحّ النفي والإثبات في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ يعني أن الرمية التي رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلاّ ما يبلغه أثر رمي البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، وعليه يكون فعل العبد مضافاً إليه كسبياً وإلى الله تعالى خلقاً. فقد أثبت الفعل للعبد ثم نفاه عنه وأثبته لله، فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ وإنّما فعل ذلك ليهلك عدوكم ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ وليعطي ﴿الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ عطاء جميلاً، أي: وللإحسان إلى المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿ذَلِكُمْ﴾ البلاء الحسن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني مكركم وكيدهم، معطوف على «ذلكم» أي: المقصود إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم ومكرهم.

لطيفة: قال أهل التفسير والمغازي: «لما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه انطلقوا حتى نزلوا بدراً ووردت عليهم روايا قريش، وفيهم: أسلم وهو غلام أسود لبني الحجاج، وأبو يسار وهو غلام لبني العاص بن سعد، فأخذوهما وأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهم صلى الله عليه وسلم أين قريش؟ قالا: هم وراء الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب: العقنقل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: ما عددهم؟ قالا: لا ندري. قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً عشرة ويوماً تسعة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، ثم قال لهما: من فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وطعمة بن عدي والنضر ابن الحارث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها. فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوّب من العقنقل وهو الكثيب الرمل، جاء إلى الوادي فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني»، فكان ما كان من النصر والفوز. وإلى هنا انتهى الكلام على خطاب المؤمنين.

ثم إنه سبحانه خاطب الكافرين وهم الطائفة الثالثة، فقال: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم، وهو خطاب لأهل مكة، لأنهم حين أرادوا أن ينفروا

تعلقوا بأستار الكعبة، وقالوا: «اللهم إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على حق فانصرنا»، ولما التقى الجمعان قال أبو جهل: اللهم أينا كان أفجر - يعني نفسه ومحمداً صلى الله عليه وسلم - قاطعاً للرحم فأحنه اليوم. اللهم انصر أهدى الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين. اللهم من كان أفجر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم. ويطلق الفتح على الحكم، أي: إن تستحكموا الله على أقطع الفريقين للرحم وأظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم فقد جاءكم الفتح، يعني حكم الله بنصرة المظلوم على الظالم والمحق على المبطل والمقطوع على القاطع.

روى البخاري ومسلم أن عبد الرحمن بن عوف قال: إني لواقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال: أي عمّ هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، فما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك. وغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه. قال: فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه، فقال: أيكما قتله؟ فقال كل منهما: أنا قتلته. فقال: هل مسحتما سيفكما؟ فقالا: لا. فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السيفين فقال: كلاكما قتله، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلبه لهما. والرجلان: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ ابن عفراء رضي الله عنهما.

فهاهو ذا أبو جهل قد استفتح، وهاهو ذا قد جاءه الفتح وحكم الله بقتله. قال تعالى لكفار مكة: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ لمحاربته ﴿نَعُدْ﴾ لنصرته عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ﴾ ولن تدفع عنكم ﴿فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من سورة «الأنفال». **وهاهنا خمس لطائف:**

الأولى: اقتحام الأخطار في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ الخ.

الثانية: أن هذا العالم المادي خاضع لناموس العقول، وأن عمل القلوب يهيمن على الأجساد، وعلوّ الهمة به تذلل الصعاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾.

الثالثة: دقة الملاحظة والبحث الصادق في أمور هذه الحياة في قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾.

الرابعة: الثبات وقوة العزيمة أساس الأعمال في هذه الحياة.

الخامسة: عدم الإعجاب بالنفس وترك الكبرياء في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾. ولنبدأ بإيضاح هذه اللطائف الخمس فنقول:

اللطيفة الأولى

فيها استبان خلق اقتحام الأخطار ومقابلة الحوادث الجسام والأهوال الفخام والأمور العظام بالجلد والصبر واختيار أعظمها قدراً وأشدها بأساً وأعلاها شأناً وأرفعها مقاماً وأسماها نظاماً وأبعدها

سبيلاً وأقومها قيلاً، ألا وهي التنائي عن العير والمسارعة إلى النفير واصطفاء أشرف الأمور. ولعمري كيف يساوي ذلك الزاد والميرة وبعض البز والعطر الذي كان مع أبي سفيان ذاهباً إلى مكة قتل صناديد قريش.

لعمري ما أبعد الفرق ما بين رأس الأمر وأعلاه، وبين ذنبه وأدناه. فعلوّ الهمة في النظر إلى معالي الأمور وأشرفها لا إلى أخسها وأحقرها. فلتكن هممنا في حياتنا الدنيا متوجهة إلى أعالي الأمور والتنكب عما يكتفي به الجمهور من العرض القليل والنفع المادي إذا كان هناك ما هو أشرف وأجدر وأعلى وأكبر.

اللطيفة الثانية

لقد اطلعت على حديث الملائكة، وكيف أرسلهم الله في غزوة بدر، وكيف اختلف العلماء هل هم حاربوا مع المسلمين وظهروا بصورة بشرية وأسلحة حديدية وملابس عربية وقطعوا الرؤوس وأزالوا النفوس، أم هم اكتفوا بتكثير السواد وإهداء البشارة للمحاربين، أم كان نزولهم على القلوب بالإلهام والتبشير وتقوية الهمم كما أنهم يثبطون همم الأعداء ويلقون في قلوبهم الرعب.

هذا كله قد تقدم ولكن الآية قد ذكرت قصارى الأمر وحماداه ومبدأه ومنتهاه، وشرحت المقام وأزاحت اللثام وأذهبت الغمام، فماذا قالت؟ جاء فيها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، فذكر ذلك على سبيل الحصر والقصر، كأنه يقول: إنَّما خلقتم في الأرض مختبرين وظهرتم عليها ممتحنين، فعليكم مقارعة الأبطال والطعن والنزال. وما كان إنزال الملائكة لتقعدوا وهم يعملون، وتنكصوا وهم يتقدمون، وتناموا وهم مستيقظون، تالله لم تخلقوا سدى فلا تقتحموا الردى، بل خلقتم ممتحنين وفي الأعمال مختبرين.

وما إنزال الملائكة عليكم إلاَّ لتبشركم بالإلهام وتثبط همم الأقوام، ولو ثبت أنهم قتلوا معكم أناسيّ لم يكن ذلك إلاَّ ليشجعوكم لا ليقعدوكم، وإلاَّ لذهبت فضيلة الاختيار ولخرجتم من الحياة بلا اعتبار، فلا منازل في الآخرة إلاَّ حيث الجهاد في الحياة، ولا جهاد والملائكة قائمون مقامكم، ومقاتلون عدوكم، ومبددون الأعداء وأنتم نيام، وكلما كان العمل أشقّ كانت النتيجة أرقى والعاقبة أبقى والسعادة أعلى.

ألا وإن النية تسبق العمل، والأعمال لا قيمة لها إلاَّ بعزمات القلوب، فكلما امتلأ القلب بالبشارة والآمال ابتهجت الأعضاء بالعمل، إن القلوب لعظيم سلطانها قوية عزماتها، فمتى صلحت صلحت الأعمال، ومتى جهلت أو خمدت أو تشاءمت أو شكت أو يئست بطلت أعمال الجوارح، وكيف يعمل المأمور والآمر خامد الأنفاس كثير اليأس، وكيف تهيج الأعضاء للعمل إذا كان القلب قليل الأمل ضعيف الحيل خائر العزيمة حائداً عن السنن، هنالك لا عمل له يلقاه ولا ثمر له يرضاه.

اللطيفة الثالثة

انظر إلى الأمور الخمسة المذكورة في الآيات وكيف فصلها الله تفصيلاً، فذكر هواجس القلوب وخواطر الضمائر، ولم يدع قطرات السحاب الماطرات، ولا عطش القوم في الفلوات، ولا ثبات الأقدام في الطرقات، ولا نعاس القوم في الهجمات، فجعل لكل من هذه الحوادث حكمة إلهية ومنة

ربانية إنارة للعقول وتبصرة للأفهام، كأنه قيل: انظروا في أعمالكم اليومية وأحوالكم الإنسانية وما يتنابكم من أمور طبيعية فتفقدوا صغائرها وتأملوا كبائرها، واعلموا أن لكل منها نهجاً صادقاً وطريقاً واضحاً، فاعتبروا بكل منها وتدبروه وتأملوا فيه واذكروه، واعلموا أنه ما من صغير من الأمور ولا كبير إلاّ وله نبأ ومستقر علمه من علمه وجهله من جهله، فإياكم أن تمر عليكم الحوادث مرّ السحاب فلا تقيمون لها وزناً ولا تعرفون لها معنى، وإذا كنت قد ذكرت النعاس في غزوة بدر وجعلت لنزول المطر حكمة عملية، ولثبوت الأقدام على التراب مكرمة ربانية، ولزوال وساوس الهواجس الشيطانية مزية حكمية، هكذا فلتكونوا في سائر أموركم مفكرين، وفي جميع أعمالكم ناظرين ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[يونس: ٦١].

اللطيفة الرابعة

هذه داعية الثبات مرقية المهمات، كيف لا، وإن تحريم التولي يوم الزحف من أجلّ الأمور قدراً وأعظمها أثراً وأشرفها مقاماً، وفيها احتقار الحياة في عظائم المهمات، وعدم التولي يوم الزحف يكون من آثاره قوة العزيمة التي هي سر الحياة ومناط الكمال ونهاية الفضائل. ولقد ذكر القرآن الصبر نحو ٧٠ مرة، وجعله مناط الأعمال، وعليه مدار السعادة في الحال والمآل، وأعظم الصبر ما كان في بذل النفس في سبيل المجد الأخروي والدنيوي وشرف المقام.

اللطيفة الخامسة

فيها التواضع وأن يعرف الإنسان مقامه في الوجود، فلا يغترّ بما أتيح له من ظفر، وما أعطاه إياه القدر، ولا يلبس لباس الخيلاء، ويتبختر تبختر الحسناء، فإذا نال أمراً دينياً أو دنيوياً فليرجع إلى الله تعالى، ولا يكثر من الفرح بما آتاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[القصص: ٧٦]، وليعلم أن الله هو الذي أعطاه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[الحديد: ٢٢-٢٣]. وهذا آخر الكلام على القسم الثاني من «سورة الأنفال».

القسم الثالث

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

تفسير بعض الألفاظ

قوله: ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ أي: عن الرسول ﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ القرآن والمواعظ سماع فهم وتصديق ﴿ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ أي: كالكفرة أو المنافقين الذين ادّعوا السماع ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماعاً ينتفعون به فكأنهم لا يسمعون رأساً ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ ﴾ شرّ ما يدبّ على الأرض أو شرّ البهائم ﴿ الصُّمُّ ﴾ عن الحق ﴿ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إياه، عدّهم من البهائم ثم جعلهم شرّها لأنهم أبطلوا ما ميّزوا به وبه فضّلوا، ﴿ خَيْرًا ﴾ أي: سعادة كتبت لهم أو انتفاعاً بالآيات ﴿ لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ سماع تفهم ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم ﴿ لَتَوَلَّوا ﴾ ولم ينتفعوا به وارتدّوا بعد التصديق والقبول ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ لعنادهم ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ بالطاعة ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ أفرد الضمير هنا كما سبق في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾، لأن ذكر طاعة الله والاستجابة له للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله واستجابته من طاعة الرسول، وأيضاً إن دعوة الله تسمع من الرسول ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ من:

(١) العلوم الدينية لأنها تحيي القلوب، والجهل موت. قال الأول:

لا تعجبنَّ الجهول حلته ... فذاك ميت وثوبه كفن

(٢) ومما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال.

(٣) ومما يورث بقاءكم أحياء في هذه الحياة الدنيا وهو الجهاد، إذ لو تركناه لقتلنا العدو.

(٤) ومما يورث حياتكم الأخروية وهي الشهادة لله بالوحدانية.

فطاعة الرسول واجبة للعلوم الدينية والعقائد الإسلامية والجهاد والشهادة. بالأول حياة القلوب وبالثاني حياة الآخرة، وبالثالث حياتنا في الدنيا، وبالرابع حياتنا حياة أرقى في الآخرة بالشهادة.

ثم قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ وهذه الآية لها أربعة أمور أيضاً:

(١) فهو أقرب إليه من حبل الوريد، وهو عرق في الرقبة شبه بالحبل، فهذا تمثيل لغاية قربه من العبد.

(٢) وهو مطلع على خفيات القلوب فيعلم ما قد يغفل عنه صاحبه، كما سيأتي إيضاحه في التنويم المغناطيسي.

(٣) فليتجه الإنسان إلى قلبه، فليخلصه من الشوائب، قبل أن يحال بينه وبينه، فلا يتسنى له تصفيته حين يحال بينه وبين قلبه بجنون أو موت.

(٤) وليعلم الإنسان أن عزائمه تحلها الوساوس، وتفسخها المزعجات، وتنسيها الشهوات، وقد يحكم عليه بالكفر فلا يقدر على الإيمان، وينعم عليه بالإيمان فلا يكفر لشقاوته في الأزل عند الأول وسعادته فيه عند الثاني.

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً ﴾ الفتنة: الذنب ﴿ لَّا تُصِيبَنَّ ﴾ الخ، أي: إن أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم أي: اتقوا ذنباً يعمكم أثره كأن يقرّ الناس المنكر، وكأن يداهنوا في الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، وكأن تتفرق الكلمة، وتظهر البدع، ويكسل الناس عن الجهاد. وهذا دلالة على أن المسلمين جميعاً متضامنون، والفرد منهم مثل جميعهم، فليهتم كل امرئ بمجموعهم ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: واذكروا أيها العرب إذ كنتم أذلاء بين فارس والروم لتفرقكم، ويا أيها المهاجرون أيضاً إذ كنتم مستضعفين في أرض مكة تستضعفكم قريش ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ أي: فارس والروم للعرب عامة وكفار قريش وغيرهم من العرب للمهاجرين ﴿ فَآوَاكُمْ ﴾ جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم في الأول وفي الثاني ﴿ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ الغنائم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هذه النعم، ﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ بأن تتركوا الفرائض والسنن، أو بأن يكون ما تبطنون خلاف ما تظهرون أو يكون منكم غلول في المغانم ﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ فيما بينكم بأن لا تحفظوها ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ تبعة ذلك ووباله والخيانة عن عمد ولستم بساهين، أو أنتم تعلمون حسن الخلق وقبح القبيح ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي: سبب الوقوع في الفتنة، أي: الإثم والعذاب، أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر رضا الله عليهم وراعى حدوده فيهم. فليوجه الناس همهم إلى مراعاة حدود الله، فإن الناس جميعاً متضامنون، وليس أولاد الإنسان وأمواله بمغنية شيئاً إذا ما حاق الهلاك بقومه وأموالهم، وكيف يعيش المرء منفرداً؟ هذا لا يكون. ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ هذه تشمل خمسة معان:

(١) هداية في القلوب بها تفرقون بين الحق والباطل.

(٢) ونصراً تفرقون به بين المحق والمبطل.

(٣) ومخرجاً من الشبهات تفرقون به بين الحق والباطل.

(٤) ونجاة مما تخافونه في الدارين.

(٥) وظهوراً واشتهاراً بالصيت والذكر الحسن لأن من نجا مما يخافه فقد فرق بينه وبين المخوف منه. ومن اشتهر صيته فقد ظهر ظهور الصبح. تقول العرب: «بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان» أي الصبح.

وهذه المعاني الخمسة حقة، فإن من اتقى الله هدى قلبه ونصر ونجا من الخوف وخرج من الشبهات، لأن قلبه مرّن على الحقائق فتتضح له الطرق. وهذه المعاني الأربعة ترجع لمعنى واحد وهو التفرقة بين شيء وآخر، أما المعنى الخامس فهو معنى آخر وربما رجع إلى الأول، لأن الصبح يفرق بين الليل والنهار ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ بالتجاوز والعفو ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ تذكير للمؤمنين أن ما أعدّه الله لهم بسبب التقوى إنّما هو تفضل وإحسان. انتهى التفسير اللفظي. **وهنا لطائف:**

اللطيفة الأولى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ ﴾ الخ.

اللطيفة الثانية: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾.

اللطيفة الثالثة: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

اللطيفة الرابعة: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ الآية.

اللطيفة الخامسة: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾.

اللطيفة السادسة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾.

اللطيفة السابعة: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾.

اللطيفة الأولى

اعلم أن الإنسان أرقى من عالم الحيوان وأقل من عالم الملك على سبيل الإجمال باعتبار المجموع، ولم تكن له هذه المنزلة الرفيعة والمقام الكريم وتكريم الله له لما اتصف به من قوة الجسم أو شهوة الأكل أو القدرة على التناسل أو القوة العضلية أو التزين بالزينة كالطاووس، فإن ذلك كله شاركه فيه الحيوان، وإنما امتيازه بالعقل والعلم والحكمة، ولا جرم أنه إذا تنزل عن مرتبته ألحق بمراتب الحيوان فمن غلي عليه طبع القتال لذاته والغلبة عدّ من الآساد، أو السفاد عدّ من العصافير، أو الزينة عدّ من نوع الطاووس، وهكذا تعدّ الحيوانات نوعاً نوعاً، فمتى غلب على الإنسان طبع من هذه الطباع عدّ كأنه منها، وقد ذكرنا في سورة «البقرة» نحو أربعين طبعاً من طباع الحيوان عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[الآية: ٣٠] الخ.

ولا جرم أن الحيوان الذي اتصف بصفة خاصة لا عار عليه ولا عيب، بل هو قائم بأمره عامل على شاكلته، وأما ذلك الإنسان الذي تنزل عن مرتبته والتحق بالأفق الأدنى فإنه مذموم مدحور كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٩]، وهذا هو سرّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية

اعلم أن هذا العالم كله ما ظهر إلاّ على علم سابق ونظام أسس على مقتضاه، ومن هذا النظام هذه النواميس التي نراها ونقرؤها في هذا الوجود، وعلم الله يشمل الواجب والجائز والمستحيل، ولا يكون العلم إلاّ على مقتضى العلوم. فإذا اقتضى النظام العام والأحوال الخاصة بمقتضى النظام أن يكون زيد كافراً، لا يعقل لأن مزاجه لم يتأهل لذلك، كما أن الحيوان ليس أهلاً لمراتب الإنسان، فإنه لا محالة يكون في علم الله لا يقبل الإيمان، وهو لا محالة إذا جاء في الأرض لا يقبل الإيمان. فالعلم يكون على مقتضى العلوم، وكأنه يقول: لو سبق العلم بأن فيهم خيراً لاستعدادهم له لأسمعهم سماع تفهم ولم يرتدوا بعد، وكيف يرتدّون وهم أهل للإيمان بفطرتهم، ولو أسمعهم سماع تفهم في أول الأمر لتولوا عنه وهم معرضون، لأن فطرهم غير مستعدة للبقاء على ما فهموا فرضاً، وعلى هذا يكون هناك فرق بين قوله: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ وبين قوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾، فالأول سماع تفهم مع الدوام عليه، والثاني سماع تفهم في أول الأمر فليس بينهما التقاء فتأمل. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة

اعلم أن الله قد خلق الإنسان ولم يمكنه من الاستيلاء على جميع قواه، فجعله أشبه باليتيم الذي لا يملك مالاً. ألا ترى أن الإنسان يحال بينه وبين ما يعلمه في أحوال:

(١) كالنوم، فالنائم ربما لا يتذكر شيئاً من أحوال يقظته ويرى أنه في أحوال أخرى.

(٢) المجنون.

(٣) المغمى عليه.

(٤) الذي شرب الخمر.

(٥) الذي تعاطى الأفيون والمخدرات الأخرى.

(٦) أحوال المرض، فقد ينسى في المرض ما كان يتذكره في الصحة.

(٧) ويتذكر عند الاحتضار أموراً لم يكن يتذكرها في صحته.

(٨) وفي العقائد كالإيمان والكفر.

(٩) والذنوب والأعمال الصالحة، فكثيراً ما يقصد الإنسان الامتناع عن الذنب فيقع فيه، وكثيراً ما يقصد الخير فيقع في الشر، أو يقصد أن يفعل سوءاً فيصرف عنه.

(١٠) تأثير الخطباء والشعراء، فإنها تصرف الإنسان بما تهيج به فؤاده بالأقوال الخلابة والأبيات الموزونة فتصرفه عن غرض إلى غرض مهما حاول التملص وأراد الامتناع.

(١١) الوسط والبيئة، والتعليم والديانات، والعادات الموروثة والمكتسبة. كل هذه تجرّ الإنسان إلى طبائعها مهما حاول الإنسان التخلص منها والتملص من أذاها، ناهيك ما قرره العلاّمة «جوستاف ليبون» في مؤلفاته من أن الوسط والبيئة وآراء الشعب تؤثر في العلماء والجهلاء على حد سواء، فتجد للشعب كله عزة واحدة ورجة واضطراباً واحداً مسوقين إلى ذلك، لا سلطان للمنطق على عقولهم، وإنّما السلطان لذلك المؤثر العام الذي استحوذ على العقول فجمعها، كما حصل في فرنسا وتركيا ومصر والهند من القوة الوطنية والقيام كأنهم رجل واحد للاستقلال، وترى الشاب وهو أحرص الناس على لذاته قد حيل بينه وبينها، فيقدّم نفسه للهلاك والموت الزؤام في سبيل إنقاذ بلاده، وهذه الحيلولة نعمة عليه وعلى الناس. وبضدها تتميز الأشياء.

(١٢) ومن هذا المقام ما أظهره العلم الحديث وأرانا الجمال، والعجب العجاب، والسحر الحلال، والجواهر اليتيمة، والعقود النظيمة، والبدائع الشائقة، والمحاسن الرائقة، والدرّ والمرجان، وغرائب الإنسان، ذلك في التنويم المغناطيسي، وما مثل الإنسان في أطواره الأربعة الآتي ذكرها في ذلك العلم إلاّ كمثل العامة والعلماء. فأما العامة فلا يعرفون من هذه الدنيا إلاّ ظواهر، وهم عن باطنها معرضون. وأما الخاصة فهم على ثلاث درجات: الأولى: المتعلمون في المدارس الابتدائية. الثانية: المتعلمون في المدارس الثانوية. الثالثة: المتعلمون في المدارس العالية. فهذه أربع درجات: العامة والابتدائيون والثانويون والعالون.

أفلا ترى أن من لم يتعلم في المدارس العالية يجهلها ويعرف الدرجات الثلاث قبلها، وأيضاً المتعلم الابتدائي يجهل الدرجتين فوقه ويعرف ما قبله، والعامي يجهل الطبقات الثلاث فوقه ويعرف درجته هو. إذا عرفت هذا المثال فاسمع لما أقول لتعرف سرّ الله في القرآن وحكمته في الفرقان.

يقول علماء التنويم المغناطيسي إن له ثلاث درجات كما تقدم في هذا التفسير:

الأولى: أن يفقد الإحساس، ويكون قابلاً لكل ما يلقيه إليه المنوِّم، بكسر الواو.

الثانية: أن يفقد الإحساس فقداً تاماً، ولكنه يتكلم ويسمع ويبصر، ولكن لا سلطان لحواسه عليه.

الثالثة: أن يعرف نفسه معرفة تامة ويصف علله وعلاجه ويعرف أحوال الناس من بعد سحيق وينبئ عن حوادث مستقبلة ويتكلم بلغات شتى، ويرى أرواح الأموات ويصف هيئتها وينقل إلى الجالسين أقوالها. ولقد قال علماء هذا الفن: إن النائم في الحال الأولى يتذكر كل ما عمله في اليقظة، وفي الحال الثانية يتذكر كل ما فعله في اليقظة وفي الحال الأولى، وفي الحال الثالثة يتذكر كل ما فعله في

اليقظة وفي الحال الأولى والثانية. وهكذا إذا رجع القهقرى يحجب عنه علم ما فوقه ويكون عالماً بما هو تحته.

أفليس هذا عجيباً وأصبح تمثيلنا بالتلاميذ في المدارس وبالعامة تمثيلاً صحيحاً؟ أفلست ترى أن هذا من العجب العجاب، وأن الإنسان منا في هذه الدنيا يجهل نفسه كل الجهل، وأن الله حال بينه وبين قلبه، وأنه قادر في حال من الأحوال أن يرى الأرواح ويخاطبها، ويعرف مستقبل الأمور، ويعرف البعيد عنه، وهذا أصبح أمراً معروفاً قد شاهدناه بأنفسنا.

ولقد حضر في مصر قوم من أوروبا ونوّموا هذا التنويم في هذه السنة، وساعدهم رجال الحكومة والشرطة، وهناك دبرت سرقة، فلما أناموا رجلين منهم بحث عن السارقين وسرقاتهم وأحضرهم من أماكن مختلفة وهو مغمض العينين. فهذه العلوم أصبحت معروفة للعامة والخاصة، أي: لمن اطلع منهم عليها.

أفلست ترى أننا قد حال الله بيننا في الدنيا وبين ما لدينا من علوم ومعارف وجمال وكمال، ليزيدنا كمالاً بهذا الجهاد وبهذا الجهل الذي لولاه لكسلنا عن أعمال شريفة، ولكم غطى علينا وستر عنا عيوباً وكمالات في أنفسنا نتعم ونشقى بها، وهي ستكشف عند الموت، قال تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق: ٢٢]. وهنا أسمعك الحديث، فقد روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء»، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «اللهم مصرّف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك». اهـ.

أوليس من المعجزة القرآنية والعجائب الحكمية أن يقول الله في هذه الآية: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾، فهو يقول: هاأنا ذا حبستكم في الدنيا وحلت بينكم وبين عالم الأرواح، وما انطوت عليه نفوسكم، فإذا سلمتكم من عالم الأجسام وخلصت أرواحكم من هذه الأحلام حشرتم إليّ وأنتم مطلعون على جميع ما اتصفتم به خير وشرّ وكمال ونقص، وإذن يقال: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤]، ويقال: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[آل عمران: ٣٠].

فكأنه قيل في هذه الآية: قد حلت بينكم وبين مكنون أعمالكم وأخلاقكم وعلومكم، لكي تثابروا على الأعمال التي تزيدكم رقياً، كما حلت بين نهر النيل وبين انتشاره بلا ضابط ولا نظام، كيلا يتفرّق الماء بلا منفعة، وإنّما حفظته ليسقي الزرع ويدرّ الضرع.

فهكذا أنتم لم أمكنكم من عوالم الغيب والأرواح الجميلة إشفاقاً عليكم وحباً في كمالكم، كي تزيدوا استبصاراً واستنارة بالأعمال والجهاد والكمال. وهذه هي الحيلولة، فإذا انكشف الغطاء وقد صرتم في الدرجة الثالثة ـ وذلك بالموت ـ حشرتكم إليّ.

فإذن الحياة حجاب، والحشر كشف، ولا يكون ذلك إلاّ بعد الموت، فتعجب من بدائع القرآن وغرائبه، وكيف ذكر المتقابلين الحيلولة بالحياة، والكشف بالموت والحشر. إن في القرآن لعجائب وبدائع وما يدركها إلاّ العالمون ـ بكسر اللام.

لمحات الأنوار وبواهر الأسرار

في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ الخ

هذه الآية هي السر الذي ظهر في هذا الزمان بما حصل للمسلمين من الضعف والانكسار، إن الله عزّ وجلّ يحول بين الناس وبين قلوبهم، وهذه الحيلولة تنحصر في ثلاثة أقسام:

أولها: الأصول الصناعية الدنيوية.

ثانيها: الأصول الخلقية.

ثالثها: الأصول العلمية.

القسم الأول: الأصول الصناعية

أما الأصول الصناعية التي بها يقوى الناس في سيرهم في حياتهم الدنيا، وبها يؤدون ما فرض عليهم منها للمنافع العامة، فذلك نوعان:

نوع عام في المسلمين وغيرهم. ونوع خاص بالمسلمين.

النوع الأول: في المسلمين وغيرهم:

أما النوع العام في المسلمين وغيرهم فذلك هو البخار والكهرباء والطيارات في الجو، هذه صناعات كانت مجهولة للأمم كلها شرقيها وغربيها، مسلمها وغير مسلمها.

(١) كان الناس يرون بأعينهم البخار في قدورهم وهم يطبخون طعامهم صباحاً ومساءً في الشرق والغرب، وأعينهم تنظره وهو يعلو إلى الجو، وإذا وضعوا الغطاء على القدور أخذ البخار يضغط عليه ضغطاً شديداً، ولو سدّوه سداً محكماً لتحرّك القدر بما فيه. كل ذلك كان الناس يشاهدونه ولا ريب أن الذي يضغط على القدر هو نفسه الذي يحرّك القطار في البر، والسفن في البحر بطريق العقل، ولكن الله حال بين الناس شرقاً وغرباً وبين هذه النتيجة حتى آن وقتها فأبرز هذا السرّ على يد قوم من ضعاف خلقه في أوروبا، وأدركوا اليوم أن هذا البخار أخفّ من الماء ١٧٢٨ مرة، كما أن الهواء أخفّ من الماء ٨٠٠ مرة فقط.

(٢) وما من امرئ غالباً في الشرق والغرب إلاّ وقد علم أن الكهرباء يجذب ما يقرب إليه من مواد خفيفة ولكن الله عزّ وجلّ حال بين الناس وبين قلوبهم، فلم يتبعوا هذه الظاهرة حتى يستخرجوا منها تلك المادة التي بها تصنع كل شيء، من سقي لأرضنا، وطحن لحبنا الخ، وأبقاها حتى أظهرها في هذا الزمان لما كثر نوع الإنسان.

(٣) «أ» وما من امرئ إلاّ وقد شاهد أن الدخان الخارج من أفراننا ومطابخنا يعلو إلى الجو، وأن المواد الخفيفة كالريش تطير فيه، وهكذا يرى الناس الأطفال أيام العيد يلعبون بكرات تطير في الجوّ.

«ب» وهكذا يرى الناس الطيور تطير في جو السماء وأجسامها أثقل من الهواء.

فهذان النوعان من الأجسام، أي: الخفيفة التي لا قوة ترفعها وتحركها، والثقيلة التي لها قوة ترفعها وتحركها، أظهرها الله للناس في الشرق والغرب، ومضت آلاف السنين، وقد ستر الله هذا العلم عن قلوب الناس، وإن كانت أبصارهم مفتحة، حتى إذا جاء الأوان وأراد إظهار السر أوعز إلى أناس بالإلهام، فاخترعوا النوعين من الطيارات، النوع الخفيف الذي يسمى مراكب الهواء باللسان الإفرنجي

«إيرشيب» ويسمى بالعربية «منطاد»، والنوع الثقيل الذي وضعت فيه القوى المحركة وله لوحان كجناحي الطائر، المسمى «عربية» بالطيارات. وسترى إيضاح هذا في سورة «النحل» إن شاء الله مع صور تلك الطيارات، وفي سورة «تبارك» لتعجب من صنع الله عزّ وجلّ الذي حال بين قلوب الناس وبينه في الشرق والغرب، فلم يفطنوا للبخار والكهرباء وللطير وغيرها إلى أجل مسمى.

هذا هو القسم الأول من الأصول الصناعية التي حجبها الله عن الناس وحال بين قلوبهم وبينها وإن كانت أعينهم مبصرة وقلوبهم مفكرة، فهو بقدرته وحكمته لمصلحة حال بينهم وبين ذلك السر العظيم الذي يرونه بعيونهم. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦]، فهاهنا أبصر الناس جميعاً، ولكن الله أعمى القلوب عنها لحكمة حتى جاء الأوان.

وهذا ونحوه هو السدّ الذي قال الله فيه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يس: ٩]، وهو الحجاب في قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[الإسراء: ٤٥]، فالحجاب والسدّ لا يريان ولكنهما موجودان عند أكثر النوع الإنساني.

النوع الثاني من الأصول الصناعية التي حال الله بين المسلمين خاصة وبينها:

إن المسلمين في أقطار الأرض مهما كانوا لا نراهم إلاّ على وتيرة واحدة، جهل تام بأكثر الصناعات، ونوم عميق، وذلّ متراكم إلاّ قليلاً منهم، لماذا هذا؟ لأن الله حال بين أكثرنا وبين المعارف، لماذا والقرآن طافح بالنظر والفكر؟ ذلك لأن أكثر رجال الدين الذين ورثوا علوماً خاصة عن أشياخهم فعلموها للناس ولم يشوّقوهم لغيرها، وصار هذا خلقاً يتوارثه الخلف عن السلف. والإنسان ابن عادته وابن بيئته، فظنت الأجيال المتتابعة أن ديننا ليس له دخل إلاّ في أمور العبادات ونحوها، وهجر الناس كل علم وكل فنّ، فحظي بها أمم غيرنا وأصبحنا في أخريات الأمم.

فهذا لما حال الله بيننا وبين تلك الصناعات، بسبب الأمراء والجهلاء وبعض العلماء المقلدين النائمين على فراش الراحة الوثير، بما اكتسبوا من العادات، وما ورثوا بالتقليد عن أشياخهم، فهم لا يعلمون. كل هذا والمسلم يرى ويسمع أن الأجانب لهم الكلمة العليا في الصناعة والتجارة والقول الفصل في السلم والحرب بما نالوا من قوة الصناعات، ولكن حال الله بين المرء وقلبه. فترى المسلم يرى بعينه الخطر المحدق ولكن التقليد وسوء الملكة والعادة ملك عليه مشاعره، فأصبح كالأعمى، كما اتفق للمصريين القدماء إذ عبدوا الهرة، فلما حاربهم قنبيز ملك الفرس وضع الهرر بين الصفين، فامتنع المصري عن الضرب، فدخلها الفرس وملكوها. هكذا حال المسلمين اليوم، وبهذا تم الكلام على الأصول الصناعية وهي القسم الأول من الثلاثة.

القسم الثاني: الأصول الخلقية

يعيش الإنسان في بيئة ووسط فيه مخالفات خلقية وآداب منحطة، فتراه بسبب الممارسة المتتابعة وبما يرى من أساتذته وإخوانه يتنزل إلى أخلاقهم، وإن لمس الضرر بنفسه. ألا ترى رعاك الله أن الناس شرقاً وغرباً يشربون الخمر ويدخنون «الطباق» ويتعاطون ما لا يبيحه الطب، وهم يعلمون أنه ضارّ،

كقهوة البن والشاي، بل إن بعض الأطباء الذين يعلمون ضرر المسكرات هم يشربونها، لماذا هذا؟ لأن العادة غلبتهم، وحال الله بين الناس وبين قلوبهم.

فهاهنا الحيلولة بسبب الشهوات والغباوة، وفي الطيارات والكهرباء والبخار التي تقدمت بخلق الكسل والتقليد، واعتقاد المتأخر أن المتقدم قد أكمل كل شيء في الوجود.

القسم الثالث: الأصول العلمية وهي فصلان:

الأول في العلوم العامة، والثاني في معرفة الله تعالى

الفصل الأول

درج المسلمون في العصور المتأخرة على كتب اعتادوها وعلوم مارسوها كالفقه وعلم التوحيد وظنوا أنهم بهذا أرضوا ربهم، فحال بين كثير منهم وبين قلوبهم، بسبب المخالطة والمعاشرة والتقليد الأعمى، واعتقاد التلميذ أنه ليس وراء علم أستاذه علم، وقد فرحوا بما عندهم من العلم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[هود: ٨].

يرى المسلم الشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال، وقد أكمل دراسة علم الفقه وعلم التوحيد على الطريقة التي ورثها عن أسلافه من سنيين وشيعيين، يرى جمالاً في هذا الوجود، يرى حكمة عالية، يرى نور الله ظاهراً يكاد يذهب بالأبصار، يرى تقلب الليل والنهار، يرى جمال الأنهار وبهجة الأشجار ونور الأقمار وجمال الوجود فيروعه، ولكنه يحجب عن التفكر فيه لأنه اكتفى بما قرأ في الكتب الموروثة، فكأنّما هذه الكتب لجام له، أو كأنها سجنٌ سُجنَ فيه. وقد أشير لها في الحديث الصحيح المفيد أن العالم الذي لا يعمل بعلمه يدور في النار كما يدور الحمار في رحاه. فأكثر المتعلمين يدورون في كتب مخصوصة في الدنيا كأنهم يشاكلون بذلك ما سيحصل والعياذ بالله يوم القيامة لغير العاملين بعلمهم في جهنم. فالمتعلم الذي غشى بصره عن الحقائق يدور في الكتب التي قرأها ويرجع إليها كرة بعد أخرى، ويحبس فيها حبساً مستمراً، ويموت جاهلاً بهذا الحبس نفسه، حبس المسلمون عن العلوم، وهذا الحديث الذي ذكرت لك ملخصه كأنه يشير لهذا الزمان

ولعلك تقول: إن هذا جرأة منك، وكيف تصرّح بهذا القول؟ أقول لك: لست أنا المبتدئ به، فاسمع ما جاء في الإحياء، فقد أورد المؤلف في الجزء الأول اعتراضاً على نفسه ملخصه:

«كيف جعلت حدّ المتكلم أنه يحرس عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة، فهو أشبه بالحراس في طريق الحاج يحفظون الأقمشة أن تتخطفها الأعراب، وجعلت حدّ الفقيه أنه يحفظ القانون الذي به يستعين السلطان على كفّ الأشرار، مع أن المشهور بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون، وقد جردتهما من الصفة الدينية، كيف هذا؟».

هذا ملخص الاعتراض الذي أورده صاحب الإحياء على نفسه، ثم أجاب عن هذا الاعتراض بما يطول شرحه، وملخصه:

«إن ما هو مشهور يخالف الحقيقة، فعلى الإنسان أن يعرف الرجال بالحق لا العكس». وأشار إلى أنه صلى الله عليه وسلم مات عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، كأبي بكر وعمر، ولم يكن فيهم أحد يحسن صفة الكلام، ولا نصب نفسه للفتيا منهم إلاّ بضعة عشر رجلاً.

ولما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود: مات تسعة أعشار العلم، فقيل له: أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة؟ فقال: لم أرد علم الفتيا والأحكام، وإنَّما أريد العلم بالله تعالى. قلت: أفترى أنه أراد صفة الكلام والجدل ثم ذكر أن الشهرة عند الناس بالفقه وبالكلام غير الشهرة عند الله.

وأفاد أن شهرة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه بالخلافة وفضله بالسر الذي وقر في نفسه، وشهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة، وفضله بالعلم الذي مات تسعة أعشاره بموته، وبقصده التقرب إلى الله في ولايته وعدله وشفقته. وبهذا تم الكلام على الفصل الأول من القسم الثالث في الأصول العلمية.

الفصل الثاني من الأصول العلمية
في معرفة الله تعالى

وذلك أن الإنسان يجول بنفسه خواطر، وتتوارد على عقله وساوس، فيقول: كيف يكون الله واحداً وهو مع كل إنسان وحيوان صغير وجليل؟ وكيف يسع هذا العالم كله؟ وكيف يطلع على ما في قلبي وقلوب كل مخلوق؟ ثم كيف يكون قريباً مني مع أنه عظيم كبير متعال، فكيف يكون قريباً بعيداً؟ يقول المؤمن: أنا آمنت بالله، ولكن الذكي يريد أن يتضح ذلك له ولو بضرب مثل. أذكر أيها الذكي ما جال بنفسي يوم الاثنين ١٧ يناير سنة ١٩٢٧ أثناء تقديم هذه السورة للطبع، إذ جلست ضحى في ضوء الشمس وهو سبب هذا الموضوع كله.

الله والشمس

اعلم أن الله عزَّ وجلَّ ضرب للناس مثلاً محسوساً لنفسه، ذلك أن الشمس:

(١) كبيرة جداً. (٢) كثيرة الضوء. (٣) بعيدة عن الأرض بعداً شاسعاً ويراها الإنسان. (٤) قريبة منه. (٥) وإذا جلس للاستدفاء بها يراها في مقابلته كأنها لا تقابل غيره، وهي قدر إطار المنخل. (٦) والضوء الذي ترسله له خاصة لا حصر لعدد ذراته.

هكذا الله الذي ليس كمثله شيء:

(١) كبير عظيم. (٢) كثير الإنعام. (٣) بعيد المرتبة والعظمة من الإنسان. (٤) وهو قريب علماً وقدرة منه. (٥) وكأن النعم التي في الأرض وفي السماء لم تخلق إلاَّ لتكون أنت وحدك، لأنك لا تعيش إلاَّ بهذا النظام العام. (٦) والنعم التي يرسلها لا تحصى.

هذا هو المثل المحسوس الذي يراه الناس والحيوان وهم لا يفطنون.

إيضاح بعض صفات هذا المثل وهو الخامس

وذلك أن الإنسان إذا استدفأ بنور الشمس شتاء مثلاً يرى أنها تقابله كأنها دائرة الطبل، وينظر يميناً ويساراً فلا يرى شمساً إلاَّ هذه، وإذا كانت هي المقابلة لك فكأنها لا تقابل غيرك. ثم إن كل إنسان على سطح أرضنا يرى هذا الرأي، وهكذا كل حيوان أرضي أو طائر. فكل هؤلاء إنَّما ينظرون ما يكاد يخيل لهم أنه خاص بهم. هذه هي حال كل حي على الأرض، يجلس والشمس بحذائه لا سواه، وهي في الحقيقة بحذاء كل واحد من سكانها حيواناً أو إنساناً.

ثم ما يقال في سواها من السيارات وتوابعها ـ وما أكثرها ـ دائرات حولها، وما أصغر أرضنا وأحقرها بالنسبة لغيرها من السيارات وهي صغرى وكبرى، ومجموعها يعدّ بالمئات، لأن هناك سيارات

صغيرات دائرات حول الشمس كما هو مدوّن في هذا التفسير كثيراً، وهكذا حولها ذوات الأذناب التي يقولون عنها إنها كسمك البحر عداً. فالشمس حولها ما لا يعدّ من توابعها، والسكان في تلك الكواكب والتوابع والأقمار إذا وجدوا تكون هذه حالهم بحيث يخيل لكل أنها خاصة به عند مقابلتها.

وهذا المثل يوضح لنا قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[ق: ١٦]، وقوله تعالى أيضاً: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾[البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦]، وقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[الحديد: ٤]، وقوله: ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾[الممتحنة: ١]، وقوله: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾[النجم: ٣٢]، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[إبراهيم: ٥١]، وهكذا قوله هنا: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾[الأنفال: ٢٤]. لهذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥]، وستقرؤه في سورة «النور»، وتعجب من أن هذا المعنى قد ظهر جلياً في أحاديث رؤية الله تعالى:

ففي حديث الشيخين عن جرير بن عبد الله قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامّون في رؤيته «أي: لا تزدحمون، إذا شدّدت الميم، أو لا ينالكم ضيم، إذا خففت» فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾[ق: ٣٩]». وذكر في حديث أبي داود أيضاً الشمس ليس دونها سحاب، ولم يذكر هذه الزيادة الترمذي.

وإن تعجب فعجب ما تسمعه من حديث أبي رزين العقيلي، قال: «قلت: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة؟ قال: نعم. قلت: وما آية ذلك في خلقه؟ قال: يا أبا رزين، أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به؟ قلت: بلى. قال: فالله أعظم، إنّما هو خلق من خلق الله ـ يعني القمر ـ فالله أجلّ وأعظم». أخرجه أبو داود.

وفي حديث مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» اهـ.

فتأمل حديث أبي رزين، واعجب كيف ضرب مثلاً يشبه ما نحن بصدد الكلام عليه من أن الله يتجلى لكل أحد كأنه له خاصة، بحيث يناجيه الإنسان والحيوان وكل حشرة ودابة، فكل هذه تسأله الرزق وشؤون الحياة كأنه خاص بها.

وتأمل كيف كانت هذه الحال مشبهة مثل الشمس والقمر معنا، فأما الرؤية فخاصة بأقوام من نوع الإنسان، بخلاف السؤال فهو عام.

إن هذا التشبيه لا يخطر ببال شاعر ولا كاتب، وإنّما هو من مقام أعلى وهو مقام النبوة.

واعلم أن الوصول للحقائق العلمية بعد التخلي من الأخلاق الشائنة هو الوسيلة لرؤية الله تعالى، والرؤية بالبصر أمر حيواني، أما الرؤية بالإحاطة بالعلوم فهو الموصل لذلك المقام، ومن لم يجد في نفسه شعوراً بالنظام الجميل في هذه الدنيا، فكيف يتصور أن يرى موجد هذا النظام.

إن الله خلق الجمال في صور الإنسان والمخلوقات، ليعلم الناس الهيام والغرام بالظواهر إذا كانوا جهالاً، ويرتقي العلماء بالهيام بما هو أجمل وأكمل وهو النظام العام والإشراق التام والحكمة الباهرة والأنبياء فوقهم جميعاً.

اقرأ مقام الحب في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥]. إن من لم يدرك جمال هذا الوجود في هذه الحياة، فليس له حظ من رؤية ربه التي تنال بالعلم، وإن ما نكتبه في هذا التفسير يعين على ذلك.

فإذا كنت أيها الذكي به مغرماً، فاعلم أنك قد فتح لك باب الوصول، ولا نكوص لك بعد الآن وخرجت من الجماهير الذين دخلوا في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾. فهؤلاء تكون العلوم حاضرة أمامهم وهم لا يعقلونها. تبيّن لك من هذا كله أن مثال الشمس واضح جلي، ولكن الله يحول بين الإنسان وبين قلبه، فلا يكاد أكثر الناس يعقلون سبب هذه الحيلولة.

إن الله قريب منا مع بعد مرتبته عنا، وإنه أقرب إلينا من الوريد الذي هو عرق في الرقبة.

بهذه الحيلولة يمتنع الإنسان عن تعقل ما هو محسوس ومحيط به من كل جانب، لولا هذه الحيلولة ما تعاطى الناس ما يضرّ من مطعم ومشرب.

إن الناس فوق الأرض يكادون يكونون مخلوقين من النور والجمال، بل هم في الحقيقة جمال ونور. إن المادة التي منها خلقنا ما هي إلا كهرباء مدمجة، كما هو آخر رأي للعلماء، أو روح مجمدة كما هو رأي العلاّمة «استوارت ميل» وكلاهما نور.

هذا بالنسبة لأجسامنا، أما أرواحنا فأمرها ظاهر، والإنسان مع هذا كله حيل بينه وبين إدراك حقيقته الجميلة البهية الساطعة، وهذا من سرّ هذه الآية، فإن الله حال بيننا وبين نفوسنا، ولولا هذه الحيلولة لكنا في نور مشرق وجمال باهر يجعلنا في جو من النور والجمال والبهاء إلى الأبد. فهذه الحيلولة جاءت لسكنانا هذه الأرض المظلمة، لتتربى فيها عقولنا مدة، ثم تنتقل إلى عوالم أخرى.

شفاء الصدور ومشرق النور
من شموس بازغات ومعان باهرات في هذه الآيات

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ الخ.

إن قوله تعالى: ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فتح باب على مصراعيه للعقول أن تلج الحكمة لتحيا، وإلاّ حيل بينها وبين السعادة بموت القلب، والقلب هنا هي اللطيفة القدسية المنبعثة من العالم الإلهي.

فلنذكر هنا وصف العوالم المشاهدة من كوكب وقمر وشمس وسحاب مطرّز بقوس قزح، ثم نقفي بعجائب الجسم ثم النفس التي هي المقصودة بالحياة، وكيف كشف الناس أنها تعتريها حال

تصبح فيها عالمة بالمستقبل، وتتكلم بلغات شتى حال الانخطاف الروحي بالتنويم؛ والله حال بيننا وبين ذلك كله، وهو اليوم يدعونا لطاعته، ليكشف عنا الغطاء يوماً ما ولو بعد الموت. فنقول: الدنيا قصر منيف عالي الأكناف، واسع الأطراف، نظرت إلى سقفه إذا هو مجمع العجائب ومثار الغرائب، قد وشي بطرائف التطريز، ونقش بكل جميل عزيز، ازدان بالدرّ والمرجان، وتلألأ بمختلف الألوان، نور وهاج، وسراج يتلوه سراج؛ فبينما نراه حالك السباسب، مسوّد الجوانب، مرصعاً بالدراري البهجات المشرقات في الظلمات، إذا بملاءة بيضاء قمرية منسوجة من الفضة قد نشرت على وجوه تلك المشرقات وتارة يخيل إلي أن ذائب اللجين سال في جنبات القمر وصار الجو به كالنهر، ذلك هو نور القمر.

أقول: فبينما أنا على تلك الحال إذا حادث غيّر تلك المعالم ونسخ تلك العوالم، وهي عرائس الصبح ونواعس الطرف الصباح راقصات في مشارق النور تتلألأ بهجات، وتزدهي ساحرات بألوان مختلفات، وتتجلى سافرات، وقد يخيل للرائي أن أمواج النور جحافل، وجيوش بواسل، بأسنة لوامع، ومهندات قواطع، برزت في المشارق، وتراءت في المطالع، احتفالاً بمقدم ملكة الكواكب، وسيدة المشارق والمغارب، ذلك هو وصف الصبح.

فبينما نحن نرقب مجتلاها، لنشاهد محياها، إذا بالغزالة برزت كالذهب الابريز، زينة للناظرين وبهجة العالمين، فنشرت على السماء جلباباً لازوردياً، فبرقعت وجه القمر والنجوم، وفرشت على الأرض بساطاً ذهبياً منمقاً بجميل الأشجار وبديع الأزهار، مزخرفاً بما في الحشائش والزروع من بدائع الألوان المختلفات الأشكال المزدهرات البهجات.

وصف السحاب وقوس قزح

وتارة تنسج أيدي الرياح في الجنوب أو الشمال مطارف مدهامات، وحللاً داكنات مدليات من الأعلى إلى الآفاق، في سمت الرأس أعاليها، وعلى الأرض حواشيها، وقد طرّزها قوس السحاب بأصفر فوق أخضر يتلوه أحمر وأصفر.

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً	على الجوّ دكناً والحواشي على الأرض
يطرّزها قوس السحاب بأصفر	على أخضر في أحمر تحت مبيض
كهيئة خلود أقبلت في غلائل	مصبغة والبعض أقصر من بعض

تلك حال هذا الوجود الذي نعيش فيه، فدنيانا جميلة المحيا، باهرة المنظر، ساحرة الطرف، رشيقة القدّ، غيداء هيفاء كحلاء عيناء؛ ازينت للناظرين، زينها رب العالمين، فهي غادة لعوب وفاتنة طروب، من عادتها الدلال والتبختر في الغلائل لا الأغلال، فهي كما قال كعب بن زهير:

فما تدوم على حال تكون بها	كما تلوّن في أثوابها الغول

الكلام على الكتب السماوية والمعارف النفسية والكتب الحكمية

هذه صفات العوالم المشاهدة التي لأجلها نزلت الكتب السماوية كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، وألفت الكتب، وخلقت الحكماء، وتتابعت العلماء. فهاهنا وحي يوحي لذوي النفوس الشريفة، وكتب تؤلف على أيدي حكماء ذوي جدّ وتشمير ونفوس منقوشة بتلك العوالم مزدانة بأجمل تلك الجواهر.

إن الله أبرز لنا هذا الوجود كتاباً نقرؤه، هذا الوجود كتاب مسطور في رقّ منشور، كتاب كتبه بيده، وما أحسن كتابه، وما أجمل عمله، وما أبدع صنعه، كتبه وزيّنه وأحسنه. كتب الله هذه الوجود بحروف كبيرة، ثم أوحى إلى الأنبياء، فكانت الديانات بألفاظ نسمعها وحروف نكتبها ومعان نعقلها تدل على نظام هذا الوجود، ثم ألهم الحكماء من كل أمة والأولياء من كل دولة فدوّنوا وألفوا لإظهار أسرار الديانات بمختلف اللغات لاجتلاء تلك المشاهدات وفهم الغائبات عن الحس والإبصار.

الجسم الإنساني

ثم إنه أسكن نفوسنا في أجسامنا، ونقش الأجساد بنقوش تضاهي نقوش هذا العالم الكبير، فنظم الهيكل الإنساني وأبدع فيه من كل سرّ خفيّ ومظهر جليّ، فنظم الأعضاء ووزنها، وزوّق الوجوه وحسنها، ونقش الألوان وزوّقها، وسوّى المفاصل وأحكم الأعضاء، وأبدع الحواسّ وفصل الخواصّ، ورتب الأحشاء، ونظم مجرى الغذاء وطريق النفس وموارد الدم ومصادره. كل ذلك شرحته في سورة «آل عمران» شرحاً جميلاً، ونسقته هناك تنسيقاً قويماً.

فهاهنا كتب الدين يسمعها الناس كلمات في الهواء بآذانهم، أو يبصرونها في الكتب بعيونهم، ونظام هذه الدنيا حروف كبيرة يقرؤها المفكرون ويعرفها العالِمون «جمع عالِم» ـ بكسر اللام ـ ومختصر هذه الدنيا هو الجسم الإنساني، ففيه معنى العالم كله كما مرّ في «آل عمران».

إذن النفس لها لوحان: لوح كبير هو هذا العالم، ولوح صغير هو هذا الجسم. ولها دلالتان: دلالة الكتب السماوية، ودلالة العلوم الحكمية.

هذه هي علوم الأولين والآخرين. فاقرأ كتب الدين وتأمل نظام هذه الدنيا وادرس عجائب جسمك. بهذا تكون حكيماً وصديقاً تابعاً لنبينا صلى الله عليه وسلم، بل وارثاً من كبار الوارثين.

النظر في النفس

وإياك أن تغفل عن أفضل الأمور وأجلها قدراً وأعظمها خطراً، ألا وهو القلب، وقد ورد في الآثار: «قلب المؤمن عرش الرحمن».

إن ما قلته لك في هذا المقال إملاء من القلب، فلا كتاب لديّ ولا منظر أمامي، فأنا الساعة لست أنظر إلى السماء، ولا الصباح ولا الليل والنهار، ولا أمام الأشجار ولا الأنهار، ولكني أكتب من لوح القلب. إن الكتب السماوية والدروس الحكمية وعجائب هذه الدنيا وغرائب الأعضاء الجسمية، كل ذلك يقصد به تكميل النفس بتلك النقوش وإسعادها بما في الطروس. كل ما في هذه الدنيا عيان ولسان وبنان وجنان، فالعيان كل ما تعاينه من السماوات والأرضين وغيرهما، والكلام باللسان والكتابة بالبنان معبران عن ذلك العيان، والقلب هو الذي ترسم فيه تلك النقوش.

غفلة الناس عن القلب

يعيش الناس ويموتون وأكثرهم لا يعلمون أن هناك عالماً كبيراً كامناً في نفوسهم. الإنسان يؤمن بأنه بريء ولكنه لا يصدّق أن نفسه عالم كبير لا يراه الناس وإنَّما يراه هو.

أنا أكتب هذا وكأني أشاهد في لوح نفسي النجوم والسماء والشمس والقمر والصباح والمساء، وأشاهد رسوم الأعداد من الواحد إلى العشرة إلى الألف وهكذا، وألاحظ كل ما بقي من المحفوظ من

علم أو نظم أو نثر، وكل محفوظ يخيل للنفس أن له مكاناً رسم فيه، وكأن هذه النفس عالم واسع قد ابتلع عوالمنا التي نعيش فيها وزاد عليها، أنا أكتب هذا وكأن نفسي هي التي تملي عليّ.

يقول العلماء: إذا عرف الإنسان هذا الوجود كله وجهل نفسه، فقد جهل كل شيء. إن النفس هي الباقية لنا في سفرنا وحضرنا وموتنا وحياتنا، وهي التي فيها رسمت كل هذه المناظر فصارت لوحنا الذي نقرؤه.

انظر إلى رسوم نفسك ترها عجيبة. وأضرب لك مثلاً بالأعداد وبالكلام المحفوظ وبالكواكب. أنت أيها الذكي تحسّ في نفسك بالأعداد مرتبة منظمة بترتيبها، ولولا هذا الترتيب ما عرفت العدد ولا كوّنت الحساب، وتسمع الجمل العلمية فترسم صورتها في نفسك، حتى إذا احتجت إليها عرفتها ونفعتك، وتفكر في الشمس والقمر فتراهما حاضرين في قلبك. هذه ثلاثة أمثلة:

فالأول: وهو العدد لا وجود له في الخارج، وإنَّما وجوده في نفسك فقط، وليس في الخارج إلاّ المعدود.

والثاني: وهي الجمل، ما هي إلاّ ألفاظ، والألفاظ صوت، والأصوات حركات في الهواء، والحركات تضمحلّ حين بروزها وتختفي وقت ظهورها.

والثالث: وهو الشمس والقمر، باقيان في السماء.

فهاهنا حفظت النفس لنا ما لا وجود له وهي الأعداد، وما وجد واضمحلّ بسرعة وهي الجمل وما هو باق وهو الشمس والقمر.

إذن النفس أرقى من هذا العالم، فإن فيها موجودات لا توجد فيه، وفيها تبقى الموجودات التي اضمحلت فيه. ألا ترى أنك ترى إنساناً جميل الطلعة يوماً ما، ثم يدور الدهر دورته فيصبح قبيحاً ضعيفاً، وهو لا يزال في نفسك على ما كان عليه، فكأن نفوسنا صادقة حافظة. والمادة لا تصدق ولا تحفظ، بل فيها تتغير الموجودات وتتبدل، والنفس تحفظ.

إن نفوسنا هي المقصود من هذا العالم، ويقول بعض العلماء: «إن الغذاء فينا يلطف حتى تكون خلاصته سمعاً وبصراً وفكراً، وهذا الفكر أشبه بسنابل القمح التي دلت بظهورها على أصل بذرها، فلولا أن البذر حبّ قمح ما كان الناتج قمحاً».

إذن أصل العالم فكر أو نفس، ونفوسنا تسيطر على هذه المواد وتحكم وتحلل وتركب، إذن هي من عالم أسمى من عالم الحس، وكأنها خلقت هنا للتمرّن والتعلم، وكأن هذا الوجود وهذه الأجسام لوح تقرؤه حتى إذا أتمت عملها فارقت الأرض حاملة معها زادها في هيئتها.

إن هذه العلوم الفلسفية والدينية والنظام والطبيعة والهيكل الإنساني بالتشريح رسوم ونقوش تغذي النفس كغذاء الطعام للأجسام، وكلما زادت النفس غذاءً فكرياً ازدادت كمالاً حتى تقرب من العوالم القدسية.

إن هذا العالم صنع بحساب ونظام، وعلى مقدار تعقله تقترب النفس من صانعه، وكلما استكملت بالعلم ازدادت إلى الصانع شوقاً. وإذا غفلنا عن تلك القوة القدسية المعبر عنها بـ «القلب» ابتعدنا عن السعادة.

وأمثال هذا هو المقصود من آية: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾.

ولما كان الحشر إليه ـ وهو لطيف خبير منزّه عن المادة ـ وجب أن تكون النفوس القريبة منه بعد الحشر مغرمة بالعلم والحكمة حتى تستعدّ للقائه وهل يجالس الصعاليك الملوك. وفي بعض الأخبار: «من عرف نفسه عرف ربه». وفي القرآن: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس: ١-١٠]. إن هذه الآيات هي نفس الموضوع الذي ذكرته الآن، وإن هذه الصورة المرسومة لك تبياناً لهذا العالم، ما كنت وقت كتابتها ملاحظاً هذه الآيات، إذا هي كالتفسير لها فإن هذه العوالم كلوح للنفس.

إن نفسك هي جنتك وهي نارك، هي جنة العلوم والمعارف، وهي نار الجوانح بالشهوات والعداوات والذنوب. إن النعيم الأوفى إنَّما يكون بجمال النفوس، ومتى جملت بالعلم والحكمة استغنت عن جميع العوالم بلقاء ربها، ولا يلقى الله ويشاهده إلاّ نفوس مشرقات، أما النفوس التي حال الله بينها وبين قلوبها واستعدادها فقد حرمت النظر إليه.

إن النفس تصوّرت الجائز والواجب والمستحيل؛ الجائز كجميع هذا العالم المشاهد، كأن تجعل ٤٠ من ضرب (٤ في ٥)، أو من ضرب (٥ في ٨). والواجب كالإله والملك، وكأن تتصور أن ٢٥ من ضرب (٥ في ٥). والمستحيل كشريك الباري، وكأن تتصور أن ٤٠ من ضرب (٥ في ٥) أي أنك تحكم أن أربعين مستحيل أن تكون حاصل ضرب هذين العددين. فهي تصورت الواجب وحكمت بثبوته، والمستحيل وحكمت بعدمه، وهي تتصور للمجردات عن المادة صوراً فيها، ولذلك تنوعت طرق الوصول إلى الله، وأعان النفس على استحضار معبودها ظهور الشعائر والمنابر والمساجد والمنائر ومناسك الحج وأمكنة الطواف والوقوف والمشاهد المعلومة. كل هذه وأمثالها لتعين النفس على استحضار من هو مجرد عن المادة ولو كان مشاهداً كما تشاهد الشمس، وهو حاضر دائماً عند حواسنا لم نحتج إلى جميع هذه الشعائر.

النفس أدركت العلوم الطبيعية التي تحتاج في تعقلها إلى المادة في الخارج وفي الذهن، وأدركت العلوم الرياضية المحتاجة في تعقلها إلى المادة في الخارج وفي الذهن، وأدركت العلوم الإلهية التي لا تحتاج إلى المادة لا في الخارج ولا في الذهن، والعلوم الإلهية هي العلوم العامة، كتقسيم العلوم وكالمقولات الخ.

النفس في حال النوم تعطيك صورة من الدنيا والآخرة

ألا ترى أنك في اليقظة تفكر وتحس؟ وفي حال النوم كذلك تحلم وتفزع وتفرح وتحزن، ثم يمر عليك وقت في النوم لا يكون لك إحساس بهذا الوجود البتة. ولا معنى لحياتي إلاَّ أني أحسّ وأفكر، فأنا إذن عند فقد الشعور والإدراك صرت كالميت، فتشابهت الحالان: حال الميت وحال النائم الذي لا يشعر، فما هو أشبه بالموت أصبح من لوازم الحياة، لا تتم الحياة إلاَّ بنوم، وقد يكون في النوم زوال الحس والشعور.

والمعنى المخوف منه في الموت عند الناس كافة، هو فقد ذلك الشعور، وقد حصل في نفس الحياة، وحينئذ يقال: إذا حصل فقد الشعور في حياتنا الدنيا ولم يكن سبباً في الفناء، فربما يكون فقد الشعور بالموت ليس سبباً في الفناء، بل الحياة ربما كانت كاملة وتظهر بحال أخرى.

استيقاظ النفس ونومها يمثلان الحياة والموت

إن الناس في كل يوم وليلة يموتون ويحيون تمريناً على الموت الأكبر والحياة الكبرى، ولقد استدل «سقراط» بتعاقب هاتين الحادثتين على أن الحياة ستكون بعد الموت كما قدمناه في سورة «الأنعام»، والنفس ترسم فيها صور الآثار الواصلة إليها بالمرض، فتتخيل في الأحلام الحمى ناراً متأججة تحيط بها، ويتصوّر الذي اعتراه البرد أو الأمراض الباردة أنه في بحر لجيّ كما يعرفه أكثر الناس في أنفسهم. وهكذا السوداوي يزاول أعمال الموتى وسواد الأجسام، وهكذا النفس تجعل لكل ما تدركه صورة تتخيلها له.

إن النفس بحر لجيّ لا ساحل له، النفس يحكم وهمها على من يمشي على الحائط بالسقوط، إن الإنسان إذا مشى على الأرض لا يشغل مقدار عرض الحائط، ولكن الوهم يجسم للماشي عليه أنه ساقط لا محالة فيسقط، ذلك لأن وهم النفس صوّر له السقوط فسقط. الوهم أبرز لصاحب الشهوة البهيمية صورة ما يشتهيه من صور النساء والأغذية فتمتع بها في المنام، وصوّر لذوي القوة الغضبية صور الأعداء فجندلهم في ميدان الأحلام والأوهام.

النفس هي التي إذا أدّبت وهذبت وربيت لم تؤثر فيها الأوهام، فترى أولئك اللاعبين الذين درّبوا على المشي على الحبال أو الجلوس على كرسي موضوع فوق عمود مرتفع لا يسقطون، كما يشاهد في هذا الزمان، ذلك لأن الوهم اتجه إلى النجاة وضبط الأفكار. النفس أثرت في جسم المحتلم فأفرز مادة من جسمه. والنفس بالتهذيب والرياضة تؤثر في غيرها إما بالعلم وإما بالآثار الظاهرة.

كل ذلك إشارة إلى أنها في هذا العالم قوة إلهية أنزلها الله إلى الأرض لتكون مظهر جلاله وجماله ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣] ولا يحجب عنها إلاّ المغفلون. هذه قطرة من بحر قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾. انتهى.

ياقوتة في عقد هذا المقال

بعد أن كتبت هذه المقالة تبيّن لي أن هذا الموضوع لا آخر له، ومنه يتفرّع علوم الأمم القديمة والحديثة في النفس، ولو أني أطعت البنان والقلم لطال بي الأمد، ولكني أقتصر على هذه الياقوتة، فضعها أمامك فإنها تضيء لك هذا الوجود وتشرق إشراق الكواكب والشمس والقمر.

ليس المدار على كثرة العلوم، وإنّما المدار على حسن التصرف والتعقل، وقليل يكفيك خير من كثير يلهيك، فهاهي ذه الياقوتة أهديها إليك فأقول:

انظر في سورة «البقرة» عند تفسير الآية ١٠٢: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ فإنك تقرأ هناك أنهم في التنويم المغناطيسي في الأكاديمية الطبية الفرنسية أمروا المسيو «فرواساك» فنوّم المسيو «كازو» المصاب بداء الصرع، وقد كان «فرواساك» في حجرة والمسيو «كازو» في أخرى، ولم يعلم الأخير بحضور الأول، وحصل ما حصل من إخبار المسيو «كازو» المريض عن مرضه ومستقبله،

وكيف تمكن مداواته، وعيّن اليوم والساعة والدقيقة التي سيأتي فيها المرض، ثم ترى هناك قبل ذلك الدرجات الثلاث المتقدمة في هذا المقام قريباً.

هذا هو الذي تقدم في سورة «البقرة»، وإذا كانت هذه الأمور أصبحت الآن معروفة في أوروبا، وأن من تنوّمه تنويماً تاماً تكون هذه حاله.

فإذن أمر النفوس البشرية عظيم جداً مدهش، ونفسي ونفسك فيهما هذه القدرة، وقد حال الله بيننا وبينها وهو يدعونا ليحيينا بالطاعة حتى يردّ إلينا ملكنا العظيم في هذه النفس، وإذن نفهم هذه الآية فنحن في هذه الحياة قد حال الله بيننا وبين قلوبنا. فاعجب للقرآن واعجب للتعبير بالحيلولة، وكن ما عشت مفكراً ذاكراً تعش حكيماً تقياً وترقب هذه الحال التي انطوى قلبك عليها.

إن الآية تشير إلى أننا في هذه الحالة أموات لأنه حال بيننا وبين قلوبنا، ولقد وجدنا أن قلوبنا تعلم عجائب لا نهاية لها وتقدر على ما لا تقدر عليه في حال التنويم. فهذه الحياة كأنها موت، وهو يدعونا للحياة فانعكست القضية، فحياتنا موت وموتنا حياة، وهذا ما يفسر ما ورد في الآثار: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

يا سبحان الله! إن هذه المقالة فتح باب لفهم قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]. ومن قرأ كتب علماء الأرواح في العصر الحاضر واطلع على علوم الهند وما تضمنه كتاب «راجايوقا» المؤلف باللغة الإنجليزية مترجماً من اللغة الأوردية أدرك بعض سر: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾، إن ما جاء في تلك الكتب هو الذي أشار له قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، وقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣].

فهاهو ذا الله قد أطلع الأمم اليوم على بعض سر الروح الذي هو بعض آيات الله في الأنفس وعجائبها، فإذا كان أهل الديانات قديماً والمسلمون يؤمنون بأمر الروح إيماناً، فإن الذين اطلعوا على كتب الأمم يؤمنون يقيناً. وكيف لا يوقن المرء بسرّ الروح؟ والروح قد تبدّت عجائبها في المجالس الروحية، وبدا جمالها، ونطق الأبكم، وأبصر الأعمى، وبرع في العلم الغبي الجاهل، وبرز في الفلسفة من لا يحسن خطاباً ولا يقرأ كتاباً ولا يحير جواباً إعلاناً لا سراً، ومتى فارق تلك الحال رجع إلى سيرته.

إن رجال الصوفية في الإسلام قد ظهر لهم بالرياضات نفس ما ظهر بالتنويم المغناطيسي اليوم، وذكر زهاد الهند وعبادهم من تلك الأسرار ما لا يكاد يتخيله العقل، وأتوا جميعاً بالعجب العجاب من إخبار بالمغيبات وأعمال عجيبات، وقد يدفن التلميذ في قبره ستة أشهر ثم يخرجونه ويكشفون الغطاء عنه ويخرج من الصندوق في جمع حافل ثم يتحرك ويتكلم.

ولقد صنع بعضهم هذه العجائب على ملأ من الناس في هذه السنة والتي قبلها في إنجلترا، وقد شهدها القوم في المسارح العامة، وقد أغمي على السيدات عند مشاهدتهم تلك الظاهرة، فأمرت الحكومة بعدم تكرار هذا رفقاً بالنساء والضعاف منهم. هذا كله من سر قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[الإسراء: ٨٥].

إن النوع الإنساني مقبل على سعادة لا يحلم بها الآن، وهذه السعادة وهذا الملك العظيم هو الآن كامن في أنفسهم، ويظهر تارة بالعبادة وأخرى بالرياضة وأخرى بالتنويم المغناطيسي لحظة. فإذا استيقظ ذلك النائم لم يدر شيئاً مما كان يعرفه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾[الإنسان: ٢٠-٢١]، في تلك الحياة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٤] فقوله: «لو كانوا يعلمون» إشارة إلى أن الناس حجبوا عنه.

حصر الله الحياة في تلك الحال مؤكداً بـ«إنّ» وبـ«اللام»، فلا حياة إلاّ تلك الحياة التي ظهرت طلائعها فيما ذكرناه وحال الله بيننا وبينها. وهذا هو المعنى المنطوي في قوله تعالى هنا: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فهذه هي الحياة المذكورة في آيتنا، وما نحن عليه في الدنيا موت، فأهل الأرض اليوم ميتون في حياتهم الحيوانية التي بسببها حال الله بينهم وبين تلك الحياة.

ويقول علماء الهند في الكتاب المتقدم: إن سر هذا العالم كله في الإنسان مخبوء في عجب ذنبه وإن هذا العجب في نظرهم مرآة للوجود كله، وإن الرياضة والعبادة والذكر والعلم والفلسفة كل هذه تمنع الحجاب الحاجز للنفس بين عجب الذنب وعلومه وبين الدماغ الإنساني.

وإن علوم أهل الأرض التي وقفوا عليها من طريق الحواس والعقل تصل للمخ من طريق أعصاب الحس والحركة والفكر. أما أسرار الملك والملكوت المحجوبة في عجب الذنب فإنها تتراءى للعقل بطريق الانطباع من عجب الذنب في المخ. وإنّما ذكرت هذه التي لا برهان عليها ولا أيّ دليل، لأن عجب الذنب مذكور في الأحاديث أنه هو الباقي الذي لا يفنى كالروح.

فهذا هو العجب العجاب أن يكون كلام الهنود منذ آلاف السنين بطريق العلم المكتسب بالرياضة هو الذي جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذا معجزة له صلى الله عليه وسلم ذكرتها استطراداً لمسألة الحياة في قوله تعالى هنا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾. انتهى.

ضوء الياقوتة وازدياد في عجائبها

إن تعجب فعجب ما جاء في كتابي المسمى «كتاب الأرواح» صفحة ١٩٢ من ذكر حادثة مدهشة في سنة ١٨٧٣ ذكرتها جرائد أوروبا وأمريكا، وهي أن المؤلف الإنجليزي «ديكنس» فاجأته المنية في مدينة لندن سنة ١٨٧٠ قبل أن يتم روايته المدعوة «أسرار ادوين برود» فأتمها بعد موته على يد الوسيط الأمريكي «جيمس» في مدينة «بوستن»، و«جيمس» هذا لم يكن إلاّ غلاماً صانعاً قليل العلم، يقضي أيامه في إتقان حرفته، واتفق أنه حضر سنة ١٨٧٢ في إحدى ليالي «تشرين الأول» جلسة روحانية تجلى فيها روح «ديكنس»، وطلب أن يكون «جيمس» المذكور وسيطاً يتم به روايته، فقبل «جيمس» وصار يجلس كل ليلة وتتحرك يده وهي تكتب القراطيس أقوالاً لا يعلمها، ودام على ذلك سبعة أشهر أكمل فيها الرواية بألف ومائتي قرطاس. ولقد شهد رجال الصحافة عموماً أنه يستحيل على القارئ أن يميز بين ما كتبه «ديكنس» قبل موته وبين ما كتبه الوسيط «جيمس» بعد

موته أقل اختلاف، لا في الإنشاء ولا في الخط ولا في نسق الرواية، حتى إن الأغلاط الإملائية التي كان المؤلف في حياته يعتادها بقيت كما هي. اهـ.

وفي صفحة ١٩٣ من هذا الكتاب نقلاً عن علماء الأرواح في عصرنا ما نصه: «ولقد جاءت مقالات في الفلسفة والعلوم والفنون والتاريخ واللغات الأجنبية، كتبتها الأرواح على أيدي فتيان حديثي السن أو فتيات ساذجات لا يحسنّ القراءة». اهـ.

وجاء في صفحة ١٩٨ من الكتاب المذكور نقلاً عن المشترع الفقيه «سارجان كوكس» ما تعريبه: «كثيراً ما رأيت غلاماً صيرفياً وهو وسيط عار عن كل علم وتهذيب، يجادل عند استيلاء الروح عليه قوماً من الفلاسفة في مسائل المنطق ومعرفة الغيب والإرادة والقدرة، وغالباً ما كان يفحمهم بأجوبته السديدة، وأنا نفسي ألقيت عليه يوماً بعضاً من معضلات علم النفس، فحلها لي ببراهين قاطعة وألفاظ في منتهى الرقة والفصاحة مع أنه في حاله الطبيعية لا يدري ما الفلسفة، ولا يجد ألفاظاً يعبّر بها عن أفكاره الصغيرة».

وجاء في صفحة ٢٨٠ من الكتاب المذكور «الطبعة الثانية»: «إنه ليس كل ما جاء في الكتاب المذكور مسلماً به، بل حال البرزخ مشكلة، فلا تتخذ الأقوال الروحانية كلها دليلاً إلاً ما ورد عن أرواح نقية وساعده الدليل».

آراء علماء الإسلام في النفس الإنسانية وصفاتها واطلاعها على العجائب

وقد جاء في الكتاب المذكور «الطبعة الثانية»: «اعلم أن مناجاة الأرواح هي الصفة الخاصة لأمة الإسلام لا سيما رجال الصوفية». وهذا شائع ذائع، ولكن الناس يكذبون ما لا يعلمون، وهاك ما قاله الإمام الغزالي في كتابه «كيمياء السعادة»: اعلم أنه ما من أحد إلاّ ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم وبيان الحق على سبيل الإلهام، وذلك لا يدخل من طريق الحواسّ، بل يدخل في القلب، لا يعرف من أين جاء، لأن القلب من عالم الملكوت والحواس مخلوقة لهذا العالم.

ثم قال: ولا تظن أن هذه الطاقة تفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة، وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة. فإذا جلس في مكان خال وعطل طريق الحواس وفتح عين الباطن وسمعه وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت وقال دائماً: الله الله، بقلبه دون لسانه إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئاً إلاّ الله، انفتحت له تلك الطاقة وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم، فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء والصور الحسنة الجميلة الجليلة، وانكشف له ملكوت السماوات والأرض، رأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها»، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الأنعام: ٧٥] إلى آخر ما هنالك فاقرأه إن شئت. فانظر في هذا القول الجامع إذ حصل الانكشاف في النوم وفي الموت وفي صفاء النفس.

ولا جرم أن النوم قسمان: نوم طبيعي، ونوم صناعي:

والصناعي هو الذي استعمله علماء أوروبا المسمى «التنويم المغناطيسي» الذي تقدم في هذا المقام، كالغلام الصيرفي الذي يجادل في الفلسفة والمنطق في تلك الحال، وكالغلام الصانع «جيمس»

الذي أتم رواية «ديكنس» بعد موته. فهذان وغيرهما ممن يعدّون بالآلاف كشف لهم العلم في نومهم الصناعي. وهكذا تجد العلاّمة «أوليفر لودج» أكبر علماء الإنجليز في الطبيعة وهو معاصر لنا يقول: إني حادثت الأموات وعرفت أن هناك أرواحاً أعلى منا تهتم بنا وتحيط بنا من كل جانب، فعرفت أن ما كان يقوله الأنبياء والقديسون من مساعدة الملائكة ومساعدة الله نفسه لنا هو كلام حق وليس مجازاً ولا مواربة، ولكن هؤلاء عرفوا ذلك بصفاء نفوسهم. أما أنا فلم أوفق لطريقهم، وإنّما طريق علمي لا غير، ولكنه مؤدّ إلى ما أدّت إليه طريقهم من حيث النتيجة واليقين. اهـ.

وهاهنا تبدى من جليسي هذا السؤال فقال: هذا بيان جميل جامع علوم الشرق والغرب في هذه المسألة، وأنت إذا لم تذكر كلام علماء الإسلام لم يهتم بما تنقله من الفرنجة أمم الإسلام، فمن أجلّ الحكمة وأعجبها أن وفقك الله لجمع الرأي الشرقي والغربي في مقام واحد مع الإيضاح، ولكني أريد أن تفصل القول بعض التفصيل في طرق الصوفية في الإسلام، ثم بيان الكشف هل نهتم به ونجعل حياتنا وقفاً عليه أم ماذا تكون السبيل؟ فقلت له: أما طرق الصوفية فإنها واسعة النطاق لا حدّ لها. الطرق لله بعدد أنفاس المخلوقات، وكما اختلف النبات وتعدّد، اختلفت الطرق لله وتعدّدت، ويقولون: إن الجوع والسهر والصمت والعزلة هي الأركان الأربعة لها.

وترى في الإحياء للإمام الغزالي شرح طريقة الجوع، وذلك أنهم يأمرون التلاميذ بإقلال الطعام تدريجاً حتى يصل إلى أقصى حدّ في القلة. ومن أسهل تلك الطرق أن يتناول الإنسان الطعام في مواعيد خاصة، ثم يؤخر الميعاد كل يوم دقائق معلومة، بحيث لا يضرّ بصحته ولا يشعر بتعب وجوع، ولا يزال يؤخر كل يوم ذلك الموعد حتى يأكل كل يوم مرة ثم يزيد إلى يومين ثم ثلاثة وهكذا إلى عشر ثم إلى ٢٠ ثم إلى ٤٠، وهناك يفتح له هذا الباب وذلك بشروط خاصة.

ثم إن هذه الطريقة وأمثالها مما لا يحصى اعترضها قوم فقالوا آمنا أن العلوم تفتح أبوابها بهذا ولكن أكثر الناس لا يقدرون عليها، وإذا قدروا كان ذلك خطراً عليهم، إذ لا علم عند المريد يصون به فكره من الوساوس بل ربما جنّ، ثم قالوا: وخير الآراء أن يتعلم المريد أولاً ثم يهذب نفسه آخراً. هذه هي ملخص آراء علماء الإسلام.

وأما قول صاحبي: هل نهتم بالكشف ونجعل حياتنا وقفاً عليه؟ فجوابه أن المدار على تهذيب النفس تهذيباً على قدر الإمكان حتى نكون أمة وسطاً، فالتطرّف يضيع الأمم، فلما سمع ذلك قال: لم أفهم ما تريد، فقلت: يقول علماء الصوفية: إن الكشف للمريد يحدثه الله له في فترات ليثبت به عقيدته، فأما إذا اطمأن المريد وعرف أن هذه المجاهدات لها ثمرات، فإن دوام الكشف له يعوقه عن ارتقاء نفسه، فما دام ناقصاً تكشف له أحوال بعض إخوانه أو بعض الأمور المستقبلة، فإذا كمل علم هو نفسه أن ذلك نقص، فإذن يستعيذ بالله منه وينفر.

وخير الفتح والكشف إنّما هو الكشف العلمي ومعرفة الحقائق التي يزيدها جلاء صفاء النفس فهذا هو الكشف المحمود.

فإذا سمعت أن رجلاً صوفياً يخبر بما في قلوب الناس أو أحوالهم أو مستقبلهم، فاعلم أنه إن اغترّ بهذه الحال وفرح بها فإنها تصدّه عن العلوم والمعارف ويصبح شيطاناً رجيماً والناس يظنونه من

الأولياء، وما هو بولي إن هو إلاّ رجل اتجهت نفسه لأمر شهواني لجمع الناس حوله ليفرح بهم ويأخذ مالهم ويشاركهم في العرض الزائل، ولا فرق بينه وبين أرباب الأموال وأرباب الجمال وأرباب الصيت والشهرة في علم أو فنّ، فكل هؤلاء لهم حظ دنيوي ناقص، ويكون هؤلاء أشبه بالمنوِّم ـ بالفتح ـ المغناطيسي الذي يخبر بما لا يعرف.

ولقد قرأت في بعض كتب الإمام الشعراني ما معناه أن الرجل السوقي أفضل من المجذوب الذي لا عمل له فإنه ينفع الناس. وفيه أيضاً أن الإنسان قد يكون من أولياء الله لاجتهاده، ولكن الله يؤخر له كشف الحقائق إلى ما بعد الموت. اهـ.

هذا هو الذي فتح الله به في هذا المقام، وأنا قد أفضت الكلام فيه لدقته وعظم شأنه، ولأنه هو الذي فتح الله به عليّ. ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾[الأحقاف: ٩]، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف:٧٦].

واعلم أن الأمم إذا اتجه أكابرها لفتح الحس الباطني اتجاهاً كلياً انحدرت إلى الانحطاط كما في أهل الهند وبعض أمم الإسلام المتأخرين، وإنّما السبيل التوسط في الأمر فيكون الناس وسطاً يهذبون نفوسهم ويقرؤون العلوم ويأخذون من كل فن طرفاً. وهذه طريقة الإسلام كما تقدم عن الإمام الغزالي، ولذلك سموا أمة وسطاً، فلا هم في الشهوة وحدها مغمورون، ولا على الباطن وحده عاكفون، وفي القرآن: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾[يوسف: ١٠٨]. هذا ذكرته لتعلم تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾. اهـ صباح يوم الأحد ٢ رمضان سنة ١٣٤٥ هـ.

اللطيفة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة

هذه اللطائف الأربع ذات علاقة ومناسبة للطيفة الثالثة، ذلك أن هذه اللطيفة الثالثة قد شرح فيها كيف كان الإنسان محجوباً عن عالمه مغموراً في حمأته تائهاً في بيداء المادة الجرمانية وشهواته الجثمانية كما اتضح في قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾، فانظر كيف أتبعها بالنهي عن الأعمال التي توجب أذى الجمهور وضياع الأمة وتمزقها وضرر المجموع.

ألا وإن النوع الإنساني اليوم على هذه الأرض مغمور في جهالته تائه في بيدائها ظالم جهول، فكما جهل نفسه في اللطيفة قبلها، جهل اتصاله بالمجموع فأصبح يتلمس في الظلام السعادة، وما هو والله بسعيد، وأنت لو فتشت في أهل الشرق والغرب لرأيت مسألة النوع الإنساني واتصال بعضه ببعض، واحتياج أهل الشرق إلى الغرب والعكس قد أصبحت واضحة ظاهرة.

فترى أهل الروسيا إذا قلّ القمح من بلادهم تهتاج لذلك أعصاب الإنجليز، وقل نظير ذلك في القطن والذرة والصلح والحرب والمرض وما أشبه ذلك. فالأمم الأرضية اليوم متصلة اتصالاً حقيقياً لا شك فيه، كل ذلك معلوم، ولكن القوى العاقلة في النوع الإنساني لم تبلغ منزلتها السامية ومقامها الرفيع فهم كالأطفال، فترى كل أمة في حاجتها ثم هي تحاربها وتناوئها لتحصل على ما في يدها.

هذا في الأمم ومثلها الأفراد. فكل أمة أفرادها محتاج بعضهم لبعض، وبارتقاء المجموع يرتقي الفرد، وبضدها تتميز الأشياء، ومع ذلك نرى الرجل يبحث على حتف أخيه ويود لو يصبح فقيراً سائلاً أو مريضاً.

كل ذلك للجهالة العمياء والضلالة الكتعاء، وقد يقدر الرجل أن يصلح المجموع فيكسل أو يبخل، وإنّما كسله وبخله على نفسه لأن المجموع إذا سعد فقد سعد مثله، وإذا شقي فقد شقي مثله، وهكذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كل ذلك مضعف للمجموع، والفرد عضو من هذا الهيكل الكبير وهو الأمم، كما في معنى الحديث الشريف: «مثل المؤمنين في تعاونهم وتعاضدهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى». فإذا جهل الإنسان نفسه في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾، فهو يجهل المجموع وواجبه، لتراكم الشهوات حتى أصبح الأفراد والأمم يجهلون أنهم لا حياة لهم إلاَّ بالمجموع، فيلعن بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، فالجهل في المجموع كالجهل في الأفراد.

وأما اللطيفة الخامسة: فإنها تابعة للتين قبلها، وهي ثمرتهما ونتيجتهما إذ استبان فيما تقدم في الرابعة أن ترك معاونة المجموع ضرر كبير وجهل عظيم. فالتعاون إذن يورث السيادة والسعادة في الدنيا والآخرة ولذلك قال هنا: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لتفرّقكم وعدم اهتمامكم بمجموعكم ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ لما اجتمعتم.

وأما اللطيفة السادسة: وهي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الخ، فهي كسوابقها النظر فيها للمجموع لا للأفراد، يقصد بها التحابّ والتعاون وعدم الخيانة، فيكون الناس كأعضاء أسرة واحدة. وقد نزلت هذه الآية ـ كما قال السدي ـ في جماعة كانوا يسمعون السرّ من النبي صلى الله عليه وسلم فيفشونه حتى يبلغ المشركين.

قال جابر بن عبد الله: إن أبا سفيان خرج من مكة فأخبر به جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، وقال: اخرجوا إليه واكتموا، قال: فكتب رجل من المنافقين إليه أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية.

وأيضاً نزلت في أبي لبابة، وذلك «أنه صلى الله عليه وسلم حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوه الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء بأرض الشام، فأبى إلاَّ أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا، وقالوا: أرسل لنا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا: ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله فنزلت فشدّ نفسه على سارية في المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام حتى خرّ معشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحلّ نفسك، فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده، فقال: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي، فقال عليه الصلاة والسلام: يجزيك الثلث أن تتصدق به».

وأما اللطيفة السابعة: فهي من نتائج السابقات، إذ جعل الأموال والبنين فتنة بهما يشغل الإنسان عن مجموع الأمة، وعلى قدر التهاون بالمجموع يبتعد الإنسان عن الله عزَّ وجلَّ ويقلّ نصره في الدنيا

والآخرة؛ فالمال والبنون فتنة، وامتحان للمرء في هذه الدنيا، فيختبر المرء، فإن جمع بين المال والولد ولم يشغلاه عن المجموع كان عبد الله حقاً، ومن طمست بصيرته فاكتفى بما لديه، فإنه جهل المجموع ولم يعرف نظام الإنسانية العامة ولا الإنسانية الدينية، وكفى بالجهل باباً للعذاب في جهنم وبئس القرار.

القسم الرابع

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٣٧) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٤٠) ﴾

التفسير اللفظي

اعلم أن الله عزّ وجلّ لما ذكر نعمه على المؤمنين بقوّتهم بعد ضعفهم وبنصرهم بعد ذلهم وبأمنهم بعد خوفهم أعقبه بذكر ما أنعم به على النبي صلى الله عليه وسلم فيما اتفق له في مكة، وكان وقت نزول هذه الآيات بالمدينة.

ومحصل ما ذكره المفسرون في سبب نزول هذه الآيات أن قريشاً خافوا لما أسلم الأنصار أن يعظم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجتمع نفر من قريش في دار الندوة ليتشاوروا في أمره، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ نجديّ فدخل معهم، فقال أبو البختري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدّوا منافذه غير كوّة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت. فقال الشيخ النجديّ: بئس الرأي، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع. فقال: بئس الرأي، يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق

دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على ضرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه. فقال: صدق هذا الفتى، فتفرّقوا على رأيه، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر وأمره بالهجرة، فبيّت علياً رضي الله عنه في مضجعه وخرج مع أبي بكر رضي الله عنه إلى الغار، وذكر بعضهم أنه أخذ قبضة من تراب وأخذ الله عزّ وجلّ أبصارهم عنه، فخرج ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٨-٩]، وبات المشركون يحرسون علياً وهوعلى فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحسبون أنه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أصبحوا ثاروا إليه ليقتلوه فرأوه علياً، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري. فاقتفوا أثره وأرسلوا في طلبه، فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر، فمكث في الغار ثلاثاً ثم خرج إلى المدينة.

قال القاضي رحمه الله: إن هذه القصة موافقة للقرآن، ولكن حديث إبليس وظهوره بصورة إنسان باطل، ولقد ردّ عليه العلأمة الرازي. أما أنا فأقول: إن العلم الحديث جعل مثل هذه الأمور جائزة، فإن الأرواح الشريرة تظهر بأشكال شتى ولا مانع من ذلك، وليس المقام مقام تحقيق فإنه ليس يهم في تفسير الآية.

وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أصل المكر: الاحتيال في خفية ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليحبسوك، وهو رأي أبي البحتري ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ وهو رأي أبي جهل ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ طرداً، وهو رأي هشام بن عمرو كما تقدم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ يعاملهم معاملة الماكرين بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً.

ثم اعلم أن النضر بن الحارث من بني عبد الدار كان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم وأسفنديار وأحاديث العجم، وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ويبكون، فلما جاء مكة وجد النبي صلى الله عليه وسلم قد أوحي إليه وهو يقرأ ويصلي، فقال النضر بن الحارث: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ يعني مثل هذا الذي جاء به محمد ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ الخ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويلك إنه كلام الله فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ نوع آخر من جنس العذاب الأليم وقد أجاب الله دعاءه فقتل صبراً يوم بدر. والمقصود من هذا القول التهكم وإظهار اليقين على كونه باطلاً. وروى أيضاً البخاري ومسلم عن أنس أن أبا جهل قال كما قال النضر، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ الآية، فلما أخرجوه نزلت: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

إيضاح المقام

قالوا: نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقيم بمكة، ثم لما خرج منها بقي بقية من المسلمين يستغفرون، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

ثم لما خرج أولئك المسلمين من بين أظهر الكافرين، أذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم. وقال ابن عباس: لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه، قال الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يعني المسلمين، فلما خرجوا قال الله: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: أيّ شيء يمنعهم من أن يعذبهم الله بالقتل والأسر بعد خروجك من بين أظهرهم ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أي: وحالهم ذلك، ومن ذلك الصدّ إلجاؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الهجرة وإحصارهم عام الحديبية ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ﴾ مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وذلك ردّ لما كانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ من الشرك ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا ولاية لهم عليه، وأما أقلهم فإنه يعلم أن دين الإسلام حق، ولكنه يعاند ويكابر كبرياء وخيلاء. وكيف يكونون ولاة البيت ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ أي: صفيراً وتصفيقاً. وكيف يكون الصفير بالفم والتصفيق باليدين صلاة، وذلك لأنهم كانوا على دين الخليل عليه السلام، وقد مضت الأحقاب تلو الأحقاب والقوم قد خلوا من الحكمة، فانقلبت صلاتهم مدعاة للضحك والسخرية من صفير وتصفيق كما يفعل بعض جهلاء الصوفية من ضرب على الدفوف ورفع الأصوات في الطرقات في المساجد.

ولقد تفنن القوم في هذه الجهالة العمياء، ونسوا الصلاة الإسلامية، والتوجه لذي الجلال والإكرام فيها، والتوجه بالقلب لله في العبادة، شأن كل دين نام عنه حكماؤه، وغاب عنه علماؤه، وذهبت دوله، وضاع مجده، وتبدل شأنه، وغابت شمسه، وأقبل ظلامه، وذهب ضياؤه ومضاؤه، واستبدل بسعوده نحساً، وبرفعته خفضاً، وبأوجه حضيضاً، وبشرفه ضعة. ساء مثلاً القوم الجاهلون.

قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، ويقال: مكا الطائر يمكو، إذا صفر. وقال حسان بن ثابت: صلاتهم التصدي والمكاء، ولذلك عذّبهم الله فقال: ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي: القتل والأسر يوم بدر عذاب الآخرة يوم القيامة ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ اعتقاداً وعملاً.

هذه هي عبادتهم البدنية وهي: المكاء والتصدية. أما عبادتهم المالية التي لا جدوى لها أيضاً، فذلك أنه لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر، ورجع أبو سفيان بعيره إلى مكة، مشى عبد الله بن أبي ربيعة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش قد أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا فحصل ذلك يوم أحد، فقال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: كان غرضهم في الإنفاق الصدّ عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبيل الله ﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾، ثم تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة ﴿ ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ آخر الأمر، وقد تم ذلك كله، وهذا من دلائل النبوّة لأنه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: الذين ثبتوا

على الكفر منهم لأن بعضهم قد أسلم ﴿ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ يساقون، وإنّما يحشرون ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ الفريق الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين ﴿ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ ﴾ الفريق الخبيث ﴿ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا ﴾ فيجمعه ﴿ فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ﴾ أي: الفريق الخبيث ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الإشارة للفريق الخبيث ﴿ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أنفسهم وأموالهم ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أي: أبي سفيان وأصحابه ﴿ إِن يَنتَهُواْ ﴾ عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول في الإسلام ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ لهم من العداوة ﴿ وَإِن يَعُودُواْ ﴾ لقتاله ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ بإهلاك أعداء الأنبياء في الدنيا ونصر الأنبياء والأولياء. وقد أجمع العلماء أن الإسلام يجبّ ما قبله، وإذا أسلم الكافر لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية والمالية، وهو ساعة إسلامه كيوم ولدته أمه، فليس عليه ذنب ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ لا يوجد فيهم مشرك ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي: تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ ﴾ عن الشرك وإيذاء المؤمنين والصد عن سبيل الله ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فلا يخفى عليه شيء ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ يعني أعرضوا عن الإيمان وأصروا على الكفر وعادوا إلى القتال ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ وليكم وناصركم وحافظكم فثقوا له ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ لا يغلب من نصره، فمن كان في حفظه ونصره وكفايته وكلاءته، فهو له نعم المولى ونعم النصير.

لطيفة في قوله تعالى:
﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾
وفي بقية الآيات

اعلم أن هذا المقام مقام إظهار الحقائق وإبطال الأباطيل، وأن الله ناصر الصادقين وخاذل المبطلين، ولم يقصه علينا لمجرد التلاوة ولا لمجرد القصص، ولكن أنزله الله وقرئ على طول الأزمان ليكون ذلك عبرة لنا.

واعلم أيها الذكي أني ما كتبت في هذا التفسير حرفاً ولا خططت بقلمي كلمة إلاّ وفي قلبي استشعار النصر ورجاء الرحمة واعتقاد النعمة، ألا وإن هذا زمان العلوم والعرفان، وإن الله قد قلب الكرة الأرضية فجعلها أمماً ودولاً تجدّ في العلم وتبحث في هذه العوالم المحيطة بنا، وإني قد انبعثت همتي من إبان صغري لتدوين الحقائق العلمية مع الآيات القرآنية، وقد وجدتها في نفسي كالفطرة وكالغريزة، فلم أقدر على مكاوحتها ولم يمكني دفعها.

وقد قال علماء النفس الإسلاميون والصوفية منهم: إن فكر الطاعة إذا كان ثابتاً في النفس هادئاً دائماً فإنه من الله، وضدّه ما كان من الشيطان، وفكرة الشر التي تحدث باستفزاز من الشيطان، وفكرة الخير المستفزة للمرء الوقتية أيضاً تكون من الملائكة.

ولقد وجدت نفسي تائقة لهذه المباحث عاكفة عليها، وكم شدّ عليّ النكير قوم، وكم أوذيت في هذه السبيل، ولكن النصر وجدته حليفي، وإعانة الله كانت تكلؤني، والمشجعات القلبية، والأخبار الواصلة من الآفاق، وآلاء الله المترادفة، وإعاناته المتتابعة، وعرفانه المتوالي، وإلهامه الصادق، وولاءه

الدائم. كل ذلك قد حلّ في نفسي محلاً جعلها تثق بعون الله، وبأن هذه الأمة الإسلامية ستتبوأ مكانها اللائق بها، وتحل محلها الرفيع، ومقامها البديع، ومجدها الباذخ، وعزها الشامخ، وسعادتها المقبلة، وأن الله سيغيّر أطوار هذه الأمة من الجهل إلى العلم، ومن السكون إلى الحركة، ومن الذل إلى العز، ومن الضعة إلى الشرف.

وسيظهر في هذه الأمة حكماء صادقون وعلماء محققون ويكوّنون شرف الإنسانية وذخر الأمة المحمدية، ويكون لهم القدح المعلى في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وسيكون فيهم من يتتبع صنعة ربه وبدائعه، وسيقرؤون هذا التفسير وما ماثله من كتب علماء الإسلام في بلاد الشرق.

وبهذه الصفة يدرسون الوجود وما حواه، ونظام الكواكب وما والاه، وعجائب النبات وما سقاه، وبدائع الحيوان وما غذاه، وغرائب الهواء في مجراه، وأنواع الماء في مسراه، وفي باطن الأرض ومنتهاه. وهذا سر قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

اللهم إني وثقت بوعدك وقد وعدتنا في القرآن. اللهم أتمم النعمة على هذه الأمة التي استذلها الطامعون وحقرها الأوروبيون. اللهم أعزّها وانصرها وعلمها وانشلها من الجهالة العمياء إلى نور العلم المبين. انتهى الكلام في القسم الرابع.

القسم الخامس

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ
عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم
مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ
ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن
جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن
يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ
يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ
فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ
تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ
لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا
يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ
ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ
يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ
ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

مقدمة لتفسير هذه الآيات

اعلم أن الغنيمة : ما أخذ من مال الكفار على سبيل القهر والغلبة بإيجاف خيل عليه وركاب ، والفيء : ما أخذ من مال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب .

وقد ذكر حكم الغنائم هنا ، وملخصه : أنها تقسم خمسة أقسام : أربعة منها للمقاتلين ، وواحد يقسم على خمسة أقسام :

قسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خمس الخمس . وقسم لأقاربه وهو بنو هاشم وبنو المطلب دون بني عبد شمس وبني نوفل ، وقد استحقوه لما روي : «أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان ابن عفان يكلمان النبي صلى الله عليه وسلم فيما يقسم من الخمس في بني هاشم وبني المطلب ، قال : فقلت : يا رسول الله ، أعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد . وفي رواية : إنّا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام ، وإنَّما نحن وهم شيء واحد ، وشبك بين أصابعه» . وقسم لليتامى . وقسم للمساكين . وقسم لابن السبيل وهو المسافر البعيد عن ماله .

وأما الأخماس الأربعة الباقية : فيعطى للفارس منها ثلاثة أسهم : سهم له وسهمان لفرسه ، ويعطى الراجل سهماً واحداً .

وقال أبو حنيفة : للفارس سهمان وللراجل سهم ، ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال ، وحكم العقار كحكم المنقول . وعند أبي حنيفة يخيّر الإمام بين أن يجعل العقار مقسماً بينهم ، وبين أن يجعله للمصالح العامة . ومن قتل مشركاً استحق سلبه ، والسلب ما كان على المقتول من ملبوس وسلاح ، وهكذا الفرس الذي كان يركبه .

ثم إن خمس الخمس الذي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر الذي لذوي القربى قد سقط بوفاته صلى الله عليه وسلم ، وصار الكل مصروفاً إلى الثلاثة الباقية عند أبي حنيفة . وقال مالك : الأمر في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مفوّض إلى الإمام يصرفه إلى ما يراه أهمّ .

وأما الفيء ، فذهب الشافعي في أحد قوليه أنه لمصالح المسلمين ، ويعطى أولاً للمقاتلة ما يكفيهم ثم الأهم فالأهم من المصالح ، والأكثرون على هذا .

واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان له خمس الخمس ، فإنه كان يعطيه أحياناً لمن يراه أهلاً . روى عبادة بن الصامت قال : «أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر وبرة من جنب بعير فقال : أيها الناس ، إنه لا يحلّ لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلاّ الخمس والخمس مردود عليكم» . أخرجه النسائي .

إذا عرفت هذا فما أسهل أن تعرف قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ أي: الذي أخذتموه من مال الكفار قهراً ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أي: فثابت لله خمسه، وإنَّما ذكره الله للتعظيم، لأن الله له ملك السماوات والأرض، لا خمس الخمس المذكور في الآية ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ولقد تقدم تفصيل القول في هذا آنفاً وأزيد عليه هنا أن سهم النبي صلى الله عليه وسلم كان الشيخان أبو بكر وعمر يصرفانه إلى مصالح المسلمين عامة، كما كان يفعل صلى الله عليه وسلم، وهناك أقوال غير هذه ضربنا عنها صفحاً، ثم قال: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ محمد من الآيات والملائكة والنصر ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ أي: يوم بدر الذي به فرقنا بين الحق والباطل ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ المسلمون والكفار، يقول الله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم﴾ الخ، فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقنعوا بالأخماس الأربعة الباقية. فالمقصود بالذات هنا العمل بالأمر لا مجرّد العلم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة.

ثم إن الله قد أظهر في هذه الغزوة من الحكم الباهرة ما يؤيد النبوة ويثبت قلوب المؤمنين:

الحكمة الأولى: إن المؤمنين لما نزلوا بدراً كانوا بشفير الوادي الذي هو أقرب إلى المدينة. والشفير: هو الشط وهو العدوة ـ مثلث العين ـ وكانت هذه العدوة رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا يمشى فيها إلاّ بتعب، ولم يكن فيها ماء.

الحكمة الثانية: أن كفار مكة كانوا بالعدوة التي هي أبعد من المدينة وأقصى منها، وفيها الماء ولا تسوخ فيها الأرجل.

الحكمة الثالثة: أن ركب أبي سفيان المعبر عنه بالعير كان في مكان أسفل، أي: عند شاطئ البحر، فكان قريباً من كفار مكة يستظهرون بهم عند الحاجة، والمسافة بين الركب وبدر ثلاثة أميال.

الحكمة الرابعة: أن المؤمنين لما خرجوا ليأخذوا العير خرج الكفار ليمنعوها من المسلمين، فالتقوا على غير ميعاد، فكيف تمكن المحاربة إذن بين عدوين قويّ مستعدّ وضعيف غير مستعدّ؟ ولو أن الضعيف واعد القوي للقتال ثم علم حقيقة الأمر لتخلف طبعاً، فكيف به وهو لم يواعده؟.

فهذه الحكم الأربعة هي الآتي ذكرها في الآيات على الترتيب، والحكمتان الأوليان في حكم الواحدة، فكأنهما ثلاث حكم، وهذا قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بدل من «يوم الفرقان»، ﴿وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ أي: في مكان أسفل منكم، والجملة حال من الظرف قبله ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ﴾ أنتم وهم القتال ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ هيبة منهم ويأساً من الظفر.

كل ذلك دلالة على أن هذا النصر إنَّما هو من الله وأنه من دلائل النبوة، وهو مما زاد المؤمنين إيماناً ﴿وَلَٰكِن﴾ جمع بينكم على هذه الحال ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ حقيقاً بأن يفعل وهو نصر المؤمنين وخذلان الكافرين، ثم علق بقوله: «مفعولاً» قوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ ليكفر ﴿مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ من كفر بعد حجة قامت عليه ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ ويؤمن من آمن على مثل ذلك فالهلاك هو الكفر، والحياة هي الإيمان، أو ليضلّ من ضلّ على بينة، ويهتدي من اهتدى على بينة، أو يموت من يموت على بينة عاينها، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة،

فإن وقعة بدر من الآيات العجيبة الواضحة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه، وبإيمان من آمن وثوابه.

وهنا أخذ يذكر حكمة أخرى، فقال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وحاصله أن الله سبحانه وتعالى أرى النبي صلى الله عليه وسلم المشركين قليلاً، فأخبر أصحابه بذلك فكان ذلك تشجيعاً لهم على عدوّهم، ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم رآهم كثير في المنام لفشل أصحابه، أي: جبنوا عن القتال وتنازعوا في أمر القتال وترددوا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: عصم المسلمين من التنازع والمخالفة فيما بينهم وسلمهم من العزيمة، ثم إنه لما التقى الجمعان أرى الله المسلمين أعداءهم قليلاً في أعينهم حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن إلى جنبه: أتراهم سبعين. فقال: أراهم مائة. وذلك ليثبت الله قلوبهم وليصدّقوا رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم.

وكما قلل الكافرين في أعين المسلمين، قلل المسلمين في أعين المشركين، حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور فلا تقتلوهم واربطوهم في الحبال استقلالاً لهم واستصغاراً لشأنهم لقلتهم في عينه. ثم قال سبحانه: ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: أمراً كائناً، وهو إعلاء كلمة الله ونصر أوليائه وإذلال المشركين، وتكرير هذه الجملة لسببين مختلفين: فهناك القضاء المبرم باستيلاء المسلمين وغلبتهم على الكافرين مع اختلاف القوى وتباعد الأحوال، وهنا القضاء بتقليل الكثير في الأعين، ليكون ذلك باعثاً على القتال، فهما قضاءان بأمرين مختلفين: أحدهما سبب، والآخر مسبب.

لطيفة: إن قصة بدر قد فصلت تفصيلاً في مواضع مختلفة بحيث حللت تحليلاً مفصلاً ولكل جزء منها حكمة. ألا ترى أن الله ذكر في أول السورة: أولاً: النعاس الذي اعتراهم.

ثانياً: ونزول الماء عليهم.

ثالثاً: وتطهيرهم به.

رابعاً: وزوال رجز الشيطان عنهم.

خامساً: وتثبيت قلوبهم.

وهناك سادس: وهو إلهام الملائكة لهم بالتبشير، وبعضهم شاهدهم.

وهاهنا زاد كونهم بالعدوة الدنيا، وهو السابع.

وكون العدو بالعدوة القصوى، وهو الثامن.

وكون الركب جهة ساحل البحر، وهو التاسع.

وكونهم حاربوا على غير استعداد، وهو العاشر.

وكون النبي صلى الله عليه وسلم رآهم في منامه قليلاً، وهو الحادي عشر.

وكون المسلمين رأوهم لما التقوا قليلاً، وهو الثاني عشر.

وكون الكفار رأوا المسلمين في أعينهم قليلاً، وهو الثالث عشر.

وجاء في سورة «آل عمران الآية: ١٣» أن الله كثر المؤمنين في أعين المشركين، أي: بعد احتدام وطيس الحرب، كما قال: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾، فصار المؤمنون الذين هم ثلث المشركين تقريباً في أعين المشركين مثلي عدد المشركين، وهذا هو الرابع عشر.

فانظر أيها الذكي كيف ذكر القرآن ١٤ مسألة في غزوة بدر، بحيث لم يذر نعاساً يغشاهم، ولا مطراً يسقيهم، ولا خاطراً في نفوسهم، ولا رؤيا في منام نبينا صلى الله عليه وسلم، ولا رؤية أعينهم، ولا منزلهم الذي ينزلون فيه، ولا تراباً يمشون عليه، إلاّ ذكره وأظهر حكمته.

أليس هذا من العجب؟! أليس هذا التحليل يدلنا على أن نفكر فيما يحصل لنا من العجائب في حياتنا الدنيا، وأن نفكر فيما ينزل بنا من خير أو شر، ثم نعرف حكمة الله فيه.

إن أحوالنا كلها سلسلة متصلة شر وخير، ومرض وصحة، وآراء تعرض لنا، فعليك أيها العاقل أن تفكر في كل ما يصيبك وما تناله، وأن تحللها كما حلل الله غزوة بدر، وتلتمس لكل حال حكمة، وتسأل الله أن يعلمك حكمة ما حصل لك، فإن هذا يفتح بصائرنا، وينوّر قرائحنا، ويشرح صدورنا، ويدلنا على عيوبنا، ويبصرنا بذنوبنا، ويرشدنا إلى طرق الصواب؛ ولربّ حادثة واحدة في حياتنا مزعجة تنير بصائرنا إذا تأمّلناها.

وتفكر أيها العاقل فيما مرّ عليك فستجد من حكم الله فيها ومن العجائب ما لا يشاركك فيها سواك، فلكل امرئ تاريخ لحياته مستقل عن سواه، وإياك أن تستهزئ بتاريخ حياتك، فلتعلم أنه مملوء من العجائب متى فكرت فيه، كما أن الزهرة الواحدة تحمل كنزاً من العلم للمتفكرين، ولا يعرف لها معنى من لا يعقلون.

وانظر إلى أحوالك وكيف تجد نفسك يوماً قد أحببت إنساناً حتى عشقته، ووثقت بامرئ حتى جعلته قائماً بشؤونك كلها، ثم ترى بعد حين أن هذا المحبوب المعشوق ليس أهلاً للمحبة ولا للعشق، وأن هذا الموثوق به ليس أهلاً للثقة، فتنقلب الحال وتتبدل العواطف والأخلاق، ويصبح المحبوب مكروهاً، والأمين خائناً حقاً أو باطلاً، وهكذا كل ما حولنا وما نسمعه من القول والسير وما نشاهده من الأمور والصناعات. فترى زيد تزين له صناعة الحدادة، فأما عمرو فإنه يزدريها، وهكذا ترى جميع أحوالنا، كذلك الأغذية والملابس والمساكن، ولذلك ترى الناس لا يزالون يتقلبون وينتقلون من حال إلى حال ويخترعون.

وبهذه الآيات أظهر الله أنه غالب على أمره لا فرق بين الصالحين والطالحين والأنبياء والمرسلين. فهاهو ذا سبحانه أرى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام أن القوم قليل، ثم أراهم للمؤمنين كذلك نهاراً، فظنوا أن الألف مائة أو أقلّ، ورأى أهل مكة أن المؤمنين لا يصح أن يقاتلوا بل يربطون بالحبال وبعد أن دارت المعركة رأوا أن عدد نحو ثلاثمائة يبلغ ألفين فانهزموا.

كل ذلك ليتم أمره وينفذ حكمه في خلقه، ونحن نشاهد ذلك في أحوالنا، فترى زيداً يؤثر بقوله فينا، وهو كاذب فأصبح القليل كثيراً في أعيننا ثم نعمل به ويسمعه آخر منا، فيقول: هذا كاذب في دعواه فيرى كثير ادّعائه كاذب فيحجم عن آرائه، وكل هذا كالتطبيق على قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾[الآية: ٢٤].

ألا ترى أنه حال بين المشركين وبين قلوبهم لما أراهم المؤمنين قليلاً جداً، وبين المسلمين وقلوبهم حين أراهم المشركين مائة، وبين المشركين وقلوبهم لما رأوا المسلمين ضعفيهم، فنفذ أمره بهذه الآراء التي أحدثها في النفوس.

هكذا حال بين زيد وقلبه حينما صدّق عمراً لما كثر القليل وخدعه وغشه في معاملته، وإنّما فعل الله ذلك بزيد ليهذبه ويبصره بالعواقب، فإن لم يبصر بذلك توالت خطيئاته في أعماله.

بل الحياة الدنيا كلها وشهواتها ولذاتها وأموالها وجنودها وجيوشها ومالكها وحب الإقامة فيها من باب تكثير القليل، إذ نراها أضعاف أضعاف ما هي عليه من المنفعة، وبعد حين نعرف حقيقتها. ويرى الزهاد أن عظيمها حقير وكبيرها صغير.

كل هذا لتكثير القليل وتقليل الكثير ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠]، ويظهر أن هذه الحياة كمسرح التمثيل، وحواسنا وشهواتها تكبر لنا صورها، والحقيقة مختفية وراء هذه الصور المزوّقة. والنتيجة من هذه الصور والأشكال والحيرة وخداع الأعين والأبصار وتوالي الغفلات علينا وتزيين الشهوات لنا والحيلولة بيننا وبين قلوبنا.

كل ذلك لنتبصر ونتذكر أمر هذه الحياة وتتنوّر بصائرنا وترتقي عقولنا، ونعرف أن الحياة الدنيا لعب ولهو، ونستنبط الحكمة والعلم من هذه الأشكال كما تستنبط أجسامنا من المواد الغذائية حاجتها وترمي باقيها خارج الجسم؛ فلئن تعاطينا الماء والهواء والخبز وحرارة الشمس، فإن أجسامنا تعمل فيها أعمالاً كيمائية عجيبة، وتصطفي من ذلك مادة الغذاء الصافية وتوزعها على جميع أعضاء الجسم وترمي بالباقي من الماء والهواء خارجه، وإن زادت الحرارة فينا تداوينا منها.

هكذا هذه الصور والأشكال المحيطة بنا يجب أن تدرك العقول حقائق المقصود منها ولا تعبأ بها فالموت والحياة والغنى والفقر والصحة والمرض والمحبة والكراهة والعز والمنعة، كل هذه صور تمثل فينا ونحن المثلون لها لنعرف حقائقها وتهذبنا بوقائعها وندونها في نفوسنا ونرتفع بها إلى الملأ الأعلى، حتى إذا فارقنا هذه الدار كانت لنا سلاحاً وجناحاً نطير به في العلا ولا نبقى مع الجاهلين الذين يتسكعون في الطريق إلى الله بعد الموت.

والتأمل في أحوالنا يجد أننا أشبه بالمنوّمين تنويماً مغناطيسياً، فقد رأينا أن المنوِّم ـ بالكسر ـ يعطي المنوَّم حنظلاً ويقول: هو سكر، فيستلذه، ويعطيه سكراً فيقول: هو حنظل، فيتأذى منه، وهكذا يجعله يتكيف بما يقوله ويظن نفسه كما يوحي إليه المنوِّم.

هكذا نجد أحوال الناس في الدنيا، فترى نفوسنا تتقلب تقلباً كثيراً كما تقدم في الحديث: «إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن». وهو متردد أبداً بين المتضادات والمتناقضات، وكأننا في هذه الحياة نيام، فإذا انحلت أربطتنا من هذا الجسد، صعدنا إلى عالم أعلى، وتيقظنا من غفلتنا، ويقال لنا: إن بصرنا حديد.

ومما يعتري أنفسنا ما يكثر القليل ويقلل الكثير كما في غزوة بدر، فتقليل الكثير هناك نظيره عند الناس قاطبة المنظار المقرّب، فقد قلل المسافة بيننا وبين المنظور، وهكذا نظير تكثير القليل المنظار المعظم فإنه يرينا الصغير كبيراً، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠]. انتهى.

ثم أخذ سبحانه وتعالى يعظ المؤمنين فأمرهم:

أولاً: أن يثبتوا في الحرب ولا ينهزموا ويلاقوا الأعداء بقلوب واثقة بالنصر ووعد الله والدار الآخرة.

وثانياً: أن يذكروا الله في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به، داعين على عدوهم: «اللهم اخذلهم»، وذلك يكون سبب الفلاح والظفر والنصر والثواب، فينبغي للعبد ألاَّ يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل عليه فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في سائر الأحوال.

وثالثاً: أن يطيعوا الله والرسول فيما أمروا به ونهوا عنه على كل حال.

ورابعاً: أن لا يتنازعوا باختلاف الآراء كما اختلفوا ببدر، فإن ذلك يورث الفشل والجبن والضعف، ويذهب ريحهم، أي: قوتهم ونصرتهم.

وخامساً: أن يصبروا عند لقاء العدو في كل حال، فإن الله ينصر الصابرين ويعينهم. روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإن لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم». وروى الشيخان أيضاً: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا».

وسادساً: نهاهم أن يكونوا كأهل مكة الذين خرجوا من ديارهم، أي: من مكة ﴿بَطَرًا﴾ فخراً وأشراً ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة.

وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدراً، ونشرب بها الخمور، وتعزف علينا القينات، ونطعم بها من حضرنا من العرب، ويسمع بنا الناس فلا يزالون يهابوننا أبداً، فامضوا فوافوها. ولكن ماذا شربوا؟ شربوا كأس المنون وذاقوا العذاب الهون، وبكت عليهم الباكيات، ورمّلت نساءهم ويتّمت أطفالهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله، فنهى الله عباده أن لا يكون عملهم للرياء ولا لالتماس ما عند الناس، وأمرهم الله أن يخلصوا لله النية، وأن يكون قتالهم حسبة في نصر دينهم، ومؤازرة نبيهم صلى الله عليه وسلم وأن لا يعملوا إلاَّ لذلك ولا يطلبوا غيره. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وهذا وعيد وتهديد، يعني أنه تعالى عالم بجميع أعمال العباد، فيجازي المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته، وهذا هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

ثم أخذ سبحانه في إتمام الكلام على المشركين وكيف قلبت الحقائق عندهم، وحيل بينهم وبين قلوبهم، فقال: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: واذكر ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ في معاداة النبي صلى الله عليه وسلم بالوسوسة ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْۖ﴾ وذلك بما يوسوس في نفوسهم فيرون الفخر والعز والشرف، وبعد الصيت والسمعة فيما تخيلوه من أنهم يغلبون المؤمنين وأنهم لا يطاقون لكثرة عَدَدهم وعُددهم، وأن ذلك كله قربى إلى الله، والله يجير من ينصره ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: تلاقى الفريقان ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ رجع القهقرى، أي: بطل كيده وأصبح ما

تخيلوه فخراً وشرفاً سبب الهلاك والضعة والذلة ﴿ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ أي : تبرأ منهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المؤمنين بالملائكة ، وهذا المعنى قاله الحسن واختاره ابن بحر ، وقيل : إن الآية على ظاهرها .

وذلك أن قريشاً لما أجمعت على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحنة ، وكان ذلك يثنيهم فتمثل لهم إبليس بصورة سراقة بن مالك الكناني ، وقال : لا غالب لكم اليوم وإني مجيركم من بني كنانة ، فلما رأى الملائكة تنزل نكص ، وكانت يده في يد الحارث بن هشام ، فقال له : إلى أين ، أتخذلنا في هذه الحالة ؟ فقال : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ ، ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهزموا ، فلما بلغوا مكة قال : هزم الناس سراقة ، فبلغه ذلك فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم ، فلما أسلموا علموا أنه الشيطان ، فيكون على هذا قوله : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ إني أخافه إذ يصيبني بمكروه من الملائكة أو نحو ذلك ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لمن كفر وطغى ؛ واذكر ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي : الذين هم مؤمنون ، ولكن بقيت عندهم شبهة ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ المؤمنين ﴿ دِينُهُمْ ﴾ فتعرضوا للهلاك وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً يقاتلون نحو ألف ، فأجاب الله قائلاً : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يذل من استجار به ، غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي ، كما سلط البعوض على الفيل فلا يقدر على التخلص منه ، وكما يسلط الذرات المسماة مكروباً على الإنسان والحيوان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل بحكمته البالغة في هذا العالم ما تستبعده العقول ، ويعجز عن إدراكه أولو الألباب ، ويجعل من الفحم الحجري الذي كان من أمد قديم في باطن الأرض ناراً ونوراً وأنواعاً من الأصباغ والألوان والعجائب ، مع أن منظره ليس فيه إلاّ أنه فحم أسود اللون لا شية فيه .

وهكذا يفعل بحكمته العجب العجاب ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ ولو عاينت وشاهدت ، فإن «لو» تجعل المضارع ماضياً ، و«إن» بعكسها ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لـ«ترى» ﴿ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ببدر ، أي : ولو رأيت الكفرة حين يتوفاهم الملائكة ، أي : يقبضون أرواحهم ببدر حال كونهم ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ إذا أقبلوا ﴿ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ أي : ظهورهم إذا أدبروا ﴿ وَ ﴾ يقولون ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أي : ذوقوا مقدمة عذاب النار ، وجواب «لو» محذوف ، أي : لرأيت أمراً فظيعاً . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الضرب والعذاب ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصي وهو خبر «ذلك» ، ثم عطف على لفظ «ما» قوله : ﴿ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي : بذي ظلم . يقول : ذلك العذاب بسببين : بسبب كفركم ومعاصيكم ، وبأن الله ليس بظلاّم للعبيد ، لأن تعذيب الكفار من العدل ، والمراد بـ«اليد» هنا : القدرة . ثم قال : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : دأب هؤلاء وعادتهم كدأب آل فرعون وعادتهم وطريقهم ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل آل فرعون ، ثم بيّن دأبهم فقال : ﴿ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي : ما حلّ بهم ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ بسبب أن الله ﴿ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ يبدّلوا ما بهم من حال إلى حال أسوأ . وذلك أن الله أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، وبعث لهم رسولاً من أنفسهم ، فقابلوا هذه النعم بالكفران فلم يشكروها ، وكذبوا رسوله وقطعوا الرحم ، وغيّروا ما بأنفسهم ، فسلبهم الله النعمة وأخذهم بالعقاب .

قال السدي: نعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم أنعم به على قريش، فكفروا به وكذبوه فنقله الله إلى الأنصار ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لما يقول مكذبو الرسل ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما يفعلون فيجازيهم بما فعلوا ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ تكرير للتأكيد، يعني أن هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم، كصنيع آل فرعون ﴿ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فبعضهم أهلكناه بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالريح، وبعضهم بالمسخ، فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ يعني الأولين والآخرين.

واعلم أن هذه الآية كما كررت للتأكيد كانت لبيان أن آل فرعون أهلكوا بالإغراق وأنهم جحدوا نعم التربية، وأهم من ذلك كله حكمة عالية وآية عجيبة. ذلك أن هذه السورة مدنية ولقد نزلت سور كثيرة من القرآن في مكة، وجميع السور المكية فيها إهلاك الأمم بالكفر.

ولقد ذكرت قصص الأمم وأخبارها كثيراً في سور مختلفة، بحيث أصبح ذلك مألوفاً معروفاً لقراء القرآن، وفي تلك السور كلها إشارات وتصريحات أن المكذبين للنبي صلى الله عليه وسلم سيكونون مثل الأمم السابقة يصيبهم ما أصابهم. ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ [الدخان: ٣٧]، وإلى قوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر: ٦] إلى قوله: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٠-١٤].

وهكذا كانت السور المكية مشحونة بهذا الإنذار والتخويف، وهو صلى الله عليه وسلم إذ ذاك لا جيش له ولا حماية ولا قوة ولا سلاح، ولا يظن أنه يكون كذلك ممن كانوا حوله، فلما هاجر إلى المدينة ونصر في غزوة بدر وهزم أهل مكة ذكرهم الله فقال: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ وكررها منبهاً على حصول ما كانوا ينذرون به. وهذا هو السبب في تكرارها تنبيهاً على المعجزة.

ولعمري إن هذه هي المعجزة حقاً، وكيف لا تكون من أهم المعجزات وقد حصل المنذر به وأهلكوا كما كانوا ينذرون. اهـ.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أصرّوا على الكفر ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فلا يتوقع منهم إيمان ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ بدل من «الذين كفروا» بدل البعض تبييناً وتخصيصاً. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد يهود بني قريظة ألا يحاربوا ولا يعاونوا عليه أحداً، فنقضوا العهد وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضاً ومالؤوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمراد بـ «المرة» مرة المعاهدة والمحاربة ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أي: لا يخافون الله في نقض العهد ولا سبة الغدر ومغبته، ومن جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾. قال ابن عباس: معناه: فنكل بهم من

وراءهم. وقال سعيد بن جبير: أنذر بهم من خلفهم. والتشريد: تفريق على اضطراب ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي: لعل ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ ﴾ معاهدين ﴿ خِيَانَةً ﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ فاطرح إليهم عهدهم ﴿ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ يعني: على طريق ظاهر مستو، أي: أعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم بنقض العهد سواء، فلا يتوهمون أنك نقضت أولاً بنصب الحرب معهم، وهذا إذا ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتتضح من غير استفاضة كما يفهمه لفظ «تخافنّ»، فحينئذ يجب على الإمام أن ينبذ إليهم ويعلمهم الحرب، وذلك كما اتفق لبني قريظة إذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه فظاهروهم على النبي صلى الله عليه وسلم، فخاف النبي صلى الله عليه وسلم الغدر به وبأصحابه؛ وأما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد، بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمرّ الظهران، وذلك على أربع فراسخ من مكة، وقد علل سبحانه الأمر بنبذ العهد وإعلام الأمر وإظهاره قبل الحرب لما أنه لم يكن مستفيضاً بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ الذين يحاربون قبل أن ينبذوا العهد حينما تظهر أمارات نقض العهد.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ من خلفهم ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ وجملة: «الذين كفروا»: مفعول أول، وجملة «سبقوا»: مفعول ثان، وفي قراءة (وَلَا تَحْسَبَنَّ) يا محمد (الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا)، والمفعولان كما هما؛ أي: ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم، ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ أي: إنهم لا يعجزون الله فلا ينتقم منهم، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين، ولم ينتقم منهم، فأعلمه الله أنهم لا يعجزونه، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ «الإعداد»: اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه. و«القوة» قال العلماء: إنها جميع أنواع الأسلحة والآلات التي تكون قوة في الحرب على قوة الأعداء والحصون والمعاقل والرمي، وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول: «﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾: ألا إن القوة الرمي» أخرجه مسلم. والمقصد أنه من جملة المأمور به وسيأتي تفسير هذا المقام قريباً.

قال تعالى: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، فهي فعال بمعنى مفعول، وهو معطوف على «قوة» كما عطف «جبريل وميكال» على «الملائكة» ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ ﴾ أي: تخوّفون بما استطعتم ﴿ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ يعني: كفار مكة ﴿ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ من غيرهم كاليهود والمنافقين والفرس والروم والأمم الأوروبية الحالية الذين لا يخافون إلاّ إذا تأهب الناس لحربهم، وقاموا لمقاطعتهم وهبوا لمناجزتهم ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم، وإنّما هم أمم من الكفار تقابل وتعادي أمماً من المسلمين على توالي الأزمان، فكلّ يعلم من يحاديه ولا يعرف سواه، والله يعلم الجميع لأنه يحيط علماً بمخلوقاته وهو قوله: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ ثم حرّض على الإنفاق في الحرب ليعدّوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل الذي لا يتم إلاّ ببذل المال، فقال: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ ثوابه ﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً.

لما ذكر الله المعاهدة ونبذها، وأنه يحب إعلان الحرب إذا كانت هناك أمارات لنقض العهد، وكذلك إعداد العدة والكراع والسلاح، إذ يقول: إن هذه العدة لا يقصد منها أن يكون المسلمون دائماً مهاجمين محاربين، وإنما الاستعداد لقصد الإرهاب فيهابونكم، وهذا الإرهاب هو الذي يجعل الناس تحترم دولتكم، وتخشى جانبكم، فيرغبون في صلحكم والسلم معكم، ولا سعادة في الدنيا بغير السلم مع الاحتراس وإعداد العدة، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ ﴾ مالوا للصلح والاستسلام ﴿ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ وعاهدهم ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فوّض أمرك إلى الله فيما عقدته معهم ليكون عوناً لك في جميع أحوالك، ولا تخف من إبطانهم خداعاً فيه، فإن الله يعصمك من مكرهم ويحيقه بهم ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوالهم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنياتهم ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ كافيك. قال جرير:

إني وجدت من المكارم حسبكم ... أن تلبسوا خزّ الثياب وتشبعوا

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ ﴾ قوّاك بأسباب النصر الباطنة ﴿ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم الأسباب الظاهرة ثم بيّن كيف أيده بالمؤمنين فقال: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ومنهم الأوس والخزرج، فقد ألف الله بين قلوبهم بعد تعاديهم مائة وعشرين سنة.

ومعلوم أن العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والأنفة والعصبية القوية والضغينة والعداوة الموروثة عن الآباء والأجداد، ولا تزال هذه الأمور مشاهدة في أبناء العرب قومنا بمصر والشام وبلاد المغرب والعراق لم تفارقهم، فهم ينقادون لحمية الجاهلية، وكلما كانوا أقرب إلى البداوة كعرب مصر كانوا أغرق في هذه الحال.

فانظر كيف ألف الله بينهم لما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصبحوا إخواناً، وهذه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، فإن اجتماع قلوبهم أمر لا يعهد له نظير مع هذه العداوة والحمية، ولذلك قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ جمع بين قلوبهم وكلمتهم بالإسلام ﴿ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ ﴾ يقهر من يخدعونك ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ينصر من يتبعونك.

ويا ليت شعري، أليس هذا هو النبي العربي؟ أليس هو جدنا وعم أقاربنا ودينه بين ظهرانينا؟ وكيف ألف الله بين قلوب العرب في الجاهلية ولم يؤلف بين أبنائهم في الإسلام؟.

يا ليت شعري، ما لي أرى أبناء العرب في بلاد مراكش وفي الجزائر وتونس وطرابلس والشام والعراق والحجاز لا يكادون يعرفون أنهم أبناء أولئك الأمجاد الكرام.

يا عجباً كيف يتقوّى رجال إسبانيا بالعرب على العرب في مراكش؟ وكيف تقوّى أهل فرنسا على العرب بالعرب في مراكش والجزائر؟ كيف وكيف؟ كيف أصبح أبناء العرب أشتاتاً حتى أذلتهم أوروبا؟ أليس ديننا هو ديننا؟ أليس القرآن هو القرآن؟ أليس هؤلاء أبناء أولئك؟.

أقول: نعم إنهم أبناؤهم ولكن لم يظهر في الأمة من يجمع الكلمة، فلكل قائد رغبة في السياسة على قومه، وأكثرهم يأخذ النقود من الفرنجة ويحاربون إخوانهم وذلك لشدة جهالتهم وقلة تربيتهم، وأنه لم يظهر في الإسلام مصلح عام الإصلاح يقوم خليفة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هم جميعاً يتحاربون ويتعادون على حطام الدنيا القليل، دلالة على أن العقول ضعيفة والنفوس ذليلة.

أوَما علموا أن اتحادهم يكسبهم عزة وقوة ومنعة؟ أوَما علموا أن أمم أوروبا مع اختلاف لغاتهم وأجناسهم يتحالفون ويتحدون ويأتلفون على ابتلاع المسلمين، وأبناء العرب نائمون.

يا عجباً كل العجب، تتحد الذئاب على اقتناص الشياه، ولا تتحد الشياه على الفرار فضلاً عن أنها تستأسد وتصدّ العدو المغير والآساد المفترسة.

ولئن رأينا آباءنا في الصدر الأول قد تعادوا واقتتلوا ليكونن الاجتهاد هو الذي أداهم إلى ذلك وكان لهم ملم عظيم يخافون أن يضيع، فلما تعادوا لم يضع ملكهم، ولو رأوه آيلاً للزوال بالتقاتل لم يتعادوا، كما قال معاوية رضي الله عنه في خطابه لملك الروم لما طلب منه الجزية: «لئن لم تكفّ عن طلبك الجزية لأصالحن صاحبي ـ يعني علياً ـ وأكون أول جندي يحاربك»، فكفّ ملك الروم عنه.

أما أبناء العرب الآن فإنهم ساهون لاهون جاهلون يتقاتلون ليستعبدهم الفرنجة وهم في غيهم يعمهون. فهذا دليل على أن الله لم يؤلف بين قلوبهم، وهذا دلالة على أن دين الإسلام عندهم ليس في المنزلة التي كانت له عند أسلافهم.

هذا تحقيق المقام فلينظر أبناء العرب إخواني في أنفسهم، وليتفكروا ولينظروا لهم مخرجاً. فإما حياة سعيدة واتحاد إيماني؛ وإما أن يصبحوا عبيداً للفرنجة خاضعين. ثم قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ ﴾ كافيك ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في محل نصب مفعول معه. قال الشاعر:

إذا كانت الهيجاء واشتجر القنا فحسبك والضحاك سيف مهند

والمراد بالمؤمنين: المهاجرون والأنصار، فيدخل فيها عمر وغيره، فلا لزوم لتخصيصها به وهي مدنية.

وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ بالغ في حثهم عليه. وقرئ: «حرص» من: الحرص ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾. وفي قراءة: (وَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ) ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم، فيقلّ ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته.

روى البخاري عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ كتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين، ثم نزلت: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ الآية، فكتب أن لا يفر مائة من مائتين. وفي رواية أخرى عنه قال: لما نزلت: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ شقّ ذلك على المسلمين فنزلت: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ الآية. فلما خفف الله عنهم من العدة نقص عنهم من الصبر بقدرة ما خفف عنهم، وعلى هذا تكون هذه الآية ناسخة لما قبلها وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ بالنصر والمعونة. ويقال: إن قتال الواحد للعشرة كان في يوم بدر فثقل ذلك وعلم الله أن فيهم ضعفاً في قتال الواحد للعشرة، قال العلاّمة الرازي ما ملخصه: «واعلم أن جمهور العلماء ادّعوا أن قوله: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ ناسخ للآية المتقدمة».

وأنكر أبو مسلم الأصفهاني هذا النسخ وبيّنه بأن وجوب مقاومة العشرين للمائتين مشروط بأن يكونوا قادرين على الصبر في مقابلة المائتين، وقوله: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ الخ يدل على أن

ذلك الشرط غير حاصل في حق هؤلاء، فصار الحكم دائراً مع وجود الشرط وجوداً وعدماً، ويصير المعنى: إن حصل منكم عشرون موصوفون بالصبر على مقاومة المائتين، فليشتغلوا بمقاومتهم، وإذن فلا نسخ. وليس ذكر التخفيف يدل على حصول التثقيل قبله، لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا، وفي القرآن: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾[النساء:٢٨] وذلك عند الرخصة للحر في نكاح الأمة وليس هناك نسخ. انتهى ملخصاً مختصراً.

وعلق عليه العلاّمة الرازي، فقال: إن ثبت إجماع الأمة على الإطلاق قبل أبي مسلم على حصول هذا النسخ، فلا كلام عليه، فإن لم يحصل هذا الإجماع القاطع فنقول: قول أبي مسلم صحيح حسن. اهـ من الرازي.

عجائب القرآن في هذا العصر

إني وأيم الله لفي عجب من هذه الحكم العجيبة، وآيات الله الحكيمة، فبينما أنا أفسر في أول هذه السورة إذ وردت الأخبار في الجرائد يوم الثلاثاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ ما يفيد أن العشرين يغلبون مائتين، وأن المائة يغلبوا ألفاً في حرب المسلمين بمراكش مع الإسبانيين، فعجبت كل العجب وأيقنت بهذا وبتكرار أمثاله في الآيات السابقة أن هذا التفسير ملحوظ بالعناية الإلهية والمساعدة الربانية. فقد وردت الأخبار أن القبائل الجبلية بمراكش انضموا إلى جماعة المحاربين بالريف القائمين بمحاربة الإسبان ليتخلصوا من استعبادهم، وأن رجال القبائل تنبهوا الآن، وكثير منهم قتلوا رؤساءهم الذين أغراهم الإسبانيون بالمال، أي أنهم يريدون الرجوع إلى العصر الأول عصر الاتحاد بالدين، وأن هناك معركة في «وادي توّه» هجم فيها الإسبانيون بثلاثين ألف جندي على رجال عبد الكريم، فنشبت معركة هائلة دامت ثلاثة أيام متوالية، وفقد الإسبانيون فيها ثلاثة آلاف جندي بين قتيل وجريح، ثم ارتدوا على أعقابهم خاسرين. وكانت قوات الأمير الريفي ثلاثة آلاف مقاتل، وهؤلاء هم الذين قتلوا قائدهم المسمى «سعد بن مرزوق» الذي أسبغ عليه الإسبان نعمهم ليحارب المسلمين. «انظر الأهرام المؤرخ ١٢ أغسطس المذكور».

ثم أقول: هاأنا ذا الآن في ليلة الأربعاء ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٦ أحضر التفسير للطبع، وأقرر أن الأخبار وردت أن عبد الكريم سلم نفسه للفرنسيين، ولا تزال الحرب كما هي بعد أن ظن الناس أنها قد انتهت، وهؤلاء لا يزالون يحاربون الفرنسيين والإسبان معاً.

أفليس من العجب أن تكون هذه الواقعة مذكورة بنصها أن ثلاثين ألفاً قاتلهم ثلاثة آلاف مسلم؟ أليس هذا هو ما ذكرته الآية؟ وإذن نقول الأمة الإسلامية اليوم تجدد مجدها وعهدها، وكيف قاوم ثلاثة آلاف ثلاثين ألفاً، وكيف تصادف أن يكون وقت تفسير هذه الآيات.

إن ما نصت عليه الآية الأولى أصبح موجوداً في الإسلام، فهل نقول لا تجب عليهم المقاومة؟ كلا. بل نقول: تجب، لأن هؤلاء ثلاثة آلاف صابرين قادرين على القتال.

ولو أن ذئاباً دخلت قريتنا وهي ٣٠٠ ذئب، وعندنا ثلاثة رجال أقوياء وهم قادرون على طردهم، لوجب على هؤلاء الرجال طردهم. وبعض أهل أوروبا ذئاب، فهل إذا وجدنا عندنا رجالاً ذوي قوة قادرين على طردهم نقول لا يجب عليكم؟ كلا. بل هو واجب، فالوجوب تابع للقدرة.

ولو أن ثلاثين مريضاً دخلوا قرية ليقاتلوها ووجدنا ثلاثة أقوياء أفلا يؤمرون بقتالهم على فرض أن لا قادر سواهم.

إن كلام أبي مسلم لا غبار عليه كما قاله العلاّمة الرازي، وقد أيده الواقع الذي شاهده الناس في هذا الأسبوع، ولقد تكرر ذلك كثيراً في حرب الأندلس وحرب الترك وغيرهما. فتعجب من الحكمة والعلم والقرآن.

لطيفتان: الأولى: قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

إن علم النفس وتأثير قواها في أحوالنا اليومية وأخلاقنا الشخصية أصبح منتشراً في أوروبا وأمريكا، ولهم الفصول الطوال فيه.

ويقولون: إن النفس مخزن كقوة مودعة سموها القوة المغناطيسية، وقد ذكرت هذا المقال في سورة «البقرة» فارجع إليه هناك؛ فعلى العاقل إذا أراد السعادة أن يحفظ اللسان والشهوات والرغبات ومدح النفس وكثرة الضحك، وأن يكون رزيناً ساكناً قليل الإعجاب، قليل الحركات، قليل التلهف على مطالبه، واثقاً بما يريد موقناً به، حافظاً لكل كلمة وحركة وفكرة. ويقولون: إن هذه القوى تحفظ للإنسان ذخيرة وتجعله وقوراً. ويقولون أيضاً: إن قوة العزيمة وتوجه النفس للمطلوب والثقة بحصوله لها أثر في الخارج، ولهم أدلة خطابية سفسطية في ذلك، ولكنهم يعتمدون على التجارب، فالتجارب عندهم هي محور الأعمال.

وبالجملة: إن النفس الإنسانية لها آثار في الناس حقاً، ومن أراد الخير فليجعل النفس متوجهة إليه. ولا حاجة إلى الإطالة في هذا بعد ما بينا في سورة «البقرة».

ولا أدلّ على ذلك في القرآن من قوله في هذه الآية: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ الخ، وقوله تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ إلى قوله: ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾، فجعل الفقه النفسي والفكر الوجداني والشعور الإنساني منشأ الانهزام في الحرب. وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[الأنفال: ١٢]، وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾[آل عمران: ١٢٦]. ولذلك يقول هؤلاء العلماء الأوروبيون: إن المرء إذا استشعر في نفسه حصول مطلوبه وهو ثابت العزم قويّ الإرادة، حصل له مطلوبه. وفي الحديث: «أنا عند ظنّ عبدي بي»، وفي الآية: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ ﴾[الحج: ١٥] الآية.

فهذا على أحد وجهيه يرجع لسوء الظن بالله، وهو اليأس، فكل هذه ترجع إلى أن شعور الناس بالخير والشر مؤثر في أخلاقها وأحوالها، ويبرهن على ذلك الفلاسفة قائلين: «إن الإنسان يمشي على الحائط فيسقط لتكرار الوهم وإلحاحه عليه إنك ساقط فيسقط، ولكنه في العادة وهو على الأرض لا يمشي على ما هو أوسع من ذلك الحائط». وقد جعلوا هذا الدليل المعلوم عند العموم مقدمة للاعتراف بما يحدث في النفوس البشرية من آثار أفكارها من حبّ وبغض وسعادة وشقاء وما تجلبه تلك الآراء من أحوال الإنسان المادية، فإن استحضاره في نفسه أنه من التجار أو العلماء أو العامة يلزمه أن يتزيا

بزيهم، فهاهنا الفكر ألبس الجسم ملبس من فكر أنه منهم. هكذا ينقلون عن بعض علماء اليونان أنه يقول: «إن الدجاجة إذا اعتادت أن تقاتل الديكة نبتت لها «صيصية» كالتي للديك».

ويقول علماء العصر الحاضر: «إن كل تهيج دماغي ناتج عن أحد الآراء، كثوران التعصب أو الهيام أو الغضب أو الرعب، يمهد السبيل إلى فقد الحس». وترى الجندي في الحرب يصاب بجراح بليغة ولا يشعر بها، ومن المحكوم عليهم بالموت من لا يضرب الجلاد فيهم وقت الإعدام إلاّ جثة باردة تركتها الروح لشدة الرعب. وبعض المحكوم عليهم بالإعدام عصبوا عينيه وصبوا ماء دافئاً على رقبته أوهموه أنهم فصدوه فمات معتقداً أن دمه قد استنزف كله.

وروي أن «موتيوس شيفولا» في ثوران حبه للوطن وضع يده على جمرة متقدة ولم يشعر بألمها، وقد روي مثل ذلك عن بعض العاشقين.

وهذا بعض ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾. جاء في مجلة «المرشد» ما يأتي:

امرأة تلد ضفدعاً

في مجلة الجالية «برازيل» ما خلاصته:

في ضاحية «اربول غراندي» من بلاد المكسيك مناجم زيت الجاز، يعمل فيها عدد كبير من العملة بينهم رجل اسمه «البينو زونيغا» وزوجته «حنة كونتراراس» وكان لا ينقصهما لتمام سعادتهما سوى ولد يكون محط آمالهما، ومنذ أشهر أخذ «زونيغا» يعد المعدات لولادة زوجته، حتى إذا حانت الساعة المنتظرة خرج الطبيب وعلى يده «ضفدع» كبيرة خضراء اللون ضخمة البطن بارزة العينين طويلة اليدين والرجلين، وقال له: هذا هو ابنك يا زونيغا، فذهل الرجل لدى رؤية هذا الحيوان القبيح الشكل، وقال: لا يمكن أن يكون هذا هو ابني، وتراجع خائفاً من منظر المولود الضفدع الذي لا يقلّ طوله عن ٦٥ سنتيمتراً.

وكانت الأم توّاقة لترى ابنها البكر، لكنهم منعوها من ذلك، ولما رأوا أن لا مناص من أن تراه، قدّموه إليها، فلما شاهدته صرخت وأغمي عليها، وتوافد الناس ليروا المولود العجيب. وقد فحص الأطباء الوالدين ليعلموا هل فيهما عيب خلقي أو مرضي سبب هذه الولادة، فلم يجدوا سبباً إلاّ ما علموه من أن الأم كانت تكره الضفادع وتخافها، وأنها في الليلة السابقة إذ كانت نائمة شعرت بشيء أملس بارد يمر على وجهها، فاستيقظت مذعورة وأضاءت المصباح، فإذا هو ضفدع، فأصيبت بنوبة عصبية، وفي المساء التالي وضعت الضفدع. اهـ.

أثر الوهم

جاء في مجلاتنا المصرية في ٢١ يونيو سنة ١٩٢٦ ما يأتي:

يفسر لنا الاستهواء عدة مظاهر طالما حيّرت عقولنا في حياتنا اليومية، ويكشف لنا الستار عن سر أوهامنا وآلامنا الحالية التي كثيراً ما عكرت صفو حياتنا، وهكذا نكون مدينين بسعادتنا وهنائنا لعلم النفس الحديث. والاستهواء إلقاء فكرة أو اعتقاد ما في نفس الموحى إليه فيتقبلها دون معارضة، ولا تلبث أن تتحوّل إلى عمل أو عقيدة ثابتة دون أن يدري الموحى إليه. والقابلية للاستهواء تكاد

تكون غزيرة في الإنسان، إلاّ أنها تزداد كثيراً عند الأطفال والضعفاء قوة وإرادة والعصبيين والذين في حالة غير عادية بوجه عام. كما أن بعض الناس يمتازون بقوة الاستهواء مثل الرؤساء والزعماء في العلم أو الدين أو السياسة وأقوياء الإرادة والجسم. والاستهواء إما ذاتي أو خارجي، فالذاتي: هو الذي يستهوي فيه الإنسان نفسه. والخارجي: هو الذي يستهوي فيه غيره من الأفراد أو الجماعات.

ويمارس البراهمة من الهنود نوعاً من الاستهواء الذاتي إذ يستهوي الواحد منهم نفسه إلى الزهد والتقشف في الحياة، فيخرج إلى مغارة بعيدة ويجلس القرفصاء عارياً، ويردد جملاً خاصة طول يومه مثل: «يجب أن أزهد الحياة لأنها رديئة»، فلا يلبث بعد بضعة أيام حتى يجد فكرة الزهد قد تملكت جميع مشاعره، وتحولت إلى عقيدة شديدة، وبذا يصبح رجلاً متقشفاً زاهداً في الحياة قلباً وقالباً.

ويمكن لمن مارس أيّ عادة ضارة أن يستهوي نفسه إلى إبطالها، فالمدخن مثلاً يمكنه ترك التدخين ونسيانه إذا ردد في نفسه كل صباح ومساء بلهجة العزم والحزم جملة خاصة، مثل: «يجب أن أترك التدخين لأنه مضرّ بصحتي»، ولا شك أنه إذا واظب على ذلك تتحول هذه الفكرة التي تتردد في النفس إلى عقيدة ثابتة ثم إلى عمل وينتهي الأمر بإبطال التدخين.

وكثيراً ما كان الاستهواء وعلى الأخص الذاتي منه منبعاً لأوهامنا وآلامنا الخيالية؛ فالإنسان قد يكثر من التفكير في مستقبله وينظر إليه خلال منظار أسود، فيساوره الخوف ويسود عليه روح التشاؤم، فلا يلبث أن يتحول هذا التفكير إلى عقيدة ثابتة، بل إلى عمل، وتصبح حياته سلسلة من الأحزان والهموم التي لا سبب لها، ويعاوده الفشل في جميع أعماله وتنحط قواه الجسمية فيظن أن تنبؤاته قد صدقت، والواقع أنه إنّما هو الذي جعلها تصدّق لأنه استهوى نفسه إلى تحقيقها.

وقد تأيدت هذه النظرية النفسية بالتجارب والبراهين المحسوسة في الإنسان والحيوان؛ فمثلاً فحص الجهاز الهضمي لهرة أثناء فرحها وحزنها، فوجد أنه في الحالة الأولى يسير سيراً حسناً عادياً بينما يقف تقريباً عن العمل في الثانية.

وقد جرّب أحد مشاهير الأطباء قوة الاستهواء في الجسم فاستأذن من حكومته في قتل مجرم محكوم عليه بالإعدام بقوة الاستهواء، وأخذه معصوب العينين إلى غرفة سوداء مظلمة، وكان هو أيضاً يلبس الملابس السوداء القاتمة، وأخذ يعيد عليه كثيراً جملة: «سأعدمك بقطع شريان من جسمك» بلهجة التأكيد والعزم، ثم طرحه على سرير وكرر على مسامعه طريقة القتل وأوضح له ما سيشعر به ثانية، وأخرى عند قطع الشريان من سيلان الدم إلى الغيبوبة إلى الموت، ثم أمسك موسى عادياً وقطع به ذراع المجرم قطعاً سطحياً، ثم فتح صنبوراً كان قد أعدّه، فأخذ الماء يسيل منه على ذراع المجرم كأنه الدم في حرارته العادية، فلم يلبث المجرم أن مات تحت تأثير الاستهواء الشديد وتحققت الوفاة بواسطة مجمع من الأطباء فحصه فحصاً دقيقاً.

ومن التجارب التي عملت أيضاً لإظهار قوة الاستهواء وتأثير الوهم على الجسم، أن أحد علماء النفس في إنجلترا اتفق مع سكان بضعة منازل كان يمر عليها بائع لبن في الصباح لتوزيع لبنه، أن يبدي كل واحد منهم عجبه من الضعف الجثماني غير العادي الذي يبدو على وجه هذا البائع، بجملة خاصة بالترتيب، كأن يقول الأول: «ما لي أرى وجهك اليوم شاحباً بخلاف عادتك»، والثاني: «لماذا

ترتعش وأنت تعطيني اللبن»، والثالث: «أراك لا تقدر على المشي اليوم»، وهكذا، فما وصل البائع إلى نهاية دورته حتى سقط على الأرض مغشياً عليه، وقد كان بصحة جيدة عادية عند خروجه من منزله، وما ذلك إلاّ لأن فكرة الضعف التي ردّدها زبائنه في نفسه تحوّلت إلى عقيدة بالتكرار ثم إلى عمل فوقع على الأرض فاقد الرشد.

ويبالغ «أميل كويه» الفرنسي في قوة الاستهواء ويقول: إنه يجب أن يتخذ كوسيلة لشفاء كثير من الأمراض، ولا شك أن لقوله هذا نصيباً كبيراً من الصحة، إذ أنّا كثيراً ما نشعر بالصداع أو الضعف أو الانحلال الجثماني، وكثيراً ما نصاب بالأمراض العصبية نتيجة الأوهام والمخاوف التي لا وجود لها والتي نلقيها في روع أنفسنا أو يوحي إلينا بها ما حولنا من بيئة محزنة أو من قوم إن قصداً وإن عفواً.

ولذا يمكن أن نؤكد أن الطالب مثلاً الذي يفكر كثيراً في الرسوب إنّما يستهوي نفسه للرسوب دون أن يدري فيرسب. وكذلك العامل الذي يفكر دائماً في الفشل غالباً ما يفشل بقوة الاستهواء الذاتي.

فابتسم أيها القارئ في وجه هذا الدهر يبتسم لك، وافرح يأتك الفرح، واعتقد في الشفاء من أمراضك وآلامك، لأنك تساعد بذلك نفسك على النجاة وتلهيها عن كل ما يحزنك بالرياضة البدنية والنزهة والأعمال اليدوية. وانظر إلى المستقبل دائماً نظرة المتفائل المسرور المؤمن بالنجاح تذهب عنك أوهامك الكثيرة القتالة وتسمو بنفسك إلى النجاح المحتم، انتهى.

المعالجة بالاستهواء وفيها أيضاً في تاريخه

طريقة الدكتور «أميل كويه»: في أواسط هذا الشهر يوليو سنة ١٩٢٦، توفي في باريس العالم الفرنسوي الشهير الدكتور «أميل كويه» الذي يعتبر أعظم دعاة الاستهواء وأكبر القائلين بمذهب الشفاء بطريقة الإيهام.

توفي هذا العالم في منزله بمدينة «نانسي» بعد عمر طويل قضى معظمه في المباحث النفسية وفي مدى تأثير الوهم في النفس. وقد طار صيته في جميع أنحاء العالم، وكان الإنكليز والأمريكيون يعتبرونه زعيم الأطباء الروحانيين أو الاستهوائيين بلا منازع. لم يكن هذا العالم مبتكراً، ولكنه نقح آراء علماء الاستهواء الفرنسيين بما أذاعه من النظريات الجديدة، وهي نظريات تقضي بنبذ كثير من المذاهب العلمية البحتة، وعدم التقيد بها، حتى لا يظل الاستهواء مجرد نظرية علمية، بل يصبح من الحقائق التي هي في متناول الجميع.

وقد كانت شهرة «كويه» مبنية على ما أبانه من سلطة النفس على الجسد، وما أثبته بتجارب عدة أمام جماهير من الأطباء. وكان دائماً يقول: إن الأطباء يغلطون غلطاً فظيعاً، لأنهم يعنون بالجسد دون النفس، ولأنهم يهملون درس السلطة غير المنظورة التي للوهم على الجسد. فالطبيب الذي يستشار في معالجة العليل لا يفحص عادة سوى أعضاء الجسم وحالتها، ولا يعنى بحالة العليل النفسية وما يمكن أن يعطاه لإنعاش تلك الحالة، وبعبارة أخرى، إنه يتجاهل قيمة المقوي المعنوي الذي يفعل في شفاء النفس ما لا يفعله المقوي المادي. وقد أثبت «كويه» بتجارب عدة أن للفكر قوة عجيبة في كلا العالمين المادي والخيالي، وأن تسليطه على الجسد يحدث تأثيراً عجيباً.

وفي الواقع أن الفكر قد يكون سماً زعافاً أو مصلاً شافياً، وطريقة الاستعانة به على مداواة الأمراض ليست حديثة، بل قد كانت معروفة منذ أقدم الأزمنة، وقد أهملها العلماء مدة ثم عادوا اليوم إلى إدراك أهميتها في معالجة الأمراض.

والحق يقال، إن الدكتور «كويه» أبلغ طريقة المعالجة بالاستهواء أقصى الحدود، وأثبت أنها من الطرق التي يجب على الأطباء أن يضعوها في مقدمة وسائل المعالجة، فإذا كان المصل المادي يفيد في بعض الحالات فإن المصل المعنوي ـ أي التطبيب بالاستهواء ـ يفيد في جميع الحالات، وإذا علمنا كيف نستعمله نكون قد أسدينا إلى الجنس البشري أعظم معروف يتصوره الفكر. وليس ذلك فقط، بل إن هذا المصل المعنوي يفيد أيضاً في شفاء الكثير من الأمراض الأدبية، فالشخص الذي هو رقّ لبعض العادات الرديئة يمكن شفاؤه من داء تلك العادات، وإصلاح ما فسد من أخلاقه، وشفاؤه بالاستهواء أسهل في هذه الحالة من شفائه بالعقاقير. وفي هذه الحالة تصبح الهيئة الاجتماعية كلها مؤلفة من أفراد أصحاء البنية، أصحاء الأخلاق، ويصبح العالم فردوساً زاهراً تطيب الإقامة فيه.

إن لكل امرئ كيانين: أحدها الوجدان الذي بواسطته يدرك كل ما يقع حوله، ويشعر بكل ما يحدث، والآخر: الوجدان الكامن الذي يدفع المرء إلى إتيان أعمال كثيرة بطريقة أوتوماتيكية مجردة من عنصر الإرادة، وهذا الأخير، أي: الوجدان الكامن، معروف بآثاره أو بنتائج الأعمال التي تدفع المرء إلى إتيانها، وهو المهيمن على كل حركة من حركات الجسم. فإذا استغرق المرء في سبات أو ذهول توقف ذلك الوجدان عن العمل وهو الواسطة التي بها يعمل الفكر عمل المصل المعنوي الشافي الذي في إمكانه أن ينقذ الجسم من أمراض كثيرة وآلام عدة.

هذا، وإن ما يحدث في النفس في أثناء عملية الاستهواء يشبه عمليات الإنبات لها تماماً، ولذلك يصح تسميته بالإنبات النفسي أو العقلي. ففكرة الشفاء هي البذرة التي يمكن بذرها في النفس لتنمو وتكبر حتى تتناول كل شيء وتأتي بالثمر المطلوب.

وطريقة الاستهواء المنسوبة إلى الدكتور «كويه» بسيطة جداً يستطيع كل امرئ أن يستعملها. وخلاصتها أن يردد كل يوم على مسمع من نفسه هذه العبارة: «أشعر كل يوم بأنني أنتقل من حسن إلى أحسن من كل الوجوه». ويجب ترديد هذه العبارة صباح مساء، حتى تصبح في النفس عقيدة راسخة. وكان «كويه» يلقيها لكل من يقصده مستشفياً، ويشهد الكثيرون أنهم نالوا الشفاء. وبعبارة أخرى: إن التفاؤل الحسن هو أساس طريقة «كويه». فإذا تشاءم المرء من كل ما حوله فلا يمكن أن يرى في العالم إلاّ ظلاماً دامساً، وبعكس ذلك إذا كان كثير التفاؤل شديد الثقة بحسن حالته، فإن النتيجة تكون خيراً لا محالة. وفي أوروبا اليوم جمهور كبير من أتباع «كويه» الذين خبروا طريقته بأنفسهم، وهم يعملون على إذاعتها بين الناس، فكأن «كويه» علمهم أن يطببوا أنفسهم وينيروا عقول الغير. وبين الأطباء فريق غير قليل ممن يحاولون الجمع بين الطب الاستهوائي والطب المادي، والجمع بينهما ممكن، لا يحتاج إلاّ إلى شيء من الخبرة. انتهى.

كل هذا الذي نقلناه من سرّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وهذا من عجائب القرآن التي أبرزها العلم الحديث.

اللطيفة الثانية: إيضاح الكلام على قوله تعالى:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ الخ

(١) اعلم أن الله عزَّ وجلَّ قد نظم هذا العالم على القوى المتضادة والأحوال المختلفة والوجوه المتعارضة والأصول المتناقضة، ولم يشأ أن يكون ساذجاً قليل التركيب، فسوّاه وهندمه وجعله مصقول الجوانب منظم الأطراف مكمل الأكتاف.

(٢) ثم إنه كلما كان أكثر عناصر وأعظم تركيباً كان في المنافع أبعد غوراً وأعظم وقعاً وأعجب صنعاً. ألم تر إلى تفاعل الماء والطين والهواء والحرارة، وكيف نتج منها النبات المختلف الثمرات العظيم البركات، وإلى الذكران والإناث من أنواع الحيوان وبني الإنسان كيف كان اتحادهما منتجاً بقاء الأنواع وتكاثر الأشخاص، ثم إنه كلما كان المتحدان غير مقتربين كان التفاعل بينهما أعظم أثراً وأبلغ نفعاً وأحسن صنعاً.

ناهيك ما ترى من تفاعل الفحم المسمى بفحم المعوجات مع بعض المعادن، كيف نتج منهما الكهرباء البديعة الصنع، المدهشة اللب، الموقدة النار، السريعة الأخبار، المنتجة للحرارة العجيبة الإنارة، وإلى الأكسوجين والكربون كيف أوجب اتحادهما ظهور النار وعجائب الآثار. وهكذا اتحاد الأكسوجين والأدروجين كيف نتج منه بفعل الصانع الحكيم وجود الماء العجيب الإرواء، الذي هو حياة كل حي من عاقل وجاهل وخامل ونام وحيوان.

(٣) على هذه القاعدة بني تقاتل الدول وتصادم الأمم ومصارعة الأقران واحتدام الوغى في الميدان، وكلما كان الاختلاف أشدّ إيغالاً وأبعد في العداوة كان الاصطدام أشدّ أثراً وأعظم وقعاً وأظهر أمراً وأفتك بالأبطال وأغول في النكال.

ولقد تقرر في الحكمة أن الأمم إذا لم توقد للحرب ناراً ولم تشمر عن ساعد جدّها، أدركها الخور واعتورها الضرر واستحلت طعم الكسل، ونامت على وساد الراحة الوثير وذاقت من الوهن والضعف عذاب السعير، كما ذكره الحكيم «أرسطاطاليس» في رسالته إلى الإسكندر، وقد ضرب لذلك الأمثال وقرّره تقريراً، فكان مثل الأمم في ذلك كمثل العناصر المرماة في الفلاة، والهواء الهابّ في مجراه، والماء الجاري إلى منتهاه، فلا عشب يسقيه ولا حيوان يرويه، وكمثل الذكران الذين اجتنبوا النسوان، والنساء اللاتي أنفن الرجال، فذهبت من بين هؤلاء ثمرات الاتحاد، وباؤوا بالخسران والحسرات.

إن عالمنا الأرضي حكم عليه ألا يرتقي إلاَّ بالمتناقضات، ولا ينشأ إلاَّ بالمختلفات؛ فالقاعدة واحدة، تباعد في الصفات وتناف في الأحوال، ثم التقاء ينشأ منه أحوال جديدة وحوادث مفيدة وأعمال سديدة وأمور مفيدة.

ولعل هذا العالم أرقب إلى النقص وأبعد من الكمال. ولعل هناك في العوالم ما هو أرشف مقاماً وأعلى في النظام كعباً، ولعل طبعه الغريب الذي ذكرناه قد قضت به الحكمة لنقص في أصوله ووهن في تركيبه بالنسبة لما هو أعلى منه وأبدع وأجمل، ولعل نسبته إلى ما هو أرقى منه كنسبة تركيب الحشرات السامة من القاذورات المحدثة في الجو فساداً إلى تركيب الإنسان من العناصر الطيبة، فكانت النتائج كالمقدمات والنهايات تابعة البدايات.

لذلك كان الإنسان في أعماله وأخلاقه وأحواله تابعاً لعالمه الذي تركب منه حذو القذة بالقذة، تابعاً لخطواته، سائراً في طرقاته، دائراً على محوره، ناهجاً منهجه. فترى الجيوش في الميادين تلتقي التقاء أو تصطدم اصطداماً كالتقاء الأكسوجين والأدروجين وفحم المعوجات وبعض المعادن فيما تقدم، فتراموا بالحجارة والرصاص والحديد والنيران، واستعملوا أنواع المفرقعات وأعجب المركبات النارية من الديناميت والكرات المحرقة الملتهبة، المنزلة الصواعق، المهلكة للأمم، المزيلة الممالك، والمخربة للبنيان، المبيدة للقلاع. ولو أنها أمسكت عن القتال وتركت النزال لأعياها الكسل، ولعدمت الحيل، ولأماتها الخبل والخلل، فنامت العيون، وهدأت الجفون، وأمنت الطوارق، وأصبح أهلها أقرب إلى الحيوان الأعجم، فبطؤت الحركات، وهدأت الجماعات، وبارت الصناعات، وساءت الحال، وضاع المآل، وخابت للأمم الآمال. لذلك ترى أن الله قد هيأ للأمم عناصر للقتل وأصولاً للحروب، منها ظاهر يعلمه الخاص والعام، كالحجارة والحديد والرصاص، ومنها ما خفي تركيبه وعظمت آثاره، كالمفرقعات المركبة من القطن والمواد الملتهبة.

المفرقعات في الحروب من القطن والمواد الملتهبة

إن القطن مركب من شعور دقيقة قد بحثت بالمنظار المعظم، فظهرت بصورة أنابيب مفرطحة ملتوية شفافة، وهذه الأنابيب الشفافة جلبها شعر القطن من المواد الأرضية والهوائية تسمى «سيليولوز» وهذه المادة تكون في جميع النباتات. فهذه المادة إذا خلطت بحامض النتريك تحولت إلى مادة تسمى «نيترو سيليلوز» أو «قطن البارود»، وإذا نظرت إلى هذه وجدتها كالقطن العادي في شكله، ولكنه متى طرق أو سخن احترق من غير أن يترك بقية صلبة، بل يتحول جميعه إلى مادة هوائية لا لون لها، هذه المادة إذا أذيبت في الأثير وفي الكحول أو صنعت منها كتلة مرنة تصبّ في قوالب أو تقطع قطعاً صغيرة ذات أحجام متساوية، فإن هذه القوالب والقطع تكون مواد مفرقعة، وأول من كشفها العلاّمة «بول فيللو»، فاستخدمته الحكومة الفرنسية سنة ١٨٨٧. وهذا هو البارود الذي لا دخان له لأن ما له دخان يحجب رؤية العدو.

الديناميت

إذا خلطنا الجلسرين بحامض النتريك المضاف إليه حامض الكبريتيك نتج سائل زيتي القوام أثقل من الماء، ولا يختلط به، طعمه حلو ولكنه سام، يستعمل في الطب بمقادير قليلة، وإذا سخن أو طرق فرقع بشدة متحولاً إلى غازات النيتروجين وثاني أكسيد الكربون والأكسوجين، وهو سائل خطر لا يؤمن له جانب، ويصعب استعماله مفرقعاً في حالته السائلة، وهو يسمى «نيترو جلسرين»، فإذا مزج بالنشارة وبعض الأتربة صنعت منه قوالب الديناميت.

الجلاتين المفرقع وغيره

في سنة ١٨٧٥ خلط العلاّمة «الفرد نوبل» الكيميائي السويدي هذا السائل الشديد الفرقعة بقطن البارود المتقدم، فخرج من هذا وذاك مفرقع مزدوج يسمى «الجلاتين المفرقع».

وهناك جسم صلب آخر تصنعه جميع الحكومات من مادة تسمى «الفنول»، وجسم آخر يصنع من مادة اسمها «تولول»، وهما مادتان تستخرجان من الفحم الحجري.

واعلم أن صنع المواد المفرقعة المذكورة خطر للغاية، ولذلك يبنون أبنية صغيرة بعضها منفصل عن بعض، بحيث يكون بين كل بناء وآخر فضاء طلق واسع، فإذا حصل انفجار في إحداها انحصر الخطر فيه، فلا يتعداه إلى بقية المعمل، ويصنع هناك مقادير معينة من المفرقعات في زمن بعيد، ويلبس العمال والعاملات ملابس خاصة خالية من الجيوب والأشياء المعدنية، ويضعون في أرجلهم أحذية خاصة خالية من المسامير الحديدية، ولا يجوز للأجانب دخول هذه الأمكنة إلاّ بإذن خاص، وقبل الدخول يفتشون تفتيشاً دقيقاً، ويؤخذ منهم كل ما يحتمل أن يحدث ضرراً، مثل علب الكبريت والدبابيس والأزرار المعدنية وغيرها، ثم يلبسون أحذية خاصة، وتضاء هذه الأماكن بالكهرباء، وجميع الآلات البخارية والكهربائية المعدّة لتوليد القوة اللازمة توضع خارج البناء، ويمر من آن لآخر مفتشون لملاحظة النظام، ومنع تجمع أتربة المواد المفرقعة.

واعلم أن أقل خطأ سواء أكان في تقدير المواد أم في تغيير أحوالها الخارجية، كالضغط ودرجة الحرارة قد يؤدي إلى انفجارها أثناء صنعها، ويتبع ذلك ضرر جسيم أقله موت الصانع، وعليه فإن صناعة المفرقعات تستلزم من الحيطة والحذر والعناية ما لا تحتاج له صناعة أخرى، ولذلك قد يؤمن الصانع على حياته قبل الاشتغال بها حتى يعوّض على ورثته ما فقدوه من حياته.

فانظر كيف كان القطن والكبريت والنتريك الحامضات قد تحولت إلى مادة محرقة، وكيف كان وضع هذه المادة مع الكحول والأثير يكوّن مادة مفرقعة، ثم انظر كيف كان الجلسرين إذا خلط بالحامضين المتقدمين مع نشارة الخشب وبعض الأتربة يصبح ديناميتاً يهدّ الأبنية والقلاع الحصينة، ثم كيف كان الفحم أيضاً مصدر مادتين مفرقعتين بأوزان معلومة ونظم خاصة.

الله أمرنا بهذه الصناعات استعداداً للحرب

يقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ فهاهنا القوة العقلية العلمية التي تتقدم القوة العملية الحربية. لقد كانت الحرب قديماً بالحجر والحديد والرصاص، ثم ارتقت اليوم فصارت بالعقول والأفكار؛ فأهل أوروبا ضعاف الأبدان بالنسبة لأهل إفريقيا وآسيا، ولكنهم استخدموا العقول فأكسبتهم صناعات قامت مقام القوى الجسدية، فصار هؤلاء في باقي الناس أشبه بالإنسان في باقي الحيوان؛ فالحيوان قويت أجساده ولكن الإنسان الذي هو أضعف منه قوة خلق أقوى حيلة ففضله فسخره.

فأهل أوروبا اليوم ومن نحا نحوهم، وكل من قرأ العلوم والصناعات الحديثة أصبحوا في نوع الإنسان سادته، والبقية كأنهم عبيدهم. فإذا قال الله للمسلمين: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ فمعناه: لا تذروا قوة جسمية ولا قوة عقلية إلاّ استعددتم بها، وإذن أصبح علم الصناعات جميعها فرضاً واجباً على المسلمين، وعليهم حتماً أن يدرسوا ما ذرأ الله في الأرض من عجائب العوالم، وما في ذراتها من كامنات المنافع ومدفونات العجائب ومكنونات البدائع، وجواهر الحكم المصونة المحجوبة عن أنظار الجاهلين، المتجلية للناظرين، المكشوفة للمجدّين العاشقين.

يا الله ما أجمل بهاء الطبيعة! وما أجمل نورها وأبهر سناها وأحسن وجهتها! لقد سترته عن الجاهلين وكشفته للعاشقين، فازينت وابتهجت للناظرين، وقالت لمن ليس لها كفؤاً ولم يعطها مهراً:

❖ ❖ ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر ❖ ❖

فليتنافس في تلك العلوم المتنافسون، وليقبل عليها المسلمون، وليطيروا في الشرق والغرب سراعاً لعلهم لها يدركون. يا عجباً للمسلمين، كيف يعيشون بين أمم سلاحها «الديناميت» والمواد المحرقة والمعمية والمهلكة وسلاحهم البارود والرماح؟وكيف يفلح قوم أحاط بهم الإصلاح والعمران وهم جامدون.

نظرات الفلاح إلى شجرة القطن ونظرات علماء الحرب

هل يعلم الفلاح المصري والبغدادي وأمثالهما حين يزرعون القطن ويضعون البذرة في الأرض ويسقونها الماء وتنمو في الحقول، ويعزقونها بالفؤوس ويزيدونها رياً وحين يظهر الشعر فيها، وحين يأتون بالنساء والأطفال لجمع تلك المادة الشعرية القطنية، وحين يحلجونها ويبيعونها للتجار بالإسكندرية وغيرها، فيأخذون الدراهم والدنانير لقضاء حوائجهم، هل يعلمون إذ ذاك أن لهذا القطن نبأ عظيماً؟ وهل يعلم حكماء الإسلام وعلماؤه والمتفقهون فيهم أن لكل ظاهر باطناً، وظاهر القطن لباس وأكسية ورياش وفرش ومخدات وغيرها مما يتجمل به الناس، وباطنه ما يستخرجه علماء الكيمياء من البارود الذي لا دخان له بخلطه بالأحماض، وكيف كان القطن من أسباب الظفر في الحروب، وكيف كان من الفحم الذي يوقده الناس في بيوتهم مواد تؤخذ بطرق مخصوصة تكون مفرقعة قاتلة.

فجلّ الذي خلق المادة على هذا النظام وصوّرها على هذه الصورة البديعة العجيبة. ألا بعداً للقوم الجاهلين، وأفّ وتفّ لقوم لا يعقلون.

وهل يعلم هؤلاء أن أمثال هذه المسألة مما يوجب فتح المدارس على مصراعيها واتخاذها أساساً للرقي واستعداداً للطوارئ، وفيها تحلل عناصر كل يابسة وخضراء ورطب ويابس وجامد ونام وحي وميت وحيوان ونبات وإنسان، فتحلل عناصر المخلوقات فلا حكم على مركب إلاّ إذا عرفت أجزاؤه كما لم تعرف اللغات إلاّ بمعرفة حروفها.

إن هذا الاستعداد والأمر به يرجع على رقي العقول والآراء، وإننا إنّما أرسلنا إلى هذا العالم وخلقنا فيه للوقوف على الحقائق ومعرفة أصوله، وكأن الله عزّ وجلّ يريد أن يطلعنا على عناصر ملكه وأصول خلقه وتركيب أجزائه وعجائب صنعه ووزنه ونظامه ومحاسنه، حتى نرتقي إلى ما هو أعلى مراماً وأحسن نظاماً وأبهى كمالاً؛ وجعل من طرق ذلك نظام الحروب وإلقاء العداوات بين الناس ليتسابقوا إلى المعالي، ولا سبيل إلى ذلك التسابق في عالمنا الأرضي إلاّ بهذه.

وما مثل الجيوش في ميادين القتال، القنا تقرع القنا، وموج المنايا متلاطم، إلاّ كمثل اللاعبين «الشطرنج» أو غيره، إذ يصبحون في وجل وأمل وخوف ورجاء. وكأنّما هذا الإنسان وهو في الأرض طائر على جناحين: أحدهما الرجاء، والثاني الخوف، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[الرعد: ١٢]، فإذا لم يكن الخوف والطمع بالحروب القاهرة سعى الناس لهما باللعب ليطيروا مجتمعين في عالم الخوف والرجاء وهم يلعبون، وكأنهم إذ لعبوا «الشطرنج» أو الألعاب الألومبية المشهورة اليوم بين الدول يقولون: إننا مجبولون على المسابقة مفطورون على المنافسة، فإن لم تكن بالحرب سعينا إليها باللعب. كل ذلك لتقوية الأبدان وتنشيط الشبان وتجديد البلدان وتقوية الأركان وإسعاد المدن وتشييد العمران.

تناسق آي القرآن وتلاحقها في مسألة عدّة الحرب والقتال

فإذا قال الله في سورة «البقرة»: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[الآية: ٢٩]، وقال فيها: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾[الآية: ١٦٤]، وإذا قال في «آل عمران»: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[الآية: ٥]، وقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الآية: ١٨]، وقال: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾[الآية: ١٩١]، وقال في سورة «النساء»: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾[الآية: ١٣٢-١٣٣]، وإذا قال في سورة «المائدة»: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾[الآية: ٣١]، وإذا قال في سورة «الأنعام»: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾[الآية: ٩٥] إلى قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[الآية: ٩٩]، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ٧٥]، وإذا قال في سورة «الأعراف»: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الآية: ٨]، وقال: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾[الآية: ٢٦]، إذا قال ذلك كله في السور المتقدمة على هذه السورة، فهاهو ذا يقول في سورة «الأنفال»: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[الآية: ٦٠]. فهذه القوة من القوى التي خلقت لنا في الأرض كما جاء في «البقرة».

فعجائب القطن وحمض الكبريتيك وحمض النيتريك والجلسرين والكحول والأثير والمواد المتخذة من الفحم الحجري، كل هذه مما خلقها الله لنا في الأرض وخاطبنا قائلاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[البقرة: ٢٩]. فهذه خلقت لنا كما خلقت للفرنجة، فحللوا الفحم الحجري والقطن والكبريت، واتخذوا منها تلك الآلات المهلكة، ونحن تركنا واكتفينا بالشراء منهم. وهكذا هذه الأشياء مما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران: ١٩٠]، فإنها من العجائب المدهشة والغرائب البديعة الدالة على حكمة الصانع المبدع.

ولعمري من ذا الذي يقف على هذه الأسرار ولا يدهش لهذه الحكم العجيبة؟ وإلاَّ فبالله كيف يكون هذا القطن الذي نلبسه بعد أن استخرجناه بالزراعة إذا أضفنا إليه بعض العناصر قلب لنا القلاع والحصون وخرّت السقوف من فوقنا. أليس هذا من العجب؟ أليس هذا من دلائل التوحيد المذكورة في آية «البقرة» المذكورة.

ولعمري كيف تصير المواد الفحمية مفرقعات؟وكيف يكون القطن الذي يقينا الحر مهدماً للمساكن مزلزلاً للمدن، وكيف اجتمعت هذه الأسرار في هذه المخلوقات التي تحيط بنا ولا ندري ما فيها؟.

أليس الإنسان وهو نائم في سريره متغطٌ بلحافه قد أصبح نائماً في وسط جهنمي؟ فالقطن الذي يحيط به من كل جانب إن هو إلاَّ مواد مفرقعة ينقصها الكبريت والنيتريك فتصير هادمة البنيان.

ثم هذه الأشياء وهي متفرقة غير مجتمعة قد خفيت عن الإنسان في قديم الزمان، فلم يعلم أنها تخرب المدن وتهدم القلاع، ولكن الله يقول في «آل عمران»: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[الآية: ٥]، وعلى ذلك يعلمه لمن يشاء من عباده.

وهذه العناصر المذكورة تصنع بحساب دقيق حتى تصير مواد مفرقعة، فإذا اختلت الموازين أو الأعمال الصناعية اختلت تلك المصنوعات، وهذا قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨]. فهاهنا لا بد من القيام بالعد في وزن المقادير، وهذا من دلائل الوحدانية، إذ كيف كانت هذه الأشياء بموازين محدودة ومقادير معدودة ونظم قائمة وصناعات صادقة، ولو اختل الوزن لانفجر المصنوع فأهلك الحرث والنسل. وكذلك قوله: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[آل عمران: ١٩١]، وهذا من نوع الفكر في المصنوعات ونظامها ودقتها، وهكذا قوله في سورة «الأعراف»: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الآية: ٨]، فالقيام بالقسط في «آل عمران» والوزن الحق في «الأعراف» ظهرا في مقادير الديناميت والمواد المفرقعة كما ظهرا في غيرهما، وهكذا قوله في سورة «المائدة»: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾[الآية: ٣١]. فهاهنا يقال: إذا كان ابن آدم يقول متحسراً على نفسه: كيف أعجز أن أكون مثل الغراب، وتأسف وندم على الجهالة، فلتكن الحسرة والجهالة هنا أنكى وأشد تنكيلاً، كيف لا، والندامة في قصة ابني آدم على الجهل بدفن القتيل مع علم الغراب به فقلده.

وهاهنا تكون الحسرة والندامة على أمم تهلك، وقصور تخرب، وجيوش تهزم، وأمم تموت، وبلاد تضيع، ونساء تسبى، وصبيان يصبحون أيتاماً، وذلك كله بسلاح الأعداء وهم من الآدميين. وإذا ندم ابن آدم على جهله بصنعة الغراب وهو من غير جنسه، فهو بالندم على جهله بصناعة بني جنسه أجدر، فإننا نرى الإنسان يعجز عن صناعة النحل في خليته، ولكنه قط لا يعجز عن صناعة أخيه الإنسان. فإذا أسف الإنسان على جهله بصناعة غير بني جنسه، فهو على جهله بصناعة أبناء جنسه اشد ملامة وأدنى إلى الندامة وأبعد عن الكرامة وأقرب إلى الإهانة، وهذا يناسب قوله تعالى في سورة «النساء»: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾[الآية: ١٣٣] لجهالتكم بعجائب خلقي، وتباعدكم عن التبحر في علمي والشرب من مناهل فضل ﴿ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾[الآية: ١٣٣] أعلم بخلقي، فبلوا النعمة فشكروها، وسقتها لهم فقبلوها. وذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الأنعام: ٧٥]،.

أوليس هذا من عجائب الملكوت؟ فإن الدقة المتناهية في صناعة القطن حتى يصير مواد مفرقعة من أعجب العجائب وأبدع الغرائب، وإذا جاء في «الأعراف»: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾[الآية: ٢٦]، وقد جعل المفسرون من هذا اللباس القطن.

فهاهو يقول هنا: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ فكان من تلك القوة القطن المذكور في السورة قبلها وكأنه لما قال: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[الأعراف: ٢٦] مشيراً إلى قوله: ﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾[الأعراف: ٢٦] يرمز إلى ما نحن بصدده، أي: يقول إن اللباس الذي أنزلته عليكم من آيات الله، أي: الدالات على عجائب صنعه، ومن ذلك اللباس القطن، ومنه تكون المواد المفرقعة.

فلذلك جاء في سورة «الأنفال» هنا يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ومن تلك الاستطاعة: استنباط المفرقعات من القطن الذي عدّ من آيات الله، وقيل بعدها: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

لعمري ما أجمل العلم وأبهج الحكمة وأبدع القرآن! وما ألطف المقام! فلله الحمد إذ أنعم بفضله على عبده، وألهمه أن ينظم هذه الآيات في نمط ويجعلها متألقة متتالية، قد التأمت فيها المصلحة الدنيوية بالعجائب الإلهية، فبهذا وأمثاله فليفسر القرآن في هذا الزمان. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور: ٤٦].

واعلم أن هذا النهج من التفسير يبيّن اتّحاد المطالب الدينية، والدنيوية، والآخرة، والأولى.

ولا تعجب من هذا ولا يكن في صدرك حرج، فنفس القرآن قد صرّح بهذا في سورة «البقرة»، فقال: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، فهاهنا زيادة البسطة في العلم تظهر في المركبات الكيمائية، ووزنها ونظامها. وكيف يكون القطن مع حمض الكبريتيك ومع حمض النيتريك بمقادير محدودة، وكذلك الكحول والأثير والنشارة والتراب والجلسرين من صنع الديناميت. فمعرفة هذه المقادير وتركيبها أثر من آثار العلوم التي تدرس في المدارس في العالم الإنساني، ومتى صنعت هذه المقادير واستخدمها أقوياء الأجسام غلبت الأمة غيرها.

ولا جرم أن رجال الشرق اليوم أقوى أبداناً وأصحّ أجساماً من رجال أوروبا ضعاف الأبدان، فإذا صنعوا هذه المصنوعات غلبوهم لا محالة كما غلب جمع صغير من أهل مراكش دولة إسبانيا على جلالة قدرها وعظم خطرها، فما بالك إذا عرفوا هذه الصناعات ودرسوها حق دراستها. فهاهنا يتم الأمران: البسطة في العلم والبسطة في الجسم، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٧].

فالتفسير بأنه يؤتي ملكه من يشاء بعد ذكر البسطة في العلم والجسم دالّ على أن الأولى بالملك العالمون الأقوياء، فقوة العقل وقوة الجسم هما مفتاح الممالك والسلطان عليها.

والتعبير بأن الله واسع وأنه عليم، إشارة إلى أنه تعالى لا نهاية لمعلوماته، ومعلوماته متقنة واسعة المدى. ولذلك نرى الأمم تتسابق إلى الاستفادة من سعتها، وكل من كان أسبق إلى علمها كان أولى بالملك ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦].

زهرة ناضرة بهجة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الخ

اعلم أن القوة نوعان: نوع مادي، ونوع معنوي. أما المادي فظاهر مما تقدم.

وأما المعنوي فذلك هو ما يحدث الثبات في النفوس ويقوي القلوب، ومن أهم ذلك كتمان الأمور وإظهار الجلد وعدم الإباحة بما في البواطن والأسرار.

قال أبو مسلم الخراساني الذي أباد الدولة الأموية، وكان السبب في ظهر الدولة العباسية في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ضربتهم ضربة بالسيف فانتبهوا ... من رقدة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رمى غنماً في أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

وفي الحديث : «الحرب خدعة» ، وفي آيات هذه السورة سرّ الحرب ، بل أهم أسرار هذا الوجود ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ الخ ، فقلل الله الكثير قبل الابتداء في الحرب ، وهكذا كثر القليل في أعين الكفار لينهزموا ، وبشر المسلمين بالنصر والفوز والملائكة . كل ذلك من القوة المعنوية .

ومن عجب أن أكابر رجال الحرب الكبرى التي حدثت سنة ١٩١٤ وانتهت سنة ١٩١٨ قد أعلنوا في الجرائد في هذا الأسبوع من شهر مارس سنة ١٩٢٧ سراً من أسرار الحرب ونبأ من أنباء التدبير وحسن النظام والتعقل وذلك أنهم كتبوا أن فرنسا ـ يوم أن أعلن الألمان أنهم راضون بشروط الحلفاء ـ كان جيشها في غاية الانحلال . وقد اختمرت الثورة في الرؤوس ، وأخذ الضباط والجنود يتسللون لواذاً طالبين الخروج من مأزق الحرب ، فكان رؤساء الفرق يحضرون هؤلاء أمام المدافع ويقتلونهم أفراداً وعشرات ومئات ، وكان ذلك كله سراً بحيث لا يطلع رئيس فرقة على ما عند غيره من الفرق ، حتى باتت رياسة أركان الحرب في حيرة وألم وخوف شديد من ذهاب الدولة وضياع البلاد فكان جهل الألمان بما هو داخل الجيش الفرنسي هو السلاح الأقوى الذي به كسب الحلفاء الحرب ، ولو علموا حقيقة الموقف عند الجيش الفرنسي لضربوهم ضربة قاصمة في بضع ساعات ولانتهى الأمر وجاء الفوز وانعكست الآية ، فأصبح الغالب مغلوباً والقاهر مقهوراً ، وبدّلت الحال ، والله عليم حكيم .

مسامرة

هاهنا أسامرك أيها الذكي ، هاهنا أحدثك عن الجمال والنور والعرفان والبهجة والعلم ، أحدثك عن هذا السر البديع والنظام الجميل ، هذا هو الجمال ، هذا هو النور .

انظر في آيات هذه السورة وغيرها ، إذ يقلل الله الكثير ويكثر القليل ، وتعجب من أن تقليل الكثير وتكثير القليل هو سر هذه الدنيا ، رجال الحرب لا يعقلون إلاَّ ما أمامهم ، ولا يفقهون إلاَّ أن النصر حليفهم بكتمانهم وحزمهم وعزيمتهم ، نعم هذا حسن ، ولكن هناك ما هو أحسن وأجمل من العلم والحكمة . انظر هذا الوجود تره مبنياً على هذه النظرية ، نظرية تقليل الكثير وتكثير القليل ، هذه هي السياسة التي نراها بأعيننا ونسمعها بآذاننا ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

ألا ترى رعاك الله مناظر النجوم والشمس والقمر؟ فانظر كيف قللها الله في أعيننا ، الشمس جرم صغير والقمر في أعيننا والكواكب الثابتة والسيارة صغيرات جداً نراها مقدار الليمونة تتلألأ في جو السماء ، وحقيقة الشمس والقمر والنجوم غير ذلك ، حقيقتها أنها أجسام هائلة عظيمة ، حتى إن أرضنا بالنسبة للشمس جزء من أكثر من ألف ألف جزء من الشمس ، والثوابت التي نراها صغيرة هي أجسام أكبر من شمسنا بما لا د له ، حتى إن كوكب «السماك الرامح» يبلغ نوره ٨٠٠٠ ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وهناك ما هو أعظم وأعظم ، فلو أن الله جعل أعيننا تنظر إلى الشمس وإلى تلك الكواكب نظراً يجلي حقائقها ويظهر صورها وأنوارها على ما هي عليه لعميت الأبصار في لمح البصر أو أقرب ، وكيف لا تعمى الأبصار وتلك أضواء تفوق الوصف .

وإذا كانت شمسنا الصغيرة لا تطيق أن نحدق فيها على الأرض ، وبيننا وبينها نحو ٣٦٥ سنة بسير القطر البخارية في أرضنا و١٢ سنة بسير قلة المدفع ، فكيف بنا إذا رأيناها كأنها أمامنا؟ فهل يبقى

لنا بصراً، ويبقى لنا وجود؟ وإذا كان هذا في شمسنا الضعيفة فما بالك بالشموس الأخرى التي نسميها كواكب ثوابت.

ألست ترى معي أن سياسة الأمم في حربها أشبه بما نرى في هذا الوجود كما سمعت عن أبي مسلم الخراساني وعن الأمم الأوروبية، كالألمان الذين يكتمون ما يخترعون من المدمرات، وكاليابان الذين لما حاربوا الروس اختبأت سفنهم في البحر بأن لوّنوها بلون يشبه لون الماء وزرقة الجو، فلم يفرق الروس إذن بين الأمواج والجو وبين سفن اليابان، فانقضّ الآخرون على الأولين فأهلكوهم وكسبوا قضية الحرب، فهذه من تقليل الكثير لأنهم أوهموهم ألاّ سفن أمامهم ثم انقضوا عليهم.

إن الله عزَّ وجلَّ جعل نظامه واحداً، فإذا أرانا النجوم ضعيفة الضوء على حسب القانون العام من أنه كلما طال البعد صغر الجسم، فذلك ليسعدنا بالنظر إليها فندرسها ونعلم سيرها، وبهذا نسافر في البر والبحر بأنواع التجارة.

فإخفاء الحقائق هنا وكتمانها لمنفعة الناس، قلل الله في أعيننا تلك الأوار العظيمة لإسعادنا بالتجارة والسفر للعلم ولكسب الرزق، وأخفى الألمان والفرنسيون والمسلمون وغيرهم في حروبهم أحوال جيوشهم فنصروا، أخفى الله عظمة النور عن أعيننا بتباعد الأجرام المضيئة، وأخفى اليابانيون سفنهم بإعطائها لوناً يشبه لون الماء، ونتيجة الأمرين واحدة هي جهل الحقائق فيكون النفع العظيم.

اللهم إنك محمود على جهلنا كما أنك محمود على علمنا، جهل الإنسان أجله فعمّر وزرع ونظم وهندس ودبر وأحكم وبنى، كل ذلك لتكثير القليل، ربما لا يبقى من عمر الإنسان إلاّ أيام وساعات، ولكن الله وضع في قلبه آمالاً جساماً، يطوف طائف الموت وينعب بوم الفناء وغراب الفراق والانطلاق من هذه الحياة، ويدنو ملك الموت من المرء ولكن الله يكثر القليل في عينيه ليداوم على العمل ويقتطف الثمرات غيره.

فهذا هو تدبير الله في خلقه وقد قلده عباده لا سيما رجال الحرب، ونحن في هذا التفسير إذا رأينا هذا الجمال في العالم الذي نعيش فيه وأن ما نسمعه في حروب الأمم نشاهده أمامنا وقليلاً ما نعقله أشد فرحاً وأعظم نصراً وأعز نفراً وأكثر جنداً من قواد الحروب، لأن ولوج أبواب العرفان والنصر على جيوش الغفلة والجهالة أرفع مقاماً وأوسع فناء وأرقى درجة وأقدس منزلة وأبعد مدى وأبقى تأثيراً.

إن اللذات النفسية تكون على حسب المعلوم، فكلما كان المعلوم أشرف كانت اللذة به أقوى، وأيّ لذة أقوى مما تلاحظه نفوسنا من جمال هذا العالم الذي ينظره أكثر الناس وهم لا يعقلون ما ينظرون ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس: ٥٨].

ومن ذا الذي كان يظنّ أن تقليل الكثير في الآية يحوي هذه المعاني ويجوس بلاد الألمان والروس واليابان وكواكب السماء ودنو الآجال؟ أم من ذا الذي كان يظن أن آية واحدة من القرآن تسطع أنوارها وتشرق في ميادين الحرب والنضال ومشار الأنوار في عوالم السماء، وتكوين الأجنة في البطون، إذ يكثر صانع هذا العالم القليل من الذرية في أعين الأمهات والآباء. فلا ترى أباً ولا أماً يستطيعان فراق طفل أمره هين ضعيف جسمه قليل أثره فيكبر في أعينهما حتى يكون أعظم قدراً من الملوك والأمراء والعلماء والحكماء ويتجسم عندهما.

فإذا قلل الله أمر الشموس والكواكب لنعيش بهذا التقليل وتقوى أبصارنا على رؤية النور الضئيل الذي يناسب عيوننا، فهو عكس القضية في أمر الذرية، فعظم الولد في أعين أبويه حتى خيل لهما أنه سيكون أشجع من عنترة، وأقضى من أبي حسن، وأخطب من قس بن ساعدة وسحبان، وأحلم من الأحنف بن قيس، وأوفى من السموءل بن عادياء، وأسوس من «باسمارك»، وأدهى من سيدنا عمرو بن العاص، وأجمل من سينا يوسف عليه السلام، وأعلم من عالم قريش الذي يملأ طباق الأرض علماً، وأرقى في الفلسفة من سقراط، وفي الهندسة من إقليدس، وفي الفلك من «فلامريوس» وفي الإنشاء من ابن المقفع والصابي، وفي الشعر من أبي العلاء المعري وشوقي بك المصري.

هذا ما جعله الله في الأرض قانوناً عاماً، أن كبر صغير الأبناء في عيون الآباء رحمة بالأولين وتسخيراً للآخرين، كبر بالآلات المكبرة الأحجام فعرفنا سرها. ذلك كله من سر قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾، فجلّ العلم وجلّ الله الذي أتقن كل شيء وأحسنه وقدره تقديراً ووزنه بميزان عدل، فسخرنا بالتقليل والتكبير ونحن غافلون عما يراد بنا، وكأن التقليل والتكثير المذكوران من أهم الأعمال الحربية والنظم العسكرية وتربية الذرية ونظام هذا الوجود كالمجموعة الشمسية. انتهى يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان سنة ١٣٤٥ هجرية. هذا نهاية الكلام في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾. والحمد لله على ما أنعم.

ولنشرع في الكلام على تفسير بقية السورة، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ الخ

اعلم أن الغنائم لم تحل للأمم قبلنا، فلذلك تجد التوراة التي بين ظهرانينا مصرحة بهذا في مواضع كثيرة، فكانت نار تنزل من السماء فتحرق ما غنموه من الأعداء، ويحرم عليهم أن يتعاطوه. فلما كان يوم بدر وجيء بالأسرى وهم سبعون أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب، فاستشار فيهم أبا بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار، وقال عمر: يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم، مكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، ومكّن حمزة من العباس فيضرب عنقه، ومكّني من فلان «نسيب لعمر» فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر، وقال عبد الله بن رواحة: انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم ناراً، فقال له العباس: قطعت رحمك، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم، ثم دخل، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، ويشدّد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى، قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، ومثلك يا عمر مثل نوح، قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]، ومثلك يا عبد الله بن رواحة كمثل موسى إذ قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلاّ بفداء أو ضرب عنق، قال عبد الله بن مسعود: إلاّ سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر

الإسلام، ثم بعد هنيهة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلاّ سهيل بن بيضاء، ثم قال صلى الله عليه وسلم: إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم، فقالوا: بل نأخذ الفداء، قال عمر: فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم، فنزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ﴾، وقرئ: (ما كان للنبي) ﴿ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذلّ الكفر ويقلّ حزبه ويعز الإسلام ويستولي أهله. يقال: أثخنه المرض: إذا أثقله، وهو من الثخانة، إذ مقام النبوة لنشر الدعوة وتثبيت الإيمان وهداية الناس، وهذه أول غزوة غزوتموها، فما كان لكم أن تستبقوا الأعداء لأخذ الفداء، بل كان الإثخان فيهم أحرى بكم ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ﴾ الحياة ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ واقتطاف الثمرة قبل أوانها بأخذكم الفداء ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ ﴾ يريد لكم سبب نيل ثوابها من إعزاز الدين وقمع الأعداء ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ يغلب أولياؤه أعداءه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في تدبير مصالح عباده ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح وهو ألاّ يعاقب المخطئ في اجتهاده، أو لا يعذب أهل بدر أو قوماً بما لم يصرّح لهم بالنهي عنه أو أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم ﴿لَمَسَّكُمۡ﴾ لأصابكم ﴿ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وقوله: «من الله» صفة، و«سبق» صفة ثانية لـ «كتاب»، وخبره محذوف، أي موجود، قال محمد بن إسحاق: لم يكن المؤمنين أحد ممن حضر بدراً إلاّ وأحبّ الغنائم إلاّ عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ، وذلك لأن كلاًّ منهما أشار بالإثخان.

ثم اعلم أن قوله تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ ﴾ تنبيه على ما تقرر في الدين والحكمة أن تراكم الأموال وإقبال الدنيا مدعاة للتوغل في اللذات والشهوات، كما ورد في حديث البخاري: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها، فقال قائل: يا رسول الله، أويأتي الشر من الخير». فشبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم حال الدنيا وإقبالها بحال البهائم الراتعة في الكلأ، فهي قسمان: قسم يأكل ويشرب وينام في الشمس وهو صحيح سليم، وقسم منها يأكل ما يضره من الحشائش أو يميته، وأن الكلأ والحشيش إنّما نبت بسقي الماء النازل من السماء، فالمطر خير والنبات منه ما ضرّ ومنه ما نفع.

فهذا هو مثل الدنيا، وعلى ذلك كانت الغنائم وكثرتها من أسباب تأخر الأمم إذا نامت على وساد الراحة وبطرت وفرحت، فيخرج جيل قليل القوة لم يتعود العمل، فتضيع الأمة وتهلك شأن الكاسلين النائمين. ولقد علم أن هذه الأمة ستتوالى عليها الغنائم فذكرها بالعذاب وبكى الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أحلّ لهم ذلك واكتفى بوعظ الرسول لنا، وتحذيرنا من الدنيا وغرورها، وأن القرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، وأن نبينا رحمة للعالمين ونحن تابعوه وهكذا. فافهم.

ولما نزلت الآية التي نحن بصددها كفّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء والغنائم، فنزل: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ ﴾ من الفدية وبقية الغنائم ﴿ حَلَٰلًا ﴾ حال من

المغنوم ﴿ طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في مخالفته ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أباح لكم ما أخذتم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ ﴾ وفي قراءة (الأسارى) ﴿ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾ إيماناً وإخلاصاً وصحة نية ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾ من الفداء بأن يعطيكم في الدنيا أضعافه أو في الآخرة ثواباً ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ نزلت في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة إلى بدر، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها إذا جاءت نوبته، فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فأراد أن يطعم ذلك اليوم، فاقتتلوا فلم يطعم شيئاً، وبقيت العشرون أوقية معه، فلما أسر أخذت منه فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أما شيء خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك، وكلف فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال العباس: يا محمد، أتتركني أتكفف قريشاً ما بقيت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين الذهب الذي دفنته أمّ الفضل وقت خروجك من مكة، وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا؟ فإن حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم «يعني بنيه». فقال العباس: وما يدريك يا ابن أخي: قال أخبرني به ربي. قال العباس: أشهد إنك لصادق وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك عبده ورسوله، لم يطلع عليه أحد إلاّ الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل، وأمر ابني أخيه عقيلاً ونوفل بن الحارث فأسلما، قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك إلى الآن عشرين عبداً، إن أدناهم ليتجر في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم، وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم. وروي أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مال البحرين وهم ثمانون ألفاً فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرّقه، وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ منه ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ مني، قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا ﴾ أي: الأسرى ﴿ خِيَانَتَكَ ﴾ نقض ما عاهدوك عليه ﴿ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ بأن كفروا ونقضوا ميثاقه المأخوذ عليهم من الدلائل العقلية ﴿ فَأَمْكَنَ ﴾ أي: أمكن الله المؤمنين ﴿ مِنْهُمْ ۗ ﴾ ببدر فقتلوا وأسروا، فإن عاد نقضهم العهد عاد الإمكان منهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بما في بواطنهم من خيانة أو نقض عهد ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يجعل العقوبة على الذنب والثواب على الحسنات ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهم المهاجرون ﴿ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا ﴾ أي: آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار ﴿ أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ أي: يتولى بعضهم بعضاً في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة أو بالنصرة دون القرابات، وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة، وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالأرحام حيثما كانوا فصار ذلك منسوخاً بقوله تعالى: ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ ﴾، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا ﴾ يعني آمنوا وأقاموا بمكة ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ يعني من الميراث ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ ﴾ إلى المدينة ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ أي: إن استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا ﴿ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ أي: فعليكم نصرهم وإعانتهم ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ ﴾ أي: عهد، فلا تنصروهم عليهم لأن ميثاقهم يمنعهم من أن يبتدئوا القتال، فكيف تعينون الذين لم يهاجروا على قوم لا يبتدئون أذاهم ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من صلح وغيره ﴿ بَصِيرٌ ﴾ (٧٢)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث، ظاهره إثبات الموالاة بينهم، ومعناه نهي المسلمين عن موالاة الكفار وموارثهم وإيجاب مباعدتهم ومصادمتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارث بعضهم بعضاً ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إلاّ تفعلوا ما أمر ربكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً في التوارث تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تجعلوا قرابة الكفار كلا قرابة ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يد واحدة على الشرك كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً، كما هو حاصل اليوم، فترى أمراء الإسلام وعظماءه يتقربون من الفرنجة ويقاتلون معهم المسلمين في العراق والشام وبلاد الجزائر ومراكش، ولولا إعانة المسلمين في الحرب العامة لأوروبا على المسلمين ما أخذوا بلاد الإسلام، ولولا إعانة المسلمين للحلفاء لانتصرت ألمانيا على الحلفاء، ولكن المسلمين ضيعوا مجدهم وقاتلوا في صفوف الأعداء ضد إخوانهم، فانقلب الفرنجة عليهم وقسموا بلاد الإسلام بينهم، فأخذ الإنجليز العراق وفلسطين، وأخذ الفرنسيون الشام، كما أخذت فرنسا قبل أربعين سنة تونس وقبلها الجزائر، وأخذت إنجلترا مصر، واقتسم الفرنسيون والإسبان مراكش. كل هذا لتقاطع المسلمين وجهالتهم، ومصداق لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، فهذه هي الفتنة وهذا هو الفساد الكبير، وأيّ فساد أعظم من هذا أن يصبح المسلمون وممالكهم كقطع الشطرنج تنقل في الرقعة بلا علمها ويساقون للعذاب الهون، ذلك لقلة العلم فيهم وغلبة الجهل، وأن الطمع قد غشى على العقول والنفوس، فلا ينظرون إلاّ بشهواتهم، ولا يسمعون إلاّ بأطماعهم القصيرة النظر العديمة الجدوى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

ولما بيّن الله أحكامهم من حيث المعاملات أخذ يبيّن حقائق إيمانهم وما أعدّ لهم، تبيناً لأحكام الآخرة بعد أحكام الدنيا، وأيضاً لما جعل الله في أول السورة المؤمنين حقاً هم الذين يوجلون عند ذكر الله، ويزيدون إيماناً بتلاوة آياته، ويتوكلون على ربهم، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، أبان في آخرها هنا أن المهاجرين والأنصار قد استوفوا شروط المؤمنين حقاً، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ﴿فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ وذلك للترغيب.

واعلم أن المهاجرين الأولين: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة قبل صلح الحديبية، والمهاجرون الهجرة الثانية: هم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية إلى فتح مكة، فقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ الخ يقصد به الهجرة الأولى، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ﴾ الخ يراد به والله أعلم الهجرة الثانية، فأما بعد فتح مكة فقد صارت دار إسلام لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» أخرجاه في الصحيحين.

وقال الحسن: الهجرة غير مقطوعة، أي: من بلد يخاف المؤمن على إظهار دينه فيه من كثرة الكفار، فهذا يجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يخاف فيه على إظهار دينه، وفي هذا إفهام أن المهاجرين الأولين أفضل من الذين بعدهم فألحقوا بهم، قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس: كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية، فبهذا تبيّن أن سبب القرابة أولى وأقوى من سبب الهجرة والإخاء، فهذا نسخ لما تقدم، وكتاب الله، أي: حكمه أو اللوح المحفوظ، وتمسك أبو حنيفة بهذه الآية في توريث ذوي الأرحام.

أما الشافعي رضي الله عنه فقال: كتاب الله: حكم الله الذي بيّنه في سورة «النساء»، فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التي ذكرها في سورة «النساء» من قسمة المواريث وإعطاء أهل الفروض فروضهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ يعني أنه سبحانه عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية.

لطيفة: بينما أنا أكتب في تفسير هذه الآية وأنقل آراء الإمامين الجليلين أبي حنيفة وإمامنا الشافعي رضي الله عنهما واختلافهما واجتهادهما لمصلحة الأمة، وكيف يقول أحدهما: لا توريث لذوي الأرحام، ويورّثهم الآخر، ويحتج كل منهما بحجة ما فتح الله عليه. فهذا يقول: أولو الأرحام يشمل من في آية الميراث وغيرهم، والآخر يقول: حكم الله الذي في سورة «النساء» يقيده. ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[البقرة: ١٤٨]. رأيت أنه مما يجب عليّ أن أقول في هذا المقام: لقد اجتهدا فأحسنا الاجتهاد وحافظا على حقوق الأقارب بقدر طاقتهما البشرية، ولو أنهما كانا حيين ورأيا أوروبا وانتهازها الفرص لاضطهاد الأمم الإسلامية وارتقاءها بالعلوم والغنى والثروة والعلوم الطبيعية، وما سخر الله لهم من العوالم المادية فأصبحوا ولهم مشارق الأرض ومغاربها، لو أنهما كانا حيين لقالا معاً بصراحة: إن قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾[الأنعام: ٩٩]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[إبراهيم: ٣٢-٣٣]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[يونس: ٥] من الآيات التي تبلغ سبعمائة وخمسين آية من القرآن. أقول: لو كانا حيين ونظرا ما نظرناه، لقالا: إن هذه العلوم يجب دراستها في جميع أقطار الإسلام دراسة كما تدرس الأحكام الشرعية بعناية أتم واهتمام أكمل، ولقد أوجبت المذاهب كلها العلوم والصناعات على سبيل فرض الكفاية، ولكن علماء الإسلام لم يعطوها العناية الكافية، ولو أن المسلمين مجتهدين الآن متيقظين لأحيوا العهد الأول ولحرّضوا المسلمين على علوم الكائنات وسبق المسلمون الفرنجة، ولقال لهم علماؤهم: من عرف فنّ الطبيعة والفلك والكيمياء فله ثواب من قرأ الميراث والوضوء والصلاة لأنها كلها علوم دينية.

لو أن هذين الإمامين كانا حيين لرأينا خلافهما فيما يجب على المسلمين من تلك العلوم، ولرأينا حرصهما الشديد على أمتنا المسكينة.

حرام على علماء الإسلام أن يناموا، حرام عليهم أن يذروا الأمة تتخبط وهم نائمون، حرام على الحكماء في مصر وفارس والعراق والشام والترك وشمال إفريقيا وبلاد نجد أن لا ينشروا وجوب العلم على المسلمين ليسابوا الفرنجة وليقاوموهم. فانظر كيف بلغ من اجتهاد إمامينا أن بالغا في مبحث أولي الأرحام هل هم خاصّون بمن ذكروا في الآية؟ أم هم أعم منهم، مع أن المال الموروث لا يزيد بهذا التقسيم سواء أكان للعموم أم للخصوص. إن المال الموروث لم يزد بعد هذا كله، ولكن المسألة في أن يعطى كل ذي حق حقه من أقارب الميت. هذا هو الخلاف في الآية.

فانظر لجهالة المتأخرين من المسلمين وقد رأوا بأعينهم أن الغربيين قد سخروا الطبيعة، فاستخرجوا منها أموالاً وأموالاً حتى أحاطوا بنا من كل جانب، وفتحوا الممالك شرقاً وغرباً، ودخل كل بيت من بيوتهم مكاسب ومكاسب، ونالوا حظاً عظيماً مما رزقهم الله بهداية عقولهم وإرشاد حكمائهم وتبيان رؤسائهم، كل ذلك رأوه فلم يحركوا ساكناً، ولم يقولوا: يا أبناءنا المسلمين ويا إخواننا المحمديين هذه أرض الله لكم، وعوالمه فاملكوها واستخرجوا كنوزها حتى تقوى أمة الإسلام، وانظروا كيف كان أئمتنا يحافظون على القليل الموروث فلا يأخذ زيد مال عمرو، فكيف لا تحافظ على مال الأمة كلها الغني والفقير والعظيم والحقير، ذلك المال المستخرج من الأرض والجبال والهواء والماء، دونكم خواصّ الطبيعة وعجائب الكيمياء، وكيف وصل الألمان إلى استخراج النترات من الهواء، وأصبح الهواء المحيط بالأرض كنزاً للآلات الحربية وللسماد في الزراعة ومكسباً عجيباً، والمسلمون يتنفسون في الهواء ويشربون الماء وهم غافلون عن استنباط الحيل في استخراج كنوزهما، وكيف أصبحت حركات الماء النازل من أعلى إلى أسفل كما في شلالات مصر، أو الخزانات التي أنشئت على النيل مبدأ الكهرباء التي تبعث النور وتوقد النار وتجري القطرات وتعطي الأمة من الفوائد ما لا حصر له، فإذا جدّ أئمتنا وبحثوا ودققوا حفظاً لمال الأفراد.

فيا ليت شعري كيف قصرت أنظار المتأخرين، فناموا نومة أهل الكهف فلم يرفعوا أبصارهم إلى الميراث العام الذي يملأ البيوت جميعها مالاً، ويورثها جلالاً، ويجعل للأمة جمالاً وكمالاً، فالأرض كلها لله ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ١٠]. وهذا هو الميراث الذي سخره لنا فقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] فهو الوارث وهو المسخر، ومن أعرض عن النعم فهو حقيق بالحرمان، ومن كسل عن مواهبه باء بالخسران.

الميراث ميراثان:
ميراث الحي وميراث الميت

إن ميراث الميت ميت وميراث الحي حي، فالله هو الحي وهو الذي له خزائن السماوات والأرض إن ميراث الميت في علم الفقه إنَّما ينفع أسرة واحدة بخلاف ميراث الحي، فإنه ينفع الأمم كلها، وميراث الميت يجعل الوارث بطيء الحركات قليل الهمة، وميراث الحي وهو الله يعطيه للناس على قدر أعمالهم لتقوى أبدانهم وتصح عقولهم فهو عدل.

ولقد نجد الذين رقوا أممهم في الزمان الحاضر من العصاميين الذين لا مال لهم ورثوه، فجدّوا في العمل فرفعوا شأن الأمم، فأما الملوك الذين ورثوا ملكهم عن آبائهم، فكثير منهم أصابوا الأمم بالنكبات وأحلوا بها الأزمات.

ولقد ترى الأمم الإنجليزية ضربت على كل تركة مقداراً من المال يكثر كلما كثرت التركة، ويقلّ كلما كان المال قليلاً، وترى البلشفية منعت الملك وأمرت جميع الأمة بالعمل لترقى البلاد بأعمال أبنائها. النوع الإنساني اليوم ولى وجهته شطر ميراث الله الذي له خزائن السماوات والأرض، فعلى المسلمين أن يوجهوا عنايتهم لذلك الميراث الذي يسع الممالك كلها، ولم يضيق الله على أمة فيه ولم يمنعه عن أحد، وإنَّما يعطيه بالعلم، فكلما كان الناس أكثر علماً بمصنوعاته كانوا أكثر ثروة وغنى.

إن الأنبياء لم يورّثوا مالاً، «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة». فالنبوة فتحت باب العلم على مصراعيه، ولكنها أقفلت باب المال من ناحيتها، تنبيهاً على تلك الخزائن الإلهية والمواريث الربانية، ومن هذا المقام: ﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾[مريم: ٦] ذلك ميراث العلم، فالأنبياء يورثون الناس علماً وذلك مفتاح خزائن السماوات والأرض.

وعسى الله أن يجدّد لهذه الأمة أمرها ويرجع مجدها ويرفع عنها نيرها ويجعلها رحمة للعالمين.

اللهم إني لا أريد بكتابي هذا إلاّ رقيّ النوع الإنساني، وأن يكون المسلمون أرشد العالمين وأصلح بني الإنسان، وأن يكونوا قادة وسادة ورحمة لهم لا يَظلِمون ولا يُظلَمون.

انتهى تفسير سورة «الأنفال».



سورة التوبة

هي مدنية بالإجماع إلا آيتين في آخرها: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[الآية: ١٢٨] إلى قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الآية: ١٢٩] فإنهما نزلتا في مكة. وهي مائة وتسع وعشرون آية، وتركت البسملة في أولها لأنها نزلت لرفع الأمان، والبسملة أمان لأن الرحمة فيها، وأي أمان فوق الرحمة؟ والتسمية افتتاح للخير، وأوّل هذه السورة وعيد ونقض عهود، وقيل: إن الصحابة اختلفوا في سورة «الأنفال» وسورة «براءة» هل هما سورة واحدة أم سورتان؟ فقال بعضهم: هما سورة واحدة لأنهما نزلتا في القتال، ومجموعهما معاً مائتان وخمس آيات، فكانت هي السورة السابعة من السبع الطوال، وقال بعضهم: هما سورتان، فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيهاً على قول من يقول إنهما سورتان، ولم يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» تنبيهاً على قول من يقول هما سورة واحدة.

وسأل ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك سيدنا عثمان رضي الله عنه فقال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السور التي يذكر فيها كذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وظننت أنها منها، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيّن لنا أنها منها أو من غيرها، من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتها في السبع الطوال». أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن. اهـ.

تقسيم سورة براءة

هي أربعة أقسام:

أولها: الآيات التي قرأها سيدنا علي بن أبي طالب يوم الحج الأكبر، وهي من أولها إلى قوله: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[الآية: ٣٨].

ثانيها: التحريض على الجهاد، والإنفاق في سبيل الله، ووصف اليهود والنصارى، والأحبار والرهبان، والجزية، والأشهر الحرم، من قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ﴾[الآية: ٣٩] إلى قوله: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الآية: ٤١].

ثالثها: في المنافقين وتوبيخهم وأحوالهم، من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾[الآية: ٤٢] إلى قوله: ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الآية: ١١٠].

رابعها: الكلام على المؤمنين وأحوالهم، من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾[الآية: ١١١] إلى آخر السورة.

القسم الأول

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ
يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ
وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ
كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ
عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟
لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ
يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟
أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟
بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ
﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن
تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ
مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن
يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ
وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ
ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ
فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ
ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ
يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا
ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ
يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا
بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ
ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ
قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ
ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾
يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾
هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ
ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ
ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ
وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ
ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ
ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ
كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ

أَعْمَٰلِهِمْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾

اعلم أن هذه الآيات هي التي قرأها سيدنا علي يوم الحج الأكبر «العيد» على الناس. وملخص هذا المقام: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مأموراً ألا يقاتل المشركين أولاً، والآيات في ذلك كثيرة مشهورة، ثم بعد ذلك أمر أن يقاتل من قاتله.

قال الحسن: أمر الله عزّ وجلّ رسوله صلى الله عليه وسلم بقتال من قاتله من المشركين فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، فكان لا يقاتل إلا من قاتله. ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم، وأجلهم أربعة أشهر، فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر. اهـ.

وقوله رضي الله عنه: «فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر» أي: إلا بني ضمرة وهم حي من كنانة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإتمام عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر، وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا عهداً، وكان ابتداء الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر؛ أي: يوم العيد؛ وكان ذلك في العام العاشر من شهر ذي القعدة، فآخر الأشهر الأربعة العاشر من شهر ربيع الأول، وإنّما كان الحج في شهر ذي القعدة لأجل النسيء الذي كان يحسبه العرب، فلما كان العام الذي بعده صار الحج في العاشر من ذي الحجة، وفيها حجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض» الحديث. وهذا لمن كان له عهد أقل من أربعة أشهر، فأما من لم يكن له عهد فقد جعل عهده أربعة أشهر، ومن كان عهده فوق الأربعة حط أجله إلى أربعة إن كان نقض شيئاً من شروط العهد، فأما إن كان أتم شروط العهد كبني ضمرة من كنانة فهؤلاء يوفى لهم بعهدهم.

سبب هذا النداء يوم الحج الأكبر

اعلم أن مكة لما فتحت سنة ثمان من الهجرة وجاءت سنة تسع أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحج، فقيل له: المشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة، فقال: «لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك»، فبعث أبا بكر رضي الله عنه في تلك السنة أميراً على الموسم ليقيم للناس الحج، ثم بعث بعده علياً رضي الله عنه على ناقته «العضباء» ليقرأ على الناس صدر «براءة» وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة: أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم من كل مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

ولما كلم أبو بكر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك قال: أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك معي على الحوض؟ قال: بلى يا رسول الله، فسار أبو بكر أميراً على الحجاج وعلي بن أبي طالب يؤذن بـ «براءة»، فلما كان قبل التروية بيوم خطب أبو بكر في الناس وحدثهم عن مناسكهم، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأذن في الناس بالذي أمر به، وقرأ عليهم أول سورة «براءة».

وقال يزيد بن تبيع: سألنا علياً بأي شيء بعثت في الحجة؟ قال: بعثت بأربع: «لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في حج».

ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع، فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مشرك، وأنزل الله في العام الذي فيه نبذ أبو بكر رضي الله عنه إلى المشركين عهدهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[الآية: ٢٨] الآية، وإنما أمر سيدنا عليّ بالنداء في الناس لأن عادة العرب جرت أن لا يتولى تقرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربه، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أبي بكر؛ لأنه ابن عمه.

ومما ذكره المفسرون في سبب هذا النداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر الله عزّ وجلّ بنقض عهودهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[الأنفال: ٥٨]، فهذا هو النبذ على السواء.

ولما وقف سيدنا علي رضي الله عنه ونادى في الناس بالآيات من أول «براءة» عند جمرة العقبة وقال: يا أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية، ثم قال: أمرت بأربع ـ وهي المتقدمة ـ فقالوا عند ذلك: يا علي أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف. هذا خلاصة ما ذكره المفسرون مع تشعبه، فلنشرع في تفسير الآيات.

قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ أي: هذه براءة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ البراءة: التباعد مما تكره مجاورته، قال الزجاج أي: قد برئ الله ورسوله من إعطائهم العهود والوفاء بها إذا نكثوا، ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي: فسيروا أيها المشركون في الأرض كيف شئتم مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين؛ والسياحة: الضرب في الأرض والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة، والمعنى: قل لهم سيحوا، والقصد من الأمر الإباحة والإطلاق والإعلام بحصول الأمان وزوال الخوف والقتل والقتال، وبعد الأشهر الأربعة ـ التي شرحناها فيما تقدم وبيّنا ما اخترناه من كلام المفسرين ـ يقتل المشرك حيث أدرك ويؤسر، إلا أن يتوب ويرجع إلى الإيمان، ولا تظنوا أيها المشركون أنكم تفوتون الله فلا يمكّن المسلمين منكم؛ كلا! فلتعلموا أنكم لا تفلتون من أيدي المؤمنين ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ يعني: أن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم؛ ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب تائب ويؤمن، وما مثلكم في أنكم في قبضة الله وقد أمهلكم، ثم إذا أخذكم وسلط المؤمنين عليكم لن تفلتوا بل تنقادون إلا كمثل ما قال طرفة بن العبد:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ومن يك في قيد المنية ينقد

فهكذا هؤلاء يسيحون أربعة أشهر كأنهم كالحيوانات المربوطة في الطول، وقد وضع الرجل ثنياه في يديه فيرتع كالحيوان كما يشاء، ومتى أراد الرجل جذبه ارتد إليه حالاً، هكذا الموت مع الناس، وهكذا المؤمنون مع المشركين بعد الأشهر الأربعة، فهم لا يفلتون بل هم في قبضتهم، هذا معنى الآية. لأن الله خاذل الكافرين، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة، ﴿وَ﴾ هذا ﴿أَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: إعلام صادر من الله ورسوله ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يوم النحر لأن فيه تمام الحج من الطواف والنحر والحلق والرمي، وإنما وصف بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر، وجملة: «وأذان» معطوف على جملة «براءة»، كأن الله يقول: وإعلام من الله ورسوله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: بأن الله، وحذفت صلة الأذان تخفيفاً، ﴿بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ «بريء» على قراءة الرفع، وقرئ: «ورسوله» بالنصب عطفاً على اسم «أن»، وقرئ بالجر.

حكي أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ «ورسوله» بالجر، فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا بريء منه. فلببه الرجل إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته، فعندها أمر عمر بتعلم العربية، وهذه قراءة واردة أيضاً، والجر إما على الجوار أو على القسم، فـ«رسوله» مثلثة اللام.

﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ﴾ أي: فالتوب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة، أي: تبتم عن التولي عن الإسلام والوفاء ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ﴾ غير فائتين من عذابه، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة، ثم استثنى من قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فقولوا لهم: فسيحوا؛ إلى آخره؛ قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من شروط العهد ولم ينكثوه ولم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط؛ كبني ضمرة؛ ﴿وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟﴾ أي: ولم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ يعني: من عدوكم ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ أي: إلى تمام مدتهم ولا تجروهم مجرى الناكثين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يضعون الأمور مواضعها، ويوفون بالعهود مع الموفين، ولا يجعلونهم كالناكثين، ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي: انقضت شهور العهد وإنما سميت «حرماً» لحرمة نقض العهد فيها، وهي التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها، وهذا اختيار مجاهد ومحمد بن إسحاق، وهو يناسب نظم الكلام واتزان المعنى، ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من حلّ وحرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم، والأخيذ: الأسير، ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ واحبسوهم، أو: حولوا بينهم وبين المسجد الحرام ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾ كل ممر ومجتاز ترصدونهم به، وهو منصوب على الظرف، ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الكفر وآمنوا ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ حتى تصدق توبتهم وإيمانهم ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ فأطلقوهم بعد الأسر والحصر إن وقعوا في قبضتكم، أو: دعوهم ولا تتعرضوا لهم إن لم تكونوا استحوذتم عليهم، ومن ترك الصلاة ومنع الزكاة لا يخلى سبيله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لتخلية سبيلهم، فإن الله يغفر بالإسلام ما سلف للكافر ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر، ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ﴾ داره

التي يأمن فيها إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت، فعلى المسلمين أن لا يؤذوا مستأمناً، وليس له أن يقيم في دارنا، وعلينا أن نمكنه من العودة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر بالإجارة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ﴾ جهلة ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإسلام وما حقيقة ما يدعو إليه، فلا بدّ من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق، ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ «كيف» استفهام في معنى الاستنكار والتعجيب، ومعناه الجحد أيضاً، أي: لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهم بنو ضمرة المتقدم ذكرهم، ولم ينقضوا شرطاً من شروط العهد، ولم يعينوا عليكم عدواً؛ كما تقدم تفصيله؛ فتربصوا أمرهم ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ أي: فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء، وهذا كقوله فيما تقدم: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ ولكنه مقيد هنا بأن يستقيموا على العهد، و«ما» شرطية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتربصون ويتيقظون في هذه الأحوال وأمثالها ويميزون بين الخبيث والطيب ﴿كَيْفَ﴾ تكرار تعجب واستبعاد، أي: كيف يكون بينكم وبينهم عهد ﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ يغلبوكم، أي: كيف وحالهم أنهم إن يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ لا يراعوا فيكم ﴿إِلًّا﴾ قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بالوعد بالإيمان والوفاء بالعهد، وهذا كلام مستأنف في وصف حالهم، وأن ظاهرهم بخلاف باطنهم، وهو يقرر استبعاد الثبات منهم على العهد، وكأنه قيل: لماذا يوصفون بذلك؟ فكان الجواب «يرضونكم» الخ، ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الإيمان والوفاء بالعهد ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ناقضون العهود متمردون في الكفر لا مروءة تمنعهم عن الكذب، ولا فضائل تردعهم عن النكث، وهذه حال أكثرهم، أما أقلّهم فهم وإن كانوا كفاراً فهم ثابتون عن العدالة في دينهم، ولذلك لم ينقضوا العهد ﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ استبدلوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالقرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً، وهو: اتباع الشهوات ونقض العهود والمبالغة في العداوات ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي: عدلوا عن دينه وصرفوا غيرهم، أو: صدوا عن سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ والمقصود بالذم عملهم هذا، ثم وصفهم هنا كما وصفهم قبلاً بقوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ وهذا غير ما تقدم، لأنه قال هناك: «فيكم» وهنا قال: «في مؤمن» فهنا أعم. ويقال: إن هؤلاء نقضوا العهد بسبب أكلة أطعمهم إياها أبو سفيان بن حرب، فذمهم الله بذلك، وعلى هذا يكون هذا خاصاً بهؤلاء، والأول أعم، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون الغاية في الظلم والشر ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ لا في النسب ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون؛ فيتفكرون فيها، وهذه جملة معترضة، يعني: ونبين حجج أدلتنا ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه، كأنه قيل: إن من تأمل تفصيلها فقد استحق منقبة العلم، وذلك للتحريض على أن يتأمل الناس ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين والمحافظة عليها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة. وقال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له. وقال ابن زيد: افترضت الصلاة والزكاة جميعاً لم يفرق بينهما، وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه، يعني بذلك ما ذكره أبو بكر في حق من منع الزكاة، وهو قوله: والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما، يعني: الصلاة والزكاة.

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عزّ وجلّ» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ ﴾ أي: وإن نقضوا العهود المؤكدة بالأيمان ﴿ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ وعابوه ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ فقاتلوهم، ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم صاروا بذلك رؤساء مقدمين في الكفر، فهم أحق بالقتل، ﴿ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ ﴾ على الحقيقة، وإنما أثبت لهم الأيمان في قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم ﴾ لأنه أراد أيمانهم التي أظهروها، ثم قال هنا: لا أيمان لهم على الحقيقة وإلا لما طغوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإسلام فقد نكث عهده، وهنا قال الحنفية: إن يمين الكافر ليست يميناً، ويقول الإمام الشافعي: إن أيمانهم لا يوثق بها، ويجعل يمينهم يميناً حيث وصفت بالنكث.

أقول: ومتى كانت الأيمان معناها العهد لم يتأتّ هذا الخلاف؟ولا يكون إلا حيث يجعل اليمين بمعنى الحلف في الموضعين. وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ أي: فقاتلوا أئمة الكفر لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم ويرجعوا عن الكفر إلى الإيمان.

ثم أخذ يحض المؤمن على جهاد الكفار، فقال: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ ﴾ نقضوا عهودهم، وهم الذين نقضوا صلح الحديبية وأعانوا بني بكر على خزاعة ﴿ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ يعني: من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمۡ ﴾ يعني: بالقتال ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ ﴾ يعني: يوم بدر، إذ قالوا لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه، وبدؤوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ ﴾ أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ ﴾ يا معشر المؤمنين، فاخشوا ترك أمره ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ أي: إن كنتم مصدّقين بوعد الله ووعيده فاخشوه، وهل يكمل الإيمان إلا بحصر الخشية في الله وعدم المبالاة بمن سواه.

ولما انتهى من توبيخهم على ترك القتال أمرهم به فقال: ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ ﴾ فجعل المرتب على القتال خمسة أمور:

(١) التعذيب بالقتل.

(٢) والذل بالقهر ونزول الهوان.

(٣) والنصر عليهم والظفر بهم.

(٤) وشفاء صدور المؤمنين وشفاء داء قلوبهم بما كانوا ينالونه من الأذى منهم، ولا ريب أن من آذاه خصمه أمداً طويلاً ثم مكنه الله منه فإنه لا محالة يعظم سروره.

(٥) وذهاب غيظ القلوب لما لقوا من المكروه. وكل هذا قد حصل وهذه من دلائل النبوة.

ثم استأنف قائلاً: ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ كبعض أهل مكة كأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بما كان وما سيكون، ومنه علم القلوب الصالحة للإيمان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في قبول توبتهم وإيمانهم.

ولما كان ما تقدم يرجع إلى القتال وإقامة الحروب وإخضاع الأعداء، وكان ذلك شاقاً على النفوس صعباً على الناس؛ أردفه بأن الناس في الدنيا مخلوقون للأعمال مبتلون بأثقالها والجهاد فيها، فمن جدّ وصبر فاز، ومن سقط في الامتحان نزل به الهوان، وهذا هو قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: أظننتم أيها المؤمنون أن تُتركوا فلا تُؤمروا بالجهاد ولا تُختبروا ليظهر الصادق من الكاذب والغثّ من السمين، والجيد من الرديء؟ وهل تُتركون ولم يتبيّن المجاهدون منكم ولم يتخذوا ﴿ وَلِيجَةً ﴾ أي: بطانة من دون الله ورسوله. وملخص الآية: أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة ولا براءة من المشركين ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يعلم غرضكم منه.

ثم إنه هاهنا شرع الله عزّ وجلّ يبيّن فضل الإيمان والجهاد ويعطي المسلمين صورة صادقة للمسلم الصادق، فهو أولاً: يفضل الإيمان والجهاد على عمارة المساجد؛ لأن عمارة المساجد لا فائدة منها إذا لم يكن المعمر مؤمناً، وكيف يعمر المسجد وعبادته ملغاة؟ أم كيف يعمر المسجد والعدو يحيط به من كل ناحية؟. فعلى المسلم تصحيح العقائد أولاً؛ فإن الجسم لا ينشط إلا على مقتضى الإرادة؛ وأن يجمع الجيوش ويطرد الأعداء ويُخيف الأمم حوله حتى لا يطمعوا في دياره. ولعمري كيف يصلي الناس وهم خائفون؟ أم كيف يتعبدون بالمساجد وهم محاصرون؟ أم كيف يقومون بأعمالهم الدينية وهم لا يعتقدون؟.

وثانياً: وضع الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمسكن في كفّة والإيمان والجهاد في كفّة، وفضّل الكفّة الثانية على الأولى، ذلك لأن من اكتنفه العدو وأحاط به الظالمون من كل صوب؛ فأبناؤه وأهله وأقاربه وماله ومسكنه وجميع ما يتمتع به في حكم المفقود؛ لأن العدو سيأخذه منه ويحرمه، فاقتضت السياسة الحكيمة أن الجهاد والإيمان يقدّمان على سائر ما ذكر.

إن الجهاد به صيانة الأمة وحفظها، وقد هدّد من أحبّ هذه الأمور وفضّلها على الجهاد والإيمان بعقاب شديد، وقد عرفت العقاب، فهو الذي وقع فيه المسلمون اليوم؛ فقد ضعف الإيمان وقلّ الجهاد، فأخذ الفرنجة المسلمين من كل جانب، وهذا مصداق الآية، وهذا هو قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وسبب نزول الآية أن أسرى بدر من قريش الذين تقدم ذكرهم في سورة «الأنفال» ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيّرونهم بالشرك، وجعل علي بن أبي طالب يوبّخ العباس بسبب قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقيل له: وهل لكم محاسن؟ قال: نعم؛ نحن أفضل منكم؛ نحن نعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني ـ يعني الأسير ـ فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ سواء أكان المسجد الحرام أو غيره ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ بإظهار الشرك وتكذيب

الرسول وعبادة غير الله، وقد كان أهل مكة يطوفون بالبيت عراة، وكانوا كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ التي عملوها في الكفر من أعمال البر مثل: قرى الضيف وسقي الحاج وفك العاني، وكل عمل ليس لله فقد حبط وبطل، ﴿ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ أي: من مات منهم على الكفر.

فإذا كان أهل مكة قد عمروا المسجد الحرام فليس بنافع لهم لأمرين: الأول: أن أعمالهم حبطت بكفرهم. الثاني: أنهم مغتصبون لحقوق المسلمين.

فالأول في الآية السابقة. والثاني في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي: إنما تستقيم عمارة المساجد لمن جمعوا بين قوتي العلم المعبّر عنه بالإيمان الخ، والعمل بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم خشية أحد في أبواب الدين إلا الله، فهؤلاء وحدهم الذين يقومون بتزيين المساجد بالفرش وتنويرها بالسرج وإدامة العبادة والذكر ودرس العلم فيها وصيانتها، فلو أوصى كافر ببناء مسجد لم تقبل وصيته، وهكذا يمنع الكفار من دخول المساجد بغير إذن مسلم، وإذا دخل بغير إذن عزّر.

ثم إن الله لما خصص المؤمنين الموصوفين بما ذكر بعمارة المساجد لم يشأ أن يؤمنهم من حوادث القدر، بل أبقى لهم خوفاً في نفوسهم لئلا يظنوا أن الاتصاف بما ذكر كاف للسعادة، فإن هناك من الأمور النفسية والأخلاق السبعية والعوارض الشيطانية في النفوس الإنسانية ما يبعث على الخشية المذكورة في الآية، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ بصيغة التوقع؛ فهؤلاء مع كمالهم في الإيمان يتوقع لهم الهداية.

ثم أخذ سبحانه يزيده إيضاحاً ويؤكده فقال على سبيل الاستفهام الإنكاري: ﴿ أَجَعَلۡتُمۡ ﴾ الخ، السقاية والعمارة: مصدران، أي: أجعلتم أهل ﴿ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ ﴾، ثم كرر الحكم فقال: ﴿ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، وبيّن عدم المساواة فقال: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ولا جرم أن الكفر ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم ظلم، فكيف يساوي هؤلاء الذين هداهم الله وقبلوا الحق، ثم بيّن طائفة أعلى من غيرها وأعظم قدراً من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام؛ وممن لم يستجمع الصفات المذكورة الآتية، وتلك الصفات: الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والجهاد بالمال، فهؤلاء أعظم درجة من غيرهم ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ بالثواب ونيل الحسنى عند الله، لأن المجاهد بنفسه وماله فوق المصلي المزكي الذي لا يجاهد، ولذلك قال فيما تقدم: ﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ وهنا خصّهم بالفوز وأتبعه بالبشارة من ربهم بأنه يرحمهم ويرضى عنهم ويدخلهم جنات نعيمهم فيها دائم وهم خالدون فيها خلوداً مؤكداً بالتأبيد، وعند الله الأجر العظيم الذي يحقر دونه نعيم الدنيا، ولا نسبة بين أعمال العاملين والأجر الذي استوجبوه.

ثم أخذ سبحانه يبيّن أن الأمة ما لم تجتمع أفرادها على رأي واحد؛ تفرقت وحداتها وزالت جامعتها؛ وأهمّ ذلك الاجتماع على الإيمان، وقد يستبدله قوم بالوطنية، وآخرون باللغة، إلى آخر ما في كتاب أهل المدينة الفاضلة للفارابي. فنهى سبحانه أن يتخذ المؤمنون آباءهم وإخوانهم أولياء يوالونهم إن آثروا الكفر على الإيمان وأوعدهم قائلاً: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، ثم بيّن

أهم ما يحبه الناس في الدنيا وهي ثمانية ، وفضّل الجهاد والإيمان عليه قائلاً : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ أقرباؤكم ﴿ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ اكتسبتموها ﴿ وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ فوات وقت نفادها ، وقوله : ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ الخ ، وعيد وتهديد بضياع الأمة وتشتيت شملها .

لطائف فيما تقدم من الآيات من هذا القسم من السورة :

اللطيفة الأولى : في قوله تعالى : ﴿ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

اللطيفة الثانية : في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ الخ .

اللطيفة الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ .

اللطيفة الرابعة : في قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾ الخ .

اللطيفة الخامسة : في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾ الخ .

اللطيفة الأولى : في قوله تعالى : ﴿ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ الخ
والكلام على الأمم الإسلامية ونومتها

انظر إلى اجتهاد أبي بكر الصديق ، وكيف يقول بعض الأجلة الأعلام من صدر الأمة الإسلامية : ما كان أفقه أبا بكر ، يريد بذلك أنه لم يفرق بين شيئين جمع الله بينهما ، يعني الصلاة والزكاة لما جاءه عمر رضي الله عنه قائلاً : يا أمير المؤمنين اكتف منهم بالصلاة ، وردّ عليه قائلاً وقد أخذ بلحيته : يا رجل أجبار في الجاهلية خوّار في الإسلام ، والله لو منعوني الخ .

فتعجب كيف كانت قوة الإسلام ومنعته وبقاؤه ورونقه وملكه لفارس والروم ، وحفظه الثغور راجعات كلها إلى أمر واحد وهو قرن الصلاة بالزكاة ، وقد فهمها أبو بكر وعمل فحفظ بها الوحدة ، وبيّن الله أهمية ذلك فقال : ﴿ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد قال بعض المفسرين إنه بذلك يستثير الهمم ويحرّض الأذكياء على الفهم في أمر المعاهدات وكأنه قيل من تأمل تفصيلها فقد استحق منقبة العلم ، وقد ظهر أن أول من استحق منقبة العلم في هذا الباب أبو بكر الصدّيق ، فهو الذي فهم وهو الذي عمل .

هذه هي المقدمة التي أكتبها للنتيجة التي أطلبها ، وهي :

العلوم المسماة بالعصرية من السماوات والأرض
وعجائب الحكمة الإلهية

انظر أيها الذكي كيف استقامت أمّة الإسلام ونجح الصديق في أمره ؟ بماذا ؟ بماذا جمع الإسلام ؟ جمعه بقرن الصلاة بالزكاة وهو الذي تفطن لهذا وحده ، ثم اتبعه المسلمون وأذعنوا . وبماذا مدحه الله ؟ مدحه هو وأمثاله بالعلم ، بماذا؟ بأنه عرف تفصيل هذه المسألة السياسية العمرانية الدينية فهل فطن المسلمون بعد ذلك في هذه العصور؟ عصور العلم والعرفان ، عصور الحكمة والنور ، عصور الكشف الحديث ، عصور الكهرباء والبخار ، عصور الكيمياء والحديد ، عصور المواد اللطيفة الهوائية التي بها تطير الطيارات وتحلق في جو الفضاء ، عصور انقلاب المعمورة وتغيير العالم الإنساني ، وإنزال الصواعق

من الطيارات . هل فطنوا على من تقع تلك الصواعق ؟ على الجاهلين ، من هم الجاهلون ؟ الجاهلون بنظام الله ، الجاهلين بما خلق الله ، الجاهلين بهذا العالم المملوء جمالاً وبهاء وحساباً ووزناً ، كل العالم الموزون منظم بهيج بديع . فواحسرتاه على أمة الإسلام ، ووا أسفاه على هذه الأمة النبيلة التي خلقها الله في الشرق مهد العلم والحكمة والفلسفة .

فيا ليت شعري كيف يكون الشرق مهد المدنية والعرفان وينزل فيه نبي صادق منهم ، ثم يكون ذلك الشرق نفسه مهد الغباوة والجهالة ، وكيف أصبح في ظلام دامس وجهل طامس ، لعلك تقول إنك بهذا القول خرجت من المقام ودخلت فيما ليس منه ، وأيّ مناسبة بين المعاهدات الإسلامية والنظامات الكونية ، وإنّما أنت تريد أن تذكر العجائب الكونية بمناسبة وغير مناسبة ، لأن هذا تحيّل في الكلام وخروج عن سنن التأليف ، وهذا مما تنفر منه الطباع ويأباه العلماء الأعلام .

أقول : على رسلك إن هذا المقام به ألق وهو به حقيق ، ألا ترى أن مناعة أمة الإسلام التي جاءت من اقتران الصلاة بالزكاة وقد مدح من يعرفها بالعلم ، قد جاء في القرآن في سورة «الأنعام» نظير هذا المدح ، بل هو أبلغ منه فيمن يعرف علم النجوم وسيرها ، وعلم التشريح وعلم النبات وما أشبه ذلك ، فإذا قال الله هنا : ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الآية : ١١] ، فقد قال في سورة «الأنعام» : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[الآية : ٩٧-٩٨] . ثم شرع يذكر الجنات والأعناب والنخيل وقال : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الآية : ٩٩] .

فانظر كيف يقول هناك : «قد فصلنا» ففيها «قد» للتحقيق ، وفيها «فصلنا» بصيغة الماضي وهي تفيد التحقيق ، وعبر في جانب الأمور الطبيعية ـ وهو التشريح ـ بالفقه ، وهو أبلغ من العلم لدلالته على شدة الفطنة ، وختم بأن هذه دلالات لقوم يؤمنون . فانظر كيف ابتدأ الله الآيات بأنه عزيز عليم ، وبأن من يعرفها عالم فقيه مؤمن ، فهذه الصفات الثلاثة التي ترتبت على معرفة هذا العالم المحيط بنا من النبات والحيوان والإنسان والتشريح والفلك وجميع العلوم الطبيعية لم تذكر في هذا المقام مقام المعاهدات والمعاملات المدنية ، بل قال : ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ، وهناك أكدها بـ «قد» وكون الفعل ماضياً .

أفلا تتعجب من المسلمين كيف يتفطن الصدّيق لمسألة إسلامية جمع بها الأمة كلها ، وهي قرن الصلاة بالزكاة ، ولما جاء هذا العصر الحاضر وجدنا أنفسنا اليوم لا في العير ولا في النفير ، فلا نحن حافظنا على ما ورثناه من أولئك الأشراف الأكابر من العلوم العملية ، ولا نحن رفعنا أبصارنا إلى ما حولنا ، وحوّلنا وجهة الأمراء الإسلاميين ورؤساء العشائر من التخاذل إلى الأمم التي حولهم ، وكيف سبقوهم في العلوم واستخدموا الطبيعة ، فأعطاهم الله مما في خزائنها ، وكيف ناموا عن القرآن ولم يتفطنوا لما تفطن له أسلافنا الكرام .

ولو أنه نظروا نظرات صادقات لوجدوا من الحث على العلم في الآيات السابقة ما يبهج الصدور ويبعث الهمم إلى حوز العلوم وفهمها ، وكيف كان القرآن قد أعطى العلوم الطبيعية والفلكية من الأهمية فوق ما أعطى العلوم الفقهية التي منها أمر المعاهدات في الآيات التي نحن بصددها .

يا عجباً كل العجب! هل غاب عنكم يا معاشر علماء الإسلام أن هذه العلوم الكونية هي التسبيح، وهي العبادة، وهي التوحيد، وهي الذكر، وبها الفكر، وبها حب الله، وبها فضلاً عن هذا كله الجهاد العلمي والرقيّ الفكري والغنى والثروة وغلبة الأعداء.

لقد ظهر الآن سرّ القرآن، هذا هو السر المكنون، هذا هو العلم المخزون، هذا هو الذي خبأه الله في القرآن ليظهره الآن على قلوب قوم يخلقهم لهذا في هذه الأمة فيسوقون الأمة الإسلامية إلى دراسة العلوم والعرفان، ويقرؤون ما في الأرض والسماء من العوالم المحيطة بنا حتى يكونوا عباد الله حقاً وحتى يكونوا خلفاء الله في أرضه، وحتى يكونوا رحمة للعالمين، وحتى يظهر الله الإسلام على الدين كله.

وإلاّ فلماذا نرى الله يصف نفسه في تلك الآيات بالعزة والعلم؟ ويصف العالمين بها بالفقه وبالعلم وبالإيمان؟ تبارك الله رب العالمين.

إن فرق ما بين العلوم الفقهية والعلوم الكونية كالفرق ما بين ذلك المدح العجيب بالعلم والفقه والإيمان في آيات الأنعام مع الصيغة المفيدة للتحقيق، وبين مجرد الوصف بالعلم مرة واحدة بصيغة المضارع. ولقد وصف العالمون بهذه العلوم أيضاً بأولي الألباب والمتقين والموقنين وأنهم يعلمون؛ فجميع صفات الكمال من علم وإيقان وفقه وأنهم أولو الألباب. كل ذلك وصفهم الله به، وكيف لا يوصفون به وقد علمت أن قرن الصلاة بالزكاة وتوزيعها على الناس يفيد العدل فيما ملكه الناس، فأما العلوم الطبيعية ونظام الله فإنهما يفيدان الناس فوق معرفة الله مالاً وغنى وثروة وقوة حربية.

فجلّ الله الذي ألبس المعاني الألفاظ التي تناسبها، فمدح عالم الزكاة بمدح أوجز من مدح العلوم الكونية، لما يغدقه على الناس من نعمة بتعاطيها، وجلّ الله الذي غشى على عقول المتأخرين من المسلمين فحرمهم ذلك، وهاهو ذا يريد أن يطلعهم على خزائن نعمته، وألهمهم من الآن دلائل رحمته وبدائع حكمته، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

اللطيفة الثانية

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ الآية

لقد كثر الحضّ في القرآن على الجهاد، وهي قاعدة مقررة ألاّ سعادة في دين ولا دنيا إلاّ بنفس الجهاد، فأما اللذات والشهوات والأماني فإنّما هي وقتية، والسعادة إنّما قرنت بالصبر والجهاد في جميع الحياة؛ فليجاهد الإنسان في العلم والعمل والصدق والأمانة، فبهذا الجهاد وحده تكون السعادة، وهذا المقام مستوفى في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ [الآية: ١٥٥] الخ.

اللطيفة الثالثة: قوله تعالى:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الخ

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهد قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل بنو بكر في عهد قريش، ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح، فلما تظاهر بنو بكر

وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم، خرج عمرو بن سالم الخزاعي وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل الخبر في أبيات من الشعر كما يروى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا نصرت إن لم أنصركم»، وتجهز إلى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة. فهؤلاء هم الذين نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول، وهم البادئون بالأذى، وقد حصل جميع ما في الآية وهو معجزة.

اللطيفة الرابعة: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الخ

في البخاري عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فائت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها، فقال: اسقني، فقال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال: اسقني، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها، قال: اعملوا فإنكم على عمل صالح».

وروى مسلم عن بكر بن عبد الله المزني قال: «كنت جالساً مع ابن عباس عند الكعبة، فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ؟ أمن حاجة بكم، أم من بخل؟ فقال ابن عباس: الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل، إنَّما قدم النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة، فاستسقى فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة، فقال: أحسنتم أو أجملتم كذا فاصنعوا. فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم». اهـ.

والنبيذ: هو التمر ينقع في الماء غدوة ويشرب عشاء، أو ينقع عشاء ويشرب غدوة، لكن إن غلي وحمض حرم.

اللطيفة الخامسة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ الخ

لقد تكرر في القرآن الحض على الاتحاد، فلا أمة تقوم إلاَّ به، والاتحاد إنَّما يكون بالقلوب، ومتى تفرقت وجهة النظر تفرقت الأمة، وهذا المقام قد شرحناه مرات كثيرة في هذا التفسير والله أعلم.

ولما كان تفضيل الإيمان على حبّ الثمانية المتقدمة في الآية، وهي: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن المحبوبة يؤدي إلى اتحاد الأمة، وضد ذلك يؤدي إلى تقاطعها وتدابرها وتمزيقها لعدم الاتحاد والالتئام، وكان ذلك قد توافر عند أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وجيوشه الكماة، أعقب ما تقدم بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يعني مواطن الحرب كوقعة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة، وتبلغ غزوات النبي صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة، وقد قاتل في ثمان منهن.

ثم إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه ثمانون، وخصّ موضعاً منها بالذكر وهو يوم حنين، فقال: ﴿وَيَوْمَ﴾ أي: واذكروا يوم ﴿حُنَيْنٍ﴾ وادٍ بين مكة والطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً. وقال عروة: هو إلى جنب ذي المجاز. أعلمنا الله بهذا أنه هو الذي يتولى نصر المؤمنين في كل موقف وموطن، ومن يتولى الله نصره فلا غالب له، فلأذكر مختصر الغزوة وما يهمّ منها، ثم نأتي بالآيات بعدها.

روي أن الغزاة في حنين كانوا اثني عشر ألفاً، منهم عشر حضروا فتح مكة، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء، وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا، وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف، وكان

على هوازن مالك بن عوف النضري، وعلى كنانة ابن عبد ياليل؛ فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار: لن نغلب اليوم من قلة، فساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه، فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المشركون وخلوا عن الذراري، ثم تنادوا: يا حماة السواد، اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف المسلمون حتى بلغ فلهم مكة، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مركزه ليس معه إلاَّ عمه العباس رضي الله عنه آخذاً بلجام بغلته، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، فقال للعباس وكان صيتاً: صح بالناس، فنادى: يا عباد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة. فكرّوا عنقاً واحداً يقولون: لبيك لبيك، ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين، فقال عليه الصلاة والسلام هذا حين حمي الوطيس أي: اشتدت الحرب، والوطيس: التنور، ثم أخذ صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، وقال: شاهت الوجوه، فما خلق الله منهم إنساناً إلاَّ ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم وأعطى المؤلفة قلوبهم مالاً كثيراً، كأبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس وصفوان بن أمية وعيينة ابن حصن، كل واحد مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس أقلّ من ذلك، فأنشد شعراً في ذلك، فكمل له المائة، ولم يعط الأنصار شيئاً وأفهمهم أنه يتألف حديثي العهد، وأنه هو نفسه معهم فرضوا بذلك. فلنفسر الآيات:

يقول الله: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي مع رحبها، وهي في موضع الحال، أي: ملتبسة برحبها، كقولك: دخلت عليه بثياب العز، أي: ملتبساً بها، والمقصود أنهم لم يجدوا موضعاً لفرارهم عن الأعداء، فكأن الأرض ضاقت مع ما هي عليه من السعة ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ منهزمين ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين انهزموا، والسكينة: الطمأنينة، فإن الخائف يرتجف غير مستقر، والآمن في سكون، فالسكينة كناية عن الأمن، ذلك أن جمع هوازن وبني النضر رشقوا الغزاة من المسلمين بالنبال وكانوا لا يخطئون المرمى، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء فنزل ودعا واستنصر وقال: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب؛ وذلك حين حمل المسلمون على الغنائم فشغلتهم وكان ما كان ﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ بأعينكم، يعني الملائكة، وقد اختلفوا في عددهم، ولقد سبق القول فيهم في «آل عمران» و«الأنفال».

وروي أن رجلاً من نضر يقال له شجرة، قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البلق والرجال عليهم ثياب بيض؟ ما كنا نراهم فيكم إلاَّ كهيئة الشامة، وما كان قتلنا إلاَّ بأيديهم، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: تلك الملائكة.

وروي أن رجلاً من المشركين قال يوم حنين: لما التقينا وأصحاب محمد، لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم، فبينا نحن نسوقهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فتلقانا عنده رجال بيض الثياب حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا، فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها. انتهى.

واعلم أن هذه الروايات لم ترد في الصحيح، وقد تقدم تحقيق المقام في «الأنفال» فتفطن.

﴿ وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بالقتل والأسر والسبي ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد تاب على بعض هؤلاء بأن وفقهم للإسلام، فإن ناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا وقالوا: يا رسول الله، أنت خير الناس وأبرّهم، وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا، وكان السبي يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى، فقال صلى الله عليه وسلم: اختاروا إما سباياكم وإما أموالكم، فقالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن هؤلاء جاؤوا مسلمين، وإنا خيّرناهم ما بين الذراري والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يردّه فشأنه، ومن لا فليعطنا، وليكن قرضاً علينا حتى تصيب شيئاً فنعطيه مكانه، فقالوا: رضينا وسلمنا، فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا، فرفعوا أنهم قد رضوا.

ثم خاطب الله المؤمنين في شأن المشركين قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ لما في نفوسهم من الخبث والرجس، وما في عقائدهم من الزيغ، وما في أبدانهم من القذر فلا يتطهرون، وما عندهم من الحدث الأصغر والأكبر كالجنابة فلا يغتسلون، وما في أعمالهم من الأذى فيجتنبون كما يجتنب كل ذي مرض معد وكل حيوان مفترس، ويقول ابن عباس: إن أبدانهم نجسة كالكلاب. ويقول الحسن بن صالح: من مسّ مشركاً فليتوضأ، ومثله الزيدية. ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ فلا يحجون ولا يعتمرون عند أبي حنيفة، ويجوز للمعاهد دخول الحرم عنده، أو لا يدخلون الحرم مطلقاً فضلاً عن المسجد الحرام عند الشافعي وأحمد ومالك، ولا يدخلون غير المسجد الحرام من المساجد قياساً عند مالك. والمراد بهذا العام السنة التاسعة التي حج فيها أبو بكر الصدّيق بالناس، وفيه نادى عليّ ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك كما تقدم.

أما بلاد الحجاز فيجوز للكفار دخولها والإقامة فيها ثلاثة أيام. ففي مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلاّ مسلماً». وفي رواية لغير مسلم، قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب». فلم يتفرّغ لذلك أبو بكر، وأجلاهم عمر في خلافته، وأجّل لمن يقدم تاجراً ثلاثة أيام، عن ابن شهاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» أخرجه مالك في الموطأ.

ولما كان المشركون قد منعوا أن يقربوا المسجد الحرام وذلك يدعو إلى عدم دخول الحرم، فدخول الحرم اقتراب من المسجد كان ذلك داعياً أن يبقى أهل مكة جياعاً فقراء لمنع التجارات والطعام التي كان يجلبها المشركون إليهم كل عام، لذلك أعقبه تعالى بقوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ فقراً ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ من عطائه، وقد صدق الله وعده وأرسل السماء عليهم مدراراً وكثر خيرهم، وأسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن، وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة، ومما أعطاهم الله الجزية أيضاً، وإنّما قال: ﴿ إِن شَآءَ ﴾ ليوجه الآمال إلى الله وأنه متفضل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يعطي ويمنع ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ الثابت الناسخ للأديان كلها ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهذا بيان للذين لا

يؤمنون ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ أي ما تقرر عليهم، وهذا مشتق من: جزى دينه: إذا قضاه حال كونها ﴿ عَن يَدٍ ﴾ أي: نقداً مسلمة عن يد إلى يد أو مواتية غير ممتنعة، أي: منقادين أو مسلمين بأيديهم، فلا يبعثونها بأيدي غيرهم أو عن غنى، لأنها لا تؤخذ من الفقراء عند بعضهم، أو عن يد قاهرة فوقهم، أو عن إنعام، لأن بقاءهم وأخذ الجزية منهم نعمة عظيمة.

فهذه خمسة معان، وكلها لا تنافي بينها لأنهم أذلاء، والقاهرون لهم أقوياء ويسلمون الجزية وينعم عليهم، وهكذا ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ أذلاء، وإنَّما كان هؤلاء لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الخ لأنه سيأتي أن اليهود يجعلون عزير الله، والنصارى يجعلون المسيح ابن الله، وهم يتخذون الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله في التشريع، فيحللون ويحرّمون كما يشاؤون، فهذا قوله: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ الخ، وأما قوله: ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ ﴾ الخ، فإنهم لا يحرّمون ما حرّم الكتاب والسنة، فلا يحرّمون الخمر والخنزير.

(١) ثم إن الجزية تؤخذ من اليهود والنصارى من غير العرب، بالإجماع.

(٢) وتؤخذ من العربي كتابياً كان أو مشركاً، عند أبي يوسف.

(٣) وتؤخذ من أهل الكتاب عرباً أو عجماً، عند الشافعي.

(٤) وتؤخذ من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً ومن مشركي العجم، ولا تؤخذ من مشركي العرب، عند أبي حنيفة.

(٥) وتؤخذ من جميع الكفار إلاَّ المرتد، عند مالك والأوزاعي.

(٦) وتؤخذ من المجوس، باتفاق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

مقدار الجزية:

(١) لا شيء على الفقير الذي ليس كسوباً.

(٢) وعلى الفقير الكسوب ١٢ درهماً.

(٣) وعلى المتوسط ٢٤ درهماً.

(٤) وعلى الغني ٤٨ درهماً، وهذا مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه.

ولا تؤخذ الجزية من الصبان ولا النسوة ولا العبيد، وقد قدرت أيضاً بدينار ودينارين وأربعة دنانير للفقير والمتوسط والغني، وقال أصحاب الشافعي: لا تجوز الزيادة على دينار إلاَّ بالتراضي، فالديناران والأربعة للمتوسط والغني عند التراضي وإلاَّ فلا.

مناكحة المجوس والصابئين وذبائحهم

اتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحتهم، بخلاف أهل الكتاب ومن دخل في دين اليهود والنصارى بل النسخ فحكمه حكم اليهود والنصارى تحلّ مناكحتهم وذبائحهم، والصابئون والسامرة مثلهم مثل أهل الكتاب، فهم كأهل البدع في المسلمين.

ثم أخذ الله سبحانه يبيّن سبب أخذ الجزية منهم مع أن لهم ديناً، وكيف يصفهم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقال: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ وذلك لأن بختنصر قتل كل من يحفظ التوراة، وكان العزير قد أماته الله مائة عام، فلما أحياه الله قال لقومه: أنا أملي عليكم التوراة

حفظاً، فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلاّ أنه ابن الله، ألا ترى أن اليهود لما سمعوا هذا القول لم يكذبوه وكانوا مغرمين بالتكذيب ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ لأن الولد الذي لا أب له مستحيل عادي، ولأن إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لا يقوم بهما إلاّ من كان إلهاً.

ويقال: إن النصارى كانوا على الدين الحق بعد رفع المسيح إحدى وثمانين سنة يصلون ويصومون، حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له «بولس» قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام، ثم قال بولس لليهود: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا، فنحن مغبونون إن دخلنا النار ودخلوا الجنة، فإني سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا. ثم إنه عمد إلى فرس كان يقاتل عليه، فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه، ثم إنه أتى النصارى، فقالوا له: من أنت؟ قال: أنا عدوكم بولس، فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تنتصر، وقد تبت وأتيتكم، فأدخلوه الكنيسة ونصروه وأدخلوه بيتاً منها لم يخرج منه سنة، حتى تعلم الإنجيل، ثم خرج وقال: قد نوديت من السماء أن الله قبل توبتك، فصدّقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم، ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان، فعلم نسطور أن عيسى ومريم والإله ثلاثة، وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان ولكنه ابن الله، وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال، فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلوة وقال له: أنت خالصتي وادع الناس لما علمتك، وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد، ثم قال لهم: إني رأيت عيسى في المنام وقد رضي عني، وقال لكل واحد منهم: سأذبح نفسي تقرّباً إلى عيسى، ثم ذهب إلى المذبح فذبح نفسه، وتفرق هؤلاء الثلاثة فذهب واحد منهم إلى الروم، وواحد إلى بيت المقدس، والآخر إلى ناحية أخرى، فتفرق الناس فرقاً بهذه المذاهب.

واعلم أن هذه الحكاية وإن كان لا دليل يقطع بصحتها، تقرّب الحقيقة لمن يريد أن يعرف اختلاف المسيحيين، ألا ترى أن اختلاف المسيحيين بعد تلك الأيام كان على هذا المنوال فتأمل.

حقيقة هذه المسألة في التاريخ

يقول المحققون من علماء العصر الحاضر: إن بولس رجل فرنسي، ويعرف اللغة العبرية، فاحتقر في بادئ الأمر الرسل، ولم ير المسيح ولا سمع كلامه، ومع ذلك ادّعى أنه قد خصّت به المعرفة وحده، وأخذ يخاصم بطرس ويوبخه، فتألف إذ ذاك أي بعد موت المسيح بعشر سنين صنفان من النصارى: صنف يتبع من بقي من الرسل في أورشليم، والثاني تابع لبشارة بولس الذي ادّعى أنه أوحي إليه من المسيح ذاته، وبعد حين تمرد اليهود على نيرون فنشبت الحرب في اليهودية بقيادة «فسباسيانوس» الروماني، ثم ابنه «طيطس»، وانتهت بافتتاح أورشليم عام ٧٠ م، وخرب الهيكل وتفرق اليهود أشتاتاً ولم يبق من الرسل إلاّ يوحنا وفيلبس، ولم يبق إذ ذاك من الدين إلاّ أحاديث متفرقة على ألسنة الأساقفة، واختلطت تعاليم الكنائس بتعاليم الفلسفة اليونانية، وما جاء آخر الجيل الأول حتى نشأت عدة قصص وروايات سميت أناجيل، وقد أحصي منها في الجيل الأول والثاني ٣٥ إنجيلاً، وصاحب الإحصاء هو «فابريسيوس» واختيار الأناجيل الأربعة كان في الجيل الثاني، ونسبتها إلى متّى ومرقص ولوقا ويوحنا من المشاكل التي تعذر على العلماء حلها.

نتائج الخلاف في النصرانية

في سنة ٣٨٤ م أصدر البابا «داما سيوس» إلى «مارايرونيجوس» أن يحرّر ترجمة لاتينية جديدة من العهدين القديم والجديد، وكان «تيودوسيوس» الملك في ذلك العهد قد ضجر من المخاصمات، فأصدر أمراً أن يكون حق التولية لأسقف رومة وحده، وعلى النصارى عموماً اتباعه.

تنازع النصارى في أمر المسيح

كانت كنائس النصرانية في أول الجيل الرابع منقسمة إلى حزبين: الواحد يقرّ بألوهية المسيح، والآخر ينكرها، وفي سنة ٣١٢ ظهر «أريوس» فجعل أن للأب والابن جوهرين متميزين، والثاني خليفة الأول، وإذن فهو ليس بإله، وكان: «أريوس» هذا واسع العلم ذا خلق حميد فاتبعه خلق كثير. ولما رأى إسكندر أسقف الإسكندرية ذلك استدعى بعض الأساقفة وألفوا مجمعاً لعنوا فيه «أريوس» وتعليمه، فكثر النزاع والشقاق على هذه المسألة حتى قلقلت النفوس وضجرت الأمة كلها، واهتز عرش الملك «قسطنطين»، فأرسل رسالة على يد «أوزيوس» إلى كل من «أريوس» و«إسكندر» وبخهما فيها على هذا الخلاف التافه الذي لا علم لأحدهما بحقيقته. ودام الخصام والجدال واشتدّ ولم تنفع رسالة الملك، فأمر الملك بمجمع في نيقية سنة ٣٢٥.

من عجب تطابق أقوال المؤرخين أن هؤلاء الآباء كانوا يتشاتمون ويتقاتلون ويذم كل منهم الآخر بفضائح لا حد لها، ونصر قسطنطين الملك ألوهية المسيح، ونفى الأريوسيين، ثم رجعوا من المنفى منتصرين ودخلوا الإسكندرية، فاضطر قسطنطين أن يقيم مجمعاً في أنطاكية، فأبطل مذهب إسكندر المسمى «أورثوذكس» أي مستقيمي الرأي، ومات «أريوس» فجأة وهو محمول على أعناق أصحابه بالعز والأبهة، ومات قسطنطين سنة ٣٣٧ بعد أن قسم الملك بين أولاده الثلاثة قسطنطين وقسطنس وقسطنت، وتوالت المجامع بعد ذلك على هذا المنال.

فلتنظر أيها الذكي كيف كانت الحكاية الأولى المنقولة عن المفسرين ــ وإن كانت مخطئة في التاريخ وفي الرواية ــ قد أفادت أن هذا الخلاف له حقيقة، وكيف تبين أن بولس الرسول كان له نزعة خاصة، وكيف كانت ألوهية المسيح وعدمها شغلاً شاغلاً للدولة الرومانية، وكيف أدى الأمر إلى أن الملك «تيودوسيوس» القيصر أمر أن يتبع النصارى كلهم البابا «داماسيوس» ومن يخالفه يعاقب، ولكن الأريوسيين كانوا كثيراً جداً فلم يعاقبهم، فاحتال القديس «أمفيلوك» بحيلة أوجبت أن الملك يعاقب من لا يقول بألوهية المسيح. فانظر كيف اهتزت العروش وعظمت المصائب وتقاتلت الأحزاب كل ذلك على ألوهية المسيح وعدم ألوهيته.

ولما كان قول اليهود والنصارى لا دليل عليه، بل هو مصية عمياء كما عرفت من حقائق التاريخ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ مجرد عن البرهان والتحقيق، مهمل لا محل له سوى الأفواه، كما قال القيصر للإسكندر ولاريوس، وقوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: يضاهي قولهم قول الذين كفروا من قبل.

ومعنى هذا أن هناك ديانات في الأمم السالفة قبل التاريخ في مصر والعراق وبلاد المكسيك قبل افتتاح أمريكا كانت فيها هذه الخرافات. انظر هذا المقام في سورة «البقرة» في أوائلها، فقد تبيّن هناك أن

دين التثليث وكون الله له ابن ملأت المسكونة ووجدت في الهند، فارجع إليها إن شئت تر العجب العجاب، وكذلك في آخر سورة «المائدة»، وهذا أيضاً من معجزات القرآن.

ولعمري لم يعرف الناس أن هناك ديناً قبل الدين المسيحي يقول بابن الله وبألوهية ذلك الابن إلاّ في هذا الزمان، فتعجب من عجائب القرآن، وهذا واضح كل الإيضاح في آخر «المائدة» فيما تقدم. قال تعالى: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، وتعجب من شناعتهم ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل. ثم أخذ الله سبحانه يبيّن أنهم لم يقتصروا على عبادة المسيح وعزير، بل جعلوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، والأحبار: علماء اليهود، والرهبان: أصحاب الصوامع في النصارى، ومعنى كونهم أرباباً: أنهم يحرمون لهم ويحللون وهم لهم مقلدون.

وعن عدي بن حاتم قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة «براءة»: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه». قال عبد الله بن المبارك:

وهل بدّل الدين إلاّ الملو ك وأحبار سوء ورهبانها

لقد وقع القوم في جيفة يبيّن لذي العلم إنتانها

وهذا هو قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ وهذا الأخير اعتقدوا فيه الألوهية كما تقدم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي: تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك في العبادة ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي: يريد رؤساء اليهود أن يفعلوا في الإسلام فعل من يعمد إلى نور عظيم كالشمس ليطفئه بنفخة بفمه وما هو بمستطيع ذلك.

فهكذا دين الإسلام ودلائله الباهرة ومعجزاته الظاهرة، وقد تصدّى هؤلاء لدحضه وما هم بضاريه شيئاً لقوته البرهانية وحجته القوية ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي: ويأبى الله إلاّ أن يعلي دينه ويظهر كلمته، ويتم الذي أرسل به نبينا صلى الله عليه وسلم، وأن الذي يأبى إلاّ أن يتم نوره ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ القرآن ﴿ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ ﴾ ليعليه ﴿ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ على سائر الأديان، فيكون متبعوه لهم السلطان الأكبر في الكرة الأرضية ويقهرون فارس والروم، وهذا كله في الزمان الأول، أما فيما بعد في مستقبل الزمان فسيظهر في أمة الإسلام أناس يحملون الأمة على نبذ الجمود والتحلي بحليّ العلوم والعرفان، وإذ ذاك يرتقي المسلمون ويكون بأيديهم مقاليد الرياسة والسياسة والحكمة والعلم، وفي ظني أن زماننا هو مبدأ ارتقاء المسلمين إذ يقومون بمهمتهم في العالم ويحكمون الناس بالحق، بعد أن يرتقوا ويتسعوا في المعارف، ويدل على هذا ما روي عن أبي هريرة في حديث نزول عيسى، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ويهلك في زمانه الملل كلها إلاّ الإسلام».

عن المقداد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله كلمة الإسلام، إما بعز عزيز أو بذلّ ذليل»، أي: إما أن يعزهم فيجعلهم من

أهله فيعزوا به، وإما أن يذلهم فيدينون له، وهذه الجملة كالبيان لقوله: ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ ولذلك كرر: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾. غير أن الكفر هناك بدّل بالشرك هنا إعلاماً بأنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله.

ولما كانت الآيات متقدمة قد أبانت أن الأحبار والرهبان في حكم الآلهة عند أهل الكتاب، أخذ يبيّن هنا سبحانه وتعالى أنهم غير مؤتمنين في أحكامهم التي يحكمون بها، وأن أهل الكتاب قد استأمنوا من ليسوا بأمناء فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ ﴾ أي: ليأخذون لأن الأكل أهم مقاصد الأخذ فعبر عنه به ﴿ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ لأنهم يأخذون الرشا من سفلتهم في تخفيف الشرائع والمسامحة في الأحكام، ويحرّفون صفات النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة في كتبهم، استبقاء للرياسة وحفظاً لما ينالونه من المال ببقاء الرياسة التي يذهبها اعتناق الإسلام ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ويمنعون الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ سواء أكانوا من الأحبار والرهبان أم من المسلمين. والمراد بالمال المكنوز: ما لم تؤدّ زكاته ولو لم يكن مذكوراً، قال عليه الصلاة والسلام: «ما أدّي زكاته فليس بكنز» أي: ليس بكنز أوعد عليه. وقال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما علموا بنزول هذه الآية: لو علمنا أيّ المال خير لاتخذناه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه».

وقد ورد في حديث مسلم الوعيد الشديد على من لم يؤدّ زكاة الذهب والفضة «وأنها تصفح له صفائح من نار فيحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وظهره، كلما ردّت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، وهكذا قال في الإبل، وجعل من حقها حلبها يوم ورودها، وإن لم يؤدّ حقها فإنه يبطح لها بقاع قرقر، فهي تطؤه جميعاً بأخفافها وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أولاها ردّ عليه أخراها الخ»، وهكذا قال في البقر والغنم. والقاع القرقر: هو المستوي من الأرض.

وهكذا جاء في حديث البخاري: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه «شدقيه» ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ﴾[آل عمران: ١٨٠]» الآية، والشجاع: الحية، والأقرع: صفة له بطول العمر، فإنه إذا طال عمره تمزق شعره، وهذه صفة أخبث الحيات، والزبيبتان: هما الزبدتان في الشدقين. وهذا كله وعيد لمن لم يؤدّ الزكاة، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وهو الكي ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا ﴾ أي: يوم توقد النار، فلما حذفت النار فلم تكن فاعلاً وأسند الفعل إلى الجار والمجرور، وهو «عليها» قيل: يحمى، بالتحتية، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير، ومتى حذفت «القصة» قلت: رفع إلى الأمير، ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ لأنهم إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمهم مجلس وإياه ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم، وهذا العذاب يشمل الجهات الأربع المقدم والمؤخر والجنبين، ويقال لهم: ﴿ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ لمنفعتها قد صار مضرتها وعذابها ﴿ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي: وبال كنزكم.

ولما كان المقام في قتال الكفار إذ قال تعالى آنفاً: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الخ، وذكر الجزية واستطرد بذكر ما كفر به اليهود والنصارى، وما تبع ذلك من حرص أحبارهم ورهبانهم على المال والرشوة، أخذ يتمم المقام بذكر مسائل أخرى من مسائل الحرب، وهي الأشهر الحرم التي كان العرب يحرّمون فيها القتال اتباعاً لدين إبراهيم عليه السلام، وأخذ سبحانه يحقق الأمر فيها فأفاد أن الشهور العربية اثنا عشر شهراً. وأما الشهور الشمسية فليس المسلمون مكلفين بحسابها ولا باتباع نظامها، فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مبلغ عددها ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وهو ما أثبته وأوجبه في حكمه أو في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ والأشهر العربية المذكورة أولها المحرّم وآخرها ذو الحجة، والأربعة الحرم هي: ذو القعدة للقعود عن القتال فيه، وذو الحجة للحج، والمحرّم لتحريم القتال، فهذه ثلاثة سرد وواحد فرد، وهو رجب لترجيب العرب إياه وتعظيمهم.

فالأشهر العربية مبنية على سير القمر يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وأحكامهم، وهذه السنة ٣٥٤ يوماً، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورة تامة وهي ٣٦٥ يوماً وربع يوم، فبينهما نحو ١١ يوماً.

ولما كان هذا المقام علاقته بالحرب عظيمة ناسب أن يذكر من أجل النسيء الذي كانت تفعله العرب في الجاهلية، فكان يقع حجهم تارة في وقته وتارة في المحرّم وتارة في صفر وتارة في غيره من الشهور كما سيأتي، وإنَّما سميت الأربعة حرماً لأن العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرّم فيها القتال حتى إن أحدهم لو لقي قاتل أبيه وابنه وأخيه في هذه الأربعة الأشهر لم يهجه، ولما جاء الإسلام لم يزدها إلاَّ حرمة وتعظيماً، فالحسنات فيها مضاعفات والسيئات كذلك ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوي، فالدين هنا: الحساب كما قال صلى الله عليه وسلم: «الكيّس من دان نفسه ـ أي حاسب نفسه ـ وعمل لما بعد الموت». ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تظلموا أنفسكم في الأشهر الحرم، فالعمل الصالح فيها أعظم أجراً، والظلم فيهن أكثر إثماً، أو لا تظلموا فيهن أنفسكم باستحلال الحرام والغارة فيهن، كما قال ابن عباس من جهة، ومن جهة أخرى: لا تجعلوا حلالها حراماً وحرامها حلالاً بالنسيء الآتي ذكره كما قال محمد بن إسحاق. وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلاَّ أن يقاتلوا.

وهذا خلاف ما عليه الأكثرون لأن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين في شوال وذي القعدة ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أي: حال كونكم جميعاً ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة وضمان لهم بالنصر بسبب تقواهم، فإذا قاتلوا المشركين مجتمعين لا متفرقين نصروا على عدوهم، فإن تخاذلوا فليس الله معهم بالنصر. والتقوى من لوازمها الاتحاد والتعارف، فلذلك كان الله مع المتقين. ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ النسيء لغة: التأخير، كالنسيئة في البيع والنسيء هنا: تأخير شهر حرام إلى شهر آخر بالهوى والغرض، وقد كانت العرب تعظم الأشهر الحرم على دين إبراهيم، وعامة قريش كانت تمتنع فيها من الصيد والغارة، وقد تقع الحروب في بعض الأشهر الحرم، فكانوا يكرهون تأخيرها إلى الأشهر الحلال فنسئوا، أي: أخروا تحريم شهر إلى شهر.

وكان يقوم بهذا بنو مالك بن كنانة، وكان يقوم الموكل به منهم في الموسم، فإذا همّ الناس بالانصراف قام خطيباً وقال: لا مردّ لما قضيت أنا الذي لا أعاب ولا أجاب، فيقول له المشركون: لبيك، ثم يسألونه أن ينسئهم شهراً يغيرون فيه فيفعل، فيقول مثلاً: صفر في هذا العام حرام، فإذا قال ذلك: حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة من الرماح، وإن قال: حلال، عقدوا القسي وركبوا الأسنة في الرماح وأغاروا، وفي أيام النبوة كانوا يحجون في كل شهر عامين، فحجوا في ذي الحجة عامين، وفي المحرم كذلك، هكذا فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذي القعدة، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع، فوافق حجه شهر ذي الحجة، وهو شهر الحج المشروع، فوقف صلى الله عليه وسلم بعرفة في اليوم التاسع، وخطب الناس في اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السماوات والأرض، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم كما في البخاري: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»، ثم حرم الدماء والأموال والأعراض وحذر الناس من لقاء ربهم وهم مذنبون وهو يسألهم وقال صلى الله عليه وسلم: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فربّ مبلغ أوعى من سامع»، وحذرهم من أن يضرب بعضهم رقاب بعض في كل حال، فليس التحريم خاصاً بالأشهر الحرم، بل عمّ سائر السنة فالتحريم أصبح في الإسلام تحريماً عاماً، لا فرق بين الأشهر الحرم وغيرها.

ويظهر مما تقدم وهو أنهم كل سنتين يحجون في شهر من أشهر السنة أنهم ضلوا السبيل، لأن الفرق بين السنة الشمسية والقمرية يقتضي أن يكون الحج في كل شهر ثلاثة أشهر إذا كان لغرض أن يبقى الحج في وقت معين من السنة، كالشتاء أو كالربيع، ولن يستقيم هذا إلاّ بما ذكرنا وتدور السنة في ٣٣ سنة وأما على ما فعله العرب فإنها تدور في ٢٤ سنة، وهذا خطأ منهم وضلال، فلا هم أقاموا على الأشهر القمرية، ولا هم عرفوا كيف يوفقون إلى الأشهر الشمسية التي تهدي الناس إلى حقيقة الفصول.

ولما كان أمر السنة الشمسية يحتاج إلى حساب، وكان الإسلام عاماً للأمم الجاهلة والعالمة، وأن الأمم الجاهلة إذا أرادت التوفيق بين الحسابين ضلت سواء السبيل.

أمر الله جميع المسلمين أن يسيروا على السنن القويم وهي السنة القمرية التي هي أسهل لجميع الناس، وإن كانت أشقّ، لأن الحج يدور في الفصول الأربعة كل ثلاث وثلاثين سنة مرة، ويحج الناس في كل فصل تسع حجات تقريباً ويذوقون الحر والبرد لزيادة الثواب.

فإذن محاولة التوفيق بالنسيء من الأمم الجاهلة ضلال في الحساب وخطأ، فلذلك قال تعالى: ﴿ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ ﴾ أي: يوافقوا ﴿ عِدَّةَ ﴾ الأربعة المحرّمة وحدها من غير مراعاة الوقت ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ﴾ حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هداية موصلة إلى الحق.

ولما انتهى سبحانه من تحقيق زمن التحريم وتبيان الأشهر الحرم وغيرها، أخذ يحث المؤمنين على القتال، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم، وكان ذلك في

زمان عسرة من الناس، وشدة من الحر، حين طابت الظلال، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلاّ ورّى بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز وعدداً كثيراً، وجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فشقّ عليهم الخروج إلى الجهاد فتثاقلوا، فأنزل الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ ﴾ اخرجوا ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ تثاقلتم، أدغمت «التاء» في «الثاء» فصارت «ثاء» ساكنة، فدخلت ألف الوصل، وضمن «اثاقل» معنى: مال، فعدّى بـ«إلى»، أي: ملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاقّ السفر ومتاعبه، فملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ بدل الآخرة ﴿ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ في جنب الآخرة ﴿ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ يعني أن لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل، ونعيم الآخرة باق على الأبد، وهذا يدل على وجوب الجهاد على كل حال، وفي كل وقت، لا فرق بين الأشهر الحرم وغيرها، وهنا لطائف ثلاث:

اللطيفة الأولى: تحقيق الكلام في الأشهر الحرم

اعلم أن علماءنا وإن اختلفوا في الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها هل هو منسوخ؟ فإنك عند التحقيق تجد الأمر أكبر من أن يختلف فيه، فهم متفقون وإن كان كثير من الناس لا يعلمون.

وبيانه أن دين إبراهيم الذي كانت العرب تزعم أنها متمسكة به جعل القتال في الحرم محرّماً، وكذلك في الأشهر الحرم المتقدمة، فأما بقية السنة وبقية الأرض فالقتال فيها لا حرمة فيه. فلما جاء الإسلام حرّم الله فيه على الناس دماءهم وأموالهم وأعراضهم، كما جاء في خطبة الوداع، فصار التحريم راجعاً إلى نفس الأعراض والأموال والدماء في كل زمان وكل مكان، فلا دخل إذن للزمان ولا دخل للمكان، وإنّما المدار على نفس الأعراض والأموال والدماء، وهذا واضح جلي.

هذا من جهة ومن جهة أخرى أن هذه السورة قد استبان فيها أن العرب الذين هم متمسكون بالأشهر الحرم قد ألزموا باتباع الإسلام، وأن بلاد العرب لا يجتمع فيها دينان، فأصبح هؤلاء محرماً عليهم بطريق الدين كل حرب وكل غارة في الأشهر الحرم وغيرها.

بقي أن نقول: ماذا يفعلون مع الأمم الأخرى كفارس والروم؟ فنقول: إن هؤلاء لا يعرفون ما هي الأشهر الحرم ولا ما هو دين إبراهيم، بل لهم دين آخر، لأن الأشهر الحرم عند العرب لدينهم والعرب أسلموا، فبعد أن كان التحريم عندهم في أشهر معينة أصبح في جميع الدهر، فإذن لا معنى لتحريم القتال في الأشهر الحرم البتة، فإن كان في بلاد العرب فهو تحصيل حاصل، وإن كان غيرها مع الأمم الأخرى فهو لا قيمة له، لأن هذه الأمم لا تحترم إلاّ القوة، ولا تتقيد بزمان ولا مكان.

إذا فهمت هذا عرفت السر في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ ﴾ الخ، ولم يقيدها بزمان، لأن هذه أول غزوة غزاها المسلمون للروم بعد ما فرغوا من قتال العرب، فوجب أن يضرب المسلمون الذكر صفحاً مع الروم عند الأشهر الحرم ويغزوهم.

وهذا هو السر في الإطلاق وقطع النظر عن الأشهر الحرم. فتعجب من أسرار القرآن وحكمه الغريبة العجيبة. وبهذا تبيّن لك من يقول: إن تحريم القتال فيها غير منسوخ، ومن يقول: إنه منسوخ، فكلاهما حق من وجه، فمن قال: إنه غير منسوخ، فهو صادق من وجه، لأن الأشهر الحرم وغيرها

يحرم فيها قتال المسلمين للمسلمين من العرب وغيرهم، ومن قال: إنه منسوخ، فهو حق من وجه، وذلك أن قتال الفرس والروم مباح في الأشهر الحرم وغيرها، إذ لا معنى لتحريم القتال فيها معهم وهم لا يحرّمون ذلك.

وبهذا اتضح المقام وزال الإبهام؛ فالحمد لله الذي ألهمنا وعلمنا ما لم نكن نعلم.

اللطيفة الثانية

الشهور العربية والإفرنكية والقبطية وعلة تسميتها بأسمائها المعروفة الآن

الشهور عند العرب

اختلف المؤرخون في أسماء الأشهر في الجاهلية الأولى، فقيل: إن الأشهر العربية المستعملة اليوم وضعت في عهد كلاب بن مرة أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك قبل الإسلام بقرنين، وعدتها اثنا عشر شهراً، وقد وضعت أسماؤها أصلاً لبيان الأحوال، وأطلقت على الأزمنة، وهي:

محرّم: سمي كذلك لتحريم القتال فيه حتى لمن له ثأر.

صفر: سمي كذلك لما يعتري العرب من مرض في ذلك الشهر تصفرّ منه ألوانهم، وقيل: لإصفار مكة من أهلها إذا سافروا فيه إلى الحرب إثر قعودهم عنها في محرم.

ربيع الأول وربيع الثاني: سميا بالربيع لأنهما كانا يأتيان في الخريف، وكانت العرب تسمي الخريف ربيعاً.

جمادى الأولى وجمادى الثانية: سميا بذلك لإتيانهما في الشتاء عند جمود الماء ووقع الجليد حيث تجفّ الأرض ويقل الزرع والنبت.

رجب: سمي بذلك لأنه كان يقال فيه: ارجبوا، أي: كفوا عن القتال، فكانت العرب تعظمه وتهابه، وسمي بالفرد لأنه منفرد عن باقي الأشهر الحرم المتوالية.

شعبان: سمي بذلك لانشعاب القبائل فيه إلى طلب المياه والغارات.

رمضان: سمي بذلك لأنه كان يأتي حيث يبدأ الحرّ وترمض الأرض، وقيل: لاشتداد حرّ جوف الصائم، وهو ضعيف.

شوّال: سمي بذلك لقولهم: شولوا، أي: ارتحلوا، وقيل: لقلة المياه فيه، لأن شول الماء بمعنى قلّ وقيل: لأن الإبل كانت تشول فيه بأذنابها لشهوة الضراب، ولذلك لم تكن العرب تجيز فيه الزواج.

ذو القعدة: سمي بذلك لقعود العرب فيه عن القتال.

ذو الحجة: سمي بذلك لإقامتهم الحج فيه.

الشهور عند الإفرنج

وضعت أسماء هذه الشهور في أيام المملكة الرومانية الأولى، وهي:

يناير: مأخوذ من «يانوس»، وهو معبود خرافي كانوا يمثلونه بوجهين ينظر بأحدهما السنة المنصرمة وبالآخر إلى السنة المقبلة.

فبراير: مأخوذ من «فبروا»، وهي معبودة الطهارة عند الرومان.

مارس: مأخوذ من «مارس» معبود الحرب عندهم.

إبريل : مأخوذ من كلمة «أبيريري»، أي : فتح، بالرومانية، لأن الزهور تتفتح فيه.

مايو : مأخوذ من «ميا» وهي إحدى بنات المارد أطلس «خرافة».

يونيه : مأخوذ من «يونون» زوجة «جوبتر» رئيس المعبودات.

يوليه : سمي بذلك تذكاراً لـ«يوليوس قيصر» واضع التقويم اليولياني.

أغسطس : سمي به تذكاراً لخلفه «أغسطوس» أول أمبراطرة الرومان.

سبتمبر : معناها هذا الشهر السابع، باعتبار أول السنة «مارس» كما كان قديماً.

أكتوبر : معناه الشهر الثامن باعتبار أول السنة «مارس» كما كان قديماً.

نوفمبر : معناه الشهر التاسع باعتبار أول السنة «مارس» كما كان قديماً.

ديسمبر : معناه الشهر العاشر باعتبار أول السنة «مارس» كما كان قديماً.

الشهور القبطية

انتقلت أسماء تلك الشهور من قدماء المصريين واضعيها إلى نسلهم من أمة القبط، وقد سمى المصريون الشهور بأسماء آلهتهم التي كانوا يعبدونها في سالف العصور، وكانوا يقيمون الاحتفالات كل شهر باسم المعبود المسمى به الشهر في هيكله المكرس له.

توت : هو رأس السنة القبطية، وأصل اسمه بالهيروغليفية «تهوت»، أي : إله الحكمة، وكان يسميه المصريون المتأخرون : إله العلم والقلم، ويحتفلون به عن بكرة أبيهم بإقامة الاحتفالات الشائقة في أنحاء القطر تعظيماً لعيد هذا الإله الذي كان يقع في أول يوم منه، وتستمر الاحتفالات هذه مدة أسبوع، ولا يزال الأقباط يحتفلون به إلى الآن، ويسمونه باسم «النيروز».

بابه : اسمه باللغة الهيروغليفية «بي تب د ت»، أي : إله الزرع، حيث يخضر فيه وجه الأرض.

هاتور : اسمه باللغة الهيروغليفية «هاثور»، أي : إله الجمال، حيث يزين فيه وجه الأرض بجمال المزروعات.

كيهك : اسمه باللغة الهيروغليفية «كاهاكا»، أي : إله الخير أو النور المقدّس.

طوبة : اسمه باللغة الهيروغليفية «طوبيا»، أي : الأعلى أو الأسمى، أي : إله المطر، ومن اسمه مدينة طيبة بالصعيد.

أمشير : لم يستدل له على أصل.

برمهات : اسمه باللغة الهيروغليفية «بامونت»، أي : إله الحرارة، حيث تنضج فيه المزروعات لاشتداد الحر.

برمودة : اسمه باللغة الهيروغليفية «باأماوت»، أي : إله الموت والفناء، حيث ينتهي فيه أجل المزروعات ويقحل وجه الأرض.

بشنس : اسمه باللغة الهيروغليفية «باخنسو»، أي : إله الظلام، لاعتقادهم أن هذا الإله يساعد الشمس على إزالة ظلام الليل، فلذا يكون النهار في شهره أطول من ليله حتى يبلغ ١٤ ساعة في بدايته.

بؤنة : اسمه باللغة الهيروغليفية «باأوني»، أي : إله المعادن، لأن فيه تستوي المعادن والأحجار، ولذا يسميه العامة : بونة الحجر.

أبيب: اسمه باللغة الهيروغليفية «هويا»، أي: فرح السماء، لأنه مبدأ أفراح المصريين حيث كانوا يزعمون أن «هوريس» أي: الشمس انتقم فيه لابنه «أوزريس» أي: النيل من عدوه «تيفون» أي: التحاريق.

مسري: اسمه باللغة الهيروغليفية «ميث را» أي: ابن الشمس.

أيام النسيء: النسيء لغة: المتأخر، وكان قدماء المصريين يسمونه «كوجي أتافوت» أي: الشهر الصغير. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ ﴾

من معجزات القرآن التي تظهر في هذا الزمان أن أكثر ما جاء فيه من علم اليوم الآخر يظهر في مناجاة الأرواح، ومن اطلع على كتاب الأرواح الذي ألفته في هذا المقام أدرك هذا العجب العجاب، فإن قوله: ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ ﴾ الخ، وقوله في الحديث ما معناه أن البقر تطأ صاحبها بأرجلها، وهكذا الغنم، وكذلك الإبل تطؤه بأخفافها وتدور على ذلك خمسين ألف سنة حتى يتم حسابه ويدخل إما جنة وإما ناراً فيما تقدم.

وكذلك حديث البخاري المتقدم، وأن أخبث الحيات المعبر عنها بالشجاع الأقرع تطوّقه وتقول له: أنا كنزك، أنا مالك. وتبيان الحديث أن ماله سيمثل له.

كل ذلك دلالة أن ذلك عالم المثال وأن صور الأشياء تظهر هناك وتعذب صاحبها، فهذا بعينه هو المذكور في الكتاب المذكور نقلاً عن الجمعيات الأوروبية، ولقد حادثوا الأرواح في أمريكا وإنكلترا وفرنسا وغيرهما في سائر الدول فأعربت الأرواح عن ذلك وأفصحت وقالت: إن البخيل يعذب بماله.

وهناك حكاية اليتيمين اللذين لما مات الحاكم الألماني أخذا يعذبانه عذاباً شديداً حتى استغاث بزوجته لما أحضرت روحه وهكذا، وهذا كثير في كلامهم، فهذا بعينه هو الذي ورد في ديننا. وتعجب كيف يظهر سر القرآن في هذا الزمان، ويؤيد الكشف ما سمعته الأذنان ولم تره العينان ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن: ١٣].

فإذن عالم البرزخ وهو ما بعد الموت مملوء من الصور الحسنة والقبيحة، وأقرب شيء إلى ذلك الصور التي تمثل لنا في المنام، وظهور صور أعمالنا بعد موتنا أظهر وأبهر وأجلى وأوضح ﴿ اقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤]، ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق: ٢٢] ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة: ٨١].

فعلى المسلمين أن يقرؤوا علم الأرواح أولاً، وأن يقوموا بمعرفة هذا العلم فعلاً ثانياً، ليبيّن بمحادثة الأرواح حقائق دين الإسلام، فستحدثهم الأرواح أنها تعذب بصور أعمالها، ويستبين للناس إذ ذاك حقائق العلوم الإسلامية، وهذا هو اليقين، وفرق بين التقليد واليقين «جوهرة باهرة».

هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ مظهران:

المظهر الأول: آثارها في الأمم الإسلامية في أول ظهورها وإهمال المتأخرين لشأنها وآثارها في الانقلاب الأوروبي الحديث.

المظهر الثاني: ما جاء عن علماء الأرواح حديثاً ببلاد أوروبا.

المظهر الأول: وفيه مقامان:

المقام الأول: آثارها في أمم الإسلام

ذمّ الله عزّ وجلّ الأحبار والرهبان، وخاطب المسلمين بذلك، خاطبهم ليكونوا سبباً في تمزيق شمل رجال الدين في الأمم. إن رجال الدين في كل أمة من الأمم القديمة كانوا يستبدون بالناس كالبراهمة الذين جعلوا الناس أربعة أقسام: فهم أنفسهم كالرأس، ومن دونهم من الجند كالقلب، ومن دون هؤلاء كالمعدة والأحشاء، وأدنى منهم كالرجلين. وهكذا دين المصريين القدماء كان للكهنة السلطان الأعظم على الشعب، فهم والفراعنة لهم السلطان الأعظم في الدنيا والآخرة، وكل مجد وكل شرف في الدنيا والآخرة راجعان إلى الملك وإلى رجال الدين.

جاء الإسلام بهذه الآية، وقال الله فيها للمسلمين: أيها المسلمون، أنتم خلفائي في أرضي، فلا تجعلوا لأحد سلطاناً على أحد، وأهل الأرض كلهم عيالي وأنا ربهم وأنا كافلهم، والأحبار والرهبان استبدّوا بعبادي وأوهموهم أنهم يغفرون لهم، وسنوا لهم القوانين، فأنجدوا عبادي وأخرجوهم من هذا الذل.

آثار هذه الآيات في صدر الإسلام

ألا تعجب معي أيها الذكي، انظر إلى أبي بكر رضي الله عنه أنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أقرب الناس إليه في الدين قد عرف مقصود الإسلام بمعاشرة النبي صلى الله عليه وسلم، فانظر ما قال لعائشة رضي الله عنها وهو في سكرات الموت: «أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم، ولبسنا من خشن ثيابهم، وليس عندنا من فيء المسلمين إلاّ هذا العير وهذا البعير وهذه القطيفة، فإذا متّ فابعثي بالجميع إلى عمر»؛ فلما مات بعثته إلى عمر، فلما رآه بكى حتى سالت دموعه على الأرض وجعل يقول: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، ويكرر ذلك وأمر برفعه.

وأمر أبو بكر أيضاً أن يردّ جميع ما أخذ من بيت المال لنفقته بعد وفاته. ويروى أن زوجته اشتهت حلواً فقال: ليس لنا ما نشتري به. فقالت: أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به. قال: افعلي. ففعلت ذلك، فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير، فلما عرّفته ذلك ليشتري به حلواً أخذه فردّه إلى بيت المال، وقال: هذا يفضل عن قوتنا، وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم، وغرمه لبيت المال من ملك كان له. قال ابن الأثير بعد ما نقل هذا: والله هذا هو التقوى التي لا مزيد عليها وبحقّ قدّمه الناس الخ.

زهد سيدنا عمر رضي الله عنه

قال الحسن: خطب عمر الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة منها أدم، وقال أبو عثمان النهدي: رأيت عمر يرمي الجمرة وعليه إزار مرقع بقطعة جراب. وقال عليّ: رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه إزار فيه إحدى وعشرون رقعة فيها أدم. ومن قوله رضي الله عنه: «يا أيها الناس، إني ما أرسل إليكم عمالاً ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، وإنَّما أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ، فوالذي نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه» إلى أن قال: «وكيف لا أقصه منه وقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم» اهـ. ومثل هذا روي عن سيدنا عليّ وسيدنا عثمان رضي الله عنهم أجمعين.

مضى الصدر الأول وأكثر القوم على هذا. فانظر للأمم الإسلامية بعد ذلك، ما كادت القرون الأولى تنتهي حتى أظلمت آفاق الأمم الإسلامية، وتبعوا من قبلهم شبراً بشبر وذراع بذراع، واستبدّ صغار العلماء بالعقول، وأفهموا الناس أن كثيراً من العلوم لا تنفع في الدنيا والآخرة لأجل أن يتولوا هم القضاء والوصايا ويتصدروا في المجالس، واستناموا نوماً عميقاً محزناً وشره الملوك على حطام الدنيا.

وأنا أذكرك بما نقلته في المجلد الثالث في سورة «المائدة» من هذا التفسير، فقد ذكرت هناك نص ما جاء في الإحياء عند قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١]، وهذا نص بعضه:

«واحترز من الاغترار بتلبيسات علماء السوء فإن شرّهم على الدين أعظم من الشيطان»، وهناك تجد بيان سبب ذلك، إذ هم زينوا للناس بأفعالهم وأقوالهم الاقتصار في زمانهم على علم الفقه وذلك ليتصدروا في المجالس، وليتولوا القضاء والوصايا؛ فالعلم إذن مصيدة لهم يصيدون به المال، فرجع القوم إذ ذاك إلى أخلاق الأحبار والرهبان الذين قال الله فيهم إنهم يأكلون ﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. فإذن يكون هذا يشبه أكل أموال الناس بالباطل وإن لم يكن باطلاً من كل وجه، وأيضاً إذا صدّوا عن العلوم كما يقول الغزالي، فقد أشبهوا من يصدون عن سبيل الله بعض الشبه. فإذن تكون هذه الأمة قد تبعت من قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع، وأصبحت كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]. وهكذا صار لبعض علماء الإسلام في كثير من الأزمان من الأعمال ما اتفق للأحبار والرهبان المذكورين في هذه الآية. والله هو الولي الحميد ومنه التوفيق، والحمد لله رب العالمين. انتهى الكلام على المقام الأول لهذه الآيات في الأمم الإسلامية قديماً وحديثاً.

المقام الثاني: آثار هذه الآيات في الانقلاب الأوروبي

اعلم أن أكبر مظهر لهذه الآيات قد ظهر ظهوراً واضحاً في أوروبا، ألا تعجب معي كيف كان مظهر هذه الآيات واضحاً ظاهراً في أوروبا ظهور الشمس.

ألا تتأمل في حال المسيحيين كيف كان «الكاثوليكية» الذين هم يسمون «ملكانية» أيضاً لهم رئيس ديني، وهو الأسقفّ العظيم والحبر الكبير والقسيس الأعظم، من هو هذا؟ هو المسمى «البابا» ومقرّه وسكناه «روما» بدولة إيطاليا، فهو رئيس أهل هذا المذهب، وهو كالقطب عند المسلمين. ومن

جهة أخرى هو ملك سياسي، وأهل إيطاليا كلهم على مذهبه، وقد جعلوا للبابا السلطان الأعظم عليهم سنة ٧٢٦ م الموافق سنة ١٠٨ هجرية.

وصار البابا يترقى حتى صارت له مقاليد الدين والدنيا، فكانت للبابوات ممالك واسعة في الأرض، وكان لهم حق كبير في تولية ملوك أوروبا وعزلهم كما يشاؤون، وكان لغيرهم من الملوك تاج واحد، وأما هم فكان لهم ثلاثة تيجان واحد فوق الآخر دلالة على كمال السلطة وبيدهم الحرب والسلم، وكانوا يحرقون من خالفهم بالنار وهو حي.

وقد ألزم البابا مرة إمبراطور ألمانيا أن يقف حافياً ثلاثة أيام فيفصل الشتاء أمام باب قصره ليطلب منه الغفران، ورفس البابا برجله تاج ملك «جرمانيا» حيث كان جاثياً أمامه يطلب الغفران.

ولما استفحل أمرهم انحطوا شيئاً فشيئاً إلى سنة ١٨٧١ الموافقة سنة ١٢٨٨ هجرية، إذ ذاك سقط أمرهم بالكلية، ودخل الإيطاليون إلى عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه رئيساً على الكاثوليكية فقط، ومقره في الكنيسة الرومانية، وليس له من الرياسة غير ذلك.

هذا هو ملك رجال الدين الذين أشار لهم القرآن هنا. يقول الله للمسلمين: أيها المسلمون انشروا العلم في الأمم، وهذبوا نفوسكم، وكونوا للناس رحماء، ولا تكونوا كرجال الدين في الأمم المسيحية واليهودية الذين جعلوا الدين مصيدة لجمع المال، يا أهل الأرض، إياكم أن تأكلوا أموال الناس باسمي، ولا تجعلوا ديني سبيلاً لظلم عبادي، فمن كان خليفتي في الأرض فليكن نوراً مبيناً للناس كالشمس، لا يريد جزاء ولا شكوراً، كما اتفق لنحو أبي بكر وعمر وعلي وأمثالهم.

أما المتأخرون من علماء الإسلام فأكثرهم يجهلون مقصود القرآن، وهكذا أهل أوروبا اتصل ملك البابا فيهم فوق ألف عام، وهم خاضعون لسطوة رجال الدين فأخروا تلك الأمم ولم يستيقظوا إلاّ بعد أن خذلوا رجال الدين، انظروا أيها المسلمون آثار الأمم وآثار الإسلام فيها.

قال المؤرخ «كرنيوس اغريبا» عند وصفه ابتياع حلّ الخطايا في عصره بالمال: ليس من ذنب فظيع إلاّ أمكن حله بالدينار، حتى القتلة وسفاكو الدماء كانوا يشترون الحلّ والعفو بالأموال الطائلة. انتهى. أليس هذا هو نص الآية، إذ يقول هنا: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وأيّ باطل أشدّ من هذا؟ ويقول تعالى هنا أيضاً: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأيّ ربوبية أعظم من غفران الخطايا؟ فهذه ربوبية جشعة بالأموال.

ومن اطلع في مدينة «أنفرس» يجد في قبر «كرنيوس فاث لاند شدت» ما تعريبه: تنسكب السماء بالاجتهاد أو تشترى بالمال.

ليس من شيء مقدّس إلاّ جعله رجال المسيحية متجراً، فيتاجرون بالضمائر والإيمان وضعف النفوس، وقد جعلوا دفن الموتى باباً للثروة، فيقرعون للغني الأجراس ويشعلون له الشموع ويجعلون له البيارق والصلبان ويكسون الكنيسة برايات الحداد، ويسيرون أمام جثته بالترتيل وهكذا.

ومن أعمال البابا «أوريانس» الثاني لعن «أنريكس الرابع» إمبراطور ألمانيا مع أعوانه، وهذا بعض هذه اللعنة: إنا نفصلهم عن حضن الكنيسة، ونلعنهم أبداً ليكونوا ملعونين في المدن والدساكر وفي كل أرزاقهم الخ. وهي طويلة جداً مملة كلها لعنات.

ومن أعمال نصارى الإسكندرية سنة ٤١٥ بإيعاز أسقفهم وكهنتهم أنهم اختطفوا العالمة «هيباتيا» ابنة «تيون الإسكندري» الرياضي الشهير في عصره، ومزقوا جسدها إرباً لأنها كانت تعلم الفلسفة وتحب العلم والفضيلة وتحث عليهما.

وفي سنة ٧٨٢ قبض «شرلمان الكبير» بإيعاز الحبر الروماني على أربعة آلاف ساكسوني ونيف من مدينة «واردن» وضرب أعناقهم في يوم واحد لأنهم أبوا قبول العماد.

وفي سنة ١٠٠٧ أحرق أقواماً في مدينة «أورليان» وهم أحياء، وفي سنة ١١٣٤ أحرق حياً «بطرس برويس» في مدينة «لانجدوك» لأنه أنكر صحة معمودية الأطفال ونحو ذلك.

وفي سنة ١١٥٥ قتل خنقاً «أرنالدودي» لأنه نشر تعليماً أرانيكياً مآله وجوب عيشة الأكليروس من عطايا المؤمنين الاختيارية فقط.

وفي سنة ١١٦٠ قام الكاثوليك على جماعة من «الفويين» عصوا أمر البابا فأحرقوا منهم عدداً كبيراً، وقتلوا منهم في فرنسا ثلاثة آلاف من جملتهم كثير من الصبيان.

وفي سنة ١٢٠٩ اضطهد الكاثوليك أيضاً «الألبيجيين» في مدينة «بيزيه»، فذبحوا منهم ثلاثين ألفاً وأحرقوا منهم في مدينة «لافور» أربعمائة إنسان دفعة واحدة، وخنقوا أمير «أراتيكيا» بعد أن أحرقوا امرأته وبنته وأخته معاً، ثم شنقوا أميراً آخر مع ثمانين شخصاً من آل بيته، ثم غزوا مدينة «لانجدوك» ومنح البابا «اينوشنسيوس الثالث» غفراناً كاملاً لكل الذين اشتركوا في هذه المذابح والغزوات.

وفي سنة ١١٨٤ تأسس ديوان التفتيش في مجمع «فيرونا» وصادق عليه البابا «اينوشنسيوس الثالث» سنة ١٢٠٤ وثبته نهائياً البابا «غريغوريوس التاسع» ببراءة خصوصية.

ويقدّر المؤرخون بالملايين عدد الذين قتلوا بحكم هذا الديوان، قال المؤرخ «ميشيله»: إن عذاب النار كان متنوعاً: فيضعون تارة المحكوم عليه داخل آتون مضطرم فيموت حالاً، وأحياناً يلقونه على نار ضعيفة ويقلبونه عليها بكلاليب من حديد مراراً عديدة إلى أن يحلّ به الموت ببطء فينقذه من عذابه المهول.

وتارة ينزلون بالمحكوم عليه في دهليز تحت الأرض ويضعونه في حفرة بقدر قامته، ثم يسدون ذلك عليه إلى عنقه، هذا هو معنى دفنه حياً ولا يبقى إلاّ متسع صغير أمام رأسه يأتيه منها السجان بالطعام إلى أن يوافيه الموت بعد عذاب شديد.

وتارة يأتون بالأسياخ الحديدية فيدخلونها تحت أظافر اليدين والرجلين، وهكذا النعال من الحديد المنطبقة على باطن القدم المحماة في النار، وهكذا الرصاص الذائب يسكبونه على الجراح الدامية وهكذا خفاف جهنمية تشدّ على الأرجل إلى أن يقطر منها الدم وتنفث اللحم وتتطاير العظام، وهكذا مسامير مجوّفة تصب في الأحشاء زيتاً مغلياً، وهكذا كلاليب حامية بها يقطع الثديان، وهكذا من أنواع العذاب الشديدة الجهنمية، وذبح النصارى كثيراً من اليهود في إنكلترا أيام «ريكاردس الأول» ومن بعده وعذبوهم ونهبوا أموالهم إلى أن طردوا تماماً من البلاد سنة ١٢٩٠م.

وأحرق لويس الحادي عشر ملك فرنسا في مكدس ١٨٣ شخصاً مع راعيهم، وفي عام ١٢٤٩ أحرق منهم ثمانون إنساناً في بلدة «آجين».

وفي سنة ١٢٦٧ حكموا على الراهب «روجر باكون» بالسجن ١٤ سنة، لأنه أبرم عهداً مع الشيطان في أبحاثه العلمية.

وفي سنة ١٣٩٠ ذبح النصارى في مدينة «سيفيلا» أربعة آلاف شخص من اليهود بإيعاز كاهن اسمه «هرماندومارتيش» ولا زال باقي اليهود يعانون العذاب حتى طردوا منها بتاتاً أيام الملكة «إيزابلا».

وحكم في إنكلترا بنبش قبر «وويكلف» لأنه ترجم الكتاب المقدس، وذلك الحكم بأمر مجمع قسطانس سنة ١٤١٥ وطرحت رفاته في النهر.

ويقدّر المؤرخون المحكوم عليهم في محكمة التفتيش بإسبانيا ٥١٠٠ شخص أيام «توركويمادا» التي دامت ١٨ سنة. وعدد الذين أحرقوا ما بين ثمانية وعشرة آلاف. وقتل في الأندلس في سنة واحدة ألفا يهودي، وعذب منهم ١٧ ألفاً، وأحرق منهم عدد عظيم في مدينة «بامبلونا» في فرصة زواج أمير البلد، والإحراق غالباً كانوا يتخيرون له فرصة زواج الملوك، فيجلس الملك والملكة على دكة عالية ويؤتى بالمحكوم عليهم بين تصفيق الجمهور وعلى رؤوسهم أكاليل من ورق نقشت عليها رسوم الشياطين، وتصدح الموسيقى بالأنغام، ورئيس التفتيش حامل في يده كتاب الإنجيل.

وفي سنة ١٥٦٨ أصدر ديوان التفتيش الروماني حكماً بإهلاك كل سكان «هولاندا» لاتباعهم الهرصقة، وعدد الذين قتلوا في إسبانيا أيام «كارلس الخامس» وابنه «فيلبس الثاني» خمسون ألفاً.

وفي سنة ١٦١١ طرد المسلمون من إسبانيا وعددهم ألف ألف، وقتل منهم مائة ألف بإيعاز رئيس أساقفة «ڤالنا» الذي أمر بقتلهم كما قتل داود الفلسطينيين وشاول العمالقة.

وفي سنة ١٥٧٢ حدثت مذبحة «سان باتلمي» الشهيرة، فذبح تلك الليلة في باريس وحدها عشرة آلاف ونيف من البروتستانت من شبان وشيوخ وأطفال ونساء حوامل، وفي الأقاليم نحو أربعين ألفاً. ثم إن البروتستانت فعلوا أكثر مما فعل «الكاثوليك»، فارتكبوا فظائع مريعة في ألمانيا وهولاندا وإنكلترا خصوصاً أيام «أنريكس الثامن» والملكة «اليصابات».

وقد قتل في إنكلترا وإيكوسيا لدواع دينية في مدة مائتي سنة مليوني نفس، وفي سنة ١٦٠٠ حكم ديوان التفتيش الروماني على «جورداتو برنو» العلاّمة الشهير بالإحراق حياً لأنه رأى ما رآه «كوبرنيك» و«غاليوس» في دورة الأرض، وقوله: إن النفوس ترتقي في العوالم التي لا تتناهى منتشرة في الفضاء.

وفي سنة ١٦٩٩ حكم على «ڤاتيين» بالإحراق حياً في مدينة طولون، لأنه ألف كتاباً ونشره يسمى «محاورات في مسائل الطبيعة».

وفي سنة ١٦٨٥ نقض لويس الرابع عشر بإيعاز «الاكليروس» معاهدة «نانت» مع البروتستانت فتسبب عن ذلك مذابح شتى، وامتلأت سجون فرنسا من أهل الإصلاح، ويقدّر عدد القتلى بأكثر من ثمانمائة ألف، أي من الذين قتلوا وسجنوا ونفوا.

وقتل في مدينة «لانجدوك» وحدها مائة ألف إنساناً حرقاً وشنقاً وتعذيباً في القرن الثامن عشر وحكموا بإيعاز أسقف «اميانس» سنة ١٧٦٦ على الفتى المسمى «دي لابار» بقطع يده وقطع لسانه وإحراقه حياً، لكونه لم يؤدّ الإكرام الواجب لأيقونة العذراء وقت طوافها الاحتفالي، وله من العمر ١٩ سنة. انتهى.

هذه بعض أعمال رجال الدين في أوروبا، وأمامي الآن مئات الحوادث في كتب مختلفة ضربنا عنها صفحاً اكتفاء بالقليل المفيد عن الكثير، وإنَّما الذي يهمنا الآن أن هذا الضلال لم يزله عن أوروبا إلاَّ الإسلام، فإن القوم نازعوا المسلمين في الحروب الصليبية وعرفوا الحقائق، فأذلوا رجال الدين وصاروا أحراراً.

ولأكتف لك أيها الذكي بإيراد ما جاء أيام طبع هذا الكتاب من رسالة بقلم سيدة أوروبية أسلمت وكتبت مذكرات ونشرتها في بلادنا المصرية فهاك نصها لتعلم كيف كان قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الخ، ونداء الله للمسلمين بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ ﴾ الخ قد ظهرت آثارهما في أوروبا بأجمعها في العصور المتأخرة كما ظهرت آثاره في الإسلام في العصور الأولى. فهاك نص ما قالته تلك السيدة بالحرف تحت عنوان: «الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية، رجال الدين» وهاهي ذه:

مذكرات سيدة أوروبية أسلمت

الحضارة الإسلامية، الحضارة الأوروبية، رجال الدين

لا أستطيع في هذه الأسطر القليلة أن أتعمق في بحث الدور الهائل الذي لعبه رجال الدين في سياسة أوروبا جمعاء فيما بين القرنين السادس والسابع عشر، وما جرّه إسرافهم في الأمر من حروب ونقم، فإنه يحتاج إلى مجلدات، وأن كل من قرأ شيئاً من تاريخ أوروبا يعلم كيف استفحل أمر رجال الكنيسة في ذلك العهد، وكيف سلبوا أموال الأمة واستحوذوا على أملاكها واستبدّوا بالوظائف الحكومية والمكانات العالية، وكيف كانوا يعيشون في مثل بذخ الملوك، لهم ما ليس للناس، ولا يجري عليهم ما يسري على باقي أفراد الشعب، حتى ذاقت الملوك ذرعاً بما كانوا عليه من إسراف وظلم وتسلط على العقول والقلوب باسم الدين والكنيسة.

وظلوا على تلك الحال إلى أن أردوا أوروبا بأسرها في هوّة الخراب بتلك المجزرة الهائلة التي أطلق عليها التاريخ اسم «حرب الثلاثين» وما أعقبها من مطاردة «لويس الرابع عشر» ملك فرنسا لطائفة «الهجنوت» مطاردة قضت على مائتي ألف منهم بالغربة والتشتيت في أنحاء العالم.

والحقيقة أن رجال الدين في ذلك العهد أساؤوا استعمال سلطتهم الروحية واتخذوا من الدين ذريعة لنيل مآربهم السافلة من سلب الأموال والعبث بالممتلكات والوظائف وسائر مرافق الحياة.

ولقد عاشت أوروبا تحت تأثير هذه الطائفة وتضليلاتها في ظلم وجهالة إلى أن نبت فيها أمثال «فولتير» و«روسو» فحرّروا العقول من الأوهام التي كانت لا تزال عالقة بها، وحطموا تلك القيود البالية التي غلغل بها رجال الكنيسة رقاب الشعب المسكين، وأخذت أوروبا في دور النهوض والتقدم، وكانت كلما أعرضت عن رجال الدين وأهملت تعاليمهم المسمعة ازدادت رقياً وتقدماً إلى أن بلغت بفضل إهمالها التام لهذه الطائفة مبلغها الحالي من الرقي والعمران.

ولقد حدا بي كل ذلك إلى الظن في بادئ نشأتي أن كل الأديان في هذا سواء، إلاَّ أني تحققت بعد أن اعتنقت الدين الإسلامي أنه خير الأديان وأمتنها أساساً وبياناً، وأنه دين الاجتماع، دين الحكمة والفلسفة، دين العلم، دين الحرية والإخاء والمساواة.

وإني لعلى يقين أن أمثال «فولتير» و«روسو» وغيرهما من قادة الفكر في أوروبا لم يأتوا بنظرياتهم الفلسفية وآرائهم في الحرية والديموقراطية إلاّ بعد أن تشبعوا بفلسفة الإسلام واستقوا تلك المبادئ من روحه السامية مما عثروا عليه في بطون الكتب المنهوبة من الأندلس ومصر وغيرهما. وإني لأتنبأ بأنه سيأتي يوم قريب تنبلج فيه أنوار هذا الدين وأسراره العالية، فتكون أوروبا وأمريكا أول من يبادر إلى اعتناقه هاشين باشين، وهم يزعمون أنه دين الجمود، ويساعدهم على ذلك نفر من بنيه، ولكن أسائلهم: هل دين الجمود يأمر بالحرية والمساواة ويقرر مبدأ المسؤولية الحكومية والمشورة وينشر الديموقراطية؟.

أوَليس عمر أول حاكم ديموقراطي أسس ملكه على العدالة ونادى بالحرية والمساواة؟.

أوَليس هو القائل: «إن الناس ولدتهم أمهم أحراراً فبم استعبدتموهم»؟.

أوَليس هو أول من قرر مبدأ مسؤولية الحاكم أمام الأمة حين وقف قائلاً: «من رأى فيّ اعوجاجاً فليقوّمه» فيجيبه العربي: لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بحدّ السيوف.

أوَليس القرآن أول نظام قرّر المشورة، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩] وعدم استئثار الزعيم أو الحاكم بالرأي.

أوَليس الإسلام أول من قرر حق انتخاب الأمير أو الحاكم للأمة، ذلك بأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم مات ولم يوص بالخلافة من بعده لأحد من أصحابه.

أوَليس القانون المدني صورة محوّرة من نظم الشريعة الإسلامية وفلسفة ابن رشد؟ والأدلة على ذلك كثيرة ليس هذا الموضوع محلاً لذكرها.

الآن وقد أتيت في هذه النبذة التاريخية على ما كان لرجال الدين من أثر في سياسة أوروبا وأخلاقها، فإني أعود بالقارئ إلى الشرق في أيام عزه وسلطانه، مستعرضة ما كان عليه رجال الدين في عهد شروق أنوار الإسلام، وكيف كانت أخلاقهم وصفاتهم وما تركوه من الأثر في نفوس الأمم التي تغذت بلبان تعاليمهم وارتشفت من كؤوس علمهم وحكمتهم.

نعم لقد كان للشرق عزّ وسلطان أيام كان للدين رجال يحمونه ويجلونه ويحافظون على تعاليمه ويمشون على سننه، ترخص أرواحهم، وتغلو في سوق الفضيلة ذممهم وضمائرهم، استلانوا ما استخشن المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، لم يفتتنوا بحب المال والجاه، ولم يركنوا لذوي العز والسلطان.

نعم بمثل هؤلاء عزّ الإسلام وخفق على العالم لواء العدل، وعمت الحرية، وتآخى الناس على اختلاف طبقاتهم في ظلال الأمن والسلام، من ذلك ترى أن الشرق وإن أخذت منه الخلافات المذهبية التي لا تزال حية حتى اليوم، كالشيعة والسنية والروافض وغيرهم، قد اقترن تاريخ مجده ورقيه بأيام تمسكه بالدين على يد رجاله العاملين، فالشرق والغرب عندي في هذا الموضوع ككفتي الميزان، تركت أوروبا الدين وتخلصت من رجاله الظلمة المستبدين، فرقت وعزت وتحررت العقول، ونضجت الأفكار، وأهمل الشرق أمر دينه، واحتقر تعاليمه، واستهان بشريعته، ورماه خطأ بأنه دين الجمود، فتقلص ظله وزال سلطانه وامحت دولته، وهنا أقف وقفة المحزون أناجي الشرق وأسأله: هل أنت حقاً

ذلك الشرق صاحب المدنية القديمة، والتاريخ المجيد، مهبط الوحي، ومبعث العدالة، ومخرج تلك العقول التي حيرت ببديع صنعها وروائع ثمرتها أفكار أهل أوروبا وأمريكا الذين كانوا يرتعون في ذلك العهد في مجاهل الظلم والجهالة؟ إن كنت أنت ذلك الشرق فلم أظلمت بعد ساطعة الأنوار، ولم اكفهرّ جوّك وأظلم أفقك وزالت سطوتك، وأضحيت مقهوراً بعد أن كنت قاهراً، ومستعبداً بعد أن كنت سلطاناً عادلاً، هل تغيرت الأرض والسماء أم جفت الأنهار وتعطل الليل والنهار؟ لا إن شيئاً من كل ذلك لم يكن، إنّما هو خراب القلوب من الإيمان بعد عمارها، وبيع الذمم والضمائر رخيصة في سوق الدنيا ونبذ الدين وتعاليمه، وإقفار أهل العلم من صفات العلماء واستكانة الملوك والأمراء.

وإن شرّ ما أنعيه على الشرق اليوم، وأكبر ما آخذه عليه من أسباب التدهور والانحطاط، هو تغير أخلاق العلماء ومحل قلوبهم من العلم والعمل.

انظر إلى ما فعله علماء بني غازي، ألم ينادوا باسم عمانويل ملك إيطاليا على المنابر بعد خلع الخليفة، والله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤] الآية.

ألم يبايع علماء الحجاز والسودان الحسين بن علي المؤيد من قبل الإنجليز بالخلافة؟.

ألم يقم سعيد الكردي باسم الدين في وجه الكماليين أصحاب السلطة الشرعية على البلاد إرضاء لشهوته من الإنجليز؟.

ألم تر إلى أعمال سادتنا العلماء في مصر؟ وقد ظنوا أن الدين إنّما هو إرخاء اللحى وتوسيع الأكمام ولبس الفرجيات، وإن أقفرت بيوت الله وأظلمت وعمرت المواخير وبيوت الدعارة وازدهت وهل تراهم مشتغلين بغير عمارة الجيوب وإن خربت الذمم والقلوب؟ وهل تراهم إلاّ صائحين ليل نهار بتضخم المرتبات وزيادة الجرايات وإن فتكت بأهل البلاد حمى الخمر والميسر والمخدرات.

أين سطوة العلم وعز الإيمان؟ وقد حفيت أقدام هؤلاء السادة من السعي إلى القصور والعمارات والجري وراء كل ذي لقب من أصحاب المراتب والمرتبات، أين تآليفهم النافعة؟ أين دعايتهم ضد هجمات المبشرين واحتجاجاتهم ضد كيد المستعمرين؟ أين صيحتهم التي كانت تزلزل العروش وتهز القلوب؟ أين العلماء الذين كان يقصدهم الملوك والعظماء ولا يقصدون، ويسألهم الكبير والصغير ولا يسألون؟ أين من قيل فيهم إنهم ورثة الأنبياء؟ وإن قطرات أقلامهم ترجح بدم الشهداء، قضت دولة أولئك العلماء، وأصبحت لا ترى إلاّ كل حفيظ لبعض قشور من الشريعة وأصول الفقه يستثمرها ابتغاء قنص الفلوس، لا في سبيل إصلاح النفوس، متهافت على الأمراء والعظماء، لا يرى منفعة دنيئة، أو حظاً عاجلاً عند كبير إلاّ طار إليه كالذباب، لا يقوى على رؤية العسل دون أن يهوي إليه.

أما الدين، أما الضمائر والذمم، وعلو النفس والهمم، فذلك ما ليس يعنيهم ما دام لا يسد البلعوم ولا يهيئ أسباب العيش الرضي الهنيء، وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر يحييها السادة العلماء في دار المندوب السامي، ولتظلم الجوامع ولتقفر بعد ذلك بيوت الله.

أراح الله الشرق من شر المنافقين، وقيض له علماء عاملين يأخذون بيده وينهضون به فيعود إلى ماضيه القديم ويسترد مجده التليد، فإني لا أظن الأرض تخلو من هذا المثل الأعلى للعلماء، بل إن هذا الظنّ قد تحوّل مني إلى تحقيق بعد أن تبيّن لي في نفسي صدق علي بن أبي طالب حيث قال: «اللهم لا

تخلي الأرض من قائم لك بحجة، إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مقهوراً لئلا تبطل حجج الله وبيناته»، وليس بضائر الشمس أن تحجبها عن الأبصار السحب السوداء، أو أن لا ترى نورها أعين الخفاش، فإنها بالرغم من كل هذا موجودة وهي تضيء وهي تنفع.

أما أنا فأعتبر نفسي سعيدة السعادة كلها، حيث قد منَّ الله عليّ باختراق هذه السحب السوداء بنور البصيرة، فعرفت من أنكره الناس، وعثرت بمصباح «دياجونيس» على ما لم يعثر عليه «دياجونيس» نفسه ذلك هو الرجل، وإني لست بالساذجة ولا بالجاهلة، فإن قلت إني عثرت وعرفت فعلى علم ونور وبصيرة. انتهى.

مدام رئيفة كامل

وبهذا تم الكلام على المقام الثاني من المظهر الأول لهذه الآيات.

المظهر الثاني: ما جاء عن علماء الأرواح حديثاً ببلاد أوروبا

معجزات القرآن في هذا الزمان وظهور الكشف الحديث مصداقاً لهذه الآيات من قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾. ولنفصل الكلام في هذا على ثلاث جواهر:

الجوهرة الأولى: ملخص هذه الآيات إجمالاً نبني عليه ما بعده.

الجوهرة الثانية: في مبحث عام في النفس الإنسانية وقواها وملكاتها وأخلاقها، لأنها هي أسّ جميع الأعمال.

الجوهرة الثالثة: فيما أعلنه بعض الذين خاطبوا الأرواح من علماء المسيحيين الكبار وحكمائهم وأنهم شاهدوا في الجنة قصوراً وفي النار ظلمات وسعيراً، وأن بعض رؤساء الدين المسيحي من آباء الكنيسة الرومانيين في أسفل جهنم الخ، وأن الدين الإسلامي قد ظهر له أحسن أثر في الأموات الذين اعتنقوه الخ، وهذا المقال من أعجب ما في هذا التفسير.

الجوهرة الأولى: مجمل هذه الآيات هو:

(١) أن من قدّم النفس والمال لله فهو في الجنة.

(٢) أن الذي يقدّم حب المال والأهل وغيرهما على حب الله فهو في جهنم.

(٣) أن النصر بيد الله لأن العالم في قبضته.

(٤) معاداة الكفار.

(٥) ذمّ النصارى واليهود الذين جعلوا لله شريكاً واتبعوا الأحبار والرهبان الذين يحللون ويحرمون.

(٦) الأحبار والرهبان لشرههم على المال وحبهم للرياسة يعذبون في جهنم.

هذه الأصناف الستة ترجع لأصل واحد وهو أن الشره على المال أو الرياسة أو حب أمر من الأمور، يصدّ النفس عن حب الله تعالى، وهذا يوجب عذاب جهنم، فهذه الآيات جمعت ما بين مؤمن متثاقل عن الجهاد لأجل مسكنه أو ماله أو أهله، وبين رئيس ديني مغرم بالمال والرياسة الخ، وبهذا تمت الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية : في تحليل النفس الإنسانية ومعرفة قواها وملكاتها

حتى نقف على سرها المكنون المخزون الذي به ندرك بعض سرّ هذه الآيات . ثم نقفي في الجوهرة الثالثة بمصداقها من العلم الحديث .

اللهم إنك أنت الذي تحيي القلوب وتخرج الحي من الميت ، أنت الذي شرحت صدري لهذا التفسير وأنعمت عليّ بالتوفيق وأريتني بدائع الغرائب ومشاهد الحوادث حتى يظهر سر كتابك في هذا الزمان الذي التبس فيه الحق بالباطل ، اللهم إنك أنت الذي خلقت نفوسنا وأضأتها بنورك وأودعت فيها جواهر وأبدعت وزوّقت وصوّرت وأحكمت ، فكانت نفوسنا :

(١) قابلة لمعرفة جميع الموجودات .

(٢) مشاركة لكل حيّ في صفات عامة ، فبهذا تودّ لو شملت جميع الأحياء بالرحمة والإحسان .

(٣) وحياتها متوقفة على العوالم العلوية والسفلية بوجه عمومي .

(٤) ومن جهة أخرى تودّ لو تبتلع كل موجود إطاعة لشهوتها ، أو تهلك كل حيّ إطاعة لغضبها وسطوتها . وبيان هذه الأربعة أن نقول :

هلم أيها الذكي أحدّثك دقائق واعتزل عالم الأجساد ، وادخل معي عالم روحك وتفكر فيها ، فهاأنا ذا أصف نفسي ، هذا الوصف ينطبق على نفسك ، وقد أمرني الله وأمرك أن ننظر في نفوسنا فقال : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات : ٢١] ، وهذا فيه توبيخ لنا وإنكار علينا لعدم نظرنا لنفوسنا ، فامتثالاً لأمره تعالى أنظر في نفسي وأنت تنظر في نفسك ، فأقول : قل لي ألست تجد أنك تحب أن تعرف جسمك ومنزلك وقريتك وأمّتك والكرة الأرضية والمجموعة الشمسية وعالم المجرة الذي يحتوي على نحو ٢٤٠ ألف ألف من النجوم التي هي أكبر من شمسنا وأضوأ جداً ، فمنها ما هو أضوأ منها ١٠٠ مرة ومنها ما هو أضوأ ألف مرة ، ومنها ما هو أضوأ ثمانية آلاف مرة وأكثر ، كما تقدم كثيراً في هذا التفسير .

ثم وراء تلك المجرات مجرات أخرى قد وصلت إلى ما يزيد على ألف ألف مجرة ، وكل واحدة من هذه فيها شموس كشموس مجرتنا .

اللهم أنت القدوس ، أنت العليم ، أنت الحكيم ، أنت الكريم . فمن كرمك أن أبدعت نفسي وأبدعت نفس قارئ هذا الكتاب ، وجعلتهما توّاقتين إلى هذه العجائب التي ذكرتها سابقاً في سورة «الأنعام» ، وسأذكر بعضها في سورة «يونس» وغيرها . بل إن هذه النفس نراها تدرك أن هناك ما لا نهاية له في الزمان والمكان والعوالم ، ولكنها حين تريد أن تتصوّر ذلك تبهر وتنكمش وتتقهقر وتقول : لا قدرة لبصيرتي على تصورّ هذا ، وإذن ترجع القهقرى وتقول : إن ما لا نهاية له يعلمه من وجوده لا نهاية له ، وهو الذي دبر هذا الوجود ، فمن أنا حتى أقف على سرّ هذا الوجود؟

فمن هذا يتبيّن أن نفسي ونفسك معاً عاشقتان مغرمتان بالاطلاع على كل موجود ، ومعنى هذا أنهما قابلتان لذلك ، كما قبلتا الطعام والشراب ، ويظهر لي أن كل ما تميل إليه النفس هو من جبلتها وطبيعتها ، وإلاّ فلماذا كان ميلها للطعام سبباً لحياتها ، وميلها لاقتراب الرجل والمرأة سبباً لبقاء الولد ، فهكذا فليكن ميلها لمعرفة العوالم ، وحبها سبباً لسعادة كبرى مناسبة لهذا الميل ، كما سعدت سعادات صغرى بالميل للطعام والتزوج .

هذا هو ما قصدت من شرح الأمر الأول: وهو قبول النفس لمعرفة جميع الموجودات.

الأمر الثاني: أن الإنسان لمشاركته لأبناء نوعه في عواطفه يحب حياة كل إنسان متى خلي وطبعه. والبرهان على ذلك أنك ترى الإنسان إذا شاهد قطاراً دهم رجلاً وقتله في مصر أو بغداد أو الأستانة أو كلكوتا أو باريس أو برلين فإنه في الحال يفزع ويجزع، وهذا دليل على أنه يفرق بين حالي هذا المقتول ويفضل حال الحياة على حال الموت.

الأمر الثالث: أن نفسي التي تحب معرفة كل شيء وحياة كل إنسان، إذا وصلت لليقين تعلم أنها متوقفة على جميع العوالم العلوية والسفلية. وهذا واضح في ثنايا هذا التفسير، أفلا تعجب من هذا؟ ألا تعجب من أن حبها لمعرفة العوالم وعطفها العام يناسبان احتياجها العام.

اللهم إن نفسي لا تعيش في هذه الدنيا إلا بجسم تحفظه قرية، تحميها دولة، يحيط بها هواء وأضواء مشرقات من العوالم العلوية، والأمم جميعها والدول مشتركات في الأمور العامة كالأسلاك البرقية «التلغراف» وكالمسرّة «التليفون» وكالقطرات في البر والسفن في البحر وهكذا.

فالأمم على هذه الأرض كلها متعاونات وإن كنّ متعاديات، وهذا هو العجب! حبّ عام واحتياج عام واشتراك عام، وإن كان هذا الاشتراك صورياً والقلوب مقفلة على الطمع والشره والعداوة والبغضاء لنقص أهل الأرض أجمعين إلاّ قليلاً منهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣].

الأمر الرابع: أنها مع هذا الحبّ هذا الغرام بالعلم والاشتراك العام كمنت فيها قوتان: إحداهما جاذبة والأخرى دافعة. أما القوة الجاذبة فهي الشهوات التي أعدّت لبقاء الحياة في الدنيا، فهذه الشهوات نراها قوية هائلة، فكما رأينا عقولنا تودّ معرفة كل كوكب وكل شمس وكل أرض كما هو معروف من أخبار علماء أهل أوروبا الذين يودّون أن يسافروا للقمر أو يخاطبوا أهل المريخ الخ، ونحن نتشوق لذلك شوقاً كبيراً، هكذا ترانا إذا ملكنا لا نقف عند حدّ فنحن تكفينا الأطعمة الحاضرة والملابس الساترة لكن هذه النفس تندفع في شهواتها كاندفاعها في علومها، يودّ الإنسان لو يملك قرية أو أمة أو أهل الأرض جميعاً، والدليل على ذلك ما نعرفه عن نابليون وبختنصر وغليوم إمبراطور الألمان وغيرهم.

وهكذا كل أحد منا يعرف في نفسه أنها لا تقف عند حد في أمر الملك وحوز النعم الأرضية، وإذا عارض أحد من الناس هذه القوة فينا غضبنا عليه وكرهنا حياته ونسينا أن كل حي على الأرض رحمة لنا؛ فالأمم وأفراد الأمم يساعد بعضهم بعضاً، فكل عنده من العلم والسلع ما ليس عند الآخر فكل لكل مكمل ومرقٍّ، ولكن الناس لنقص أكثر نفوس أهل هذه الأرض بعضهم لبعض عدوّ، هذه هي القوة الدافعة. فنحن أهل الأرض بين قوتين: قوة جالبة لما به الحياة، وقوة دافعة لما يضادها، وهاتان القوتان هما اللتان تظهران في الجاذبية العامة؛ فالشمس مثلاً تجذب الأرض، ولكنها تدفعها عنها إلى بعد مخصوص بالقوة الطاردة، فالأرض كعاشقة للشمس لأنها مجذوبة إليها ولكنها مطرودة عنها إلى بعد مخصوص، هذه هي القوى الأربعة التي في نفوسنا، فهي محبة لكل علم متوقفة على كل العوالم، وهذا لا يعرفه إلاّ من درس جميع علوم الكائنات أو قرأ أكثر هذا التفسير.

تريد أن تعرف كل شيء، وتملك كل شيء، وتحسن لكل حي، ولكن يعارض هذا شهواتها وأضغانها ـ وإن كانت في حاجة لأبناء نوعها ـ إن رغبة العلم العام والمحبة العامة طبيعتان أصليتان في

النفس، أما كونها تودّ البطش بأبناء نوعها وتودّ هلاكهم فهذا عارض من حيث حاجتها إلى سد شهواتها ونتيجة هذه الجوهرة الثانية أن الإنسان لا تصلح حياته إلاّ على مقتضى أصول فطرته، وأصول فطرته أهمها العلم والحب والتعاون. إذن حياة الفرد في أمة يتوقف كمالها على حياة الأمة، وكل ما توقفت عليه حياتنا أحببناه، وهكذا في الأمم على هذه الأرض.

اللهم إن كمال الأفراد في حب بعضهم من أمتهم، وكمال الأمم في حب بعضهم بعضاً، ولقد حصل هذا فعلاً في أرضنا ولكن حصوله ناقص، فإننا نرى أهل المنزل يتشاركون وهم كثيراً ما يتعادون ونرى أهل القرية يتشاركون في أمورهم العامة وهم يتشاجرون، ونرى الأمم تتعاون في التجارة والبريد والقطرات وهم جميعاً متعادون. الله أكبر ظهر الحق واستبان السبيل وظهر جمالك في العالم الذي عشنا فيه.

اللهم إنك قد أبدعت هذا الوجود وأرجعته لفطرنا، أنت عشقتنا في المعرفة وجعلت حياتنا موقوفة على أبناء نوعنا، فتشاركوا وتعاونوا ولكن هذا التشارك وهذه المعاونة ظاهريان لا باطنيان.

اللهم إن فطرنا صادقة، لصدقها تحزن أو تألم في هذه الحياة، وهي لا تدري ما سبب هذا الألم ولا تعلم أن سببه أن هذا العالم ناقص، لا يطابق فطرتها تمام المطابقة، بل المطابقة لفطرتنا لفظية ظاهرة ولذلك حكمت بموتنا لندخل في عالم آخر تتوافر فيه معدات الحياة الحقة، فيكون التعاون بالقلب والقالب فتصبح النفوس متجاذبة تجاذباً صادقاً لا عوج فيه ولا خداع.

إن حياة الأرواح في أجسامها يجب أن تكون بالحب العام الخالص كما أحبت الشمس الأرض والأرض القمر، وأفاض الأعلى على الأدنى بلا منّ ولا أذى كما يفيض الأبوان على الولد، هذه الصفة مفقودة في أرضنا التي حياة الأمم وحياة الأفراد فيها مصحوبة بالخداع.

اللهم إنك سترت في الدنيا بواطننا رحمة منك، أنت أردت أن تكون ظواهرنا متشاكلة متوادّة متجاذبة، وقد أقفلت على قلوبنا أقفالك حتى لا تظهر، ولو ظهرت لكان التنافر ولم تتم الحياة.

وهذا النقص يتبعه عالم أكمل من عالمنا هذا، تكون البواطن فيه ظاهرة واضحة، وهو عالم الأرواح، لأن الليل يعقبه النهار، فحياتنا ليل مظلم لا تظهر فيه البواطن، أما حياة الأرواح فهي نهار مضيء تظهر فيه الأشكال. وهاهنا يظهر معنى هذه الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها، فإذا رأينا الإنسان يقدم نفسه وماله في المنفعة العامة بإخلاص، فهذا مطابق لفطرتنا الأصلية، وإذا رأينا الأحبار والرهبان يزجون في جهنم لأنهم يجمعون أموال الناس لأنفسهم، فمعنى هذا أنهم سخروا المجموع لأنفسهم، فمحبتهم إذن لأنفسهم لا للمجموع، وهذا مناقض لفطرنا. هذا هو الذي أردت تبيانه بطريق عقلي نفسي.

الجوهرة الثالثة
معجزات القرآن التي ظهرت مطابقة
لما تقدم عند بعض علماء النصارى الذين حدّثوا الأرواح

بين يديّ الآن كتاب مؤلفه عالم مسيحي «عمانوئيل سودنبرج» عاش في القرن الثامن عشر، وقد ولد في مدينة «استوكهلم» وأبوه كان أسقفاً على «وستروغوثيا» له شهرة طويلة في حياته، وكان

عضواً في الجمعية الإنجليزية لنشر تعاليم الإنجيل، وأقامه الملك كارلس الثالث عشر أسقفاً على الطنائس الأسوجية في «بنسلفانيا» و«لندن»، أما «عمانوئيل سودنبرج» الذي نحن بصدد الكلام عليه فإنه زار إنكلترا سنة ١٧١٠ وهولندا وفرنسا وألمانيا، وعاد إلى وطنه سنة ١٧١٤، وجعله الملك كارلس الثاني عشر في رتبة مقدر في مدرسة المعادن، وبقي في هذه الوظيفة إلى سنة ١٧٤٧، وقال: إنه استقال منها لأنه دعاه داع إلهي لنشر الحقيقة العلمية في العالم، فعرض عليه الملك رتبة أعلى فرفضها خوفا من أنه يتيه غروراً وتكبراً وتعاظماً، ثم أنعمت الملكة عليه بترقيته إلى منزلة الأشراف ولقب بلقب «سودنبرج» فجلس في مجلس الأشراف وحضر الجلسات الثلاث التي تعقد كل سنة، وصار عضواً في الجمعية العلمية في «استوكهلم»، ولكنه يقول: هذه الجمعية مبحثها لا يناسبه لأنها تتعلق بهذا العالم المادي، ولذلك لم يبحث معهم وإن كان عضواً منهم بالاسم، وقد تناول الطعام على سفرة الملك والملكة ـ وهو شرف لا يناله غير أشراف المملكة ـ وقد قال: إن هذه النعم ليست شيئاً مذكوراً بالنسبة لما دعاني إليه الله وألهمني أن أحدّث الناس بالحقائق التي شاهدتها في عالم الأرواح لإظهار الحق للمسيحيين ليعرفوا الحقيقة، وقال: إني تنقلت في البلاد لهذه الغاية وإبراز هذا العلم للناس لخلاصي وخلاصهم.

هذا ملخص ما ذكره المؤلف في خطابه لأحد أصحابه سنة ١٧٧٩ وقال: إن تشنيع الناس عليّ وتشهيرهم بي واستهزاءهم لا يهمني ما دمت قائماً بالحق، ولما قال له أحد أصحابه: إني أنصحك أن تعتزل تلك الكتابات التي تكتبها عما ترى وتسمع في عالم الأرواح، فإنها تعرّضك لسهام ذوي الجهالة وقد أصبحت هزؤاً وسخرية، قال: قد بلغت من العمر إلى درجة لا يجسر فيها على الهزؤ بالأمور الروحية، وإن منتهى جهدي هو السعي وراء خلاصي غير ملتفت إلى ما يرى الناس فيّ، ثم قال: أقسم بخلاص نفسي أن ما كتبته لم يكن مصدره التخيل بل حقيقة ما سمعت وما رأيت. وقد مات سنة ١٧٧١ ودفن في لندن بعد ما أصيب بالفالج، وقد قابله قبيل موته كاهن يسمى «أرفيدفرليوس» وقال له: لقد نلت مرادك من الشهرة، والناس يزعمون أنك بهذه التعاليم أردت الشهرة، فإذا كان زعمهم صادقاً فمن الواجب عليك في هذه الحال ـ حباً في العدل والصدق ـ أن تكذب كل ما كتبته أو بعضه ما دام لم يبق لك مأرب في عالم عما قريب تفارقه، فلما سمع ذلك منه انتصب في فراشه جهد طاقته، ورفع يده الصحيحة إلى صدره، وقال بلهفة: إنّ صدق ما كتبته حقيقي كحقيقة رؤيتك إياي أمام عينك، ولو سمح لي لكتبت كل ما رأيت، وقلت أكثر مما فعلت حتى الآن، وسترى كل شيء بعينيك يوم تدخل العالم الأبدي حيث أجتمع بك للكلام في أمور كثيرة. انتهى ملخصاً.

ماذا يحدثنا عمانوئيل الذي ذكرنا نلخص تاريخه

يحدثنا:

(١) يقول في صفحة ١٧٩ ما نصه في الترجمة: إن الإفريقيين من بين جميع الأمم هم المحبوبون أكثر من الجميع في السماء أي الجنة، لأنهم يقبلون خيرات وحقائق السماء بأوفر سهولة من الآخرين، وهم يرغبون خصوصاً أن يدعوا مطيعين.

ويقول في صفحة: ١٨٠ إنه رأى عباد الأصنام من الأمم بعد الطوفان، وشاهد أرواحهم فرآها في مكان مظلم وفي حال تعسة، وقد حرموا من الفكر وقالوا له: إنهم أقاموا في ذلك المكان قروناً كثيرة

وإنهم يخرجون منها بعض الأحيان ليقوموا بحاجات دنيئة للآخرين. قال: فمن هذا حملت على التفكر في كثير من المسيحيين الذين ليسوا في الخارج عبدة أوثان، ولكنهم في الداخل كذلك إذ يعبدون ذواتهم والعالم ويرفضون الله. قال: وأخذت أتفكر في نوع النصيب الذي ينتظرهم في الحياة الأخرى، وقال في موضع آخر: إن المسيحيين يعيشون عيشة شرّيرة ولهم ولوع بالزنا والبغض والخصام والسكر وذنوب متشابهة تأباها الأمم الوثنية.

(٢) وهو يقول أيضاً: إنه حادث الأرواح فقالت له: إننا في السماء لا نقول إن الله ثلاثة، وإنّما نحن نعلم ونبصر أن الله واحد. ويقول إنهم قالوا له: إن الذين يعتقدون بآلهة ثلاثة لا يمكن إدخالهم إلى الجنة، لأن أفكارهم يحصل لها تحير، فلا تدري أين الثاني والثالث، والمدار في عالم الأرواح على الفكر، فالفكر إذا تصورّ ثلاثة آلهة، فقول اللسان: إنه واحد، نفاق لا يفيد، بل يظهر الباطن ويكون وبالاً على صاحبه، وذلك في صفحة ٣ من الكتاب المذكور.

(٣) ويقول في صفحة ٨١: يعتقد البعض أن الأطفال الذين ولدوا تبع الكنيسة بسبب أنهم متعمدون بماء المعمودية يدخلون في الإيمان، وأما الذين ليسوا تبع الكنيسة ولم ينلهم ماء المعمودية لا يدخلون في الإيمان، قال: وهذا باطل، لأن المعمودية تذكار، ثم قال: فليعلموا أن كل طفل ولد من والدين تقيين أو من والدين غير تقيين متى مات يقبله الله ويعلم في السماء ـ أي الجنة ـ وهنا أخذ يشرح العناية بالأطفال شرحاً مستفيضاً على ما يقول إنه رآهم كذلك.

(٤) ويقول في صفحة ٩٢: رأيت قصوراً سماوية ذات إتقان لا يمكن وصفه، أشرفت من فوق كالذهب النقي ومن تحت كالحجارة الكريمة، يزيد بعضها عن البعض رونقاً، والغرف مزدانة بزينة يستحيل أن يصفها الكلام وفي بعض الأماكن ترى الأوراق كالفضة، والثمار كالذهب، والأزهار في ألوانها أظهرت قوس قزح. ويقول: إن الأرواح قالت له: إن أشياء كهذه لا تحصى وهي أعظم كمالاً يعرضها الله أمامهم، ومع ذلك هم يبهجون عقولهم أكثر مما يبهجون أعينهم، وذلك لأنهم يرون مطابقة في كل شيء إلهي، ويقول: إن هذه المظاهر تطابق بواطنهم، فإنها لطهارتها ظهرت لهم المحسوسات وتنعموا بها كما تنعم بواطنهم بالكمال.

(٥) ويقول في صفحة ٦٦: إن داخليات الإنسان تعرف بالنظر لوجهه بحيث لا يخفى منها شيء، فأهل الجنة يحبون أن يظهروا لأن بواطنهم جميلة، أما الفجار من أهل النار فإن أحدهم يظهر للآخر كما يرى الناس بعضهم بعضاً، أما أهل الجنة والملائكة فإنهم يرونهم كالوحوش في وجوه وأشكال مخيفة في نفس شكل شرّهم الذاتي، فكل إنسان يظهر شكله على هيئة باطنه، فإما جميل على قدر خيره، وإما قبيح على قدر شره.

ويصف في صفحة ٣٧٥ و٣٧٦ جهنم، يقول: إن مداخل جهنم تكون تحت الجبال والتلال والصخور وجميعها تظهر مظلمة ومغبرّة، ولها نوع من النور كالفحم المشتعل، وإن الذين عاشوا في الدنيا في البغض والانتقام من الذين لم يعتبروهم ولم يقدّسوهم ولم يعبدوهم، فهؤلاء يوضعون في أقصى جهنم، ومن هؤلاء طائفة الكاثوليكية الرومانية، وكذلك الذين جعلوا أنفسهم آلهة تعبد، فهؤلاء اضطرموا بنار البغض والحقد ضدّ كل من لم يعترف بقدرتهم على نفوس العالم، ولا يزالون

في جهنم يعللون الأماني التي عاشوا بها على الأرض، فقلوبهم ملأى غيظاً وحقداً وضغناً على من لا يوافقونهم في زعمهم فأصبحوا في جهنم، وقلوب كل منهم متجهة نحو ذوي صيته.

وقال في صفحة ٣٧٧: في بعض جهات جهنم ترى خرابات ومنازل ومدن بعد شبوب نيران، وفيها تسكن الأرواح الجهنمية في خفية، وفي النواحي المعتدلة من جهنم ترى أكواخ سيئة البناء بهيئة مدينة بالأزقة والشوارع، وفي داخل هذه البيوت الأرواح الجهنمية دائماً في مشاجرة وعداوة ومضاربة وقتال، وفي الشوارع والأزقة لا ترى إلاّ النهب والسلب.

وقال: إن أبواب جهنم حين تفتح لدخول أرواح شرّيرة جديدة يخرج منها بخار يكون إما مثل بخار النار مع الدخان كما يظهر في الهواء من أبنية محترقة، أو مثل لهيب بدون دخان، أو نظير سخام كالذي يخرج من المداخن المشتعلة، أو نظير ضباب أو سحاب كثيف، قال: وهذه الأشياء مناسبة لأخلاقهم ولكنها تظهر بهذا الشكل لغيرهم، أما هم فلا يمكنهم أن يعيشوا خارجها.

وصرّح في صفحة ٣٥٩ أن بعض الناس إذا سمع في جهنم ذكر الله ازداد غيظه جداً حتى التهب راغباً قتله، وهو لو أطلق العنان لنفسه لأحب أن يكون إبليس، حتى يزعم أنه يلحق الأذى بالله تعالى كما يتمناه بعض أصحاب الديانة البابوية عندما يدركون في الحياة الأخرى أن الرب كل القوة، وليس لهم شيء منها على الإطلاق.

(٦) ويقول في صفحة ٥٨: إن الله يرى في السماء ـ أي الجنة ـ كالشمس، ويرى لكل أحد بمقدار ما يقبله تعالى، ومن رأوه لإفاضتهم الخير على الناس، ظهر لهم كالشمس، لما عندهم من المحبة والخير للناس، أما الذين يرونه لأجل الإيمان فإنهم يرونه كالقمر.

(٧) ويقول أيضاً: إن نصيب الأغنياء والفقراء في الآخرة تابع لسرائرهم، فكم من غني كان محسناً طاهر القلب فرأيته سكن القصور الجميلة، وكم من فقير كان ساخطاً على الزمان غير راض بالقدر فهذا يعذب عذاباً شديداً. انتهى. فاعجب من معجزات القرآن.

أليست هذه المسائل التي لخصتها لك من كتابه هي عين تفسير هذه الآيات، بل هي من آيات الله وهي بعض آيات ربك التي أظهرها للناس؟.

فيا ليت شعري أليست الجنة والنار اللتين ذكرهما هما المذكورتان في القرآن بالنص، أفليس الرجل أنكر التثليث؟ أوَليس كلامه في أهل إفريقيا وأنهم يسبقون الناس إلى الجنة، وأن الأمم الوثنية من نفس تلك البلاد قديماً معذبون في جهنم؟.

أقول: أليس هذا معجزة للقرآن في هذا العصر لأن أهل إفريقيا مسلمون وأسلافهم عباد أصنام؟. وانظر كيف صرّح بما نصت عليه الآية وهو أن رؤساء دينهم لحبهم لإجلال الناس إياهم في أسفل جهنم كنص هذه الآية.

أوَليس قوله: إن أطفال جميع الأمم يدخلون الجنة، موافقاً للأحاديث ولآراء أجلّ علماء الإسلام؟ أوَليس تفضيله للغني الشاكر هو عين ما أوضحه الإمام الغزالي في الإحياء أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر؟.

نتيجة هذا المقام

ألست ترى بعد هذا أن ما نقلناه من هذا الكتاب إنَّما هو بيان لسرّ هذه الآيات، إذ ذكر أن التثليث يعذب عليه المسيحيون، وأن عظمة رجال الكنيسة تطرحهم في أسفل سافلين الخ. هذا هو سرّ هذه الآيات ولا سيما قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾. انتهى ليلة الاثنين ١٦ مايو سنة ١٩٢٧.

هذا، ومن أعجب العجب أن يقع هذا الكتاب في يدي وهذه السورة مقدمة للمطبعة، وأخر طبعها لأسباب عارضة حتى تمكنت من تلخيص ما تقدم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. اهـ.

إيضاح

بعد أن كتبت ما تقدم بأسبوع، اطلع عليه أحد أهل الفضل من الإخوان فقال: أبهذا القول تثق؟ وهل مثل هذه الأقوال التي لا حظ لها من التحقيق يفسر القرآن؟ القرآن وحي وهذا الرجل يدّعي أنه خاطب الأرواح. فهل النائحة كالثكلى. فأين الثريا وأين الثرى. وأين معاوية من علي.

أوَكلما نعق ناعق أثبت قوله في تفسير كلام الله؟ فقلت: أنا لم أقل إنني موقن أنه حادث الأرواح كلا. قال: ولم إذن نقلت كلامه؟ فقلت: نقلته لثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنني وجدت هذه الآراء في فحواها وفي مقصودها تشبه كلام الأرواح، كما في كتابي المسمى «كتاب الأرواح»، فإن تلك العوالم لما خاطبها القوم في أوروبا كان ذلك أشبه بما جاء في هذا الكتاب، فإذا كان هذا العالم من رجال القرن الثامن عشر موافق لمن جاؤوا به في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، فهو جدير بالبحث والتحري.

الأمر الثاني: أن هذه الآراء كما تقدم أيضاً قد ذكرها خواصّ علماء الإسلام في أسرار الدين الإسلامي، وينحو نحوها الإمام الغزالي ومحيي الدين بن عربي وكتاب «إخوان الصفاء» ونحوهم.

الأمر الثالث: أنني أنا نظرت في هذه الدنيا بعقلي فوجدتها كما تقدّم، وقد لازمتها الوحدة جملة وتفصيلاً ولازمها الاتحاد.

فالشمس والسيارات والتوابع كالأرض والقمر وهكذا بقية الشموس كلهن متجاذبات متحابات ومتعاونات، وكل هذه وما معها في المجرة وهكذا المجرات الأخرى، هذه نراها في نفوسنا عالماً واحداً، فهي في نفوسنا واحدة والأعلى منها يمدّ الأسفل، فالشمس تمدّ الأرض وباقي السيارات بالضوء، وهنّ مجذوبات لها كما تقدم.

ثم إني وجدت هذا النوع الإنساني جعلت هيئته كهيئة هذه العوالم، أي: إن وضعه في الوجد هو والحيوانات كلها كوضع اشتقاق هذه العوالم، فإذا رأينا الأرض ــ كما هو الرأي العام في العالم الآن ــ مشتقة من الشمس دائرة حولها ملازمة لها، والقمر مشتق من الأرض ملازم لها دائر حولها.

هكذا نرى الناس جميعاً قسمين: أبوين وابناً وبنتاً، والأولان يعطفان على الأخيرين، الأخيران مشتقان من الأولين تابعان لهما، ثم نراهم من جهة أخرى قسمين: قسم هم ذكور، وقسم هم إناث، وهما متعاشقان متحابان، ونرى عالماً وحكيماً ونبياً يعلمون تلاميذ وأمماً، وهذه أيضاً ولادة أخرى معنوية، يعجبني هذا النظام، نظام يراد به التعارف والمحبة بحسب أصله، وهو قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذا هو الأصل

الذي بنيت عليه كتابي «أين الإنسان» الذي سأذكر ملخصه الذي استخلصه منه الأستاذ «ستلانة» التلياني في «مجلة العلوم الشرقية» في سورة «الحجرات» عند تفسير الآية المتقدمة فيها هناك.

فإذن العالم الإنساني خلق أولاً وبالذات للتعارف وللمحبة، كما خلقت هذه العوالم للتجاذب وللاتحاد، فإذا لم يوفق الإنسان لذلك في هذه الحياة، فما أحراه أن يتلكأ في سيره، ويوضع الذين لم يصلوا إلى هذه النتيجة في عوالم منحطة، ليدركوا بعد حين أنهم في ضلال مبين، ويعلموا أنهم في السجن الجهنمي بغباوتهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠-١١]. وهذا الأصل هو الذي يبنى عليه جميع هذه الآيات. فمن فضل ماله أو أهله على المجموع، ومن أخذ المال وكان رئيساً دينياً وهو عليه حريص فقد أخطأ المرمى وغش المجموع فصار نجساً يحبس في مكان محزن هو جهنم.

فهذا هو رأيي في هذه الدنيا، فلذلك نقلت كلام الرجل لملاءمته لذلك أشد الملاءمة، فإذا لم يكن ما فهمته حقاً فلماذا لم يخلق الإنسان بصفة أخرى؟ ولماذا لم يخلق كالنبات يعيش ويموت ولا نصب ولا تعب ولا ألم، وكان في الإمكان أن يخلق الناس كما يخلق الشجر إلى حين ثم يموتون، الشجر لا يحتاج بعضه إلى بعض كثيراً، ولكن هم في أشد الحاجة بعضهم لبعض، لعمر الله لم يكن ذلك إلاّ لأجل ما ذكرناه وبيناه وفتح الله به.

اللهم إن الناس يعيشون ويموتون وأكثرهم لا يعقلون ولا يدرسون هذا الوجود، لذلك أنزلت عليهم الديانات وخلقت الحكومات ليتفطنوا.

هذا هو سرّ ذم الله للأحبار والرهبان الذين يحرصون على المال ويستعبدون الناس، مع أن هؤلاء العلماء إنَّما نصبوا لخدمة المجموع، هكذا علماء الإسلام إن لم يكونوا رحمة للمسلمين فهم ملحقون بالأحبار والرهبان لحرصهم على الدرهم والدينار.

هذا هو الذي أفهمه في هذه الدنيا التي هي أكبر مدرسة لنا معاشر بني آدم، فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذا بيان يصلح أن يكون أساً تبنى عليه الحكمة والفلسفة والحياة. فقلت: ونحن إذا فسرنا كتاب الله فهو أولى بالأصول الثابتة والعلوم الحقة، وإن لهذه الآراء شأناً في الأمم بعد مغادرتنا هذه الدنيا، ويشير لما قلته الآن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥] استوى إلى السماء ودعا السماوات والأرض فأتتا طائعتين. ولما سجد له من في السماوات والأرض انقسموا فريقين: فريق سجد طائعاً، وآخر مكرهاً، وهذا يشهد لما ذكرته لك الآن، تجاذبت العوالم كلها، نظمت بحساب، جرت الشمس حول كوكب مجهول لنا، وجرت الأرض حول الشمس، وجرى القمر حول الأرض، وجرت السيارات كذلك، وهكذا توابعها، وجميع الكواكب كلها جرت جرياً منظماً لم يجد فيه العلماء خطأ، وهذا فيه معنى الحب ويسمى الجاذبية. ❖ إن المحب لمن يحب مطيع ❖.

أما بنو آدم فليسوا جميعاً راضين محبين، بل سيأتون إلى ربهم قوم طائعون محبون، وقوم عاصون مجرمون، والطاعة ترجع هنا إلى الحب والشوق والغرام، فمن أدرك جمال هذا العالم أحب

صانعه فرضي بما يجريه عليه لعلمه أنه الحكمة، ومن عاش غافلاً ساهياً لاهياً لا يحب الله ولا يرضى عن فعله ويعترض في قلبه عليه ويأتيه كارهاً لا محباً، ولن يكمل هذا النوع الإنساني إلا إذا كانت الأرواح متجاذبة كتجاذب وتحابّ الكواكب والشموس والأقمار.

فإذا ذم الله الأحبار والرهبان لأكلهم أموال الناس بالباطل فذلك لأنهم لم يوفقوا للنظام الأتمّ نظام الجمال والكمال، بأن يكونوا للناس آباء لا أن يكونوا غافلين يجعلون الدين وسيلة للخبز والملبس، فعكسوا الآية وطمسوا الحقيقة، فرجعت محبتهم لأنفسهم لا للناس، وطاش سهمهم، فلم ينظروا إلى الشمس والقمر والكواكب إذ يفيض النور بلا أجر، ولا إلى الآباء والأمهات إذ يفيضون النعم وأنواع البر على الأبناء بلا أجر، هكذا الله يفيض الخير على الناس بلا أجر.

ضرب الله الأمثال للناس بالكواكب وبالآباء وبالأنبياء، فظل الناس تائهين غافلين حيارى سكارى في شهواتهم، وزهد الأحبار والرهبان في الجمال العام وعكفوا على الشهوات البهيمية، وتبعهم في ذلك بعض رجال الصوفية في الأمم الإسلامية، فلقد رأيتهم يجوبون بلادنا المصرية ويطوفون على القرى والكفور ويتظاهرون بالصلاح والتقوى، ويأخذون أموال الناس بالباطل، وما هم بعلماء ولا بوعّاظ، ولكن ساروا شوطاً وراء الدرهم والدينار، كما سار الذين من قبلهم من الأحبار والرهبان الذين أطلق الله أوروبا من قبضتهم بسبب اطلاع القوم على دين الإسلام كما قدمناه عن السيدة الأوروبية التي أسلمت، فهم أطلقوا من وثاق رجال الدين بسبب ديننا، والمسلمون في بلاد المغرب من طرابلس وتونس والجزائر ومراكش، وفي مصر والشام والعراق وبلاد الهند وجاوة قد وقعوا في شبكة هؤلاء الصيادين ممن اتسموا بسمات الصوفية ظاهراً وهم عنها غافلون.

لا! لا يا معشر المسلمين! كلا! كلا والله إنما رجال الدين هم الذين يسيرون على سنن أبي بكر وخلفائه من بعده، هم الذين يقتفون آثار الأنبياء، ويكون مقصدهم المثل الأعلى كما أوضحه أفلاطون في جمهوريته إذ نقل عن أستاذه سقراط أن الذين يقومون بحكم الجمهور يجب أن يكونوا أعلم الناس وأذكاهم واتقاهم وأزهدهم في حطام هذه الدنيا، وأقربهم من الله زلفى، وقال: إن علمهم هو الذي يجعلهم أعفاء عما في أيدي الناس، فهم وإن كان لهم السلطان على الناس؛ ممنوعون بورعهم وأدبهم عن مجاوزة الكفاف من المأكل واللباس، وهذه بعينها سيرة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

إن الناس بعد الموت تجتمع أرواح الأخيار منهم في عالم واحد، وارواح الأشرار في عالم آخر، وكما أن الشموس تزداد إشراقاً بازدياد حجمها؛ هكذا الأرواح الفاضلة تلتئم التئام ذرات الشمس وتتحد، وتزداد سعادة بازدياد الواصلين إليها من عالمنا، وهكذا يزداد المجرمون عذاباً بوصول الفجّار إليهم إذ يشعرون بآلام تزداد بازدياد من يصلون إليهم من الأشقياء، كما يزداد الفجار عذاباً في الدنيا بتكاثرهم وازدياد فتنتهم وشرورهم.

لا سعادة لهذا الإنسان ولا راحة إلا بالعطف العام، فلا مدينة براقية ما دام أهل الأرض لا يتحدون على منافعها العامة كما أوضحناه في كتاب «أين الإنسان»، ولا سعادة في الآخرة إلا لنفوس صار باطنها جمالاً وكمالاً وحباً للعلم وللإنسانية وخيرها. والله هو الولي الحميد.

فلما سمع ذلك صاحبي قال لي: يتبيّن من كل ما ذكرته هنا أن أهل كل دين في الأرض طغوا وبغوا، فهذه أمم النصرانية قد طغت في المال وقد قال لها المسيح ما نصّه: «لا تكنزوا لكم كنوزاً في الأرض» وذلك في إنجيل متّى ٦، ولما أرسل رسله أمرهم ألا يحملوا عصاً ولا حذاء، وألا يأخذوا مالاً لأنهم مجاناً أخذوا فليعطوا مجاناً، وهكذا جاء في القرآن: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[الفرقان: ٥٧] ومع ذلك نرى الأمم الإسلامية تسارع في خطاها إلى اقتفاء آثار المسيحيين، لا سيّما بعض الشيوخ من رجال الصوفية الذين أشبهوا القسيسين في أخذ أموال الناس بالباطل، فأجبته قائلاً: نعم لقد صدقت، إن أهل كل دين في الأرض طغوا وبغوا، وسأحدثك عن سبب ذلك.

اعلم أن كل دين في الأرض ينزل على أهله صافياً نقياً لا تشوبه شائبة، الله أكبر! الله أكبر! ظهر السر واستنارت السبل في هذا التفسير، وسيكون في الشرق رجال يمتازون بعقولهم وبحكمتهم وبتعاليمهم، انظر تجد أن كل دين ينزل إلى الأرض يضيء كما تضيء الشمس والكواكب، ويُحيي كما يُحيي الماء، انظر في دين الصينيين القدماء تجده في صدقه وحسنه وجماله وجلاله يشبه الإنجيل ويشبه القرآن في حسن جماله وصدقه.

لقد كان أقدم نبي من الصينيين يسمى «يو الكبير» ظهر قبل المسيح بألفي سنة، ثم جاء بعده بقرون الفيلسوف «ليو تسو» وهذا قبل الميلاد بمدة ٥٩٠ سنة، وهو القائل: «أسعف الناس في حاجاتهم، أنقذ من كان موجوداً في خطر». هذا الفيلسوف عدّوه إلهاً متجسداً كما اعتقد النصارى في المسيح. وكان «ليو تسو» معاصراً لـ «فيثاغورس»، وسنة ٥٥٠ قبل التاريخ المسيحي ظهر «كونفيسوس» وهو من أعظم فلاسفة الصين، وعاش ٧٣ سنة وتخلى عن الرذيلة وتحلى بالفضيلة مثل «بوذا» وكان يقول لتلاميذه: «إن المحبة النقية التي أوصيكم بها هي انعطاف ثابت في النفس، وميل يوافق عليه الصواب يجردنا من الأغراض الذاتية، ويضمنا إلى الناس بأسرهم، فنخالهم جسماً واحداً معنا، فنفرح لفرحهم ونحزن لحزنهم، ولا مانع يمنع من ملكته هذه المحبة أن يسعى في ترقيه الذاتي وطلب المعالي، إنما تكون غايته في ذلك بذل النصح والمساعدة لإنهاض من دارت عليه رحى الزمان وكان ضعفه وخموله حائلاً دون نهضته، وإن من اطلع على حقائق الأشياء لا يتحمل أن يبقى غيره متسكعين في ظلام الجهل والحيرة، منكسرين لمصاعب الحياة وهمومها، بل ينجدهم ويعضدهم ويمهد لهم سبيل الخروج من ظلمات الجهل ويدخلهم مقدس العلوم، ومتى ملكت هذه المحبة القلوب جميعاً يصبح العالم بأسره أسرة واحدة، والناس أجمعون كإنسان واحد، وبهذا الرابط العظيم السائد بين العظماء والضعفاء تصبح الإنسانية كلها جسماً واحداً». هذا هو كلام نبي الصينيين قبل المسيح وقبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك تجد الأمة الصينية لها جمعيات من كل طبقة، وبينهم جميعاً تلك الروابط التي أشار لها دينهم، فهذا القول وما يشابهه من الإنجيل والقرآن يدلنا أن الديانات تنزل من السماء متشابهة. ولكن هناك سراً مخبوءاً يراه الناس بعيونهم ولكنهم لا يفهمونه، ذلك السر هو السبب في طغيان النصارى وجهل المسلمين.

وبيانه: أن الله أنزل النور وأنزل الماء في الأرض قبل الأنبياء وقبل خلق الإنسان، فهذا النور يختلط بالنبات فيكون مساعداً للتفاح وللتمر وللعنب على حلاوتها، ويكون مساعداً للحنظل على

مرارته، ومساعداً للسنامكي على شفائه لبعض الأمراض، ومساعداً للمواد السامة النابتة في الأرض على حصد الأرواح. الضوء ينزل من السماء بهجةً وجمالاً، ولكن المخلوقات الأرضية حين تلتقطه وتشتمل عليه وتضمه لأنفسها تحوّله إلى طباعها وأحوالها، وهكذا الماء ينزل من السماء فماذا يكون؟ نراه يسلك ينابيع في الأرض فيكون على حسب الأصقاع التي يمر بها هناك، فيكون: ماءً كبريتياً، وماءً جيرياً، وماءً ملحياً، وهكذا من أنواع المياه التي لا تصلح للشرب، وإنما تصلح للأدوية ونحوها.

بناءً عليه نقول: إن الأمور اللطيفة إذا اجتمعت بالكثيفة حوّلت إلى طباعها. هكذا الديانات لما نزلت من السماء نزلت صافية، ولكن عقول أهل الأرض حولت تلك الديانات إلى طبائعها، وقلبتها إلى أهوائها، فهاك الديانة المسيحية التي أخصّ خواصها المحبة العامة؛ كيف صار رجال دينها؛ كما تقدم؛ هم أسرع الناس إلى قتل آلاف الآلاف لأيّ ذنب صغير أو كبير.

وهذا دين الإسلام؛ انظر كيف نبغ أوائل رجاله في الزهد والورع؛ كما قرأته هاهنا قريباً عن أبي بكر وعمر؛ ثم جاء بعد الصدر الأول قوم لا يريدون إلا الدرهم والدينار والفخر والرياسة وأخذ أموال الناس بالباطل.

اللهم إن أكثر أهل الأرض يتبعون أهواءهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[الأنعام: ١١٦].

اللهم إنك أنزلت آية الأحبار والرهبان وأكلهم أموال الناس بالباطل في سورة «التوبة» النازلة أيام ظهور الإسلام وغلبته وارتقائه؛ لتمهد السبيل للقائمين بالأمر ألا يجعلوا الرياسة سبيلاً للمال، بل يكونون للأمم آباء، ولكن أمم الإسلام المتأخرة نامت نوماً عميقاً.

اللهم إني ألفت هذا التفسير وإني آمل أن يكون سبباً في ظهور جيل جديد يصلح لتلقي تعاليم القرآن التي قام بها أقطاب الصدر الأول من الصحابة رضوان الله عليهم، ولا يكونون كرجال النصارى المذكورين في هذا المقام، وأن يقطعوا دابر الرجال الذين يأخذون المال من المسلمين مثل ما يأخذه رجال الدين المسيحي. وإني آمل أن يكون هذا التفسير ممهداً لمزرعة إسلامية صالحة لتعاليم هذا الدين. والله هو الولي الحميد. انتهى يوم الجمعة ضحى ٢٧ مايو سنة ١٩٢٧، وإلى هنا انتهى القسم الأول من سورة «التوبة».

القسم الثاني

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا ﴾ أي: إلى الحرب ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وجيعاً ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ خيراً منكم وأطوع ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ ولا يضر الله جلوسكم، ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ أي: إن لم تنصروا محمداً صلى الله عليه وسلم بالخروج معه إلى غزوة تبوك ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ كفار مكة ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ثقب عظيم يكون في الجبل، هذا الغار في جبل ثور؛ يقرب من مكة مسير ساعة؛ ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لِصَاحِبِهِ ﴾ أبي بكر ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ يا أبا بكر ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ معينا، ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ طمأنينته ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ هم الملائكة؛ صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه، وهكذا يوم بدر والأحزاب وحنين أيده بالملائكة ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: دعوتهم إلى الكفر ﴿ السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ ﴾ دعوته إلى الإسلام ﴿ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ يعز بنصره أهل كلمته ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يذل أهل الشرك بحكمته، ﴿ انفِرُوا ﴾ اخرجوا مع نبيكم إلى غزوة تبوك ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ركباناً ومشاة، صحاحاً ومراضاً، شباناً وشيوخاً لا سلاح معكم أو معكم سلاح، قلّت عيالكم أو معكم عيال، مهازيل وسماناً ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ معاً إن أمكن أو بأحدهما على مقتضى الإمكان ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ ﴾ الجهاد ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من تركه ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ كون ذلك خيراً فبادروا إليه. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من سورة التوبة.

القسم الثالث

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا

إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا
فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ
مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن
لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا
ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ
وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ
ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ
أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن
كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا
فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى
قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم
بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ
وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ
أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ
وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾
كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ
فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ
أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ
عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ
وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ
قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا
وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن
فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم
مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا
كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ
﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ
إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي
ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ
بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ
يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ
إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ
رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا
تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ
وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ
سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ
ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾
لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ
ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ
وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ
مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ

أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ
عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ
فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ
لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ
كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ
الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّابِقُونَ
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم
مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ
سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا
صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً
تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ
اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ
رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ
مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

نزل في المتخلفين عن غزوة تبوك: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ وهو ما عرض لك من منافع الدنيا، أي: لو كان ما دعوا إليه مغنماً ﴿قَرِيبًا﴾ سهل المأخذ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وسطاً مقارباً، والقاصد والقصد: المعتدل ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك في الخروج ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ المسافة الشاطة الشاقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وهذا من دلائل النبوة، لأنه أخبر بما سيكون بعد القفول، فقالوا كما أخبر، أي: سيحلف المتخلفون بالله عند رجوعك معتذرين يقولون: «لو استطعنا لخرجنا معكم» ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: حال كونهم مهلكين أنفسهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يقولون.

واعلم أن هؤلاء المتخلفين قد استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف، فعاتبه الله وقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الزلة فإن العفو من توابعها. يقول: عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك إلى تبوك، فهذا أحد الأمرين اللذين عوتب عليهما. والثاني أخذ الفدية من الأسارى وهو مجتهد في ذلك، وهذا العتاب لأنه ترك الأفضل والأنبياء يعاتبون على ترك الأفضل، ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا﴾ ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ وعدهم بجزيل الثواب، ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: المنافقين، وهم تسعة وثلاثون رجلاً، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ واضطربوا في عقيدتهم ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيّرون فالمتحير من شأنه أن يتردّد، والمستبصر ديدنه الثبات، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معك إلى غزوة تبوك ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أهبة؛ لأنهم كانوا أغنياء، ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ نهوضهم للخروج، فإذن هم ما خرجوا ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فكسّلهم وضعّف رغبتهم في الانبعاث، ويقال: ثبط: وقف عن الأمر بالتزهيد فيه، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أو قال الرسول صلى الله عليه وسلم غضباً عليهم، أي: تخلفوا ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ مع المتخلفين بغير عذر، ثم بيّن حكمة عدم خروجهم فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ إلا فساداً وشراً، أي: ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي: ولأسرعوا فيكم وساروا بينكم بإلقاء النميمة والأحاديث الكاذبة فيكم، ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يطلبون لكم ما تفتتنون به؛ كأن يقولوا للمؤمنين: لا طاقة لكم بعدوكم، وستهزمون منهم، وسيظهرون عليكم، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مطيعون لهم قابلون لكلامهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيد لهم وزجر، ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ تشتيت أمرك وتفريق أصحابك ﴿مِن قَبْلُ﴾ يوم أحد فإن ابن أُبيّ وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعد ما خرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرب من ثنية الوداع؛ انصرفوا يوم أحد، ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ودبروا لك المكايد والحيل، ودوّروا الآراء في إبطال أمرك ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ النصر والتأييد ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعلا دينه ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ على رغم منهم. وهذا القول تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين على تخلفهم، وبيان ما ثبطهم الله لأجله، وكره انبعاثهم له، ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ كالجدّ ابن قيس المنافق قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تجهز إلى غزوة تبوك: يا أبا وهب هل لك في جِلاد بني الأصفر يعني: الروم، تتخذ منهم سراري ووصفاء؟ فقال الجد: يا رسول الله لقد عرف قومي

أني رجل مغرم بحب النساء؛ وإني أخشى إن رأيت بنات الأصفر ألا أصبر عنهنّ، ائذن لي بالقعود ولا تفتني بهنّ وأعينك بمالي، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: قد أذنت لك، ﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ يعني: وقعوا في الفتنة العظيمة؛ وهي النفاق، ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم، ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ من نصر وغنيمة تحزن المنافقين ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ القتل والهزيمة مثل يوم أحد ﴿ يَقُولُوا ﴾ أي: المنافقون ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ تبجحوا بانصرافهم عنك واستحمدوا آراءهم في التخلف عنك، ﴿ وَيَتَوَلَّوا ﴾ عن مقام التحدث بذلك إلى أهلهم ﴿ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا ﴾ من خير أو شر ﴿ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ قضى الله لنا ﴿ هُوَ مَوْلَىٰنَا ﴾ الذي يتولانا ونتولاه ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وحقّ على المؤمنين ألا يتوكلوا على غير الله، ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ ﴾ تنتظرون ﴿ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ وهما: الفتح والغنيمة، أو: القتل والشهادة، ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ إحدى السوءين: إما ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ ﴾ لهلاككم ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ بسيوفنا لقتلكم ﴿ فَتَرَبَّصُوٓا ﴾ بنا ما ذكرنا ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ ما هو عاقبتكم، ﴿ قُلْ أَنفِقُوا ﴾ في وجوه البر ﴿ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ طائعين أو مكرهين؛ أي: غير ملزمين وملزمين ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ما أنفقتم طوعاً أو كرهاً، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾، وقول الشاعر:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقلوّة إن تقلت

ثم علله فقال: ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ متمردين عاقين ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا ﴾ «أنهم» فاعل «منع»، و«هم» و«أن» تقبل مفعولاه، أي: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم ﴿ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ جمع كسلان، ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ لأنهم اعتقدوا أن الإنفاق في سبيل الله مغرم، ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الإعجاب بالشيء: أن تسر به سرور راض به متعجب من حسنه، أي: لا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا، فإنما أعطاهم ذلك ليعذبهم بالمصائب فيها ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ والزهوق: الخروج بصعوبة، أي: وتخرج أرواحهم ﴿ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ لمن جملة المسلمين ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشركين، فيتظاهرون بالإسلام تقية، ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ مكاناً يلجؤون إليه متحصنين من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة ﴿ أَوْ مَغَٰرَٰتٍ ﴾ أي: غيراناً في الجبال؛ جمع مغارة: وهو الموضع الذي يغور فيه الإنسان، أي: يستتر، ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ أو نفقاً يندسون فيه، وهو: مفتعل من «الدخول»، ﴿ لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ ﴾ لأقبلوا نحوه ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي: يسرعون إلى ذلك المكان.

يقول إن المنافقين لشدة بغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لو قدروا أن يهربوا منكم إلى أحد هذه الأمكنة لصاروا إليه لشدة بغضهم إياكم ﴿ وَمِنْهُم ﴾ ومن المنافقين ﴿ مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ يعيبك في قسمها ويطعن عليك ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ «إذا» للمفاجأة أي: وإن لم يعطوا منها فاجؤوا السخط؛ مثل ذي الخويصرة التميمي المسمى: حرقوص ابن زهير أصل الخوارج؛ إذ قال: يا رسول الله اعدل! فقال صلى الله عليه وسلم: ويلك من يعدل إذا

لم أعدل . فقال عمر : ائذن لي فأضرب عنقه . فقال صلى الله عليه وسلم : دعه . الحديث في البخاري .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ ما أعطاهم من الغنيمة ، وذكر للدلالة على أن فعل النبي صلى الله عليه وسلم كان بأمره ، ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ كافينا الله ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ صدقة أو غنيمة أخرى فننال أكثر ما نلنا ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ أن يغنينا من فضله ، وهذه الآية كلها شرط « لو » والجواب محذوف ، أي : لكان خيراً لهم .

ثم أخذ سبحانه يبيّن مصارف الصدقات فقال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الفقير : هو من لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته ، من الفقار ؛ كأنه أصيب فقاره ؛ والمسكين : من له مال أو كسب لا يكفيه ، من السكون ؛ كأن العجز أسكنه ، وكان صلى الله عليه وسلم يسأل المسكنة ويتعوذ من الفقر . والسفينة كانت لمساكين . ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ هم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها في جهتها ، فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم ، ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه ؛ فتستألف قلوبهم ، وأشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم وأشراف يستألفون على أن يسلموا كعيينة بن حصن وعدي بن حاتم وصفوان بن أمية ، فالأول لتقوية إيمانه ، والثاني نيته قوية في الإسلام ولكن يرجى أن يرغب في الإسلام نظراؤه ، والثالث كان يميل للإسلام فأعطي ليسلم ، وهناك قسم رابع وهو أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم من الكفار لا يبلغهم جيش الإسلام لبعدهم فيعطون من سهم المؤلفة قلوبهم ، أي : يعطى المسلمون ذلك إذا ضعفت نيتهم في القتال أو ضعفت حالهم ، ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ المكاتبين ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ الذين ركبهم الدين ؛ بأن استدانوا لأنفسهم في غير معصية ولا إسراف ، وليس لهم وفاء ، أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة : لغازٍ في سبيل الله ، أو لغارم » الخ ، وذكر من هؤلاء الخمسة العامل عليها ، ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على المتطوعة ، أو ابتياع الكراع والسلاح وبناء القناطر والمصانع ، وجميع وجوه البر كعمارة المساجد ؛ ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ يعني : المسافر من بلد إلى بلد ، و« السبيل » الطريق ، سمي المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق ، ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ فرض ، أي : قسمة من الله لهؤلاء ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بالمصلحة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما حكم لهؤلاء .

ولما فرغ من الكلام على من يلمزون في الصدقات شرع يتكلم على فريق آخر من المنافقين فقال : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ يسمع كل ما يقال ويصدقه ، جعل « هو » نفس الأذن ، كما يقال للجاسوس : هو عين . روي أنهم كانوا يقولون محمد أذن سامعة ؛ نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول ؛ ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ لأنه يسمع الخير ويقبله ، وفسر ذلك فقال : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ يصدق به لما قام عنده من الأدلة ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويصدقهم لما علم من خلوصهم ، ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ أي : وهو رحمة لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره ، فإذن ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم ؛ بل رفقاً بكم وترحماً عليكم ، ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بإيذائه .

وجاء رهط من المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك بعد أن رجع النبي صلى الله عليه وسلم يعتذرون إلى المؤمنين ويحلفون ، فنزل : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾

أي: الله وكذلك رسوله، وذلك بالتوبة والإخلاص ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كان هؤلاء المنافقين مصدقين بوعد الله ووعيده في الآخرة ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾ أي: أن الأمر والشأن ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يجاوز الحد بالخلاف، وهي مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق ﴿فَـ﴾ حق ﴿أَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الهلاك الدائم، ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، ولقد سميت السورة: الفاضحة، والمبعثرة.

يقول ابن عباس: أنزل الله ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم، ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضاً، لأن أولادهم كانوا مؤمنين، ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ أمر تهديد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ مظهر ما كنتم تحذرون إظهاره من نفاقكم، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم وفي استهزائهم بالإسلام وأهله، حتى قال بعضهم: وددت أني قدمت فجلدت مائة وأنه لا ينزل فينا شيء يفضحنا.

ثم إنه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها؛ هيهات هيهات؛ فأطلع الله نبيه على ذلك فقال: احبسوا عليّ الركب، فأتاهم فقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: يا نبي الله والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك؛ ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر، فنزل ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ لم يعبأ باعتذارهم لكذبهم، واعتبروا أنهم معترفون بالاستهزاء، فوبخوا؛ بسبب أنهم أخطؤوا مواضع الاستهزاء، ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾ أي: لا تشتغلوا باعتذاراتكم، وكيف تنفعكم بعد أن افتضح سرّكم ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم كفركم باستهزائكم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان، ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ جهين بن حمير لأنه لم يستهزئ معهم؛ ولكن ضحك معهم، أو كل من يتوب ويخلص الإيمان بعد النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ وديعة بن جذام وجد بن قيس أو كل من يصرون على النفاق غير تائبين منه ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق، أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء. الرجال ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَ﴾ النساء ﴿ٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: كأنهم نفس واحدة، فهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان، وكان عدد الرجال منهم ثلاثمائة والنساء مائة وسبعين، ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ بالكفر والعصيان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ عن الطاعة والإيمان ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ شحاً بالمال أن ينفق في البر وأنواع الخير ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ تركوا أمره أو أغفلوا ذكره ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من رحمته وفضله، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ هم الكاملون في الفسق، وهو هنا التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿هِىَ﴾ أي: النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ كافيتهم في التعذيب، فلا حاجة لغيرها في تعذيبهم، ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين يلعنون كما تلعن الشياطين، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم؛ بخوف الفضيحة بكشف سرهم إذا نزل الوحي به، وما يقاسونه من تعب النفاق.

ثم خاطبهم الله بعد الغيبة فقال: فعلتم ﴿ كَ ﴾ أفعال ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من الكفار في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف الخ، ثم وصف هؤلاء الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر مالاً وولداً فقال تعالى: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ بطشاً ومنعة ﴿ وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ أي: تمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضاً عن الآخرة، فالخلاق: النصيب، وهو ما خلقه الله للإنسان وقدّر له من خير، ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ ﴾ أيها المنافقون ﴿ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ ﴾ وهذا كما تقول: أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم، فأنت تفعل مثل ما كان يفعل، فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ أي: وخضتم خوضاً كالخوض الذي خاضوا، والخوض: الدخول في الباطل واللهو، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي: بطلت في الدارين ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي: كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون.

ثم رجع إلى الغيبة بعد الخطاب لينشط السامع وليتنوع الأسلوب فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ أي: ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار؛ وهو استفهام بمعنى التقرير، أي: قد أتاهم ﴿ نَبَأُ ﴾ خبر ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ بدل من الذين قد أهلكناهم بالطوفان، ﴿ وَعَادٍ ﴾ أهلكوا بالريح العقيم، ﴿ وَثَمُودَ ﴾ أهلكوا بالرجفة، ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ أهلكوا بالدم، وكان هلاك نمرود ببعوضة، ﴿ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ ﴾ أي: وأهل مدين وهم قوم شعيب هلكوا بعذاب يوم الظلة، أي: بنار كانت فيها، ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾ مدائن قوم لوط ائتفكت بهم، أي: انقلبت فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل، أو: قريات المكذبين، وائتفاكهن: انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر، وإنما ذكر الله هذه الأمم لأن آثارهم ظاهرة بالشام والعراق واليمن، وكل ذلك قريب من أرض العرب، ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالأمر والنهي والعلامات؛ فلم يؤمنوا؛ فأهلكهم الله ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر وتكذيب الأنبياء، وذلك لاستعدادهم النفسي الذي سبق به القضاء، على مقتضى الفطر، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ المصدقون من الرجال ﴿ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ ﴾ المصدقات من النساء ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ على دين بعض في السر والعلانية، يوالي بعضهم بعضاً في الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ بالإيمان بالله ورسوله، واتباع أمره واجتناب نهيه ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ يعني: عن الشرك والمعاصي، والمنكر: كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع، وهذا في مقابلة وصف المنافقين ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ المفروضة ويتمون أركانها وحدودها وخشوعها ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الواجبة عليهم، وهو في مقابلة: «ويقبضون أيديهم» ﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ في السر والعلانية ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ لا محالة؛ لأن «السين» مؤكدة للوقوع ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على كل شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ واضع كلاً في موضعه، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً ﴾ يطيب فيها العيش. وعن الحسن رحمه الله: هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد ﴿ فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ أي: في بساتين خلد وإقامة، يقال: عدن بالمكان: أقام به، ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: وشيء من رضوان الله ﴿ أَكْبَرُ ﴾ من ذلك كله، لأن الجنة وهي

النعيم المقيم تصغر في جانب خالقها كما يصغر قصر الملك وهداياه وتحفه في جانب تقريبه لزائره وإقباله عليه وتلطفه معه وإكرامه له، وهذا أمر يعرفه العقلاء في الدنيا مع المخلوق فكيف ذلك مع الخالق، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الرضوان ﴿ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وحده دون ما عداه، ولذلك جاء في آية أخرى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾[البينة:٨] وفي آية أخرى أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[الفجر:٢٧-٣٠]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ ﴾ بالسيف ﴿ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ باللسان ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ في الجهادين جميعاً ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يُجاهد بالحجة وتُستعمل معه الغلظة ما أمكن، ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ جهنم، ولقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين، فيسمع من معه، منهم الجلاس بن سويد، فقال الجلاس: والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا فنحن شر من الحمير، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس: أجل والله إن محمداً صادق، وأنت شر من الحمير، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف بالله ما قال، فرفع عامر يده وقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب، فنزل: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ وهي: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير، فقال الجلاس: يا رسول الله والله لقد قلته، وصدق عامر، فتاب الجلاس وحسنت توبته، ﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإيمان ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ وذلك أن الجلاس همّ بقتل الذي سمع مقالته خشية أن يفشيها عليه، ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ ﴾ وما أنكروا وما عابوا ﴿ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وذلك أنهم كانوا حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنائم، فأثروا بالغنائم، وقتل للجلاس مولى، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى، ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ ﴾ عن النفاق ﴿ يَكُ ﴾ التوب ﴿ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ بالقتل والنار ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ينجيهم من العذاب، وقد تقدم أن الجلاس تاب، ﴿ وَمِنْهُم ﴾ أي: ومن المنافقين ﴿ مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾ حلف بالله كثعلبة بن حاطب ابن أبي بلتعة ﴿ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا ﴾ أي: أعطانا ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ المال الذي له بالشام ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ في سبيل الله ولنؤدّينّ منه حق الله ولنصلنّ به الرحم ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ بإخراج الصدقة، ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ أعطاهم الله المال ونالوا مناهم ﴿ بَخِلُواْ بِهِۦ ﴾ منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ عن طاعة الله ﴿ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ مصرون على الإعراض ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم لأنه كان سبباً فيه ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ أي: الله سبحانه وتعالى، وهو يوم القيامة ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ أي: بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من الصدقة والإنفاق في سبيله، وبسبب كذبهم في قولهم: ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: «أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب

وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر». ولا جرم أن هذه الخصال ما عمّت في أمة إلا حلّ بها البوار وأصبح رجالها غير مصدقين، فلا تكون لهم شركات ولا تجارات رابحة ولا مودّة صادقة وهذا هو الخراب العاجل للأمم، فأين الدين إذن؟فليجتهد المسلم ألا يخلف الوعد وألا يكذب وألا يفجر في خصامه وألا يخلف العهد. ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ ﴾ أي: المنافقون ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾ أي: ما أسرّوه من النفاق بالعزم على إخلاف ما وعدوه ﴿ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ فلا يخفى عليه شيء، ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ محله النصب أو الرفع، ﴿ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ يعيبون المطوعين المتبرعين ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ متعلق بـ «يلمزون».

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حثّ على الصدقة فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال: كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمسكت أربعة لعيالي، فقال عليه الصلاة والسلام: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت». فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً. وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق. وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر فقال: بتّ ليلتي أجرّ بالجرير «الحبل» على صاعين فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع. فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، وأما صاع أبي عقيل فالله غني عنه، فنزلت: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ إلا طاقتهم على الضم، وهو على الفتح مصدر جهد في الأمر: بالغ فيه، ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ فيهزؤون ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ جازاهم على سخريتهم، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[البقرة: ١٥]، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم.

روي أن عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول وكان من المخلصين، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل صلى الله عليه وسلم، فنزل قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم: لأزيدن على السبعين، فنزل: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[المنافقون: ٦] فكأنه صلى الله عليه وسلم فهم أولاً أن المراد بالسبعين العدد المخصوص، فجاء البيان أن المراد التكثير، والعرب تستعمل السبعة والسبعين والسبعمائة في التكثير، ذلك لأن السبعة فيها ثلاثة أوتار وثلاثة أشفاع، ومعلوم أن الواحد ليس من العدد لأنه أصله، فالسبعة أول الكثرة من الشفع والوتر، والسبعون أبلغ من السبعة، فقد ضربت في العشرة، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ المتمردين في كفرهم، كعبد الله المذكور، لأنه يخفي الكفر ويظهر الإيمان. وبهذا تبيّن أنه ممن لا يرجى إيمانهم، والاستغفار إنَّما يكون لمن يرجى إيمانهم، فهو كالتنبيه على عذر النبي صلى الله عليه وسلم في الاستغفار والممنوع الاستغفار بعد العلم أنهم مطبوعون على الضلالة كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]. ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ المنافقون الذين استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم فأذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك كما تقدم في آيات كثيرة ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فلم يفعلوا ما فعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ أي: قال بعضهم لبعض ذلك ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ فكيف اختاروها بإيثار الكسل

والترف والتنعم ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من النفاق، وهذه كناية عن السرور والغم، ويراد بالقلة: العدم ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنْهُمْ ﴾ أي: ردك الله إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين، يعني منافقيهم ﴿ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ خبر، معناه النهي ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾ فصار إسقاطهم من ديوان الغزاة عقوبة لهم ﴿ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ أي: المتخلفين الذين لا يليقون للحرب كالنساء والصبيان ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنْهُم ﴾ أي: من المنافقين صلاة الجنازة ﴿ مَّاتَ ﴾ صفة لـ «أحد» ﴿ أَبَدًا ﴾ ظرف ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ تعليل للنهي، أي: إنهم ليسوا بأهل للصلاة عليهم، وسببها أن عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ المتقدم ذكره طلب أن يكفن النبي صلى الله عليه وسلم أباه في قميصه ويصلي عليه، فقبل واعترض عمر رضي الله عنه في ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: ذلك لا ينفعه وكنت أرجو أن يؤمن به ألف من قومه. وروي أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ أي: ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ هذه الآية كررت للمبالغة ولتذكير الناس بأن ما على الأرض زينة الدنيا لا غير وبه العذاب فيها، وأيضاً الآيتان نزلتا في فرقتين ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ بتمامها أو بعضها ﴿ أَنْ ءَامِنُواْ ﴾ أي: بأن آمنوا، ويصح أن تكون «أن» مفسرة ﴿ بِٱللَّهِ ﴾ متعلق بـ «آمنوا» ﴿ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ ذوو الفضل والسعة ﴿ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ الذين قعدوا لعذر ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ مع النساء؛ جمع خالفة، والخالفة أيضاً الذي لا خير فيه ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ما في الجهاد وامتثال أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من السعادة ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ ﴾ كأنه يقول: إن تخلف هؤلاء فقد جاهد من هو خير منهم ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالمطالب ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وهذا بيان لما لهم من الخيرات في الآخرة، واستأذن رهط عامر بن الطفيل وأسد وغطفان في التخلف عن الجهاد بغزوة تبوك التي نحن بصدد الكلام عليها، وقالوا: إن لنا عيالاً، وإن بنا جهداً، فأذن لنا في التخلف، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: «قد نبأنا الله من أخباركم وسيغني الله عنكم». وهناك قوم آخرون قعدوا ولم يستأذنوا، فهذا قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ ﴾ من: عذر في الأمر: إذا قصر فيه وتوانى، فهو يوهم أن له عذراً ولا عذر له ﴿ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ ﴾ وهم منافقو الأعراب الذين لم يجيؤوا ولم يعتذروا، فهم بذلك كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان ﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وإنّما لم يقل سيصيبهم، لأن منهم من سيخلص في إيمانه في علم الله، وهؤلاء جميعاً لا يقبل اعتذراهم.

ثم أخذ يبيّن الذين أعذارهم صادقة، فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ أي: الأصحاء في أبدانهم العاجزين عن الغزو، مثل الشيوخ والصبيان والنساء ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ ويدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة، وبالجملة: كل من كان موصوفاً بمرض يمنع من الجهاد ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

﴿مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إثم وضيق في التخلف، فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر، لأن العاجزين عن نفقة الغزو معذورون كفقراء من مزينة وجهينة وبني عذرة ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بأن آمنوا في السر والعلن وأطاعوا، ولم يفشوا الأراجيف، ولم يثيروا الفتن، وقاموا بمصالح المجاهدين في غيبتهم لأهلهم في بيوتهم ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ المعذورين الناصحين القائمين بشؤون المجاهدين في بيوتهم ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ لا جناح عليهم ولا طريق لعتابهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يغفر لهم تخلفهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ﴾ يعني ولا حرج ولا إثم في التخلف عنك على الذين ﴿إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ لتعطيهم الحمولة ليبلغوا إلى غزو العدو، وهم سبعة نفر من بني عمرو بن عوف ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أضمرت «قد» قبله، أي: قد قلت، أي: إذا ما أتوك حال كونك قائلاً: «لا أجد ما أحملكم عليه» ﴿تَوَلَّوا﴾ وهذا جواب الشرط ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ تسيل، كقولك: تفيض دمعاً، وهو أبلغ من: يفيض دمعها، فالعين هنا جعلت كأنها كلها دمع فائض ﴿حَزَنًا﴾ مفعول لأجله ﴿أَلَّا يَجِدُوا﴾ أي: بأن لا يجدوا ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ في الجهاد ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ الحرج والإثم ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في التخلف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾. ثم استأنف لبيان حالهم فقال: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي: بالانتظام في جملة الخوالف، وذلك إشارة للدعة والترف والتنعم ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أمر الله ولا يصدقون ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ يقيمون لأنفسهم عذراً باطلاً ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذه الغزوة ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ بالباطل ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم، وهو علة للنهي عن الاعتذار ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ علة لانتفاء تصديقهم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ ما غاب عن العباد ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما علمه العباد ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وتقولون من الخير.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ وهم أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم، كانت منازلهم حول المدينة، أي: ومن هؤلاء الأعراب ﴿مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ وهم جماعة من الأوس والخزرج عطف على خبر المبتدأ الذي هو ﴿مِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ والمبتدأ ﴿مُنَافِقُونَ﴾، وقوله: ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ تمهروا فيه، فيه تقديم وتأخير، وتقديره: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ فإنهم بالغوا في النفاق بحيث إنك لا تعلمهم ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ يعني لكن نحن نعلمهم إذ لا تخفى علينا خافية ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة في الدنيا بأن يعذبوا بأموالهم وأولادهم وتحيط بهم المصائب، ويخرج لبعضهم مرض الدبيلة، وهي جروح نارية تظهر في أكتافهم حتى تخرج من صدورهم بأن يغاظوا بدخولهم الإسلام كرهاً للغلبة والقوة، وبأن يهانوا بالفضيحة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيباً في يوم جمعة فقال: اخرج يا فلان اخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج من المسجد أناساً وفضحهم، فهذا هو العذاب الأول، وهذه الفضيحة لهم بعد أن أعلمه الله بهم وسماهم له. وأما العذاب الثاني فهو عذاب القبر. وأما الثالث فهو عذاب النار، وهو قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وَ﴿ءَاخَرُونَ﴾ قوم سوى المذكورين ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ لم يعتذروا من تخلفهم بالأعذار الكاذبة كغيرهم، وكانوا عشرة، فسبعة أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين فرآهم موثقين، فسأل

عنهم فقيل له : إنهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله هو الذي يحلهم ، فقال : وأنا أقسم ألا أحلهم حتى أومر فيهم ، فنزلت ، فأطلقهم ، فسألوه صلى الله عليه وسلم أن يتصدّق بأموالهم فيطهرهم ، فقال : ما أمرت ، فنزل «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ» الخ . ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو إظهار الندم ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو التخلف وموافقة أهل النفاق ، و«الواو» بمعنى «الباء» ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول المفسرون : «عسى» من الله : واجب ، ويتوب عليهم : أي يقبل توبتهم ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي : يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه ، وقوله : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى المعاصي كالتخلف المتقدم ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ وتنمي حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ باعترافهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بندامتهم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي : المتوب عليهم وغيرهم ليتمكن في قلوب الأولين قبول توبتهم وليحرص الآخرون عليها ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا صحت ، والقبول هنا مضمن معنى التجاوز ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يقبلها قبول من يثيب عليها ويخلف بدلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كثير قبول التوبة والتفضل عليهم ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ ما شئتم ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإنه لا يخفى عليه خيراً كان أو شراً ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم يطلعهم الله على أعمالكم إما بالوحي في زمن النبوة كما رأيتم ، وإما بإلهام الناس ما خفي في نفوسكم كما قيل : «ألسنة الخلق أقلام الحق» ، ثم قال : ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ أي : فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني في الدنيا .

واعلم أن المتخلفين في هذه الآيات على ثلاثة أقسام :

أولهم : المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق .

وثانيهم : التائبون المسارعون إلى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم ، وهم : أبو لبابة بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة وديعة بن حزام وغيرهم ، وهم مختلفون في عددهم من ٣ إلى ٧ إلى ٨ إلى ١٠ ، ولا يهم معرفة ذلك .

والقسم الثالث : موقوفون ومؤخرون إلى أن يحكم الله فيهم وهم المراد بقوله : ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ أي : موقوفون ، وقرئ «مُرْجَئُونَ» أي : مؤخرون من أرجائه ، وهما لغتان ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ في شأنهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا على النفاق ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم ، وإما للشك وهو راجع إلى العباد ، وهؤلاء ثلاثة : كعب بن مالك وهلال ابن أمية ومرارة بن الربيع ، وقصتهم ستأتي في قوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾[التوبة : ١١٨] ، فهؤلاء تخلفوا عن غزوة تبوك الخ ما سيأتي .

وروي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم ، فأتاهم فصلى فيه ، فحدّثهم إخوانهم بنو غنم بن عوف ، وقالوا : نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله يصلي فيه ، ويصلي فيه أبو عامر الراهب الذي ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال أبو عامر : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم : جئت بالحنيفية دين إبراهيم . فقال أبو عامر : فأنا عليها . فكذبه النبي صلى الله عليه وسلم

وبعد جدال قال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً، فقال صلى الله عليه وسلم: آمين. وسمي أبو عامر الفاسق، فقال أبو عامر الفاسق: لا أجد قوماً يقاتلونك إلاّ فقاتلتك معهم، فلم يزل كذلك حتى كان يوم حنين، فلما انهزمت هوازن فرّ هو إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجداً، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَ ﴾ فيمن وصفنا ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ مضارّة للمؤمنين ﴿ وَكُفْرًا ﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: الذين كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم ﴿ وَإِرْصَادًا ﴾ ترقباً ﴿ لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ وهو أبو عامر الفاسق، وقد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو بالبركة، فقال: إني على جناح سفر، وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله صلينا فيه فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد، فنزلت عليه، فقال لوحشي قاتل حمزة ومعن بن عدي وغيرهما: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه، فانطلقوا ففعلوا وأمروا أن يتخذوا مكانه كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة، ومات أبو عامر بالشام غريباً وحيداً، وقوله: «من قبل» أي: من قبل بناء هذا المسجد. ألا ترى أنه آلى على نفسه أن يحارب النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يوم هوازن ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ ﴾ يعني الذين بنوا المسجد ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ ﴾ يعني: ما أردنا ببنائه ﴿ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: إلاّ الفعلة الحسنى وهي الرفق بالمسلمين الخ ما تقدم ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ يعني في قولهم. ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ أي: لا تصلّ فيه أبداً ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ وهو مسجد قباء وقد أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء من يوم الاثنين إلى يوم الخميس، وخرج يوم الجمعة، أو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ مصلياً ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ من المعاصي والكفر والنفاق وإضرار المسلمين والتفريق بينهم، ومن الحدث والخبث والنجاسة والطهارة الباطنة، وما يتقدمها من الظاهرة هي التي تقرب العبد من الله وتحببه في الناس، ولا يقترب العبد من الله إلاّ بصفاء الباطن، وكلما صفا قرب وبقدر القرب يكون حب الله ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ ﴾ بنيان دينه ﴿ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ ﴾ على قاعدة محكمة هي التقوى من الله ﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ أي: أم من أسسه على قاعدة ضعيفة وهو الباطل والتفرق الذي يشبه «شفا جرف هار» أي: حرف مكان أكل الماء ما تحته فهو إلى السقوط أقرب؛ فالشفا: الحرف والشفير، وقوله: «هار» من هار يهور: إذا تداعى بعضه في إثر بعض كما يهور الرمل ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فطاح به الباطل في نار جهنم ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: لا يزال هدم بنيانهم الذي بنوا حرارة وغيظاً في قلوبهم، والحرارة والغيظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم يورثهم ريبة في قلوبهم، وهذه الريبة باقية في قلوبهم ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: تجعل قلوبهم قطعاً وتفرّق أجزاؤها إما بالسيف وإما بالموت، أي: فهي باقية إلى أن يموتوا ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما حكم به عليهم. انتهى التفسير اللفظي. وفي هذا المقام لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾[الآية: ٣٩].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾[الآية: ٤٠].

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾[الآية: ٤١].

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ﴾[الآية: ٥٥].

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾[الآية: ٦٠].

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[الآية: ٦٥].

اللطيفة السابعة: في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[الآية: ٧٠].

اللطيفة الثامنة: في قوله تعالى: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[الآية: ٧٢].

اللطيفة التاسعة: في قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾[الآية: ٧٤].

اللطيفة العاشرة: في قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾[الآية: ٨١].

اللطيفة الحادية عشر: في قوله تعالى: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[الآية: ٨٧].

اللطيفة الثانية عشر: في قوله تعالى: ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الآية: ٩٣].

اللطيفة الثالثة عشر: في قوله تعالى: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [الآية: ١٠١].

اللطيفة الرابعة عشر: في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾[الآية: ٧٥].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾

حكم الله في هذه الآية على الأمم الإسلامية أن تصبح في عداد الأموات إذا هي نامت وادعة ساكنة ولم تسع سعي الأحياء، وأن تكون في خبر كان، وأن يستبدل بها أمماً أخرى تحلّ في أماكنها، تهديد شديد ووعيد عظيم أنزله الله بمن يتركون الجهاد في خفض من العيش ودعة.

ولقد أطال في ذلك أرسطاطاليس فيما كتبه إلى إسكندر يحذره من ترك الممالك الفارسية وادعة، وعلل ذلك بزوال الدولة وحلول الأزمة، وأن الناس يتحملون النقم والشدائد ولا يصبرون على النعم والدعة، فإن الناس أيام الحروب يكون عندهم من النشاط والحركة وظهور الغرائز والقوى الكامنة ما يحرمون منه أيام سلمهم وفي وقت أمنهم ودعتهم، وضرب الأمثال على ذلك بأمم خلت ودول مضت وأنهم بدعتهم وسكونهم وخفض عيشهم ذهبت ريحهم.

ولقد تبين ذلك في كل الأمم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، هكذا هنا يقول الله: «إن تتولوا يستبدل قوماً غيركم» لأن الوجود في ارتقاء وتنازع، وكل أمة أحاطت بها السآمة، وحلت بها صفات الأمن والدعة والكسل والبطر، سلمت القياد لغيرها، ممن هم أقدر على الحياة، وأصبر على الجهاد، وأولى بالقياد، ووكلوا إليهم أمرهم، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والعالم في صعود، فمن وقف أو رجع القهقرى حلّ محله من هو أحقّ منه بالحياة، ذلك هو النظام المستقيم والصراط السويّ، كما غلبت أمة الترك والفرس الأمم العربية في القرون الأولى من الإسلام، ثم غلب التتر عليهم أجمعين، ثم جاء الفرنجة فحلوا في ساحة الإسلام.

ثم جاء دور الأمم الشرقية وهاهي ذه تريد أن تلعب دورها وتأخذ من الحياة حظها ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[يس: ٣٨] . وهذه هي الرحمة الإلهية والنعمة الربانية أن يكون العالم في ارتقاء وأن يولي زمانه الأكفاء ، وأن يغلب بخيلهم ورجلهم الأشداء ، ليقوموا بأمر ربهم ويحفظوا نظام ملكهم ، فليس لله في الأرض من ولد ولا والد ولا صاحبة ولا صاحب ، وإنّما هو عدل في أحكامه لا يبالي بأهل دين أو لغة أو جنس ، بل حكمه قاهر على الجميع ، خنس اليهود فأجلاهم ، وكسلت طوائف من المسلمين فأصماهم ، وخنعت أمم ضالة غيرهما فأرداهم ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[يس: ٣٨] . وهذه هي الرحمة في الوجود ، يميت من لا نفع له في حياته ، ويحيي من يسعى في الوجود لدرس آياته ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[يوسف: ٦] .

اللطيفة الثانية : في قوله تعالى :
﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ الآيات

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمسلمين يوماً لما اشتد بهم الكرب من ظلم المشركين بمكة : «إني رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين ـ وهما الحرتان ـ فهاجر من هاجر إلى المدينة ورجع من كان بالحبشة إلى أرض المدينة» ، ولقد حبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر أربعة أشهر ، ثم جاء الأمر بالهجرة فأخبر أبا بكر ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى الراحلتين بالثمن ، وقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين ، ثم توجه صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه إلى جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال ، وكان يأتيهما بخبر القوم عبد الله بن أبي بكر ، واستأجر رجلاً من بني الديل هادياً خرّيتاً ، والخرّيت : الماهر بالهداية ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال ، وروي أن المشركين طلعوا فوق الغار ، فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله ، وقيل : لما دخل الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت نسجت عليه ، ثم إن الدليل الديلي عاد إليهما بعد ثلاث ليال فارتحلا ومعهما عامر بن فهيرة والدليل المذكور فأخذ بهم طريق الساحل ، ثم إن سراقة بن مالك بن جعشم طمع فيما أعلنه كفار مكة من الجعل العظيم لمن قتل النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وهو ديتهما ، فتبعهما يركض فرسه حتى سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم غير ملتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ، فساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغتا الركبتين ، وارتفع من ذلك الأثر دخان ساطع في السماء ، فنادى الأمان ، وأخبرهما بما يريد قومهما من قتلهما وعرض الزاد والمتاع عليهما فلم يقبلا ، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب له كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتبه في رقعة ، وكان أهل المدينة ينتظرونه حتى نزل يوم الاثنين من شهر ربيع الأول في بني عمرو بن عوف ، وبقي عندهم بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه ، ثم ركب راحلته حتى بركت عند مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل ، ثم ابتاع المكان من صاحبيه الغلامين وبناه مسجداً . اهـ .

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾

قد تقدم معنى الخفاف والثقال وملخص المعاني والتعميم، فعلى هذا يجب الجهاد على كل امرئ، وهذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ الآيات كما سيأتي، وبقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾. ومن العلماء من حمل الآية على أن الأمر للندب.

وروي أن أبا أيوب الأنصاري لم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون مع أنه شهد بدراً، فقيل له في ذلك، فقال: يقول الله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ولا أجدني خفيفاً أو ثقيلاً. وكذلك سعيد ابن المسيب ذهبت إحدى عينيه ولم يترك الجهاد، وقال: إن لم يمكني الحرب كثرت السواد. وقال صفوان بن عمرو: كنت والياً على حمص فلقيت شيخاً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو، فقلت: يا عم، أنت معذور عند الله. فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ألا إنه من يحبه يبتليه. هذا ملخص ما يقوله العلماء.

واعلم أن التحقيق في هذا المقام أن الأمم كلها يجب عليها العمل العام، فأصحاب القوة للدفاع، وأصحاب الصناعات لإحضار العدّة، وكل امرئ في الآية مكلف بعمل، لأنه لا دفاع بلا رجال أقوياء، ولا دفاع للأقوياء بلا سلاح، ولا وقوف لهم في وجه العدو إلاّ بالغذاء واللباس والطرق المنتظمة، ولا طرق ولا غذاء ولا لباس إلاّ بأعمال هامة، ومدارس منظمة، وحكومة قادرة، وأمة مستيقظة، وإدارة تامة.

وهذا ملخص دين الإسلام إذ يقول علماؤنا: إن الصناعات كلها فرض كفاية. فنقول الآن: أيها المسلمون، أين الكفاية ولا كفاية لديكم ولا صناعة ولا علم ولا حكمة؟ فالجهاد واجب على الأمة كلها، وعلى قادة الأمة أن يجعلوا كل امرئ فيما استعد له من عمل نافع، لا فرق بين كنس الشوارع وتنظيف المساكن وتسميد الأرض، وبين صنع المدافع والطيارات والكهرباء وما أشبه ذلك. كل هذا واجب على الأمة كلها، يجب أن تكون عاملة، فإن لم يفعلوا ذلك أثموا أجمعين وعذبوا في الدارين وذاقوا العذاب الهون. اهـ.

اللطيفة الرابعة: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾

اعلم أن هذه الآية ذكرت في هذه السورة مرتين، فيقول هنا: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾[الآية: ٥٥]، ويقول بعد آيات: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ﴾[الآية: ٨٥] الخ. وقد جاء في أوائل هذه السورة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾[الآية: ٢٤] الخ فذكر هناك ثمانية أشياء: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن، وحكم على من يقدم حبّ هذه على الجهاد بالهلاك والدمار والعذاب. ويقول أيضاً في هذه السورة: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾[الآية: ٥٢] فجعل القتل حسنى معادلاً للنصر، وجعل هلاك الأعداء بالقتل ثم موتهم وهلاكهم الأخروي عذاباً.

فملخص ما ترمي إليه هذه السورة بل كل دين صادق، بل كل حكمة وفلسفة، احتقار اللذات والحياة، وجعل ذلك كله مقدمة لولوج باب الكمال والسعادة، وعلى ذلك انقلب الأمر فأصبح ما يفرح به الناس في هذه الدنيا عذاباً.

إيضاح هذا المقام

اعلم أن الإنسان في الدنيا يظن أن سعادته فيها بما يناله من لذاته الحسية كالمطعم والملبس والمسكن والأبناء والآباء والأزواج والعشيرة، وبما ينفى عنه من الآلام والمصائب فيبقى حياً سليماً مدى الحياة طويل العمر، ثم هو أبداً معذب بهذه الأثقال والأحمال، فهو أبداً في نصب بما يصيب الأهل والمال والولد وجميع ما حوله وبما يصيبه في جسمه وهذا عذاب دائم، فبينما يظن نفسه في سعادة إذا هو أبداً في شقاء بما ظنّ أنه سعادة.

ولقد تعزب عنه هذه الأثقال والأوصاب ساعة النوم والإغماء والسكر القوي والتنويم المغناطيسي، فالنائم لا يحسّ بما يناله من الغم بارتكاب الديون، وكذا المغمى عليه والسكران، وهكذا المنوَّم تنويماً مغناطيسياً يخيل إليه وقت النوم ما يريده المنوِّم، فيقال له: أنت ملك كريم أو ملك عظيم أو بهيمة أو غني أو فقير، فيتشكل كما يوحي إليه المنوِّم ـ بالكسر.

ولقد شاهدت ذلك بنفسي في مصر على مرأى ومسمع من العلماء والأطباء الذين شاهدوا هذه الحقائق وأقرّوها، فهاأنت ذا ترى أن ما تحمله من الأثقال قد زال عنا في بعض الأوقات لعارض، كما يزول عنا الألم إذا شاهدنا رجلاً يقتل قصاصاً أو مريضاً يشرب شراباً مراً، فإنا لا نتألم لعلمنا باستحقاق الأول ومنفعة الثاني. ونرى الطبيب يقطع عضو المريض لغرض الشفاء فنساعده ونشكره، ونحارب أمة سطت علينا ونقتل رجالها ونحن فرحون.

فهذه أحوال عرضت لنا غيرت أفكارنا، فجعلت المكروه محبوباً وصيرت المؤلم لذيذاً، ولطالما غيرت البيئات أحكامنا، فجعلنا الضعة شرفاً والشرف ضعة، فيقول الفرنجي: لا بد من أن يرقص رجل مع امرأتي وإلا كان ذلك عاراً علي. ويقول الشرقي: إن حصل ذلك فهو عار عليّ.

كل ذلك فعل البيئة، فتعجب كيف انقلبت اللذات آلاماً والآلام لذات بأحوال عارضة. فانظر كيف جاء القرآن بما هو أهمّ وأعمّ، وجعل كل ما نملكه وما يلذنا نقمة علينا إن أمسكناه لذاته، ونعمة إذا جعلناه للمنفعة العامة، وأفادنا ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾[الحج: ٧٠]، و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]، وقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[الحديد: ٢٣]، أنا وقت النوم أرحتكم من تبعة المصائب، ووقت الإغماء والضعف العظيم المغير للقوى العقلية كحالة الهرم التام.

وهكذا أجعل العاشق لا يبالي إلاَّ بأن يصل إلى ما تمنى من محبوبه، ولا يبالي بغيره في الدنيا، وربما عشق الإنسان وطنه أو علماً من العلوم فذهل عما سواه، فبالنوم أرحتكم وبالإغماء وبالعشق العادي والوطني والعلمي غيرت أحوالكم القلبية. فهاأنا ذا أوجهكم بالدين إلى الاجتهاد، وإذا كان بعض عبادي يعشقون إنساناً عشقاً مفرطاً فيغيبون عن كل ما سواه، سواء أكان المحبوب ذاتاً أو وطناً أو علماً.

فهاأنا ذا فتحت لكم باب العشق العام فلجوه، وطريق الحب الحقيقي فاقصدوه، فلتكونوا آباء كراماً لأممكم، ولتكن أموالكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم وهكذا علومكم وقوتكم وجبلتكم وقفاً على الجهاد في سبيلي، فإذا نصرتم فالنصر مني، وإذا قتلتم فإليّ ترجعون.

ظاهر هذه السورة العذاب وباطنها الرحمة

إن هذه السورة نزلت للسيف، وقد تركت البسملة في أولها، لأن التسمية للرحمة ولا رحمة هنا، هذا ما قاله العلماء كما تقدم. ولكنك إذا تأملت سورة الفاتحة وأن الإنسان يقرأ صباحاً ومساء ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ويحمد الله ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، إذا تأملت ذلك أيقنت أن الرحمة غالبة، وهاأنت ذا تراها ظاهرة في هذه السورة، فإنه وإن طلب فيها ضرب السيف، فقد أزال أغلال الحياة عن الأعناق ووجّه القلوب إلى وجهة واحدة.

ويقول علماء هذا العصر: إن الأمة وقت الحرب تحسّ بنشاط وفرح لا تحلم بهما وقت السلم. فانظر كيف انقلب الأمر، وأصبح الحرب الذي يكرهه الناس نعمة، والسلم والدعة والنعمة التي لا حركة فيها نقمة، وهذا هو سر هذه السورة. فالمساكن والملابس والأولاد والمال كل ذلك مصائب عاجلة بالتواني والكسل والنوم، وهي نعمة باستعمالها فيما خلقت له، وإن أردت تحقيق المقام فاقرأه في سورة «البقرة» في النصف الأول منها فافهم.

السعادة لا تشرى بمال

رجل ينتحر وفي جيوبه ٦٠٠٠ جنيه

جاء في بعض مجلاتنا المصرية في ١٠ إبريل سنة ١٩٢٦ ما يأتي:

يرى زائر شواطئ بحيرة «كومو» الجميلة في إيطاليا قصراً أنيقاً يقع وسط حديقة زاهية مترامية الأطراف، وإنه ليمر البصر فيه طويلاً، ثم يتساءل: لمن هذا القصر الباذخ، والروض الناضر، في هذا الجوار الخلدي، والبقعة المسروقة من الجنان، ويتمنى لو قدّر له أن يمضي بقية حياته في ذلك النعيم الشامل، ثم يسأل أحد المارّة من الوطنيين عن اسم صاحبه السعيد، ولكن ما أعظم دهشته عندما يرفع هذا أكتافه ويجيبه بأن صاحبه كان «جوزب بوجيني» الذي كان يعيش فيه وحده مع خدمه العديدين وكلابه التي كان يحبها، وكان أهل البقعة لا يعلمون من أمره كثيراً، ولكن كانت تسري الإشاعة بأنه كان شيخاً تعساً لا يعرف السعادة رغم ثروته الطائلة.

كان «بوجيني» وحيداً وحدة قاسية، وكان يمكنه أن يشتري الأصحاب بماله الكثير وبذخه الوافر، ولكنه ما كان يأبه لذلك، فلم يكن له أصحاب حقيقيون، وكان يندر أن يزوره زائر، ولم يكن له أقارب، ولم يتزوج، وكانت حياته حياة عزلة ونسك.

كان «بوجيني» في وقت من الأوقات عاملاً بسيطاً في نيويورك حيث تجنس بالجنسية الأمريكية وبمرور الزمن جمع ثروة تقدّر بالملايين، ثم رجع إلى موطنه الأصلي ليتمتع بثمرة ما جمعته حياة الكدّ والاجتهاد، وظهرت له بحيرة «كومو» بعد غيبته الطويلة جنة خالدة، لا ينقص كمالها أيّ ترف أو رغد يشتريه المال فآمن بالسعادة هناك، ولكن جاءت بعد حين ساعة الخيبة التي تنهار فيها صروح الآمال والأحلام فقد اشترى بماله القصر والروض وكل أسباب الراحة والكمال، ولكنها لم تشتر له راحة الفكر والرضا بكل ذلك، فملّ كل ذلك وسئمه، وحنت نفسه إلى تلك الأيام التي كان يكدّ فيها ويكدح طول نهاره من أجل بضعة الدراهم القليلة التي كان يكسبها في يومه، والآن قد أنهى «بوجيني» حياته القلقة الثائرة، حيث وجده خدمه في صبيحة يوم مشنوقاً في شجرة من أشجار روضه الزاهر، وبجانبه

هذه الرسالة الوجيزة «لقد كشفت أثناء حياتي الطويلة أن أكوام المال لا تشتري السعادة الحقيقية، وإني أذهب من هذه الحياة لأني لا أقوى على احتمال وحدتها وما أشعر فيها من سأم، عندما كنت عاملاً بسيطاً في نيويورك كنت سعيداً جذلاً، ولكن الآن مع هذه الملايين أشعر بحزن دائم وأفضل الموت». ووجد في جيوبه ستة آلاف جنيه كتب عليها «إلى الجحيم»، ثم أخذ البوليس يبحث عن ورثته. اهـ.

جمال هذه الآيات

كثرت ذرية أدنى الحيوان وأغذيته ولم يجشم نصباً ولا ألماً. والإنسان ناله الألم بذريته مع قلتها وبما ملك من الأموال، ليعلم أنه في دار ليست بدار قرار، وأنه سائر إلى ربه يعيش بجواره كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥٠]، فجمال هذه الآية ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الخ هو الظاهر في هذا الوجود المخبوء عن القلوب، لأن أكثر الناس لا يعلمون.

اللهم إنك أنت الظاهر بجمالك، العظيم بحكمتك، الجليل العجيب الصنع، البديع الإتقان. اللهم إنك أنت الذي ملأت السهل والجبل والنهر والحقل بذرية الذبابة والجرادة وحشرة أبي دقيق، ولم تجشمها نصباً ولا ألماً في تلك الذرية، وملكت بعض تلك الحشرات عيوننا وأجسامنا وأمتعتنا واللذيذ من أغذيتنا، وسلطتها علينا بالعذاب، فتلقي في أغذيتنا وفي أجسامنا بذور الأمراض والحميات والمهلكات ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. أنت الذي جعلت الحيوان على ثلاثة أقسام:

قسم يترك بيضه في العراء، كالجراد والذباب الخ، ولكن هذا القسم أنت أعطيته إلهاماً عجيباً، ليضع بيضه في أماكن تناسبه كأغذية الإنسان وروثه وعيون صغاره والقاذورات، وذلك في الذباب، وفي حقول مناسبة على بعد مخصوص في الأرض، وذلك في الجراد وهكذا. ثم إن الذبابة والجرادة ونحوهما تموت. وأنت الذي تولى شؤون ذريتها فتملأ السهل والجبل، والناس يحاربونها، ولكن تلك الحشرات وأمثالها غالبات قاهرات على طول الزمان.

وقسم أمرته بأن يحضن بيضه إلى أمد معلوم، وذلك لأنه أرقى، فألهمت الدجاجة والحمامة والإناث من أنواع الدرّاج والبط أن تحضن بيضها، فإذا فقس أمرتها أن تلاحظها إلى أمد قليل، ثم تستقلّ الذرية وتفعل ما فعل الآباء، ومع هذه العناية كانت الذرية أقل من ذرية تلك الحشرات، كحشرة القز وحشرة أبي دقيق والذباب الخ.

والقسم الثالث ما حكمت عليه بالحمل والإرضاع وهي ذوات الأربع، وكلما ازداد هذا القسم كمالاً زدته عذاباً في ذريته، كالخيل والفيلة والقردة والإنسان، وهو أكثر تلك الحيوانات عذاباً بذريته وماله، وكلما ارتقى في سلم المدنية ازداد عذاباً بالذرية، فيعيش الإنسان مجداً كادحاً لتربية بنيه وبناته الذين قلّ عددهم، ولا يقتصر على الإرضاع والكسوة والتغذية، بل يدخلهم المدارس ويضيع حياته فيهم، وهو كلما كثرت آماله وأمواله وذريته ازدادت همومه.

فاعجب لهذا الوجود، ذبابة تكون الأجيال الناشئة من ذريتها في السنة تزيد عن مليون ذبابة، وهي كلها تملك أجسامنا وأغذيتنا، ولا نصب يغشاها ولا تعب. وإنسان يلد عدّ أصابع اليد الواحدة أو أقلّ، فيعيش في نصب وتعب وهو مكدود، وهو قليل المال كثير النصب والتعب، لا يتسنى له أن

يدخل منزل جاره إلاَّ بإذن، ولا يأكل إلاَّ بنصب وتعب، وهذه أبيحت لها الدنيا وغلبتنا وقتلتنا وأكلت زرعنا.

هذه صورة الحيوان والإنسان، فاعجب أيها الذكي معي، وتأمل كيف تلد الذبابة مئات الألوف بالتناسل في الأجيال كل سنة، ويلد الإنسان قليلاً، وهي لا تعذب، وهو في العذاب مغمور، وكيف يشاهد الناس ذلك صباحاً ومساءً وهم لا يعقلون.

اللهم إن العلم مشاهد محسوس وأكثر الناس لا يعقلون. أنت يا الله بسطت العلم أمام أعيننا وأمرت الذباب فباض في أفنيتنا، وأمرته أن يلقي علينا دروساً من الأمراض في أغذيتنا، وقلت له: نبه هذا الإنسان يا ذباب، وقل له: هاأنا ذا منعم بمالك كثير الذرية، وأنت تشقى بمالك وولدك قليل الذرية سلطني الله عليك لتبغض عالم المادة وتحنّ إلى عالم الأرواح، وتبحث بعقلك عن حياة أسعد وهي التي بعد موتك بلقاء ربك والعالم الروحي.

فهاأنا ذا أريك أيها الإنسان أنني أسعد منك حالاً ومالاً وذرية، لأوقظك للخروج من حياة المادة، ولما جهل الناس منطق الطير ولم يعقلوا ما حولهم من الضر والشر ألقاه على ألسنتهم في محافلهم ومحاوراتهم بطريق الإلهام.

ألسنة الخلق أقلام الحق

لما حكم الله على الناس بعذابهم في أموالهم وأولادهم، ولم يفهموا منطق الطير كما قدمنا، ولم يدركوا سر هذا الوجود، ولم يفقهوا أنه بذلك يريد إخراجهم حتى يحنوا إلى عالم أرقى، خاطبهم بما يلقيه على ألسنة الرجال والنساء في كل زمان ومكان، فتراهم يتبرمون ويتأففون من هموم المال وهموم الذرية، وتقول المرأة: ماذا أصنع يا بني وقد قلّ لبني وقلّ مالي؟ ويقول الرجل: ماذا أصنع إني لا أجد مالاً لتعليم ابني، وإذا أصابه ألم ونصب بكى وبكت امرأته.

وهكذا تراهم مغتمين إذا اجتاحت المال جائحة أو أصابته ملمة، كل هذا وهم يشاهدون الحشرات طائفات فرحات سعيدات كثيرة الذرية، فكل ما تسمعه من تألم الرجال والنساء لأموالهم وأولادهم هو نفسه ما يشاهدونه في الطبيعة، فألسنة الخلق ناطقات بما خطه الله في هذا الوجود، وكتبه بحروف كبيرة مجسمة منظورة يشاهدونها ولكنهم لا يعقلون، وقرّبها إليهم بالألسنة صباحاً ومساءً، فإذا قال الرجال والنساء: ما أتعس هذه الحياة الخ، فهو نفسه الذي ألقته الذبابة والحشرة عليهم وهم لا يعقلون.

ظهور هذا السر على ألسنة الشعراء

ولما كان الشعراء هم أفصح هذا النوع الإنساني، وهم الناطقون بما له من وجدان، أبرز الله هذا السر على ألسنتهم، وتراه كثيراً في الشعر العربي فترى المتنبي يقول:

كل من في الكون يشكو دهره ... ليت شعري هذه الدنيا لمن

وترى الشاعر الإنجليزي «ترنش» يقول ما ملخصه: إن الناس قسمان: قسم صفت لهم الدنيا، فأقلّ ألم يزعجهم، فهم دائماً في نصب وألم. وقوم عاشوا في شظف العيش، أحسوا بأقلّ نعيم وانشرحوا صدوراً.

وهذا نص ما ترجمته من شعره إلى لغتنا العربية إجابة لطلب التلاميذ بالمدرسة الثانوية في كتابي المسمى «جوهرة الشعر والتعريب».

أيذوق الفقراء السعادة أكثر من الأغنياء؟

من شعر ترنش الشاعر الإنجليزي

قـوم صفـت الدنيـا لـهم ... وسماؤهم صحـو عجـب
فـيها شـمس وبـها قمـر ... لـم تحجبهم عنها حجـب
فـإذا مـا اغـبرّ بأفقـهم ... مقـدار الظفـر لـه غضبـوا
وفريـق عـاش ودهرهـم ... ليـل فيـه السـود النـوب
فـإذا لمحـوا مـن بارقـة ... فرحوا جذلاً وبهم طـرب
هـذا مثـل فيـه عظـة ... لـذوي التوفيـق إذا ضربـوا
فانظر رمزاً سكنوا مصـراً ... وبنوا قصراً ولـهم مذهـب
ولـهم نعـم فيـها نعـم ... فـإذا راحـت فلـها لجـب
يشكون الدهر وما نصبوا ... إن شـاكلهم وبـر صخبـوا
فكأن الفضـل بمـا طلبـوا ... ممـا مـنَّ عليـهم حـرب
وكـأن المـال جهنمـهم ... وثراء المـال لـهم مطلـب
وترى رهطاً سكنوا الأكوا ... خ فـذا شعـر هـذا قصـب
وحياتـهم في مخمصـة ... ومعيشـتهم أبـداً وصـب
حمدوا الرحمن على نعم ... وبـه فرحـوا ولـه انتسبوا
فكأنــهم لمــا سـلبوا ... مـا أعطـاهم منـه كسبـوا
فـالحب كساهم من حلـل ... وبكـأس سـعادته شـربوا

وهاك موازنة بين أبي العلاء وبين شارل، وكذا شكسبير منقولاً مما نظمته ترجمة في ذلك الكتاب. قال أبو العلاء:

للحـال بـالقدر اللطيـف تغـير ... فلينـأ عنـك تفـاؤل وتطـير
من أحسن الأحداث وصفك غابراً ... في الـترب يأكلـه تـراب أغـبر
مـا قيـل في عظـم الملـوك وعـزه ... فـالله أعظـم في القيـاس وأكـبر
وكأنّمـا دنيـاك رؤيـا نـائم ... بـالعكس في عقبـى الزمـان تفسـر
فـإذا بكيـت بـها فتلـك مسـرة ... وإذا ضحكـت فـذاك عيـن تعـبر
فـالعين تبكـي في المنـام وتجتلـي ... فرحـاً وتضحـك في الرقـاد وتعـبر
والنفـس ليس لـها علـى مـا نالـها ... صـبر ولكـن بالكراهـة تصـبر
يغـدو المدجـج بازيـاً أو أجـدلاً ... فـيروح محتكمـاً عليـه القـبر

وقال أيضاً:

آليت لا ينفك جسمي في أذى حتى يعود إلى قديم العنصر
وإذا رجعت إليه صارت أعظمي ترباً تهافت في طوال الأعصر
هوّن عليك أنلت نصراً في الوغى أم طال جدّك صادقاً لم تنصر
كسرى أصاب الكسر جابر ملكه والقصر كرّ على تطوّل قيصر

وقال شارل:

لا تفخرن بما أوتيت من نعم ماذا التكاثر بالأوهام والعدم
لا يدفع القدر المقدور سابغة من الدروع ولا حصن على علم
بل ينتضي الموت أسياف الفناء على هام الملوك ذوي التيجان والأمم
والفأس والمنجل المعوجّ صفحته كالصولجان وتاج الملك في الرغم
كم فارس بطل بالسيف مشتمل يسطو على أجل في الحلّ والحرم
وحاصد هام قوم من منابتها فأنبتت أرضها زهراً بسفح دم
فصار إكليله في يوم زينته قد أبسلوا للمنايا فاقدي الشمم
إما على عجل للموت أو مهل خروا جثياً ونال الرغم كل فم
حتى قضوا نحبهم صفراً وجوههم عبدان ذل فما يشكون من ألم
وزهر إكليلهم ذاو ومنتشر ولم يكن قبل إلاّ عقد منتظم
لا يعجبنك ما أوتيت من شرف أو نلت من ذهب أو بطش منتقم
وانظر إلى القاهر المقهور كيف قضى وهاطل الدم في الأنصاب كالديم
وأودعوا حفراً يا بئسما نزلوا عليهم سجف من دجية الظلم
لكن على جدث الطريق قد عبق الرْ رَيحان والندّ من عدل ومن كرم

وقال شكسبير: بمضمون قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[الرحمن: ٢٦]

إن الحياة وإن غرّت مظاهرها فإنّما هي وهم ذائب الصور
قد مثلت في خيال الوهم بارزة في ساحة العدم الممتدّ في الفكر
كما ترى في خيال الظلّ من صور حتى إذا كملت بادت على الأثر
وكل قصر رفيع شاده ملك فيه التماثيل تخشاها قوى العصر
كذا البروج مشيدات على صعد مكللات بما في السحب من أطر
وكل ما أورثته الأرض من عرض تبيدها عدماً يوماً يد القدر
وإنّما عنصر الأجسام من سدم مكوّنات من الأحلام والدعر

ضاع من المؤلف كتاب له فيه تعليق، فقال قبل أن يعثر عليه:

فكيف رأيت العلم يدني من الهمّ | فكيف رأيت العلم يدني من الهمّ
نفيس فلم أصبر على ذلك الغرم | نفيس فلم أصبر على ذلك الغرم
فرائد حتى لا يشذ عن الفهم | فرائد حتى لا يشذ عن الفهم
فراراً من الآساد نغرق في اليمّ | فراراً من الآساد نغرق في اليمّ

هذه أقوال المشهورين من شعراء الغرب والشرق، اتّحد المتنبي وأبو العلاء من الشرق مع «ترنش» وشكسبير وشارل» من العرب، بماذا نطقوا؟ نطقوا بما نطقت به هذه المخلوقات حولنا، نطقوا بما نطقت به الطير والحشرات القائلات بلسان حالها: أنتم أيها الناس مسجونون في أموالكم وأولادكم، أما نحن فإنا في بحبوحة النعيم، نلد الألوف ولا نحزن ولا نجزع ولا ننصب في التربية والله تولاها عنا، هذا كلام حشرة أبي دقيق والجراد والذباب وحشرة دود القطن.

إن العالم الذي حولنا كله ناطق ونطقه أفصح من نطق اللسان. إن العوالم التي خلقنا فيها جميلة وناطقة، ولكن أكثر الناس لا يعقلون ولا يفهمون، وبهذا نفهم قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فنحن خلقنا العوالم حولكم أزواجاً فتوالدت وكثرت ولم تعان ما تعانون مع قلتكم.

نريد بذلك أن تتذكروا وتعقلوا وتفهموا أن حياتكم الحقة لا تكون هنا على الأرض ولا في عالم المادة التي ترونها، بل في عالم أجمل، ولذلك رتب عليه قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] والآية هنا موضحة لذلك الفرار إذ أبانت أن الناس في عذاب بأموالهم وأولادهم، فهذا هو سبب الفرار وطلبه.

ويقول الله في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧]، فالمال والولد يعذبان وهما لا يقربان إلى الله، لأنهما وسيلة والوسيلة لا تكون مقصداً، فإذا جعلت مقصداً ساءت الحال وكانت سجناً وكفراً، كما قال تعالى هنا: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

إيضاح

لما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد الفضلاء من أهل العلم، ولما اطلع عليه سألني قائلاً: أين النطق الذي في المخلوقات حولنا والناس لا يفهمونه كما تقول؟ فقلت: نطق الطير ونطق المخلوقات كلها. فقال: ما معنى هذا القول الذي يشبه قول الصوفية والرموز التي لا تفيد؟ فقلت: نحن الآن في مقام الحكمة والعلم والبرهان، إن الطير ناطقات بما ذكرناه الآن، ولكن العامة والجهلاء يظنون أن النطق هو ما تتغنى به أو تناغي به أمثالها، كلا، بل نفس الطير والحشرات وجميع الدواب عبارة عن كتاب كتبه الله بيده، كتبه لنا وأكثر الناس لا يعلمون.

ألم تر إلى ما ذكرته من حكم الحشرات وتبيان حياتها وموازنتها بحياة الإنسان، ألم يكن هذا أفصح من نطق اللسان؟ أليس نظام ذريتها وتدبير الله في حفظها وحبسه لنا في أموالنا وأبنائنا كافيات في فهمنا أن حياتنا عذاب؟ فلما أن جهل الناس هذا الكتاب الذي كتبه بيده أنطق الله بهذا المعنى الرجال والنساء وختم بالشعراء من العرب والعجم كما تقدم، وأنزل في القرآن ما تقدم من الآيات، يقول: ﴿وَمَا

ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] ويقول: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] الخ كما تقدم، ويقول هنا: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾.

أليس هذا هو الذي يقوله الطير في جو السماء؟ فقال: ما معنى هذا؟ فقلت: الطير مخلوق ترفع في الهواء وتعالى عن الهوام في التراب، والسمك في البحر، والبهائم في الأرض، نظر إليها الطير نظر احتقار وفارقها، وساح في الهواء والحرية. الناس يرون هذا وكأن الطير يقول: أيها الناس اعبروا البحر وسيروا في الأرض وطيروا في الجو، فهذا كله لا يغنيكم شيئاً، فأنتم محبوسون في الكرة الأرضية وفطركم تحن إلى عالم أرقى، فاخرجوا إلى عالم أعلى بالعمل كما خرجت أنا من عالم التراب وظاهر الأرض إلى الهواء.

هذا هو بعض النطق الذي نطقه الطير لسليمان عليه السلام في قوله تعالى على لسانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، فهل ترى أن إيتاء كل شيء وإيتاء الفضل المبين لمعان ضئيلات تخطر بغرائز الطيور في جو السماء، أم هي هذه المعاني وأمثالها التي نطق بها كل شيء قبل نزول القرآن، كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، فنطق الناس بالتبرم من الحياة، ونطق الشعراء كذلك، ونطق الطير في الهواء، ونطق كل شيء هو الذي نزل به القرآن، فقال لنا ما قالته الطيور والحشرات والهوام والشعراء، وذمّ لنا المال والولد اللذين هما وسيلتان لا مقصدان، لماذا؟ لأن الإسلام دين الفطرة، فهاأنت ذا رأيت الفطرة في هذا المقال واطلعت عليها، وهذه الفطرة التي أبرزها الله بتنويعه لخلقه في طير وحشرات وغيرها، وفي كلام الناس والشعراء أبرزها في القرآن، هذا معنى كون القرآن ﴿ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠] أي: يذكرهم بما حولهم وما تحس به نفوسهم وهم عنه غافلون.

غفلة الناس عن الجمال
وعن الفهم وعن النعم عامة

قاعدة: قد يكون الناس أشد غفلة عن أعظم النعم وأوضح النطق وأبهر الجمال، ألا ترى أنهم لا يعتبرون الهواء نعمة مع أنه أهمّ من الخبز والماء، ذلك لأنه مبذول لهم وهم لا يقدرون النعمة حق قدرها إلاّ إذا منعت، وعلى قدر المنع يكون حفظ الجميل، ولذلك يفرحون بالحلي من الذهب والفضة أكثر من الخبز، وبالخبز أكثر من الماء، فأما الهواء فلا يذكرونه.

إذن معرفة النعمة معكوسة مقلوبة، ثم إنهم يخاطبون بلسان أفصح من المقال في أنفسهم وفيما يتعلق بهم، واللسان الذي يخاطبون به أفصح من اللسان المعتاد جداً، فالجوع والبرد والمرض والعطش وآلام الأم لبكاء الرضيع، كل هذه ألسنة ناطقة تحثهم على الأكل والشرب واللبس والتداوي وإرضاع الولد، فقد يمتثلون ولكنهم لا يعقلون أن هذا إفهام وتفهيم، بل يساقون لها كما تساق الأنعام، وإذا ساقتهم تلك الآلام التي جعلناها أفصح من الألسنة، إنهم كثيراً ما يألمون ولا يعقلون مثل ما يألمون من عموم الحياة فلا يعقلون ما المخرج.

ومثل ما يحصل للمسلمين الآن من الذلة بسبب جهلهم وقلة اتحادهم وتخاذلهم فأذلتهم الأمم كل ذلك حاصل وهم لا يعلمون أن ذلك كله أفصح من اللسان وأوضح، بل هو أفصح من منطق الجوع

والمرض، لذلك أنزل الله في كتابه: ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[الذاريات: ٥٠]، وأنزل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[محمد: ٣٦]، وأنزل ما هنا، وهو أن الأموال والأولاد عذاب، وكما غفلوا عما ينزل بهم من العذاب غفلوا عما حولهم من الجمال الذي يطالبهم بارتقاء نفوسهم؛ فبينما أموالهم وأولادهم تعذبهم يرون النجوم الجميلة الرائعة تنظر إليهم باسمة وتشرق حولهم ضاحكة وتشير إليهم مسلمة وهي باهرة الجمال، حسنات الأشكال، تناديهم أن انتهزوا الفرصة اليوم واجعلوا أموالكم وأولادكم معينين على إسعاد المجموع الإنساني حتى لا تسجنوا فيهما، فجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل المنافع العامة حتى تحظوا بالجمال الذي تجهلونه اليوم.

إن من الناس من يدرك جمال النجوم وهو في الدنيا فيعشق العلوم عشقاً، فيكون عنده المال والولد، ولكنه مغرم القلب بالعلوم، فلا يصدّه مال ولا ولد عن ذلك الجمال، ويجاهد بنفسه وبماله في سبيل المصالح العامة التي سيقت لها هذه الآية حثاً لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على الجهاد والخروج من سجن المال والولد إلى إسعاد المجموع.

ظهور بعض سرّ هذه الآية في هذا الزمان

لا تظن أن النوع الإنساني غافل عما ذكرناه، فاعلم أن الحرب الكبرى إنَّما جاءت من أجل المال والاستعمار والاستئثار بالسلطان.

ظهرت الاشتراكية، فانظر الكلام عليها في سورة «البقرة» عند آية الربا، هناك تعلم أن القوم يريدون أن يكون كل امرئ مساعداً للمجموع، أي: أن يكون الناس كأعضاء جسد واحد، وتكون المنافع أكمل، وهناك ذكرت لك أن الإسلام لم يقتصر على الزكاة، بل جعل مال المسلم للمجموع طوعاً لا كرهاً.

ومن عجب أن هذه الفكرة منتشرة بين مئات آلاف الآلاف من الناس، فقد جاء في الأخبار أيام كتابة هذا الموضوع في أواخر شهر إبريل سنة ١٩٢٧ أن شاباً فقيراً اشتراكياً لا يجد قوت يومه، قد وفقه الله إلى كشف حديث في التصوير الشمسي أكثر إسراعاً في إبراز الصور بأعمال قليلة، فباعه بنحو مائتي ألف جنيه فنزل عنه جميعه، فبعضه إلى المعوزين من المصورين وبعضه من غيرهم.

إذن هذه التعاليم في أصلها موافقة للفطرة، لأنها تجعل الناس ينفع بعضهم بعضاً، ويخرجون من ذل المال بالمساعدة العامة، إذن القرآن نطق بما في الفطرة، والفطرة أبرزت هذا المذهب.

وإياك أن تظن أني أبيح الاشتراكية، كلا، وإنَّما أقول معنى هذا أن الناس لما رأوا الشح المطاع والهوى المتبع، خرجوا بعقولهم من ذلك بما يقولون، ولسنا ندري ماذا يصنعون، وإنَّما المهم أن القرآن طلب أن يكون الإنسان مساعداً للجميع فعرفناه، فإذا كان عملهم موافقاً له كل الموافقة أقررناه، وإن انحرف عنه نبذناه أو هذبناه، فليس المقام في الاتباع وإنَّما المقام في الحكمة والعلم وموافقة القرآن لفطرة الإنسان، وهذا هو معنى كونه دين الفطرة. ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[الأحزاب: ٤] اهـ.

اللطيفة الخامسة: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ الآيات

(١) لا يجوز صرفها إلى بعض الأصناف مع وجود الباقين، وهو قول عكرمة والشافعي، وقد سقط سهم العامل وسهم المؤلفة قلوبهم إذا قسم المرء زكاته بنفسه ويعطي ثلاثة من كل صنف.

(٢) لو صرف الكل إلى صنف واحد أو إلى شخص واحد جاز من هذه الأصناف كلها، وهو قول عمر وابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء وسفيان الثوري وأصحاب الرأي وأحمد بن حنبل.

(٣) إن كان المال كثيراً يحتمل الأجزاء فرّقه على الأصناف كلها، وإن كان قليلاً وضعه في صنف واحد.

(٤) يقدّم الأولى فالأولى من أهل الحاجة، فإذا رأى الفقراء حاجتهم أولى قدّمهم وهكذا، وهو قول مالك، ومتى أعطى أحداً صدقة وجب أن لا يزيد المعطي عن أقل مقدار يسمى به غنياً، فأقل الغنى لا تجوز الزيادة عليه.

وللأئمة هنا مجال في المقدار الذي يعطى، وكلّ يرى بحسب اجتهاده؛ فالشافعي يقول بوجوب دفع الحاجة من غير حدّ، وأبو حنيفة يكره أن يعطى رجل واحد مائتي درهم، وأحمد بن حنبل كره أن يعطى أكثر من خمسين درهماً. اهـ.

واعلم أن الحق يؤخذ من مجموع هذه الأقوال، فعلى رجال الحلّ والعقد في الأمم الإسلامية أن يؤلفوا لجاناً تنظر في أحوال الأمة، وهناك توزع الصدقات توزيعاً شريفاً، وأهمها أن تصرف لأرباب الحرف الشريفة النافعة للأمة، فيكسبون من كدّ أيديهم، ويجب أن يمنعوها عن الكسالى ويأمروهم بالشغل ويعطوهم من الزكاة على مقدار ما يساعدهم في اجتهادهم ولا يعطوهم جزافاً.

فالحق في هذه المسألة قد تضمنه أقوال الأئمة رضوان الله عليهم، وعلى الأمة الإسلامية الجدّ والاجتهاد. وهاهم أولاء قد رأوا بأعينهم كيف أدّت الغفلة إلى ضياع بلادهم وجهالتها العمياء، وإلى الله عاقبة الأمور.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ الخ

اعلم أن هذه السورة قد خالفت أكثر القرآن، ألا ترى أن الله ما ترك صغيرة ولا كبيرة في غزوة تبوك إلا أحصاها.

فيا عجباً! ضحكة يضحكها الأصدقاء فينزل الوحي بالمؤاخذة عليها، إن هذا لأمر عظيم، وقد عهدنا النبوة لا تبالي بمثل هذه، والنبي صلى الله عليه وسلم عفوّ، فكيف رأينا الله في هذه السورة يحصي على الناس ضحكهم في أوقات خلواتهم، فإذا سئلوا قالوا: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾، ثم إنهم يهددون بالهلاك العاجل والعقوبات العظيمة، وانظر كيف يقال لهم: ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾، وذكر قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات. كل ذلك تهديد للمنافقين الذين يعدّ عليهم تلك الهنات والضحكات، فيا ليت شعري كيف انقلب الأمر في هذه السورة حتى أصبح المسلم يؤاخذ على ضحكة يضحكها، ويهدّد بأنه أصبح كالأمم السابقة.

الجواب

اعلم ألهمك الله الرشد أن هذا هو النظام الذي يجب اتباعه، فإن الأمة إذا تركت بعض أفراد منها خارجين عن نظامها، يحقرون دينها وعقائدها ويخرجون عليها، كان هؤلاء جرثومة فساد يسري في غيرهم، ومثل هذا الداء إذا انتشر في الأمة ضاعت قوتها وذهبت ريحها.

فالاتحاد لا يكون إلاَّ بفكرة جامعة، ولا جامعة في هذا المقام إلاَّ الإسلام، فإذا سخروا منه فلا دولة ولا نظام ولا حرب، إنَّما يحاربون باسم الدين، فإذا سخروا منه فقد دلّ على كرههم له، فإذن لا حرب ولا نظام ولا غلبة على الأعداء.

واعلم أن الأمة الإسلامية اليوم لم يضعفها إلاَّ جهلها، فلا هي بالدين اتحدت ولا بغيره اتفقت وسيكون لها بعد اليوم شأن ورفعة ومجد، والله هو الولي الحميد.

جوهرة في الكلام على قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾

الكلام عليها ينحصر:

(١) في الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) وفي الاستهزاء ببعض المنسوبين للدين.

(٣) وسبب ذلك الاستهزاء.

(٤) ونتيجته من ازدياد الجهل في المستهزئ وازدياد العلم والسعادة في الدنيا والدين للمستهزأ به.

أما الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد علمته، وذلك أن بعض المنافقين أخذوا يخوضون في الحديث في غزوة تبوك، ويقولون: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام إلى آخر ما تقدم. ولا جرم أن ذلك الاستهزاء راجع لقصر النظر وضعف البصيرة.

أما الاستهزاء بالمتدينين فذلك مستفيض في الأمم الإسلامية المتأخرة. وبيانه أن المسلمين بعد العصور الأولى خارت عزائمهم وضلّ كثير منهم طرق التعليم بسبب الأحاديث التي وضعها الواضعون، كما في كتاب «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي وغيره رحمهم الله تعالى، فقد تطوّع قوم ووضعوا أحاديث في فضائل السور وقراءتها ترغيباً في القرآن وتحبيباً في تلاوته، لزعمهم أن الأئمة رضوان الله عليهم مثل أبي حنيفة والشافعي قد صرفوا الناس عن القرآن إلى مذاهبهم، وقد أقروا بذلك وأنهم يزعمون الثواب من الله بهذه الأحاديث، فانقسمت الأمة إلى طائفتين: طائفة تحفظ القرآن عن ظهر غيب تعبداً أو طلباً للكسب أو للهرب من الجندية، وطائفة تحفظ كالأولين ولكنها تعرف العلوم العربية والفقه وأصوله وفن التوحيد والمنطق وما أشبه ذلك. وهذه الطائفة بقسميها ينظر لها بعض الأئمة نظرة الاستهزاء، يقولون: إن حفاظ القرآن ليسوا بمتعلمين فيعدّونهم في مصافّ الجهلاء، وعلماء الدين غالباً يجهلون نظام هذه الدنيا ويظنون الفقه والأصول والتوحيد هي كل ما يطلبه الدين. فهاهنا يكون استهزاءان: استهزاء من هؤلاء العلماء بجميع العلوم وتكبر عليها غالباً. واستهزاء من بعض الناس بهم لما يرون فيهم من قصور الباع في نظام هذه الدنيا وعلوم الفلك والطبيعة وما أشبه ذلك.

ومن أسباب الاستهزاء بحفاظ القرآن وببعض علماء الدين كما قرره ابن خلدون أن المتعلم على الطريقة القديمة كان يلقى إليه العلم ويضرب ويهان فيمرّن من صغره على الذلة والاستكانة والضعف فتموت فيه غريزة الشرف والنخوة والشمم والعزيمة، وتخور قواه فلا يصلح للدفاع عن البلاد، ولذلك ينظر له الناس نظرة المستضعف المستكين الجبان، ذلك لما اعتاد من صغره على الذلة وانكسار القلب والضرب والخضوع الأعمى.

هذا ملخص ما يقوله العلاّمة ابن خلدون في المقدمة، أما سبب استهزاء العالم الديني نفسه بالعلوم الأخرى، فذلك لنقص التعليم، فيشب ويشيب معتقداً أن ما عدا فقه الشافعي والحنفي مثلاً وما وراء الكتب الموضوعة في التوحيد والأصول إنَّما هو هراء لا محصل له. وأضرب لذلك ثلاثة أمثلة:

المثل الأول: أنه جاء إلى مصر منذ نحو ٢٠ سنة أمير هندي يسمى جمال، وهو من مدارس بالهند، ومعه مترجموه، قد مرّ على الأستانة وأخذ فتوى من شيخ الإسلام هناك، ولما جاء إلى مصر أخذ فتوى من شيخ الإسلام، ثم جاء إليّ ليأخذ مني كتابة عما يأتي: قال: قد فتحت مدرسة في مدارس على نفقتي الخاصة، فحرّم علماء الدين التاريخ والجغرافيا، فكتبت أقول: إن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية والمسلمون جميعاً آثمون بتركها.

المثل الثاني: جاء إلى مصر سريّ من سراة الهند، وقد أدخل ابناً له في المدرسة التحضيرية بدرب الجماميز، واتفق أني كنت هناك فعرّفوه بي، فقال لي ما يأتي: إن أسرتنا كبيرة جداً فمنها في كل مدينة طائفة، وهم جميعاً يرون أن إدخال أبنائهم في المدارس عار وعيب ومغاير للشرف، فأنا لم أقدر أن أدخل ابني في مدارس الهند فأتيت به إلى هنا حتى لا يسلقوني بألسنة حداد.

المثل الثالث: جاء إلى بلادنا منذ سنين عالم صيني يسمى «وان وين كين» وقد قال لي ما يأتي: إني أرسلت من قبل أربعة قوّاد من قوّاد المسلمين في الصين لهم أمر مطاع، ولما فتحوا أعينهم إلى بلادهم وجدوا أن المسلمين أجهل الخلق في الصين على الإطلاق، وكل علمهم راجع إلى الطلاق والبيوع والحيض والنفاس وما أشبه ذلك، أما الوثنيون فقد ضربوا في كل علم بسهم، قال: فهاأنا ذا مررت على بلاد جاوة والهند لأعرف كما طلبوا مني هل ديننا مجرد من العلوم وقاصر على الفقه، والعلم محرّم على المسلم ولا ينعم به إلاّ كل كافر بديننا. قال: فلما مررت في تلك البلاد لم أجد أثر العلم فوق ما هو معلوم بديارنا، ولكن في مصر وجدت حركة أخرى، وهاأنا ذا ترجمت كتابك «القرآن والعلوم العصرية»، وترجمت أيضاً «تفسير الفاتحة»، وسأرجع إلى بلادي بذلك وبغيره من كتب العلماء بمصر.

هذه أمثال ثلاثة تعرف بها كيف كان استهزاء علماء الدين في أمة الإسلام بالعلوم في زماننا وذلك بالمران والغفلة والسماع من الشيوخ الجاهلين، والجاهل يكون تلميذه مثله.

نتيجة الاستهزاء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وفي زماننا

أما نتيجة الاستهزاء في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فهي واضحة فقد سماهم الله منافقين، ومعلوم أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

أما عواقب الاستهزاء في زماننا الحاضر، فاعلم أن عاقبة الاستهزاء بالشيء الانصراف عنه احتقاراً واستكباراً، وإذا كان الله يقول في الكفار: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٤٦]. وإذا كان سبحانه يقول: ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[الأحقاف: ١١]، فهذا وإن كان في الكفار فليس معناه أن يكون المسلم المنصرف عن العلم تكبراً واستهزاء واحتقاراً قد انصرف عنه الذم والتقريع، بل هو ملوم مذموم

داخل في العذاب الهون الذي ليس بمخلد، ويلحقه شؤم عمله وذلك بطرق الاعتبار. وإذا كان الله يقول في الكافر: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٤٠] الخ، فهكذا المسلم القادر على العلم المحتقر له، يلحقه الذم والتقريع بطريق الاعتبار وإن كان موقناً مسلماً، ولكن هذا رجل ناقص أو فاسق لأنه ترك فرض الكفاية أو فرض العين، فهؤلاء من أيّ دين ومن أيّ نحلة لا تفتح له طرق العلم التي لا تفتح أبواب السماء لهم إلاّ بمفاتيحه.

قاعدة

كلما زاد المستهزأ به كمالاً يزيد المستهزئ وبالاً، فإذا استهزأ عالم الدين الذي جهل علم الفلك وعلم النبات وغيرهما بمن يتعلم ذلك، فإنه لا محالة يقف في موقفه ولا يتخطاه، فيرى غيره سبقه إلى تلك العلوم وأدركها. فكلما زاد غيره علماً من العلوم زاد هو له احتقاراً، فيكون هو أكثر جهلاً، والذي كان موضع احتقاره أكثر علماً، ولهذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾[البقرة: ١٥]، فكلما كان الصحابة يزدادون هدى بالآيات القرآنية كان الكفار يزدادون طغياناً بالكفر بها وجحوداً.

هكذا هؤلاء الناقصون في العلم في الإسلام كلما زاد غيرهم علماً بجمال الله وآياته وعجائب سماواته وأرضه ازدادوا هم إثماً وجهلاً.

ويرى بعض المسلمين بل السواد الأعظم منهم أن أهل أمريكا والصين واليابان وأوروبا والأمم الوثنية قد اغترفت من موارد رحمة ربهم، وإن كانوا منحرفين عن التعاليم الإسلامية، وهم لا يزالون مستهزئين بتلك العلوم محتقرين لها ظناً منهم أن الإيمان يكفيهم، والنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحدها تشفيهم بلا علم وفاتهم أن يقرؤوا قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾[الكهف: ١٠٣-١٠٤] الخ، فالكفار ظنوا أنهم يحسنون صنعاً فهم أخسرون أعمالاً بكفرهم.

وهكذا المسلم إذا ترك أكثر الدين، وظنّ أنه كامل، فهو من الأخسرين أعمالاً، وإن كان لا يخلد في النار، لأنه يحسب أنه يحسن صنعاً وهو غافل عن آيات ربه.

الاستهزاء بالآيات المذكورة في هذه السورة وضحت في سورة «يس»، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وعبر هناك بما هو أشد للاستهزاء وهو الحسرة، إذ قال تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[يس: ٣٠]، ثم عدّد ما يعتبرون به، فذكر هلاك القرون الماضية، وذكر أن الأرض من آيات الله، وهكذا الحب والجنات من النخيل والأعناب والليل والنهار والشمس والقمر، وكذلك الحمل في بطون الأمهات، أو حملهم في سفن البحر وهكذا، فهذه مجامع الآيات المستهزأ بها وهي تشمل أكثر العلوم، فهي عبارة عن العلوم الأرضية والعلوم السماوية.

هذا هو الذي أخرجه الله في معرض التحسر على عباده، وهو آيات الله المذكورة هنا؛ فالمسلم إن كان لم يستهزئ بالرسول فقد أتى بأهمه وهو الجهل بهذه العلوم، فالحسرة عليه كالحسرة على الكافر، وإن كانت الحسرة على المؤمن لفسقه بالجهل إذا كان قادراً على العمل بجمال الله وآياته، وترك ذلك احتقاراً له، والحسرة على الكافر لأنه ترك الإيمان، والإيمان رأس العلوم كلها.

قاعدة

أكثر الناس تعرضاً للاستهزاء أكابرهم، فما من رسول ولا نبي ولا عالم نافع إلاَّ كان في أول أمره موضع السخرية من عارفيه احتقاراً لعلمه واستصغاراً لشأنه، ثم يظهر أمره ويعلو شأنه والمستهزئون في غمرة ساهون، ثم يموتون فلا تسمع لهم ركزاً، وأكثر الناس استهزاء أقلهم علماً وأحطهم شأناً. ولعل لذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾[الحجرات: ١١] وبقوله تعالى في نوح: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[هود: ٣٨-٣٩] الخ.

ومن أكبر العار والشنار على الأمم الإسلامية أنها تركت الصناعات التي ملأت الشرق والغرب استهزاء واحتقاراً لشأنها؛ فأصحاب هذه الصناعات قد أحاطوا بنا من كل جانب. ولقد نشأت ببلاد الشرقية في بلاد زراعية فلم أجد لأحد شرفاً في نظرهم في قريتنا إلاَّ أصحاب المزارع الواسعة، أما النجار والحداد وغيرهما فليس لهم احترام، مع أن أمريكا بلغ عدد الصناعات فيها ٧٠٠٠ صنعة. كل ذلك للعادة والإلف والجهل والاستهزاء ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾[يونس: ٣٩].

وملخص ما تقدم أن الاستهزاء لا يصدر إلاَّ من نفوس ناقصة، وأن كثيراً من المسلمين يستهزئون بالعلم وبالصناعات، وذلك كان من أهم أسباب الضعف والانحلال الذي عمّ الأمة، وليس يخرجها من مأزقها إلاَّ تعميم التعليم، وجعل التعليم الديني بهيئة مشوقة فيها جمال العالم كله بحيث يحبها الأطفال فيرغبون في العلم شوقاً، ولا يرهبون ويضربون، وليأخذ المتعلم من كل فن طرفاً، ولتوزع العلوم على مجموع الأمة، وليكن رجال الدين جميعهم قادرين على حمل السلاح ليكون عندهم الشمم والإباء ويتعلموا علم الجندية، بل ليكن المسلمون جميعهم شجعاناً مدرّبين ـ وهم في قراهم ـ على الكفاح والجلاد، فهذا مجامع ما يمنع الاستهزاء ويصرف الحسرة عليهم إلى إغداق النعم لهم، والحمد لله رب العالمين.

آثار الاستهزاء في بلاد الإسلام

مرّ في بلاد الإسلام وسل عن الصناعات، وقل لهم: إن العالم قد ارتقى بالصناعات، فلا تسمع إلاَّ احتقاراً.

إيضاح أتم للاستهزاء بآيات الله: ضرب مثل للاستهزاء بآيات الله، مواكب الله ومواكب الملوك والدول في عصرنا

(١) مواكب الملوك والدول هي الجيش والسلاح تعرض على الجمهور.

(٢) مواكب الله ثلاثة صفوف:

«أ» الشمس والقمر والنجوم.

«ب» الجبال والشجر والدوابّ.

«ج» المنطاد والطيارة والبريد البرقي «التلغراف الذي له سلك والذي لا سلك له».

شرح هذه المواكب وكيف يكون الاستهزاء بها والإعراض عنها وما نتيجة ذلك

الكلام على مواكب الملوك والدول والاستهزاء بها وكيف يكون ذلك

إن الله عزّ وجلّ أنزل القرآن وضرب الأمثال على أننا في الأرض لا نعقل المعاني الإلهية إلاّ بضرب الأمثال من أنفسنا كما قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ ﴾[الروم: ٢٨]، الخ أي: أن الإنسان إذا كان له عبيد فإنه يأبى أن يشاركوه في ملكه، هكذا ضرب مثلاً لنوره بالمشكاة التي فيها المصباح الذي في زجاجة الخ، فهانحن أولاء نريد أن نعرف معنى الاستهزاء بضرب مثل مما نشاهد في الدول الحاضرة لنعقل معنى الاستهزاء ونعمل بما نفهمه كما ضرب هو الأمثال، فنشرح أولاً كيف يكون الاستهزاء بالمواكب الدولية لنقيس عليه الاستهزاء بالمواكب الإلهية، ليظهر لعلماء الإسلام في الأرض أننا وقعنا في هذا الاستهزاء وإن كنا به غير عالمين.

لقد جرت عادة الأمم الحاضرة أن تظهر عظمتها أمام الأمم المحكومة، فتبعث الجيوش مدججة بالأسلحة وتأمر بمرورها في الشوارع وفي الميادين العامة في عواصم البلاد التي حكمتها أو احتلتها أو ملكتها، فتوقع الرعب والهيبة والإجلال والإعظام في قلوب الرعايا، فتحصل النتيجة وهي الخضوع للأمة الحاكمة، ولكن في عصرنا الحاضر لما تنوّرت العقول وأضاءت البصائر، فكرت بعض الأمم في ذلك فقابلت تلك المواكب بالإعراض والاستهزاء. فانظر لما حصل في الهند في عصرنا الحاضر إذ أرسل الإنجليز ولي العهد إلى بلادهم، فأعرضوا في بعض العواصم وتولوا مدبرين، وأقفلوا الحوانيت والبيوت كأنهم يقولون: نحن لا نأبه بولي عهدكم ولا بجيوشكم، وهكذا في إرلاندة كانوا إذا أرسلوا فرقة وعرضوها بسلاحها أقفل القوم منازلهم وحوانيتهم وتركوا المرور في ذلك الشارع التي تمر فيه الجيوش.

هكذا أمتنا المصرية سنة ١٩١٩ م لما ثارت ثائرتها على الأمة الإنجليزية، فإنهم أرسلوا لجنة يرأسها عظيم منهم يسمى «ملنر» وهو من لورداتهم الفخام، فقاطعه جميع أهل البلاد، وإنّما فعل أبناء بلادي ذلك اتباعاً لما يسمعون عن الأمم الأخرى العاقلة، إذ يفعلون ذلك، وهذه الأفعال تنتج نتائج: إما تخفيف العبء عن المحكومين، وإما إرسال المدافع لهم وإذلالهم، وإذا عرفنا المثل الأول الذي يختص بأهل الأرض فلنشرع فيما هو المقصود، وهو الموكب الإلهي والإعراض عنه فنقول:

عرفت في المثال الأول الذي ضربناه مثلاً للإعراض عن مواكب الله تعالى، وأن الإعراض والاستهزاء ليسا باللفظ وإنّما هو بالعمل، هذا هو الاستهزاء العملي، وهو أقوى وأشد وأسرع وأمضى من الاستهزاء اللفظي.

فانظر ما يقول الله في الاستهزاء بمواكبه، يقول الله في سورة «الجاثية»: ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾[الآية: ٣١] إلى أن قال: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾[الآية: ٣٥] إلى قوله: ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الآية: ٣٦-٣٧]. وقال في سورة أخرى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [النساء: ١٤٠]. وقال في آية أخرى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

علم الله أن المسلمين سيغفلون عن آياته ويظنون أن النطق بالشهادتين والاعتقاد بالله وأنبيائه كافيان لحفظ أمة الإسلام في الدنيا والدين، فماذا فعل الله؟ هاهو أبرز لنا الصفين المذكورين في مواكبه: صف الشمس والقمر والنجوم، وصف الجبال والشجر والدواب. هذان الصفان معروضان لأنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، عرضها الله علينا جميعاً وخلق لنا الأسماع والأبصار، ورأيناها بأعيننا ففعلنا مع هذه المواكب ما فعله أهل إرلاندة مع الجيوش الإنجليزية، وما فعله المصريون أهل بلادي معهم، وهكذا بعض أهل الهند. أرانا الله هذه المواكب وهي ستة أنواع: أربعة منها نهاراً وهي الشمس والجبال والشجر والدواب، واثنان منها ليلاً وهي القمر والنجوم، وقال لنا: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾[فصلت: ٣٧]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾[الروم: ٢٢] وهكذا، فأفادنا أن هذه آياته كلها، فالشمس آية والقمر آية والنجوم آية وهكذا.

فهاهو ذا عرضها علينا فرأيناها بأبصارنا، وأسمعنا بالآيات القرآنية أن هذه آياته، لماذا قال ذلك؟ ليسجل علينا أن الاستهزاء بها والإعراض عنها استهزاء بآياته، فانطبق على أكثرنا قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾[النساء: ١٤٠] الخ، وقوله: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾[الجاثية: ٣٥] الخ. فهذه آيات الله بنص القرآن وهي مواكبه التي عرضها علينا.

علم الله أن بعض الأمم ستقابل حكامها بالإعراض، فيكون ذلك علامة على العصيان، فأنزل قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٢]، فجعل مجرد الإعراض كافياً لعقاب الكفار. وهاهو ذا الإعراض عرفناه بأنفسنا في الأرض من الأمم المحكومة وترتب عليه ما عرفه الناس. أعرض المحكوم عن الحاكم وموكبه، فأوجب الإعراض أثره، هكذا أعرض المسلم عن مواكب ربه، فحصل أثر إعراضه في أحوال الحياة، قد عرفت آية الجاثية إذ يقول: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾ [الجاثية: ٣٥]، ثم أتبعها بذكر أنه له الحمد وأنه رب العالمين، وأن كبرياءه في السماوات والأرض، فإذا استهزأ الناس بآياته فهو متصف بوصفين: وصف الكبرياء والتعالي، ووصف التربية، هو المربي وهو المتكبر، فماذا يفعل المربي المتكبر المتعالي بمن يستهزئ به ممن رباهم على موائد كرمه وإحسانه، وعرفت أن حفظ السماء التي أعرضنا عنها، وإنَّما حفظها من أمرين: إدراك أسرارها، والعروج من أهل الأرض إليها. فأما إدراك أسرارها فلم يعرف الناس منه إلاَّ النزر اليسير، وأما العروج إليها فإن الطيارات في وقتنا الحاضر ترتفع إلى حد معين، وأعظمها وأقواها لا تتجاوز حداً محدوداً ثم لا تقدر أن تتجاوزه. إذن السماء حفظت من صعودنا إليها ومن إدراكنا لأسرارها، ولم يكن لنا منها إلاَّ أنها مواكب قد عرضت علينا فكنا عنها معرضين. حفظت السماء وحرست بالشهب وحرم على الناس أن يعرفوا إلاَّ ما وصل إليهم، تكبر الله تعالى وتعاظم وعلم أننا أعرضنا عن آياته فأرسل لنا الصف الثالث من مواكبه وهو الطيارة والمنطاد والتلغراف. هذه مواكب غير طبيعية بل هي صناعية ألقاها إلى العقل الصناعي من وراء الحجب والأستار التي أسدلها على علوم السماوات والأرض وأنزلها إلينا مع كبريائه، فالكبرياء هي الصفة التي اقتضت حجب العلوم

عنا، ولا ينزّل علماً منها إلاّ بالجد والتعب والتشمير إذ لم يعلم الناس الطيارة والمنطاد والبريد البرقي بقسميه إلاّ بعد الجهد والنصب والتعب. إنه متكبر وإنه مربّ، فلكبريائه حرس السماوات وعلومها فمنعها، ولتربيته أعطانا منها ما اجتهدنا في البحث عنه، وسترى الكلام على الطيارة والمنطاد الخ في سورة «النحل» عند قوله: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الآية: ٨] والكلام على الشمس والنجوم والشجر قد مرّ في سورة «الأنعام» وغيرها، وسيأتي الكلام على الجبال في سور كثيرة، كسورة «الغاشية» وكسورة «الرعد» وغيرها.

هاأنا ذا قد أوضحت لك بفضل الله كبرياء الله بأن حرس السماء وجعلها سقفاً محفوظاً، وتربيته فإنه يعطينا بعد التعب، وكيفية الاستهزاء الفعلي الذي ظهر نظيره في الأرض. إذا علمت هذا فاعلم أن الله لما عرض الصفين الأولين من المواكب وهي الشمس وما بعدها، ونحن لا نستيقظ بهما أردفهما بصف ثالث وهو الطيارة والمنطاد والبريد البرقي، فأصبحنا نرى ثلاثة صفوف لا صفين.

فالله عامل المسلم الآن معاملة الدولة القوية المتكبرة القاهرة إذ ترسل المدافع للمعرضين عن مواكبها. إننا بجهلنا بما في السماوات والأرض من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودوابّ قد عصينا ربنا بالإعراض عن معرفة كماله وجماله وحكمه، وهذا نوع من الاستهزاء العملي بالإعراض. وكفى به ذنباً، ولا ينفع المسلم ما يتعلل به من أن الإيمان كافٍ، فإن هذه حيلة العاجزين.

ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢] فالإيمان وحده ليس يكفي الأمة الإسلامية، إن الله فتننا وامتحننا بعرض السماوات والأرض والجبال فأعرضنا، فعرض علينا الطيارات فقربت منا، بخلاف النجوم والشمس والقمر التي هي بعيدة عنا.

يقول الله لنا: أيها المسلمون، إن آياتي العظيمة الكونية أعرضتم عنها، فهلا تفهمون آياتي الصناعية التي قربت منكم، تتلقون رصاصها وقنابل مدافعها وآثار ضربها.

وأنا أقول: أيها المسلمون، كفى استهزاء بآيات الله. يقرأ المسلم القرآن وهو عن العلم معرض، وينظر في مواكب الله وهو لا يعقل، ويرى أمم الأرض اغترفت من أنهار أنعمه فلا يبالي كأننا لم نخلق في هذه الأرض أو كأننا ميتون. هاأنا ذا أقول لكم ـ أخاطب قراء هذا التفسير لأنهم هم أصحابي الذين عليهم أعوّل في إيقاظ المسلمين، بهم تشرق شمسها ويضيء نهارها ويفلح جمهورها ـ: إن الفقيه والأديب والعالم المسلم الذي يعيش ويموت وهو لا يفرح ولا يعقل ولا يتفكر فيما ذكرناه كالمستهزئ وهو معرض عن آيات ربه، بل هو ليس بعالم البتة هو جاهل، وإنّما هو صاحب صناعة يعيش منها، كالقضاء وكالتدريس، هل يرضى المؤمن أو العالم أن يتصف بأنه مستهزئ بآيات ربه؟ أيها المسلمون اقرؤوا هذه العلوم ولتكن عامة في الأمة كلّ بقدره، وإلاّ فقد صدق علينا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[السجدة: ٢٢]، وصدق علينا قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾[سبأ: ١٦]، ولا معنى للإعراض من أهل سبأ إلاّ أنهم تركوا سدّ العرم ولم يصلحوه ولم يحافظوا على نظام البلاد، وقوله: ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[فصلت: ٤] هذا هو الذي فهمته في معنى قوله تعالى هنا فيما نحن بصدده من هذه السورة: ﴿ بِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ اهـ.

اللطيفة السابعة: في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

إلى قوله: ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

تقدم الكلام عليها في اللطيفة قبلها، وأزيد عليه: أن الله في هذه السورة يقول للمسلمين ما ملخصه: إني أهلكت الأمم السابقة بظلمها، وأنزلت عليها المصائب والخزي ببغيها، فلا تظنوا أنكم باسم الإسلام ناجون، ولا باتباع نبيّ بحسب الظاهر من العذاب خارجون، وكيف ينفعكم اسم الإسلام إذا غاب مسماه، ألم أقل لكم في أول سورة «الأعراف الآية: ٢»: ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فذكرت في السورة هناك هلاك الأمم وخراب الدول من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقوم لوط وقوم شعيب، فكما ذكرت تلك الأمم هناك مخاطباً الكفار ذكرتها هنا مع زيادة ونقص، فليكن الخطاب مع المسلمين الذين نافقوا إيذاناً بأن اسم الإسلام لا يمنع العذاب، وهاهو ذا قد حقت كلمة العذاب اليوم على كثير من المسلمين لإعراضهم عن فضائل دينهم وهم نائمون فحقت عليهم كلمة العذاب.

فتعجب كيف قدّم في سورة «الأعراف» أنه أنذر الكفار بعذاب كعذاب هذه الأمم، ثم جاء في سورة «التوبة» وأوعد المسلمين أنفسهم، أي: المنافقين منهم، بنفس ما أوعد به الكفار، وقال هناك: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يقل للمسلمين.

إن المسلمين قسمان: منافقون أنذروا في سورة «التوبة»، ومؤمنون ذكروا في سورة «الأعراف» بما أصاب الكفار قبلهم، فالكفار منذرون، والمنافقون منذرون، والمؤمنون يذكرون، وكل بني آدم في الدنيا لحوادث الأيام متعرضون.

اللطيفة الثامنة: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ راجع لـ﴿ رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾. اعلم أن أحوال الإنسان كلها ترجع إلى ما في نفسه، فلا جنة ولا نار ولا لذّات ولا نعيم ولا حور ولا ولدان ولا غيرها في الدنيا، ولا في الآخرة لا ألم لها ولا لذة إلاّ إذا استعدّت نفسه لقبول ذلك؛ فالنفس مركز الآلام ومهبط اللذات ومنبع النعيم ومقام الجحيم، فمن وضع في الجحيم أو الجنة فقد الإحساس بما حوله؛ بل هو في غفلة منه، فلا نعيم له ولا جحيم، وكل نعيم وكل جحيم وكل لذة وكل ألم صادرة بإرادة خالق العالم، فإذا أيقنت النفس أن لها بربها صلة وأنه راض عنها كان ذلك غاية الأماني ونهاية السعادة، لأن القلب محل السعادة والشقاوة، وهاهو ذا قد أيقن بالرضا وأنه مقبول، وأن العناية الإلهية رمقته فهو ذو صلة قلبية؛ وهناك يحسّ بلذة لا نتصورها نحن في الدنيا إلاّ بضرب مثل كأن ننظر إلى من يتقربون من الملوك ويرضون عنهم كيف يحسون بسعادة. وكأن تنظر إلى العاشق إذا علم أن معشوقه راض عنه لا صدود ولا هجر، كيف يحسّ بلذة وسعادة لا يشعر بها بقية الناس.

فأما مقام الرضا من الله فهذه درجة يعرفها من صرفوا أعمارهم في الإخلاص والذكر والفكر والعبادة مع الفضائل النفسية ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وهؤلاء لا يبالون بجنة ولا يخافون من نار، لأن رب البيت أشرف من البيت، والنظر إلى خالق الجنة أشرف وألذّ من النظر إلى

الجنة ؛ كما أن محادثة الملوك ومجالستهم ألذّ وأشرف من التمتع بطعامهم وشرابهم عند ذوي النفوس الشريفة والعقول المنيفة ، هذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

اللطيفة التاسعة : في قوله تعالى : ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾

قد تقدم تفسيره ، ويقال أيضاً : إن اثني عشر رجلاً من المنافقين هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه ، فجاء جبريل عليه السلام فأخبره وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم ، فأرسل حذيفة لذلك ، ويقال : إن حذيفة لما سمع وقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح ، قال : إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا ، ويقال أيضاً : إن المنافقين قالوا : إذا رجعنا إلى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبيّ ابن سلول تاجاً فلم ينالوا ، أقول : وكل ذلك محتمل والآية لا تمنع .

اللطيفة العاشرة : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾

يا ليت شعري ، أين الفقه وأين كون نار جهنم أشد حراً من حر الشمس على المسافر إلى تبوك؟ فما للفقه وما لذلك؟ الإنسان يتأذى من حر الشمس وهو مسافر ولا سيما إذا كانت الشقة بعيدة ، فأين نار جهنم حتى ننظرها ونقول إنها أشد حراً من هذه الحرارة الشمسية؟ هذا هو السؤال الذي يختلج في العقول وإن لم تنطق به الألسن .

الجواب

اعلم أن الفقه لا يذكر إلاّ في الأمور الدقيقة ، وهذا المقام دقيق لا يعقله إلاّ المفكرون ، فإن التواني والتكاسل والتباطؤ عن الحرب داع إلى اجتماع الأمم التي حول الكسالى عليها فيطؤون أرضها ويذيقونها العذاب الهون .

وأيضاً قدمنا في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن الأمم التي لم تحركها عواصف الدهر ولم تهجها مصائب الزمان ولم تهذبها الحروب يحيق بها الهلاك . فإذا شئت أن توقظ أمة فحرّك فيها حركة الحرب والجهاد ، فإنها تنشط من عقالها وتقوم من سباتها وتستيقظ من غفلتها ، وإذا رأيت أمة هادئة ساكنة عاكفة على تقاليد عتيقة نائمة ، فاعلم أنها صائرة إلى الزوال ، ولا تغرّنك ظواهر الأحوال ، وقد قدمنا خلاصة رسالة أرسطاطاليس إلى الإسكندر في هذا المعنى فلا نعيدها .

فإذا كان ترك الحرب في الدنيا هكذا شأنه فما بالك بالآخرة وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٢] . ومن أصابهم الجهل والكسل في الدنيا فإنه يكون طبعهم الملازم في الآخرة ، فيرسلون إلى دار تليق بهم ، وهذا هو عذاب النار ، فهل هذه المعاني التي لا تعرف إلاّ بمزاولة العلوم يعرفها إلاّ كل فطن لبق فهيم . هذا هو المراد بقوله : ﴿ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ .

اللطيفة الحادية عشر ، والثانية عشر ، والثالثة عشر

في قوله : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ، وفي قوله : ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وفي قوله : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

يقول في المخلفين تارة : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ، وتارة : ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، نفى عنهم الفقه مرة والعلم أخرى ، وحكم عليهم بأن قلوبهم منعت الحكمة

بما طبع عليها فهي لا تعي ما يرد لها من معقول ولا منقول، وهذا يكون الكلام فيه كالكلام في الذي قبله سواء بسواء، فإن الكسالى عن الحرب تأخذهم صاعقة العذاب الهون، ولعذاب الآخرة أشدّ. راجع اللطيفة المتقدمة. وأما قوله تعالى: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾، ولقد تقدم أن العذاب عذابان: عذاب الدنيا بالمصائب الكثيرة وعذاب القبر، والعذاب العظيم عذاب جهنم.

واعلم أن الظلمة والقتلة والفتّاك وجميع أرباب النفوس الشريرة لهم أنفس تطاليهم بالكمال وتهددهم وتذيقهم ألوان العذاب كما نص عليه سقراط في جمهوريته إذ قال: إن أولئك الملوك الظالمين والناس من حولهم يئنون ويحسون بألم في نفوسهم على مقدار ما أجرموا جزاء وفاقاً، وحياتهم شقاء ووبال. هذا معنى ما قاله سقراط. وأقول: زد على ذلك في هذا المقام أن هؤلاء ظلموا بترك الجهاد، فيحسون بوخس في ضمائرهم، وأنهم عالة على غيرهم، ولا أحد في الدنيا إلاّ وهو معذب بما فيها من المصائب في الأموال والأولاد، والصالحون والطالحون سواء، ولكن إذا كان للنفس مشرب ديني ومنهج أخلاقي احتسبت ثواب ما فاتها من أهل أو مال عند ربها، وانقلب الحزن بالرضوان سعادة، وأصبحت هموم الدنيا لا قيمة لها، ويصبح الإنسان كأنه ملك عند ربه وكأنه رضي عنه، فإنه إذا رأى المال والولد والرزق والذكر الحسن والصيت وكل ما يناله من خير وكل ما يصيبه من شر من عند ربه، وما فاته من الخير، يعتقد أن له عوضاً في الآخرة، وما أصابه من الشر، يعتقد أنه تكميل لنفسه في الدنيا وثواب له في الآخرة، فهذه الاعتقادات هي سبيل للرضا.

وقد تقدم أن الرضوان هو الفوز العظيم، وهذه الدرجة قد حرم منها المنافق، فهو أبداً مضطرب لفقد مال أو ولد أو صديق ولا يؤمن بالآخرة. فانظر كيف كان الفرق بين النعيم والعذاب فكرة المفكرين فالجاهل معذب بالنعيم، والعالم الحكيم سعيد على كل حال.

اللطيفة الرابعة عشر

وقد أخرت لطول الكلام عليها. اعلم أن الله ذكر أصنافاً من المنافقين فمنهم:

(١) المستأذنون في التخلف ليكونوا مع القواعد وهم أغنياء.

(٢) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى ﴾[الآية: ٤٩].

(٣) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[الآية: ٥٨].

(٤) ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾[الآية: ٦١].

(٥) ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾[الآية: ٧٥] الخ.

(٦) ومنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الآية: ٧٩] الخ.

(٧) ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾[الآية: ٩٨].

(٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾[الآية: ١٠٧].

(٩) ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾[الآية: ١٠١].

(١٠) ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾[الآية: ١٠١] الخ.

فهذه عشرة أصناف أهمّ من ذكر من أهل النفاق في هذه السورة، والمهم في هذا المقام قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾.

روى أكثر المفسرين قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري على غير الوجه الذي ذكرناه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يرزقه مالاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، ولما كرر ذلك قال له: أما لك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده، لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت. ولم ينثن عن الطلب وعاهد الله أن يعطي كل ذي حقّ حقه، فدعا اللهَ رسولُه فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فبعد أن كان يصلي الظهر والعصر مع النبي تباعد عن المدينة لكثرة غنمه، حتى صار لا يصلي إلاّ الجمعة، ثم صار لا يشهد جمعة ولا جماعة، ثم سأل عنه فأخبروه، فقال: يا ويح ثعلبة. ولما نزلت آية الصدقة أرسل له النبي صلى الله عليه وسلم عاملين للصدقة، فقال: ما هذه إلاّ جزية، ما هذه إلاّ أخت الجزية، ثم قال: اذهبا حتى أرى رأيي، فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرهما بالذي صنع ثعلبة بطريق الوحي فنزلت الآية: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾، فأخبر ثعلبة بذلك فجاء ومعه صدقته فلم يقبلها النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يحثو التراب على رأسه، ولما تولى أبو بكر لم يقبلها كذلك، وكذلك عمر.

ثم اعلم أن المقصود من هذه الآية أن نقض العهد ونحوه من إخلاف الوعود إثمه عند الله عظيم جداً، حتى أنه ورد في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، إذا ائتمن خان». وعدّها في حديث آخر أربعة: «إذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر». واعلم أن علماء المسلمين لم ينبهوا الأمة لمثل هذه الأمور وتركوا الأمة تكذب وتخن وتخلف العهد ولم يشيعوا بينها هذه الإنذارات والعظات، كما أشاعوا نواقض الوضوء وشروط البيع وعدد الطلاق، مع أن هذه المسائل أهم وأولى وأقرب إلى أصول الدين من غيرها. ويجب على العلماء أولاً أن يتخلقوا بها ثم ليشيعوها بين الشعب.

ومن كان في شك مما قلت فليتأمل حال الأمة الإسلامية اليوم، أوَلا يرى أن تجارتهم بائرة وجماعاتهم متنافرة وأموالهم خاسرة.

أليس إخلاف الوعد وكذب القول والغش في البيع كل ذلك نفر بعضهم من بعض فضاعت الأمانة وصدق الفرنجة، فصاروا هم القائمين بالأعمال، لم يزالوا هكذا حالاً بعد حال حتى احتلوا البلاد واستولوا على العباد، واستعبدوا الناس في عقر دورهم، ما هكذا يكون المؤمنون.

إن إخلاف الوعد والكذب والخيانة جعلت الناس أشبه بالمنافقين، حتى أصبحنا في مصر نرى أن العامة لا يعتبرون الصادق ذكياً، بل يقولون: إنه غبي جهول. اللهم أصلح أحوال العلماء والأمة الإسلامية بالصدق والأمانة ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[البقرة: ١٢٧]. ولتعلم أرشدك الله أن هذه الأخلاق التي فشت في المسلمين اليوم وأوقعتهم في براثن الفرنجة جاءت مصداقاً لهذه السورة.

ألا ترى أنه تعالى قد أوعد المنافقين بتذكيرهم بقوم نوح وعاد وثمود الخ. وهذه الأمم عذبت بألوان من العذاب، وما ذلك الوعيد للمسلمين إلاّ على النفاق كما أوعد الكفار في السور الأخرى، وهاهو ذا يقول في الحديث: إن الكذب والخيانة ونقض العهود وما أشبه ذلك نفاق، وأنت تعلم من الآية أن النفاق يضيع سلطان الأمم فيجعلها في قبضة أخرى ويهلكها.

وهذا هو عذاب المؤتفكات، أي: المنقلبات، وهذا انقلاب للأمم من حال إلى حال، فتصبح في ملك أعدائها وتستخدم كالدواب، فبعد أن كانوا سادة أصبحوا عبيداً.

فانظر كيف نص الحديث على أن الكاذبين الخائنين منافقون، وانظر كيف أوعد الله المنافقين في الآية بعذابهم وضياع دولهم وتمزيق شملهم، ولم يعين نوع العذاب. وانظر كيف حصل الأمران في أمة الإسلام: نفاق كما في الحديث، وتمزيق الشمل كما في الآية، وهذا هو القول الحق.

ولهذا جاء القرآن، وبهذا وأمثاله فليفهم المسلمون الدين، فلترتعد الفرائص، ولتتمزق الأفئدة، وليتعظ العلماء وليصدقوا هم أولاً في كلامهم، ولا يخلفوا وعدهم، ولا يخونوا أحداً، ولا يفجروا في المخاصمة، ثم ليحملوا الأمة على ذلك وليبلغوها أمثال هذه المعاني التي هي حقائق ثابتة، ومعجزات للقرآن واضحة، حتى تلمّ الأمة شعثها، وترجع مجدها، وتروج تجارها من الصادقين كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾[التوبة: ١١٩]. ولما ترك بعض المسلمين الصدق بارت تجارتهم وذهبت ريحهم، وقد أذن الله اليوم باسترداد مجدهم، وتمكين أمرهم وصدقهم وسيكون في هذه الأمة عاجلاً من يرشدونها، والله هو الولي الحميد. انتهى الكلام على القسم الثالث.

القسم الرابع

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ تمثيل لإثابة الله لهم الجنة على بذل نفوسهم وأموالهم، ومر أعرابي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرؤها، فقال: بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله، فخرج إلى الغزو واستشهد. ثم استأنف لبيان ما لأجله الشراء، فقال: ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾، ثم أكده فقال: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ ﴾ فهو مصدر مؤكد لما دلّ عليه الشراء ﴿حَقًّا﴾ واجباً ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: إن وعد الله للمجاهدين بالجنة مذكور في الكتب السابقة من التوراة والإنجيل كما هو مذكور في القرآن، وقد علمت فيما تقدم أن الجهاد هو المرقي للإنسانية كلها فهو معها يوم أن وجدت على الأرض ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ تقرير لكونه حقاً ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ أي: افرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم النعيم المقيم ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ من أهل الجنة ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ﴾ عن الكفر وعن المعاصي، فتحزن قلوبهم على المعاصي، ويندمون ويعزمون على الترك ويكون لهم على ذلك رضوان من الله، لا مدح الناس وذمهم، فهذه شروط أربعة لتوبة العاصي ﴿ ٱلْعَٰبِدُونَ ﴾ الذين عبدوا مخلصين ﴿ ٱلْحَٰمِدُونَ ﴾ لنعمائه ولما نابهم من السراء والضراء ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾: (١) الصائمون، لأن الصيام عائق عن الشهوات، وأيضاً من الصائمين من وصلوا في رياضتهم إلى الاطلاع على خفايا الحقائق. (٢) والسائحون للجهاد. (٣) والسائحون لطلب العلم. وأعلاهم الثالث، وأوسطهم الثاني، وأقلهم الأول، فهؤلاء كلهم سائحون ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ في الصلاة ﴿ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾

بالإيمان والطاعة وحفظ الأمة ونشر العلم ﴿ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ أوامره ونواهيه، وهذا مجمل الفضائل والسبعة قبله مفصل. ثم إن عادة العرب أنهم بعد السبعة يأتون بواو ويقولون إنها واو الثمانية، ولذلك قال: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ﴾ ولم يقل: «الحافظون» ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المتصفين بهذه الصفات.

يروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبي طالب لما حضرته الوفاة: قل كلمة أحاجّ لك بها عند الله، فأبى، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه، فنزل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[القصص: ٥٦] وكان ذلك في مكة، ولا زال يستغفر لأبي طالب حتى نزلت هذه الآية في المدينة مع السورة، وهي: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ معه ﴿ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: ما جاز لمحمد والذين آمنوا به أن يدعوا للمشركين ولو كانوا ذوي رحمهم من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك أما الأحياء فالاستغفار لهم جائز ليطلب به توفيقهم للإيمان.

وروي أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له صلى الله عليه وسلم: إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي الذمم أفلا نستغفر لهم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بلى، والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ الخ، ثم عذر الله إبراهيم، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ وعدها إبراهيم أباه بقوله: ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾[الممتحنة: ٤] أي: لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للإيمان ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾ بأن مات على الكفر أو أوحي إليه بأنه لا يؤمن ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ قطع استغفاره ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ ﴾ لكثير التأوّه، وهذا كناية عن كثرة ترحمه ورقة قلبه ﴿ حَلِيمٌ ﴾ صبور على الأذى، وهذه الجملة لبيان ما حمله على الاستغفار، وقد خاف جماعة من المؤمنين أن يكون استغفارهم قبل المنع معصية، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمَۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ للإسلام يسميهم ضلالاً ويؤاخذهم مؤاخذة الضالين ﴿ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ أي: حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه سواء كان ذلك في الاستغفار للمشركين قبل المنع أم في شرب الخمر قبل العلم بتحريمها من قوم بعدت ديارهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، أم في التوجه لبيت المقدس، وقد حوّل إلى الكعبة والقوم لا يعلمون لبعد الديار، فكل ذلك قد ذكر في سبب هذه الآية، فالمراد كما قال الضحاك: وما كان الله ليعذب قوماً حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من المنسوخ والناسخ، وما خالط نفوسكم من الخوف عندما نهاكم عن الاستغفار للمشركين، ما يبين لكم من الأوامر والنواهي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ملك السماوات كالشمس والقمر والنجوم، وملك الأرض كالشجر والدواب والجبال والبحار ﴿ يُحْيِۦ ﴾ للبعث ﴿ وَيُمِيتُ ﴾ في الدنيا ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ من دون عذاب الله ﴿ مِن وَلِيٍّ ﴾ قريب ينفعكم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ مانع.

ولما كان ما تقدم يقتضي البراءة من ذوي القربى إذا كانوا مشركين، بيّن الله بهذه الآية أن الله هو مالك الخزائن كلها فلتتوجهوا إليه وهو الناصر وحده ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾

وهذا كقوله: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[النور: ٣١] يأمر الله جميع الناس أن يسعوا للارتقاء في الدرجات، فكما ينظم حالهم من صبا إلى شباب إلى كهولة إلى هرم إلى موت، هكذا يجب أن يترقوا في أحوالهم المعنوية من كمال إلى أكمل منه.

وكل من كان في درجة من درجات الكمال يشرئبّ إلى ما هو أعلى منها، وما دام في الدرجة الدنيا فإنه مطالب بالرقي إلى ما هو أعلى، فيكون الارتقاء عن المرتبة الدنيا إلى العليا توبة من النقيصة واعتناق الكمال، وهذه هي التوبة المذكورة في هذه الآية، وهي المراد بقوله: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢] وهذا معنى توبة الله على النبي والمهاجرين والأنصار، ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ أي: وقت الشدة، فهم جميعاً يتنقلون من حال إلى حال أكمل، وهذه الشدة والعسرة كانت من الزاد ومن الحر ومن العدو ومن بعد الطريق، فكان ذلك كله ضيقاً وشدة، وغزوة تبوك كانت تسمى غزوة العسرة، والجيش الذي سار فيها كان يسمى جيش العسرة، فكان منهم عشرة يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم، وكان زادهم التمر المسوّس والشعير المتغير، وكان النفر منهم يخرجون وما معهم إلاَّ التمرات اليسيرة بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم لاك التمرة حتى يجد طعمها، ثم يشرب عليها جرعة ماء، وهكذا صاحبه حتى تأتي على آخرهم، ولا يبقى من التمرة إلاَّ النواة ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ عن الثبات على الإيمان أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه، وفي «كاد» ضمير الشأن والجملة بعده في موضع النصب، ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ كرره للتأكيد ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ﴾ أي: وتاب على الثلاثة: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، وأوائل أسمائهم مضبوطة بلفظ مكة وآخرها بلفظ عكة. ثم قال ﴿ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ تخلفوا عن غزوة تبوك وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ فيما تقدم، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي: برحبها، أي: مع سعتها، كأنهم لشدة حيرتهم وفرط قلقهم لا يجدون ملجأ يلجؤون إليه. فمثل ذلك بأن الأرض الواسعة الأرجاء البعيدة الأطراف لا تسعهم. وفيما يقرب من هذا:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي: قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور من فرط الوحشة والغم ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلاَّ إلى استغفاره. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم منع أصحابه أن يكلموا هؤلاء الثلاثة ولبثوا على ذلك خمسين ليلة. ولقد زادت الشدة عليهم أن أمروا أن يعتزلوا نساءهم بعد أن مضى عليهم أربعون يوماً من الخمسين، وكان أحدهم يطوف السوق والمساجد فلا يكلمه أحد. قال كعب بن مالك: آذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا. ومن حديث كعب بن مالك أيضاً أنه قال: جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت فسلمت فتبسم تبسم الغضب وصدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت: والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر من حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى

يقضي الله فيك، فقمت. وفي الحديث طول قد ذكرت ما يهم منه وهو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ بالتوفيق للتوبة ﴿ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ ليكونوا من جملة التوابين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ﴾ لمن تاب وإن عاد في اليوم مائة مرة ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ المتفضل عليه بالنعم. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فيما لا يرضاه ﴿ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ في إيمانهم وعهودهم وفي دين الله نية وقولاً وعملاً، والمراد بالصادقين هؤلاء الثلاثة وأمثالهم ممن صدقوا في نياتهم واستقامت قلوبهم ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة الكاذبة.

ومن ألطف ما يكون أن أبا بكر يوم السقيفة إذ قال الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، قال: يا معشر الأنصار، يقول الله: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨] من هم؟ قالت الأنصار: أنتم، فقال أبو بكر: إن الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فأمركم أن تكونوا معنا، ولم يأمرنا أن نكون معكم، نحن الأمراء وأنتم الوزراء. ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي: لساكني المدينة من المهاجرين والأنصار ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أي: سكان البوادي من مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وغيرهم ﴿ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ يعني إذا غزوا، أي: ليس لهم ذلك ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي: ولا يرغبوا بأنفسهم أن تصيبهم الشدائد، فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله في مشقة السفر ومقاساة التعب، وبعبارة أخصر: ولا يكونوا على أنفسهم أشفق من نفس النبي صلى الله عليه وسلم، ويقال: ولا يرغبوا بصحبة أنفسهم عن صحبة النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد.

روي أن أبا خيثمة بلغ بستانه، وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظلّ ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضحّ والريح، ما هذا بخير. فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرّ كالريح، فمدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب، فقال: كن أبا خيثمة فكان هو، ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الخروج ووجوب المتابعة ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ شيء من العطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ تعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ مجاعة ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا ﴾ ولا يدوسون مكاناً ﴿ يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ يغضبهم وطؤه ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ كالقتل والأسر والنهب ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ إلا استوجبوا به الثواب، وذلك مما يوجب المتابعة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ على إحسانهم تنبيه على أن الجهاد إحسان لأنه تنكيل للكفار وصيانة للمسلمين عن استيلاء الكفار، وهذه الجملة تعليل لقوله: «كتب» ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ في سبيل الله ﴿ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أي: تمرة فما دونها أو أكثر منها ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ أي: ولا يجاوزون في سيرهم وادياً ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ إلا أثبت لهم ذلك ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بذلك ﴿ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم، فيلحق ما دونه به إكثاراً لأجرهم وتوفيراً وإسعاداً لهم.

واعلم أن هذه الآية قد حتمت على جميع الناس أن ينفروا للقتال ويتركوا الأعمال الأخرى، فإذا جمعت الجموع، ورفعت البنود، واصطف العساكر للجهاد، وجب على جميع المسلمين السفر معهم، وهذا أمر يوجب ضياع المدن، لأن الناس إذا غزوا جميعاً، فمن لمدارسهم وطرقهم وزرعهم

وتجاراتهم ؟ لذلك أعقبه بما يفيد أن أعمال الأمة يجب أن توزع على الأمة وعلى كل ما يناسبه، فالعلماء يعلمون، والخطباء يعظون، والحكماء يؤلفون، والزراع يزرعون، والسوّاس يفكرون، وهكذا كما قدمناه مراراً في التفسير، وكما أوضحته في أواخر سورة «البقرة».

وقد قلنا مراراً إن الجهاد أمر دائم، فالناس إذا رجعوا من الغزو فالحياة كلها جهاد، بل إن الجهاد بالحجة أبلغ من الجهاد بالسيف، والتفقه في الدين هو الجهاد الأكبر، فإذا سمعت الله في هذه الآيات يقول ولا يفعلون كذا وكذا إلاّ كتب لهم كذا وكذا، فاعلم أنك الآن وأنت تقرأ هذا التفسير وفي غد وأنت تنظر في أمر الأمة وتنظم شؤونها وتربي أبناءها وتنصح جماعاتها، في عمل من هذه الأعمال، بل هو الجهاد الأكبر، وكيف لا يكون أكبر وهو اللبّ. ومن عجب أن الجمعيات المسيحية تعتمد في نشر دينها على التعليم وفتح المدارس، فكأنهم عملوا بما قاله علماؤنا من أن تعليم العلم هو الجهاد الأكبر وهو المقصود الأعظم.

انظر كيف يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ أي: وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً، فإن ذلك يخلّ بأمر المعاش، ولتوزع الأعمال كما أوضحناه في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٦]، ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ فهلاّ نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل مصر أو قرية جماعة قليلة ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ ليتكلفوا ويتجشموا مشاق تحصيل الفقه ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: وليجعلوا غاية سبيلهم ومعظم قصدهم من تحصيل الفقه أن يرشدوا قومهم ينذرونهم، لا أنهم يترفعون عن الناس ويتبسطون في البلاد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ إرادة أن يحذروا عما ينذرون، وإنَّما خص الفقه بالذكر لأنه أهمّ.

وهناك وجه آخر وهو أن الآية من بقية أحكام الجهاد، وذلك أن هذه الآيات لما فضح المنافقون فيها وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم السرايا نفر الناس كلهم للغزو، ولم يتخلف أحد، فنزلت هذه الآية، وهي تقتضي أن ينقسم المسلمون قسمين: قسم يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم يسمع ما يتجدد من الوحي، وقسم يسافر للجهاد، فإذا رجع الغزاة أخبرت الطائفة القاعدة من رجعوا بما سمعوا من الحديث والقرآن والأحكام الشرعية. ويصير معنى الآية: فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد، أي: وقعدت طائفة ليتفقهوا ـ أي: القاعدون ـ في الدين ولينذروا قومهم المجاهدين إذا رجعوا إليهم؛ أي: إلى القاعدين، لعلهم، أي: لعل أولئك الراجعين يحذرون مخالفة أمر الله. وهذا واضح وليس في مرجع هذه الضمائر منافاة للفصاحة، لأن المقام يفهم المقصود منها.

واعلم أن التفسيرين يرجعان لغرض واحد، فالمقصود توزيع الأعمال بين الناس، وقد كان أهم عمل بعد الغزو، تلقي العلم عن النبي صلى الله عليه وسلم، فأما اليوم فالأمر جدير بالعناية، فجميع العلوم واجبة، وقراءتها وفهمها من فروض الكفايات، سواء أكان ذلك العلم فقهاً أم حديثاً أم تفسيراً أم هندسة أم طباً أم علم المعادن أم الطبيعة أم الفلك أم صناعة الحرب أم بناء السفن أم علم الكهرباء أم علم المرائي. كل ذلك لا بد منه لقيام أمر الأمة، وهذه الآية واضحة ذكرت بعد الجهاد ليعرف المسلمون أمر دينهم.

فكل المسلمين يجب أن يكونوا في جهاد ليلاً ونهاراً، بل النوم نفسه جهاد لأنه به تقوى أجسامنا على العمل والطعام والشراب والرياضة البدنية، كل ذلك متى قصدنا أنه مقوّم لصحتنا نافع في قيامنا بأعمالنا كان جهاداً، فعلى المسلمين جميعاً أن تكون أوقاتهم كلها عملاً وعلماً. وحرام عليهم أن يتركوا فناً أو علماً أو صناعة، وكل ذلك جهاد، فقد اتضح أن توجيه المدفع والبندقية والديناميت لصفوف العدو ليس هو كل الجهاد، بل أفضل من هذا إقامة الحجج وإبانة السبل وإيضاح الحقائق، ولقد سمى ذلك علماؤنا الجهاد الأكبر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس». فتأمل وتعجب كيف نام العلماء في سائر الأقطار عن مثل هذه الآيات ولم يوضحوها للعامة والخاصة، ولم يفهموا الأمة أن الأعمال العلمية والعملية جهاد.

وإذا كان المسلمون في القرون الأخيرة لا يصدّقون إلاَّ بكلام العلماء السابقين، فأنا أقول: لقد أقاموا الحجة وبيّنوا في كتبهم ذلك، فليس للمتأخرين عذر، ولقد قال القدامى بفصيح العبارة: إن تعلم العلم والتفقه في الدين هو الجهاد الأكبر. وقالوا أيضاً: إنه فرض كفاية، وهكذا بقية العلوم والصناعات.

فكيف نام الوعاظ والعلماء عن إيقاظ الأمة وإشاعة هذه الأقوال وتنبيه النفوس وإثارة الحمية في القلوب وإبلاغ الناس وعد الله وثوابه، وتفهيمهم أن الحياة كلها جهاد، حتى إذا مات الإنسان أحس براحة ونعمة بعد ما قاسى من المشاق. وإني أطلب منك أيها الذكي القارئ لهذا الكتاب أن تدل الأمة على هذه المقاصد توصي الناس بها، وأقسم لك بـ ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾[الفجر: ١]، ﴿ وَٱلشَّمْسِ ﴾[الشمس: ١]، ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾[الضحى: ١]، ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ لأنه يظن أنه يعيش كالحيوان، يطلب أنثاه ويلد ثم يموت ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ فارتقوا عن تلك الطبقات وعرفوا أن الإنسانية لها مطالب سامية، وسموا في الأعمال النظامية العامة ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ ولم يبالوا بما يصيبهم في سبيله ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[سورة العصر] على الأذى. فكن أنت من هؤلاء فالأمر عظيم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾. اعلم أنه كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينذر عشيرته الأقربين، أمر أن يغزو الأقرب فالأقرب من الأمم، فقاتل صلى الله عليه وسلم أولاً قومه فسائر العرب فأهل الكتاب من بني قريظة والنضير وخيبر وفدك، وغزا الروم في الشام ثم فتح الصحابة الشام فالعراق ثم سائر الأمصار، ﴿ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ شدة وقوة وشجاعة وصبراً على الجهاد ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ بالعون والنصر.

ثم ذكر المنافقين فقال: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ﴾ أي: تصديقاً ويقيناً وقربة من الله، أي: إذا أنزلت سورة من سور القرآن يقول بعض المنافقين لبعض ذلك القول استهزاء، فأجابهم الله بأن الذين آمنوا تزيدهم هذه السورة المنزلة إيماناً، لأن الآيات المتجددة تزيد المؤمن إيماناً، وأما الكافر فإنه بها يزيد كفراً؛ لأن عدد ما كفر به قد زاد، كما زاد عدد ما آمن به المؤمن، وهذا قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ تصديقاً ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بنزول القرآن شيئاً فشيئاً ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: شك ونفاق ﴿ فَزَادَتْهُمْ ﴾ سورة من القرآن ﴿ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ شكاً وكفراً إلى شكهم وكفرهم، لأن الخبائث يتبع بعضها بعضاً، والشك يستتبع الشك.

والقلوب إذا خلت من الحكمة وابتليت بالجهالة وأحاط بها سوء الظن وأقلق مضاجعها جهل الحقائق والوساوس فأصبحت في شك من الليل مظلم، زادها ما يرد عليها من المسائل جهالة وظلمة، فحلك ليلها وأظلمت سبلها، وما مثل الشك والحيرة والاضطراب إلاّ كمثل المرض يزداد سوءاً بتطاول الزمن ويتشعب ويقوى وينمو كما ينمو النبات.

فهذا تفسير قوله تعالى: ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ كما في قوله في سورة البقرة آية :١٠: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي: شك ونفاق ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ على قاعدة النمو والتشعب واستفحال الداء وتفاقم الأمر. فالشك والحيرة يكونان في أول الأمر بذراً ثم ينبت في القلب ثم يثمر كفراً عظيماً فاستحكم ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

ثم أبان ذلك وأوضحه بأنهم في كل عام يغزون مع النبي صلى الله عليه وسلم ويعاينون ما يظهر عليه من الآيات، ومع ذلك لا يتوبون لأن النفاق استحكم في قلوبهم، والمرض غشى على أفئدتهم، فلا تصلح قلوبهم للإيمان، هذا كالدليل على ما قبله، وهذا قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ ﴾ أي: المنافقين ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ يبتلون ويختبرون بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات ﴿ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ لا يتوبون من نفاقهم ولا يعتبرون ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ تغامزاً بالعيون إنكاراً لها وسخرية ﴿ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ إن قمتم من حضرة الرسول، فإن لم يرهم أحد قاموا، وإن رآهم أحد أقاموا ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ﴾ عن الإيمان بتلك السورة، لما تقدم من المرض الذي نما فأثمر هذا الإنكار فزادهم الإنزال كفراً. وهذا كله إيضاح وتفصيل لزيادة المرض في قلوبهم، ثم دعا عليهم فقال: ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ أي: أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ أي: لسوء فهمهم وعدم تدبرهم.

ثم أخذ يبيّن عدم تفقههم وبلادتهم فقال: كيف تعرضون عن رسول منكم أيها العرب جاء لهدايتكم وسعادتكم، وسعى لجمع كلمتكم وهو رحيم بالمؤمنين، وأن من أعرض عن هديه فقد أعرض عن سعادة نفسه، ومن أعرض عن سعادة نفسه فقد كره نفسه وجمع في نفسه خصلتين يحبّ نفسه طبعاً وهو قد كرهها بالبرهان فهو كاره محب في آن واحد، وهذا أعظم البلادة، فأين الفقه ؟ فهذا هو تقرير ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾، ولو فقهوا لأدركوا أن اجتماع كلمة العرب تخيف الأمم حولهم فيحصل لهم عزّ الدنيا الذي هم به مغرمون، وهو كظل لعز الإيمان والدين. فهو وإن جاء للإيمان بالله والتقوى أصالة، فقد جاء بعزّ الدنيا تبعاً كما ظهر حالاً في تلك الأيام.

وهذا قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ من جنسكم عربي مثلكم ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي: شديد شاق عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه، وذلك المكروه إنما يكون بترك الجهاد والأعمال النافعة والعلوم والفقه، فلذلك طلب منكم الجهاد ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ على إيمانكم وإيصال الخير لكم وهدايتكم وصلاح شأنكم ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ والرأفة وإن كانت أشد من الرحمة قدّمت محافظة على الفاصلة ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عن الإيمان بك ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ﴾ فإنه يكفيك شرهم ويعينك عليهم. ثم استدل عليه بقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فلا أرجو إلّا هو

ولا أخاف إلاّ منه ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الملك العظيم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن آخر ما نزل هاتان الآيتان .

لطيفة

قد كنت كتبت عدة مقالات خطاباً للمسلمين في الجرائد ، وفيها ما يناسب قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ ، فهاهي ذه المقالة السابعة .

قد ثبت في المقالة السابقة أن فرض الكفاية ظاهر واضح من قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ ﴾ الخ ، ونحن بحمد الله ذاكرون في هذا المقام كيف كانت درجات العلماء السابقين في البحث وانحطاط العلماء المتأخرين في ديار الإسلام ، وكيف قصرت عقول كثير منهم فهم لا يعلمون .

أقول : لما وصلت إلى هذا المقام قال لي ذلك العالم صديقي : إن علماء الإسلام لم ينكروا فرض الكفاية وعمومه في كل شيء . قلت : لم ينكروه علماً إجمالياً ولكن عند العمل يسكتون عنه ، وقد كان المتقدمون مدققين باحثين مفكرين ، فأما الآخرون فإنهم ناموا وعكفوا على القليل من العلم كأنهم لا يعلمون ، قال : فاذكر مسألة واحدة لتبيّن بها تقصير المتأخرين . قلت : ألم تقرأ مذهب الإمام الشافعي؟ قال : بلى . قلت : ألم تقرأ في كلام الأئمة السابقين منهم وتبعهم اللاحقون ، فقد قالوا : إن الإنسان يجب عليه أن يغسل جزءاً من العضد إذا غسل الذراع مع المرفق ، وعللوا ذلك بقولهم : ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب ، فإذا كان المتقدمون عنوا أشد العناية بالدين ، ولما سمعوا قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] ، أقول : لما سمعوا ذلك قالوا : علينا أن نحتاط ونغسل جزءاً من الساق وراء الكعبين وجزءاً من العضد وراء المرفقين ، فإنه لا يتحقق تمام غسل المرفقين وغسل الكعبين إلاّ بغسل جزء مما فوقهما ، لأن ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب . هذه مسألة يعرفها صغار الطلبة في الأزهر والمعاهد الدينية .

فيا ليت شعري ، كيف يعرفون هذا ولا يفكرون في أمر الجهاد؟ يا سبحان الله ، أفليس الجهاد واجباً كما وجب الوضوء ؟ فلماذا لم يتابع المتأخرون هذه المباحث بعناية أشد ويقولوا إن الجهاد لا يتم إلاّ بالطرق الحديدية وبالزراعة التامة وبالصناعات وبالأمانات وبالأخلاق وبنظام البلاد ، حتى تضارع وتفوق أهل أوروبا ، فقال العالم الديني صديقي : إن هذه الآراء مذكورة في ثنايا الكتب . فقلت : وهل هي أقل وجوباً من وجوب الوضوء ، إن الوضوء فرض عين ، ووجوب هذه العلوم كلها فرض كفاية ، وفرض الكفاية إذا لم تقم به جماعة عذبت الأمة كلها في الدنيا والآخرة ، وفرض العين يعذب عليه تاركه وحده .

إن فرض الكفاية هو القلعة والسياج الذي لا يكون فرض العين إلاّ بعد وجوده ، وإلاّ فكيف يصلي الناس أو يتوضؤون أو يحجون أو يزكون أو يصومون ، وبلادهم مختلة محتلة وحكوماتهم معتلة ، ففروض الكفايات بتركها تخرب الأمم وتذل لغيرها ، ولا تستطيع القيام بالفرض العيني ، فإذا عرف كل طالب في بلاد الإسلام أن غسل جزء من العضد وجزء من الساق وراء المرفقين ووراء الكعبين

واجب، فلماذا لا يعرف كل طالب أن العلوم التي في أوروبا وفي أمريكا وفي اليابان وفي الصين يجب على المسلمين جميعاً أن يعرف كل طائفة منهم قسماً منها، حتى يكون المسلمون كأهل أوروبا في علومهم ومعارفهم ونظمهم.

ولعمري إذا عرف كل طالب وجوب غسل جزء من العضد وجزء من الساق احتياطاً لدينه، فبالأولى يجب عليه قبل كل شيء أن يعرف أن البلاد لا حياة لها والدين لا بقاء له، إلاَّ بدراسة جميع العلوم وتعميم القراءة والكتابة في الإسلام.

أقول: ولقد أنذرت أمة الإسلام بالقرآن وحذّرتها وأوضحت لها طرق الواجبات، وإني أطالب كل مطلع على قولي هذا أن يفكر فيه، وأن يقوم بنشره من يفقهون. إن الأمة الإسلامية لما تركت هذه العلوم لم تبشر بالنصر، ولم تكن مهدية إلى أقوم طريق ولم يكن كثير من هداتها رجالاً من أولي الألباب.

يقول الله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ١٧-١٨]، فاستماع القول واتباع أحسنه عام شامل لجميع العلوم والصناعات والأحوال. فقال: إنك إذا عممت هذه الآية هدمت الدين، وخالفت المتقدمين والمتأخرين وكأنك بهذا تقول للمسلمين إذا استحسنتم أمراً فاتبعوه، واتركوا دين الإسلام من الكتاب والسنة، فأنت بفهمك هذا هدمت جميع الدين، ولا يرضى بهذا المسلمون. فقلت: إن أحسن القول المذكور لا يصادم الدين ولا يخالفه، بل هو ما يجب فيه، لأن أحسن الأحوال هي التي يطلبها الدين. فقال: لو استحسن رجل أن لا يصلي، إذن يكون من أولي الألباب؟ فقلت له: ليس هذا قولاً حسناً، وإنَّما هو هوى وشهوة وغرض، فكل صناعة أو زراعة أو علم وجدنا فيه خيراً في حياتنا فلنتخذ أسهل الطرق لحوزه لنستخلص أجمله ونقرأه ولنعمل به. فقال: وكيف السبيل إلى معرفة هذا القول الأحسن؟ فقلت: لتشكل لجنة في مكة وليرأسها عظيم من عظماء الإسلام، فكما أن لدول أوروبا جمعية أمم فليكن لأمم الإسلام جمعية علم، وليكن في هذه الجماعة من كل طائفة من المسلمين، من الترك والهند والأفغان ومصر وسوريا الخ، وليكن في هؤلاء متضلعون في علوم: فهذا في الطب، وهذا في العلوم الرياضية، وهذا في العلوم الطبيعية، وهذا في التاريخ، وليكن منهم عارفون بأهم اللغات، ثم ليدرسوا نظم الأمم الأوروبية والأمريكية، ثم ليبحثوا عما عندهم من العلوم وليأخذوا منها أجمل ما فيها ومن الصناعات، ثم لتنتشر في بلاد الإسلام.

فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ ﴾ فإنهم استمعوا القول بلغات مختلفة: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾. فلذلك وصفهم بأنه هداهم ووصفهم بأنهم أولو الألباب، وإنما كانوا أولي ألباب لأنهم استخلصوا لبّ الأشياء. ولا جرم أن اللبّ أحسن من القشر، فإنه هو المقصود فاللبّ إذن أحسن من غيره، فلذلك وصفهم بأنهم أولو الألباب، فهؤلاء بشرهم الله بالنصر وبالجنة وبالنعمة في الدنيا والآخرة. فقال ذلك العالم صديقي: لم يبق إلّا شيء واحد، وهو هل عندك من دليل يؤيد أن المسلم يستخلص من كلام الكافرين، ويتبع أحسن ما يقولون، إن المفسرين لم يقولوا ذلك، فإن أوسع قول عندهم يرجع إلى أقوال علماء الإسلام، فأما أخذ الأحسن من قول الفرنجة وعلماء اليابان

فهذا لا يقبله المسلمون. قلت له: قال الله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧]. فقال: فهل أهل الذكر أهل أوروبا؟ فقلت له: الذكر في كل شيء بحسبه؛ فعلم الفقه عن الفقهاء، وعلم الحساب عن العلماء به ولو كانوا كافرين، وعلم الزراعة عن العلماء بها وهكذا. فقال: لا يزال المقال يحتاج إلى دليل. قلت: أفيكفيك عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: وماذا يكفيني إذن؟ قلت: ألم تعلم أنه صلى الله عليه وسلم والمدينة قد حاصرها الأحزاب من كفار مكة وغيرهم، جاء له سلمان الفارسي وأخبره بأن الفرس كانوا يحفرون الخنادق حول مدنهم إذا هاجمهم العدو، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك أمر بحفر الخندق، ولم تكن العرب يوماً ما تعرف الخندق ولا حفره. فهذا القول قاله سلمان الفارسي وهو مسلم، ولكنه نقله عن أمم مجوسية يعبدون النار، فلو كان الأخذ عن أوروبا وأمريكا غير حسن، ولو كان اتباع الأحسن مما يوافق ديننا غير مرغوب فيه، لكان صلى الله عليه وسلم نهى سلمان الفارسي عن هذا، وقال له إن هؤلاء كافرون فلا نسمع قولهم ولا نتبع طريقهم، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استمع القول عن عباد النار وعن غيرهم فاتبع أحسنه، فهناك طريقتان:

الأولى: أن يقف الرجال حول المدينة ويدافعوا عنها، وهي طريقة العرب الجاهلة.

الثانية: أن يحفروا خنادق، وهي طريقة عباد النار. فاتبع الأخيرة وهي أحسن القول، فبشره الله وبشر أصحابه ونصرهم وأعزهم وهداهم، وهؤلاء هم أولو الألباب.

أفلا يسع المسلمين ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أفما آن الأوان أن يتذكروا ويعتبروا؟ لقد شدّدت أيها الأستاذ في قولك وسرّني منك ذلك التشديد، تريد بذلك أن لا يبقى لأحد من المسلمين مطعن في القول ولا شبهة، وإني أحمد الله عزّ وجلّ أن وفق لهذه الرسالة وأرشد إلى ما يجب على المسلمين في مستقبل الأيام لحفظ كيانهم إذ لم يبق عذر لمعتذر، وحرام وإثم عظيم على من قرأ هذه الآراء وأمثالها فلم يتناقش فيها ولم يفكر ولم ينشر ما يماثلها إن كان قادراً بين جماعة المسلمين في الأمم الإسلامية، لا سيما الأمم العربية. والله هو الولي الحميد.

فهذه هي المقالة التي اخترتها من تلك المقالات في هذا المقام، وهناك مقالات نشرتها في الجرائد أيضاً بمناسبة ما جاء في الأخبار أن دولة «هولاندة» قد حتمت على المسلمين من رعاياها أن لا يصلوا إلا برخصة في بعض الأوقات، وأيضاً راقبت التعليم مراقبة شديدة، فكتبت هذه المقالات الست الآتية في جرائدنا المصرية قبل أن يلغوا هذا الأمر، وبعد كتابتها جاءت الأخبار أنهم قد أرادوا محاسبة المسلمين، وهذه المقالات توبيخ للمسلمين على ترك العلوم الذي أورث الذل المذكور، وهذا المقام هو المناسب لهذه الآية التي أوجبت فروض الكفايات.

الإسلام والاستعمار وسبب تأخر المسلمين

المقالة الأولى: في شهر يونيو سنة ١٩٢٥ أصدرت الحكومة الهولاندية قانوناً فيه اثنا عشر فصلاً تتضمن الشروط التي بمقتضاها يجوز مباشرة التعليم الإسلامي، أهمها ما يأتي:

(١) من أراد أن يباشر التعليم في العلوم الإسلامية فعليه أن يرفع ذلك إلى أمير البلد ويشرح له مقاصد التعليم.

(٢) وأن يتخذ دفتراً مخصوصاً للتلاميذ وشرح أحوالهم ولا يلقي عليهم شيئاً إلاَّ بعد مصادقة الحكومة عليه.

(٣) ورجال الحكومة لهم أن يتفقدوا ذلك في كل وقت لينظروا هل قال لهم شيئاً غير ما صادقت عليه الحكومة المذكورة.

(٤) ولرجال الحكومة أن يحضروا مجلس التعليم ويسألوا عما يشاؤون من الأمور المتعلقة بمهمة التعليم، ولهم أن يدخلوا متى شاؤوا المدارس أو الأقسام الداخلية، وإذا رأت الحكومة أن التعليم مخالف لما تقدم فلها أن توقف التعليم إلى مدة سنتين.

(٥) تسجن الحكومة ثمانية أيام على الأكثر أو تغرّم ٢٥ روبية على الأكثر كل من ارتكب الأعمال الآتية: «أ» من يعلم العلوم الإسلامية بغير إذن من الحكومة. «ب» من يقدم للحكومة تعريفات كاذبة بشأن تعليمه. «ج» من يتهاون في إملاء الدفتر المذكور.

(٦) تسجن الحكومة شهراً على الأكثر أو تغرم ١٠٠ روبية كل من ارتكب الأعمال الآتية: «أ» من يلقى التعاليم في مدة إيقاف الحكومة إياها. «ب» من يرتكب الأعمال المتقدمة أعلاها.

هذا هو أهم ما في هذا القانون. هذه هي أحكام هولاندة التي لا تبلغ عدّ الأصابع من الملايين في أربعين مليوناً من المسلمين، بماذا تعاملهم؟ لا يصلون في الصحراء إلاَّ برخصة، لا يعلمون فروض الوضوء إلاَّ إذا سمعها الحاكم العام وأقرها، لا ينطقون في منازلهم وفي مزارعهم إلاَّ بما يقرّ عليه الحاكم العام لأنه إذا حرم عليهم نفس الدين إلاَّ بإذن فبالأحرى لا يتمتعون بعلم البتة ما دام فيه حياة للمجموع.

ألا قاتل الله الجهالة العمياء، جهالة المسلمين. أيها المسلمون، اسمعوا: أتدرون لماذا حلّ بنا ما ذكرناه، ذلك لغرور الأمراء والعلماء في الأعصر الغابرة ورؤساء الدين جميعاً. إن رؤساء الدين سواء أكانوا صوفية أم علماء فقه أم أمراء في الأعصر الغابرة، كانوا يفهمون المسلمين أن ليس عليهم سوى ما يقرؤونه لهم من العلوم، وما يدرسون لهم من مقدماتها خوفاً من أن ينبغ الشبان ويظهر العلم فيمقتوا الجاهلين من رؤسائهم، وظلت الحال على هذا المنوال آماداً وآماداً حتى أصبح ذلك خلقاً راسخاً وسجية ثابتة وعادة متبعة، ومن خالف تلك العادة عدّ فاسقاً أو مبتدعاً الخ.

ولكم قام في المسلمين قبلنا من دعا للإصلاح، أي: تعميم العلوم كالعلاّمة ابن رشد بالغرب، فحكموا عليه بالإلحاد، فمات شريداً وحيداً ونقل تلاميذه من اليهود علمه إلى أوروبا فأيقظها من رقدتها فارتقت وأخرجت من الأندلس المسلمين الذين كانوا لهم مطيعين، ولقد فعل قبل ذلك أهل الشرق بتعاليم الغزالي، فأصبحوا بها جاهلين، لم يكن هذان العالمان وأمثالهما مارقين من الدين. كلا بل كانا يأمران بتعليم جميع العلوم الطبيعية والفلكية فأبى الرؤساء خيفة على رئاستهم فظلوا جاهلين. ذلك تاريخ أسلافنا في العصور المتأخرة، جهل عميم وغرور كبير وذل مهين.

أيها المسلمون، لم يكن الله ليعطيكم أرضه وأنتم بها جاهلون، ولا ليهبكم الأعضاء والحواس وأنتم عنها غافلون، إن الله لا يعطي إلاَّ لمن يشكر النعمة ولا شكر لمن غفل عن استعمالها.

أيها المسلمون، أتظنون أن الله يلهم الأمم التعليم العام في هولاندة وسويسرا وأمريكا واليابان، ثم يبقى المسلمون جامدين عاكفين على الغرور.

أيها المسلمون، ليعم التعليم أبناءكم في الحجاز في العراق في الشام في مصر في بلاد شمال أفريقيا في بلاد جاوة. ليتم التعليم. أقول هذا واجب شرعاً وجوباً كوجوب أركان الصلاة، وأقول فوق ذلك: يجب تعلم الصناعات والعلوم التي أبرزها الله في الأرض وألهمها للأمم، أقول: يجب ذلك وجوباً شرعيا.

سيقول قائل: إن هذا الوجوب لم يرد في كتاب ولا سنة، فأقول: كلا، لقد أجمع علماء المذاهب إن الصناعات واجبة وجوباً كفائياً، معنى هذا أن كل صناعة يجب على المسلمين أن يقوم بها جماعة دون الباقين، وتكون أعمالهم كافية للمسلمين، فهذه الكتابة والقراءة إحدى الصناعات. ولقد ظهر في عصرنا الحاضر أن الأمم التي عمّ التعليم بها جميع الأفراد أرقى من غيرها، وأما الأمم الجاهلة فهي ذليلة حقيرة غبية جامدة.

فإذن إذا لم تعم القراءة والكتابة في أمم الإسلام فهي في خطر، فإذن لا كفاية لأمم الإسلام إلاّ بتعميم القراءة والكتابة، وهكذا يجب أن تخصص جماعة في كل أمة كمصر لكل علم ولكل صناعة بحيث يكون أطباء الأسنان يكفون البلاد، وأطباء العيون وأطباء الأجسام، وهكذا الزراعة والتجارة والحدادة والكهرباء وما أشبه ذلك.

وبعبارة أخرى: يجب أن يجدّ المسلمون في جميع الصناعات والعلوم، وإلاّ فالإثم عام على كل فرد. وإني أرفع صوتي لأمة الإسلام مبيناً لهم الحقيقة، فلا فرق بين التبحر في علم الفقه وعلم الطب وعلم الهندسة وجميع العلوم وجميع الصناعات، فإن لم يقم في الأمة من يغنيها عن الأجانب فيها فالأمة كلها مذنبة، ففي ترك أيّ صناعة يكون العقاب على المجموع. أما من ترك الصلاة فالعقاب عليه وحده أو على من رضي بتركه. هذا وسأوضح هذا المقام في المقال التالي.

المقالة الثانية: خطاب إلى أمراء الإسلام المستقلين، ومن هم تحت سيادة الأجانب وإلى جميع زعماء الإسلام وعظمائه.

إن الله أوجب علينا النصيحة لله ولرسوله ولكافة المسلمين، إننا معاشر المسلمين مقصرون جداً في أمور ديننا. إن العاكف على علم واحد أو عبادة واحدة أو ورد واحد أو ما أشبه ذلك، وظن أن هذا وحده فيه رضا الله فهو مغرور جهول.

إن الله أنعم عليكم بأممكم وبأرضكم، وخلقكم وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات، فهل أعطاكم هذه المواهب لتتيموها، أو منحكم هذه الأرض لتعطلوها؟ كلا. ألم يقل الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[البقرة: ٢٩]، ألم يقل: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[إبراهيم: ٣٣]. فهل خص الله هذه المنح بأمم غيرنا؟ أم نحن داخلون في الخطاب؟ فوالله عار على أمة الإسلام أن تكون أول الجاهلين بهذا الدين. ربما كان يغتفر بعض الجهل إذا كان المتقدمون ساكتين عن هذا الموضوع مغفلين له ولكنهم أوجبوا جميع الصناعات، وأقل التفاتة تعرّفنا قيمة الصناعات والعلوم اليوم.

فيا ليت شعري، من هذا الذي أفهم المسلمين أن علوم الدين خاصة بالفقه ومقدّماته؟ من ذا قال به؟ إن من يقول: إن الفقه وحده هو الواجب وبقية العلوم غير واجبة، غير موجود في أمة الإسلام

إلاّ إذا كان لا قيمة لقوله، أيجمل في دين الإسلام أن يكون المسلمون وحدهم هم المتقاعدون عن العلم؟ أيجوز هذا؟ أين دعاة الإصلاح؟ فوالله ليسألن الله كل عالم بقولي هذا ولا يرفع صوته، وليسألن الله كل من عرفه. نعم إن كثيراً من الناس عن هذا غافلون، وغفلتهم ناشئة من العادة والتقليد وإلاّ فالعلوم والصناعات واجبة وجوباً كفائياً.

اللهم لا كفاية إلاّ بتعميم القراءة والكتابة جميع أفراد الأمة بقدر الإمكان. اللهم لا كفاية إلاّ بنشر جميع العلوم من رياضية وطبيعية وفلكية وسياسية. اللهم إن هذا صار معروفاً عند الخاص والعام. فيا عجباً لأمة الإسلام، تلك الأمة التي تخطت البحر الأبيض إلى عدوة الأندلس، وعلمت أوروبا ورجعت بخفي حنين خائبة، إذ قدر لها قادة جهلاء في تلك القرون، وعلماء غافلون، فأقعدوهم وأناموهم حتى ذهبوا طحين الرحى بمزق الأشلاء وهم خامدون، أيجمل هذا أيها المسلمون؟.

أيها العلماء، أيها القادة، لا عطر بعد عرس، ولا مخبأ بعد بوس، قد حمّ الأمر واقترب الوعد الحق والأبصار شاخصة، وهل يجمل ذلكم بكم أيها المتعلمون؟ إني أذكر علماء الإسلام بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[البقرة: ١٥٩]، فهل لكم أن تبينوا للناس أن العلوم كلها واجبة، وأن أرض الله يجب أن يعمرها عباده ويستخرجوا منافعها، وإلا سلبها منهم وهم صاغرون.

أيها الأمراء، أيها العلماء، أما آن لكم أن تتذكروا؟ أوَما رأيتم كيف أذل الله الأمم الجاهلة وحفظ العالمة.

يا أمراء العرب، يا أبناء الأبطال، ألا أذكركم بمجدكم القديم؟ انظروا في التاريخ تجدوه ناطقاً بأن أبناءكم هم الذين قلبوا الكرة الأرضية فامتلأت علماً بعد أن كانوا بالجهل قانعين، وقد خلعنا عليهم ملابسنا العلمية وأصبحنا منها مجرّدين.

لعمري لئن اختلف الشيعي والسني والوهابي في أمور فرعية فهل يختلفون في التوحيد؟ وهل يختلفون في العلوم؟ وهل يختلفون في وجوب ما يلزم الأمة من العلوم والصناعات؟.

لحى الله الجهالة الخرقاء، لحى الله الجهالة التي أسدلت الحجاب على وجوه العلم ومعاهده الباسمات، وحجبت ذلك الشعاع الباهر والحسن الناضر والجمال الساحر عن عيون العاقلين، لحى الله أياماً قضت على بناة المجد أن يرزحوا تحت أثقال الرؤساء الجاهلين.

أما والله لئن لم ينته الأمراء عن التقاعد وأهل الفطنة عن التغافل لتنزلنّ الصواعق على الغافلين وليقطعن رؤوس أينعت إذ حان قطوفها وليحقق الله وعيده في المسلمين إذ قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[محمد: ٣٨].

من الآن فصاعداً يجب أن يكون قوّاد هذه الأمة وأفرادها من المطلعين على سائر العلوم ومن المفكرين؛ فالرئيس الصوفي أو الديني أو الأمير إذا لم يكن ملماً بالعلوم فإن أتباعه غالباً على شاكلته ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠]. اهـ.

المقالة الثالثة: المصلحون في الإسلام اليوم: أكثر المصلحين من الأمم الإسلامية اليوم إنَّما يوجهون وجوههم إلى مقصد واحد، وهو خلوص العقائد من الزيغ وطهارتها من الضلال، ونراهم

يقصرون على ذلك هممهم، ويصرفون إليه وكدهم قروناً وقروناً. وما مثلهم في ذلك إلاّ كمثل من أخذ يقول لابنه: إياك والسرقة والكذب والفسوق، ثم عطله من جميع المكاسب.

واعلم أن أحوال العقول الإنسانية ثلاث: إما أن تكون ملوثة بالعقائد الزائغة كأرض الزراعة السبخة لا تنبت إلاّ ما لا نفع فيه من النبات. وإما أن تكون طاهرة خالصة من الزيغ، ولكنها معطلة كأرض صالحة للزراعة وأهلها لا يزرعون. وإما أن تكون غنية بالعلوم مزدانة بالحكمة كأرض تنبت كل نبات وفاكهة ونخل ورمان.

فإذا دأب المصلحون في الإسلام على قولهم: دعوا الزيغ وطهروا العقائد، ثم تركوا العقول خالية من العلم، بعيدة عن الحكمة، غافلة عما أبدعه الله في الأرض والسماوات، غير عالمة بما أحاط بها في الشرق والغرب من الأحوال، ضرب بينها وبين العلم بسور عظيم، فإنّما مثلهم كمثل الفلاح الذي نقى أرضه وأصلحها وجعلها أهلاً للزراعة، ثم أخذ يفتخر بما صنع، فهو لا محالة حاصد بعد ذلك زرع الندامة والخزي والتقهقر المبين. هكذا دعاة الإسلام المصلحون إذا كان هذا دأبهم فليعلموا أن الأمر يخرج من أيديهم، وليعلموا أن وقت حساب الأمم قد آن وأن الله سبحانه قد أنزل القصاص في الأرض ليطهرها من المقصرين.

أيها الرؤساء والعلماء ورجال الصوفية، اتقوا ربكم وحرّضوا الأمة على التعليم، واعلموا أن عز الإنسان بعزّ أمته وذله بذلها، فكم من عقول دفنت، وكم من مواهب ذهبت ضحية الجهالة، وكم من قوى قيمة عظيمة أبدعها الله في أبناء الفلاحين في القرى والكفور، ثم طاحت وضاعت وسال دمها على مذبح الجهالة والغفلة والتقصير. الله قسم القوى والقدر على عدد الناس، ولم يذر قوة صناعية أو قوة علمية إلاّ خلق لها في كل أمة من هم أهل للبراعة فيها، وهل يستخرج تلك الكنوز إلاّ التعليم؟.

أيها المسلمون، أيها الأمراء في الإسلام، أيها القادة، أقول لكم قولاً حقاً: ما دام المسلمون يحتاجون إلى إبرة أو مفتاح أو مدفع أو محراث أو أيّ شيء من الخارج وهم مقصرون في صنعه، فهم معذبون يوم القيامة جميعاً، والعذاب اليوم ظاهر في الدنيا فإن إذلال الأمم إذا نزل بها عمّ سائر أفرادها ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٧].

أيها المصلحون في الإسلام، بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطبيين، ولم يبق في القوس منزع، وحمّ الأمر، فماذا أنتم فاعلون؟ أيسركم أن يكون فريق من المسلمين كالأمة العربية متجاورة البلاد متحدة اللغة والدين، لا فاصل بينها إلاّ الحدود الطبيعية، تسري متنافرة جاهلة، لا يعرف المراكشي منها السوري؟ ولا العراقي منها المصري؟ بل هم مشتتو المشارب، مقطعو الأوصال، فلماذا هذا؟ أقول: إنهم لم يتعلموا، والمتعلمون منهم تعليمهم غالباً أبتر وناقص، وإلا فبالله خبروني كيف يكون ممالك تعدّ بالعشرات تدخل في مملكة واحدة وهي الممالك المتحدة بأمريكا، وبينهم من سائر الأجناس والأمم والأديان؟ فيهم اليهودي والمسيحي والمسلم، فيهم الألماني والسوري والهندي والياباني، فيهم من كل أمة وهم متحدون. أما أبناء الإسلام المتجاورون فلجهلهم ولقلة علمهم لم يعرف بعضهم بعضاً، ألا ساء ما يفعل الشرقيون، اجتمعت الممالك المتحدة بالعلم، وافترق المسلمون بالجهل سواء أكانوا عرباً أم غير عرب.

أيها المسلمون، عمموا التعليم واجعلوه على أساس متين؛ فليكن التعليم الأولي عاماً، ولتكن جماعات تختص بكل علم أو صناعة، وبغير ذلك لا حياة ولا شرف ولا حرية ولا سعادة، ألم تقرؤوا قول الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾[العلق:١-٤] فانظروا كيف قرن الله العلم والقلم بخلق الإنسان في أول سورة نزلت، انظروا كيف يقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩]. فقد ذكر العلم ولم يذكر المعلوم ليكون التعليم على حسب ما يقتضه الزمان. إن الله يسأل العلماء والرؤساء والأغنياء في مصر وفي سوريا وفي العراق وفي أفغانستان والترك عن مجموع الأمة. والله المستعان.

المقالة الرابعة: الإسلام والاستعمار: تهافت الآراء في بلاد الشرق ولا سيما في بعض البلاد الإسلامية.

إن العلم الناقص يؤدي إلى الاختلال والخبال ويضيع الأمم ويؤديها إلى دار البوار. إن المتعلم الناقص أضرّ على الأمة من الجهلاء الأغبياء؛ فالمتعلم الديني والمتعلم المدرسي كلاهما إذا كان ناقصي العلم ألدّ أعدائها وأقوى مخربيها، فإن أعينهم في غطاء فهم الأخسرون أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف:١٠٤]، يسيئون حيث يحسنون، ويهدمون حيث يبنون، ويخرقون حيث يرقعون، ويقطعون حيث يصلون، ألا أحدّثك حديثين: حديثاً اتفق لي مع قاض عظيم، ومؤلف كبير قد مضى إلى ربه، وذكره مشهور في أقطارنا المصرية وغيرها، وهو المتعلم المدرسي بالعلم العصري، ثم أتبعه بحديث الإمام الغزالي عن علماء الدين في زمانه أيام عصر الدولة العباسية في الأيام الحالية والقرون الماضية، لتعلم إلى أيّ حدّ يصل الجهل والضلال، وإلى أيّ مدى يصل الغرور بالجهلاء.

حديثي مع ذلك القاضي الشهير

منذ بضع عشرة سنة عهد إليّ من قبل وزير المعارف أن أطالع كتاب «الرسالة القشيرية» في علم التصوّف مع عظيم من عظماء الفرنجة ليترجمه إلى اللغة الفرنسية، والذي أمره بترجمة ذلك الكتاب أستاذه الألماني المسمى «ماركس» فلما أخذنا في فهم تلك الرسالة التي ألفها الأستاذ القشيري الصوفي سنة ٣٥٠هـ تقريباً، وجعلها رسالة منه إلى الصوفية في بلاد الإسلام. قال لي ذلك الإفرنجي يوماً: إني أودّ أن أرى فلاناً القاضي لشهرة اسمه في بلادنا، فأرسلت إليه فحضر له وكلمه بالفرنسية. ثم إن ذلك الإفرنجي أخذ في بعض أعماله فسألني ذلك القاضي قائلاً: أنت من دار العلوم؟ فقلت: نعم. فقال: هي مدرسة حسنة وقد خرج منها عظماء. فقلت: نعم، ولقد أفادت البلاد بالمدرسين والمفتشين ولكن بقي شيء. قال: وما هو؟ قلت: إن أستاذنا المرحوم علي مبارك باشا قال لنا: إنكم انتخبتم من الأزهر والأزهريون إذا قرؤوا علوم أوروبا وطبقوها على الدين أزهرت بلاد الإسلام وأينعت وأخذت زخرفها وازينت، وما دام العلم في ناحية والدين في ناحية، فإن بلاد الإسلام تبقى وحوشاً يباباً، وقاعاً صفصفاً وصعيداً جرزاً تذروه الرياح، ذلك لأن هذه الأمة تعتقد بدينها وتتمسك به، هذا التمسك يوجب الضدّين ويحدث النقيضين، فإن عالم الدين إن كان جاهلاً فهم له تابعون، وإن ارتقى في الدين كانوا عالمين، فالأمة الإسلامية اليوم لقلة العلم بهذه الدنيا ونظامها وجهل القائمين بإرشادها واقعة في براثن الاستعمار

والإذلال، فإذا قام فريق من أهل العلم الديني، وكانوا على نور من ربهم في العلوم العصرية، اتبعتهم الأمة وأسرعوا إلى الرقي أكثر من جميع الأمم، لأن العقيدة الدينية يكون لها أثر في العلوم وتحصيلها عظيم. فقال القاضي: وماذا تقصد بذلك؟ قلت: أقصد أننا معاشر المتخرجين من مدرسة دار العلوم قد وضعت في أعناقنا هذه الأمانة، وهي تطبيق العلم على الدين كما قاله أستاذنا المرحوم علي مبارك باشا، هذا فرض كفاية علينا لأننا قرأنا الدين وقرأنا قسطاً من العلوم المعروفة اليوم، فقال: ـ وكنت أنا أعلم أنه ينكر جميع الديانات ـ أما أنا فإني أقول: العلم شيء والدين شيء آخر. فقلت له: ليكن ذلك فسر أنت بعلمك وعقلك، ولأسر أنا بديني، فعلم أنت الناس الأمور المعقولة، وأنا لقلة علمي أعلمهم أشياء ليست من الدين وأدخلها عليهم وأنا الغالب، لأن الناس يتبعوني وأقلهم هم الذين يعقلون، فأنا يتبعني ٩ وأنت يتبعك واحد، ولا تزال الأمة في ارتباك إلى ما شاء الله. فقال: إن الخرافات الملصقة بالعقول تزيلها العلوم الرياضية والطبيعية. فقلت: نعم، ولكني أقول إني لا أمكنهم من قراءتها وأقول لهم هذا كفر، فيتبعني الناس ويتركونك، فسر بعقلك ولأسر بما عندي وأنا الغالب. فقال: وما الذي في القرآن؟أليس الذي فيه «الجو الجميل» يريد بذلك أن الذي في القرآن إنَّما هو التشويق للعلوم. فقلت: نعم، وإذا ظهرت أمة وأريد رقيها وقيل لها أيتها الأمة إن ربك يقول لك «الجو جميل»، فهذه الجملة يكفي أن تقود الأمة متى كان هناك قوّاد. قال: وكيف ذلك؟ قلت: هذه الجملة تجعل كأنها عصاً يساق بها الناس إلى العلم، ويجب أن تصقل وتوضع بين السماء والأرض، ويقال انظروا جمال الجو بجمال النجوم وجمال الزهر، ومن هنا يدور البحث وتقرأ كل العلوم، لأن العلوم كلها ترجع إلى ما فوق الجو وما تحت الجو، ثم قلت: من العجب العجيب أن أرباب الفكر في الإسلام غاب عنهم أن أوروبا لما أرادوا الارتقاء لم تقل نترك ديننا، فأما نحن فإننا نريد تركه، قام «لوثر» المصلح العظيم فأنعش العقول والإسلام لا يحتاج إلاَّ إلى نظرة بسيطة وقراءة العلوم لا غير.

يا عجباً! لقد قال علماء الاجتماع إن الإصلاح الديني أسرع لرقي الأمة من الإصلاح السياسي فكيف غابت هذه عن عقول الشرقيين؟

قام المصلحون في أوروبا منذ ثلاثة قرون، وهم مصلحون دينيون ولم يقولوا نترك الدين، فيجيء الشرقي ويقول: كلا، أنا لا أنظر في الدين بل أتركه. فنقول له: هلا فكرت فيما يطلب من العلوم؟ وهل أوروبا تركت دينها إلى الآن؟.

فلما سمع مني ذلك قال: الحق أحق أن يتبع، أنا جادلت الشيخ فلان، وأشار إلى عظيم ديني متوفي يحترمه أكثر المسلمين فما أقنعني، ولكني الآن مقتنع، كل ذلك وذلك العالم الإفرنجي مشغول بعمله، فلما رجع ودعه القاضي المصري وانصرف، فقال العالم الإفرنجي: هذا مغرور. فقلت له: لماذا؟ قال: ألم ترنا رفعنا أصواتنا ونحن نتكلم؟ قلت: بلى. قال: لقد سألني ما الذي تدرس لي أنت؟ قلت: الرسالة القشيرية، فاستهزأ بعلوم الإسلام فحقرته وقلت له: قد أخطأت وعرفت أن الغرور في بلادكم عظيم، ويظهر أن العلم عند هؤلاء قليل، ولقلة العلم يدعون أنهم تركوا الديانات احتقاراً لها، ولكنهم هم أنفسهم لا هم فلاسفة ولا هم مفكرون. انتهى حديث القاضي والإفرنجي.

والآن أذكر آراء الإمام الغزالي منذ نحو ٩٠٠ سنة.

المقالة الخامسة: الإسلام والاستعمار: ذكرت في المقالة السالفة حديثي مع قاض عظيم مصري مضى إلى ربه لتعرف مقدار آراء بعض من لهم الزعامة في بلادنا المصرية آنفاً.

والآن أنقل لك رأي الإمام الغزالي في القرون الأولى، والدولة الإسلامية لم يكن لها نظير في الشرق والغرب، ولم تخلق إذ ذاك إنكلترا ولا فرنسا ولا ألمانيا ولا غيرها، أي: لم تظهر تلك الدول العظيمة، بل كانوا في غيابات الجهالة يرتعون، وفي حندس الظلام يهيمون، وفي فيافي الهمجية يرتعون، ولم يكن للأمم الإسلامية إذ ذاك من يعلوها في العلم والحكمة.

فانظر إلى ما يقوله الإمام الغزالي عن أهل زمانه من رجال الدين الذين انكبوا على علم الفقه جهالة وغباوة، وتركوا بقية العلوم التي لا تأتي بالمال، ووبخهم وذمهم وحقر شأنهم وجعلهم طلاب مال لا طلاب دين. فإذا كان ذلك في زمان عزّ الإسلام فما بالك بهذا الزمان الذي أصبحت أقل دولة في أوروبا أقوى من كثير من الأمم الإسلامية، فلأنقل لك ما قاله ذلك الإمام مما كتبته في سورة «البقرة» وأتبعته بما يناسبه، فأقول:

قال الإمام الغزالي في الإحياء: ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمي، لسرد عليك مجلدات من التعريفات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلاً ونهاراً في حفظه ودرسه، ويغفل عما هو مهم في الدين، وإذا روجع فيه قال: أشغلت به لأنه علم الدين وفرض كفاية، ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه كثيراً من فروض الكفايات، فكم من بلدة ليس فيها إلا طبيب واحد من أهل الذمة، ثم لا ترى أحداً يشتغل به من علماء الدين، ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع.

فليت شعري، كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء، هيهات هيهات، قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء، فالله المستعان وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان. انتهى المقصود منه.

وأنا أقول: أيها الإمام، قد مضى نحو ٩٠٠ سنة بعد تأليفك هذا الكتاب والمسلمون نائمون جاهلون، ومصر التي ظهرت في طليعة البلاد الإسلامية لا تزال كالعهد الذي تركت الإسلام عليه.

فيها معاهد دينية ولا تزال تلك المعاهد في التلبيس، وتبعهم رجال المدارس الذين لا يحلو لهم إلاَّ مدارس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعي. كل هذا للظهور وتولي الحكم والمحاماة، أما الصناعات والعلوم الأخرى فهي منبوذة إلا قليلاً، فليس عندنا مبرزون فيها إلا قليلاً، أما أوروبا فقد قهرتنا بآلاتها القاتلة والحارثة والطاحنة وسبقونا في الاقتصاد والسياسة.

ثم إن المدارس عندنا تعليمها لفظي ظاهري، لا يعشق الشبان في العلوم والبحث، فهو تعليم خال من الروح، ولذلك سقطت الأمة في هاوية الاحتلال الأجنبي.

الواجب على المجالس الشورية أو النائبة عن الأمة

الواجب عليها أن تقلب التعليم قلباً تاماً في المعاهد الدينية والمعاهد الدنيوية، وتدخل فيها التهذيب وكل ما يرغب في حب الأمة ومعرفة أحوال الأمم الاقتصادية وعلم الأخلاق وعلم الحيوان والنبات والمعدن، وليس يجوز أن يكون التعليم بلا ضابط، وإنَّما يكون على مقتضى الاستعداد المذكور في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٦]. ولعلك تقول: كيف تذم التعليم في مصر وفيها نبوغ ظاهر لذي عينين؟ فأجيبك بمقال سيأتي فيما يلي تحت هذا العنوان.

المقالة السادسة: هل في الإسلام نابغون؟! لقد سألتني قائلاً في المقال السابق: كيف تذم التعليم في مصر وفي بلاد الإسلام وعندنا نابغون؟

أقول: إن هؤلاء النابغون في الأزهر والمدارس ـ ولعل الإصلاح الحديث في المعارف وفي الأزهر ينمو ـ إنَّما جاء نبوغهم من استعدادهم ومن دراساتهم الخاصة وبيئاتهم. أما مستوى التعليم فإنه ناقص جداً، وأهم من هذا أنه غير منظم لم ينظر فيه إلى ما تحتاج إليه الأمة، الإمام الغزالي يقول لنا في المقال السابق: إن البلاد مشحونة بأهل الفقه وهي خالية من الأطباء، ويندّد على علماء الدين ويقول: قد ذهب الدين وضاع، لماذا ضاع؟ لأن البلاد ليس فيها من يقومون بجميع المطالب للأمة.

وأنا أقول: يا ضياع المسلمين اليوم، يا ضيعة الإسلام، أيها الإمام، المسلمون لا يزالون كما تركتهم؛ فأهل الفقه وحفاظ القرآن يملؤون بلاد الإسلام وكذلك المحامون والقضاة في مصر، أما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسكك الحديدية والبرق وعلماء طبقات الأرض وعلماء الأجنة وعلماء الميكروب وعلماء الحشرات وعلماء السياسات وهكذا، فأوروبا هي التي أنجبتهم في بلادها، وليسوا عندنا إلا قليلاً.

وأنت أيها الإمام تقول: إن الدين ضاع، وأنا أقول: إن كثيراً من أهل بلادي يجهلون أن هذا من الدين ولا يعترفون بأن ديننا يحرّم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة وصناعة الطرق الحديدية وصناعات المعادن، ولا يتصوّر أكثرهم أن ذلك فرض كفرض علم الفقه الذي به يكون القضاء، وأقول فوق ذلك إنه قد أخبرني عالم صيني أن علماء الإسلام هناك ظنوا أن العلوم العصرية مخالفة للقرآن، فتأخروا عن أهل الصين المتبعين للدين الوثني، فأصبح الإسلام في زماننا مانعاً من العلم في نظرهم والمسلمون هناك يبلغون سبعين مليوناً.

ولقد جاء من الهند أمير يقال له جمال الدين، من مدينة مدراس من الهند ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافيا والتاريخ، وقد أفتى عليها شيخ الإسلام في بلاد الترك قائلاً: إن هذه العلوم لا بأس بها، فقلت له: هذا تساهل من شيخ الإسلام، بل العلوم كلها فروض كفايات والمسلمون جميعاً مطالبون بتلك الواجبات، فكل صنعة وكل علم تلزم المسلمين جميعاً، فعليهم أن يكلفوا طوائف منهم بإتقان تلك العلوم والصناعات المختلفة، ثم قالوا لي: إن جميع علماء بلدي حرّموا هذه العلوم. أقول وقد أخبرني صديق لي من علماء تونس قائلاً: إن بعض العلماء في بلادهم يقولون إنه لا يجب شيء غير علم الفقه، أما النظر للعالم العلوي والسفلي فيكفي أن ينظر الإنسان بعينه، فالإسلام اليوم أضعف منه في كل زمان.

وقد جاء في الجرائد منذ أيام «يوليه سنة ١٩٢٧» أن ملك الأفغان أقفل مدارس البنات لأن علماء الدين حرّموا تعليمهن حتى استفتى علماء الأزهر وعلماء الهند فأفتوه بتعليمهن ففتح المدارس كرة أخرى، كل ذلك لقصور التعليم الديني في بلاد الإسلام وعكوفهم على علم خاص ومقدماته.

وإني أطالب كل من وقع هذا في يديه ـ هذا في كتاب تفسير للمؤلف «نداء للعقلاء في الإسلام» ـ أن يبحث في هذا الموضوع ويفكر بعقله ويستخرج العلوم الواجبة على المسلمين ويرفعها لولاة الأمور، فإنه ظهر بهذا القول أن علم الدين ليس خاصاً بالفقه بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروعاً لشجرة واحدة هي الحياة الإنسانية، كل ما عندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة راسخة، فليقلب التعليم في المعاهد الدينية على حسب ما قلناه، وكذلك في المدارس العصرية، ولتكن للأمة حال جديدة فهذه الحال لا يجوز إبقاؤها وليدرس هذا الموضوع دراسة تامة، فالإسلام وأمة الإسلام اليوم في خطر، ولا نجاة منه إلاَّ بما ذكرنا واتباع قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٦].

الأوقاف الإسلامية والمعاهد الدينية في البلاد الإسلامية

إذا تقرر أن فرض الكفايات تشمل العلوم والصناعات وأن المعاهد الدينية يدرس فيها علم النحو والصرف والمعاني وأمثالها، وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه، وكذا الحساب والهندسة والنظر في الكون. أفلا ينبغي أن ينظر في أمر الشهادة النهائية، ويقال: إن هذه العلوم كلها فروض كفايات لا فرق بين ما يسمى علوم الدين وما نسميه علوم الدنيا، إذ ظهر أن هذه التسمية غلط وخطأ من المسلمين.

فإذا نظر رجال الحلّ والعقد في المجالس النيابية والوزراء والأمراء في أمر ما تحتاج إليه الأمة من العلوم والصناعات، ثم قرروا أن يكون في تلك المعاهد شهادات عالية أيضاً للهندسة وأخرى للطب وللصناعات الشريفة، باعتبار أنها فروض كفايات وأن كثرة المتعلمين في البلاد من نوع واحد غير مفيدة كما قاله أسلافنا، إذا حصل ذلك فإنني أراه موافقاً للدين، بل أقول فوق ذلك إن مخالفة هذا تنافي الدين كما قرر الإمام الغزالي من النداء بالويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الأطباء في زمانه.

الله الله عباد الله، اتقوا الله في دينكم وأمتكم، وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه وأرقى منها بتنوع شهاداتهم مع أنهم منسوبون للدين، فمن أخذ الشهادة بالطب لا يكون أقل ممن أخذها بالفقه، لأنهما درسا معاً هذا الفن، ولكن أحدهما اختص بالطب والآخر استمر بحسب استعداده في الفقه، وكذا الهندسة وأمثالها، ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم في الامتحان التحريري بالأكثر.

ثم ينظر أهل الحل والعقد والأمراء في مختلف البلدان في الأوقاف الإسلامية وتنظم نظاماً تاماً، فلا تبقى مبعثرة كما هي الآن، ويحرم الإنفاق على العاطلين القادرين على العمل، بل توجه لما هو أصلح لرقي الأمة واستخراج ما كمن من القوى والقدر في نفوس الناشئين.

تبيان معنى التفقه في الدين

ولما أتممت هنا كتابة هذه المقالات في جريدة «كوكب الشرق» على الملأ من علماء الإسلام واطلع عليها الأخ المتقدم ذكره، قال: حسن ما كتبت، ولكن هل هذه الآية تحتاج إلى هذه المقالات

كلها؟ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ثم أمرهم أن يكونوا فريقين: فريق للجهاد، وفريق للنفقة في الدين، فهل التفقه في الدين هو هذا الذي ذكرته كله؟ فقلت: اعلم أن تقسيم الأعمال على الناس مأخوذ من هذه الآية بطريق الاستنتاج والقياس، وإن أبيت إلا أن يكون بطريق النص ففكر في معنى التفقه في الدين. فقال: علم الفقه معروف. فقلت: إن القرآن نزل على نبينا العربي صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، فأما هذا المعنى الذي ذكرته أنت فهو اصطلاحي، والاصطلاحي غير اللغوي؛ فالقرآن لم ينزل على قلوب علماء الفقه الاصطلاحي، بل أنزل قبل وجودهم، فمستحيل أن يكون الفقه هو المقصود. فقال: ما معنى الفقه في اللغة بالتحديد؟ فقلت: قال في القاموس المحيط: الفقه ـ بالكسر ـ العلم بالشيء والفهم له والفطنة، ثم قال: وفقهه كعلمه كتفقهه وفقهه تفقيهاً: علمه كأفقهه، وفاقهه: باحثه في العلم. اهـ.

فإذن الفقه هو نفس العلم وقد يلاحظ فيه الفطنة، فيكون من فقه الشيء أدق وأوفى علماً من غيره، فقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] إما المراد العلم به، وإما المراد العلم الأتمّ مع الفطنة، وهذا المعنى ليس خاصاً بالأحكام الشرعية، فالعلم الذي يورث خشية الله والخوف منه فقه، والذي به الوعظ فقه، وتدبر القرآن فقه، وعدّ نعم الله فقه، والعلم الذي به الورع والعفة فقه، والعلم بالله وآياته وأفعاله في عباده فقه، لأن العلم والفقه بمعنى واحد كما عرفت. قال: إذن كل ما عليه المسلمون خطأ، وأنت بهذا تخطئ أمة بتمامها، وهذا لا يقرك عليه أحد. فقلت: لم أقل هذا بل لا يخطر لجاهل. قال: ألن تعلم أن علم الفقه خاص بهذا الذي دوّنوه، ولم يقل منهم أحد بما ذكرته أنت؟ فقلت: هذا كما قلته لك اصطلاح والاصطلاح غير اللغة، ولا مشاحة في الاصطلاح وإلاّ فالآية تعطي هذه المعاني التي ذكرتها لك. فقال: لئن تخلصت بهذا القول فلن تفرّ مما بعده. قلت: وما هو؟ قال: وهل جميع العلماء السابقين كانوا في غفلة فلم يقولوا ما قلته أنت؟ إن هذا لعجب عجاب. فقلت: أنا لست مخترعاً لهذه المعاني بل هي نفس ما قاله الإمام الغزالي في الإحياء. فقال: اذكر ما قاله بالنص. فقلت: قال في الربع الأول ما نصه:

بيان ما بدل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف، وهي خمسة ألفاظ:

الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة. فهذه أسماء محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم.

اللفظ الأول: الفقه: فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل، إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقاً فيها وأكثر اشتغالاً بها يقال هو الأفقه.

ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة، معرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوّة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدّة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء

الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[التوبة: ١٢٢]، وهي الآية التي نحن بصدد الكلام عليها. ثم قال: وما يحصل به الإنذار والتخويف، هو هذا الفقه دون تعريفات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه، كما نشاهد الآن من المتجردين له، وقال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[الأعراف: ١٧٩]، وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى.

ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، وإنّما نتكلم في عادة الاستعمال به قديماً وحديثاً، قال تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[الحشر: ١٣] الآية. فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه.

فانظر كيف كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتعريفات الفتاوى، أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم، وقال صلى الله عليه وسلم: «علماء حكماء فقهاء» للذين وفدوا عليه، وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله: أيّ أهل المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم لله تعالى، فكأنه أشار إلى ثمرة العلم الباطني دون الفتاوى والأقضية، وقال صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقه؟ قالوا: بلى. قال: من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه». ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحبّ إليّ من أن أعتق أربع رقاب، قال: فالتفت إليّ زيد الرقاش وزياد النمري وقال: لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث، وإنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين ونعدّ نعم الله علينا تفقهاً»، فسمى تدبر القرآن وعدّ النعم تفقهاً، قال صلى الله عليه وسلم: «لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله وحتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة». وروي أيضاً موقوفاً على أبي الدرداء رضي الله عنه مع قوله: «ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتاً» وقد سأل فرقد السبخي الحسن عن شيء فأجابه، فقال: إنّما الفقيه: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، والمداوم على عبادة ربه، الورع، الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم، ولم يقل في جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوى في الأحكام الظاهرة ولكن كان بطريق العموم والشمول، أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر. فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ووجدوا على ذلك معيناً من الطبع، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر، فوجد الشيطان مجالاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع. انتهى ما قاله الإمام الغزالي.

فأفهم هذا المعنى أن الفقه يشمل أمرين: أحدهما تعداد نعم الله وهي العلوم كلها التي تدرس في مدارس أهل الأرض اليوم، وعلوم تهذيب النفس الذي سماه علم الباطن، وبعبارة أخرى: علم النفس وعلم الآفاق، هذا هو ما يطلق عليه الفقه.

وفي هذا التفسير الاهتمام أكثر بعلم الآفاق الذي هو تعداد النعم، وبه خشية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[فاطر: ٢٨] بعد ذكر ألوان الجبال والثمار والناس والدوابّ والأنعام. فقال صاحبي: قد ذكرت كلام الإمام الغزالي في الفقه، فماذا قال في العلم ؟ قلت: قال إنه يطلق على العلم بالله وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، وذكر أن هذا تسعة أعشار العلم التي كان يحملها عمر رضي الله عنه، قال: ثم خصصوه بالفقه ونحوه كسابقه، وقال: إن ذلك صار سبباً مهلكاً لخلق كثير من أهل الطلب للعلم، وجعل التوحيد أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله تعالى، فيترك الإنسان شكاية الخلق ويرضى ويترك الغضب ولا يتبع الهوى لئلا يكون تاركاً للتوحيد.

ويرجع التوحيد لظواهر القرآن التي تتسابق للأذهان، فكان العلم بالقرآن هو العلم كله، وقال في الذكر والتذكير: إنهما يرجعان لمعرفة عيوب النفس وحقارة الدنيا والتذكير بنعم الله وتقصير العبد في الشكر، وقال في الحكمة نحو ذلك، ثم قلت له: فهل أدلك على ملخص ذلك كله ؟ قال: نعم. قلت: هو مجمل في سورة الفاتحة مفصل في القرآن.

إن العلم والفقه والتذكير والتوحيد والحكمة يرجع أغلبها إلى أمرين كما قدمناه:

أولهما: علم نعم الله وهي العلوم كلها من الطبيعيات والرياضيات، وهي التي يعرف بها جمال الله تعالى.

ثانيهما: معرفة جمال البواطن وسلوك النفس، فمهما اختلفت العبارات فالمرجع لجمال أنفسنا بالصفاء وتهذيبها حتى تقبل معرفة العلوم التي ملأت الكرة الأرضية اليوم، وهذان الأمران مذكوران في الفاتحة:

الأمر الأول: أن الفاتحة فيها ذكر الحمد على نعمة تربية هذا العالم كله، والعلوم كلها هي معرفة هذه الدنيا، ولا يتم الحمد إلاّ بمعرفة النعمة، ولذلك صرّح بها فقال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧] والإنعام هنا يرجع إلى نعمة العلم والعمل، لأن المنعم عليهم هم النبيون والصدّيقون والشهداء والصالحون، وهؤلاء نعمهم علمية عملية، وإلاّ فالبهائم والجهال والعصاة منعم عليهم بلا علم ولا عمل، فالله لما ذكر الحمد أتبعه بذكر النعمة. وبعبارة أخرى: أن يدرك المرء هذه النعم ويعرفها وذلك بالعلوم كلها.

الأمر الثاني: تهذيب الباطن وتطهير النفس، وهو المقصود من هداية الصراط المستقيم. هذا هو إجمال معنى التفقه في الدين في آياتنا التي نحن بصدد الكلام عليها.

تفصيل هذين الأمرين في سور القرآن: ثم قلت: اعلم أن هذا المجمل في سورة الفاتحة فصله الله في القرآن فأنزل نحو ٧٥٠ آية في معرفة العوالم المحيطة بنا في السماوات والأرض، وذكر بنحو عددها أيضاً آيات لأجل تهذيب النفس وعلم السلوك والتطهير وآيات القسمين مذكورات بنصها في كتاب «جواهر القرآن» للإمام الغزالي.

ثم اعلم أن هذا التفسير قد قام ببيان أهم ما ذكرناه الآن بفضل الله تعالى، ولقد ظهر فيه أن بقية آي القرآن تنحو هذا المنحى، فإنك إذا نظرت إلى القصص التي لم تدخل في تهذيب نفس ولا ترغيب في علم قد رجعت إلى هذين الأمرين كما تطلع عليه في هذا التفسير بإيضاح، فآيات القرآن

كلها ترجع لتهذيب النفس ولتعليم العلوم الكونية، وهما الأمران المذكوران في «الفاتحة»، وهذا كله يسمى تفقهاً في الدين، ويسمى علماً ويسمى بعضه توحيداً ووعظاً وتذكيراً وحكمة، ثم قلت له: فتبيّن لك أيها الفاضل أن لفظ التفقه في الدين يشمل العلوم التي بها نعرف الله والعلوم التي نهذب لها نفوسنا، فأما عدا ذلك من الصناعات المنتشرة في الأرض فإنها تسمى فروض كفايات، وهي تعين على الأمرين المذكورين، فلما سمع ذلك قال: لقد استوفيت المعاني استيفاء، ولكن نقلك كلام الإمام الغزالي فيه اعتراض، فقلت: قل ما بدا لك، فقال: أكثر أحاديثه ضعيفة، فقلت: إنّما طلبت مني ما يأتي: هل قال هذه المعان أحد؟ فقلت لك: نعم، وذكرت ذلك، أما ضعف الأحاديث فليس يضرني لأنه يقول المعاني الشائعة عند الصدر الأول، فضعف الحديث ليس ينقص موضوعنا. قال: حسن. ثم قال: لماذا لم تنشر هذا بين الأنام وتبين كيف يعلم المسلمون هذا في مدارسهم حتى يتفقهوا في الدين؟ فقلت: أما النشر فإن هذا التفسير قد قام به على مقدار طاقتي وهذا هو الممكن لي. فقال: فلتكتب في الجرائد. قلت: قد كتبت بضع عشرة مقالة في جريدة «كوكب الشرق» في نحو هذا المعنى بعنوان «خطاب إلى الأمم الإسلامية»، وقد أدرجت منها فيما تقدم المقالة السابعة، وسأذكر هنا المقالة الرابعة المنشورة في يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٧ الموافق ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٣٤٤ هجرية، وهذا نصها:

من هم الأولى أن يسموا علماء الإسلام؟

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

يخاطب الله كل عاقل مقرراً له أنه أنزل من السماء ماء ومن هذا الماء خلق الله الثمرات المختلفات الألوان والأشكال والطعوم والروائح، وذكر أن الجبال بها طرائق مختلفة الألوان كاختلاف ألوان الأثمار: من طرائق بيض وأخرى حمر وثالثة شديدة السواد، وهكذا الدواب من الخيل والبغال والحمير والأنعام من الإبل والبقر والغنم، كل هذه مختلفات الألوان كالثمار والجبال، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

فيا ليت شعري، أيّ علماء يخشون الله؟ أعلماء الطهارة والنجاسة والبيوع والميراث؟ أم العلماء الناظرون في ملكوت السماوات والأرض الذين آتاهم الله الحكمة وتفكروا في خلق السماوات والأرض تفكيراً مبنياً على براهين ثابتة في علم الحكمة.

ألا قبح الله الجهل والغرور، ألا قاتل الله الكبرياء، لقد صرف الله المتكبرين عن آياته فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

يقول الله في القرآن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ بعد ذكره عجائب السماوات والأرض فيقول بعض الزعماء في الإسلام: العلماء، أي بالفقه، ويكتفون من التوحيد بتلك الكتب التي وضعت للرد على قوم كانوا ضالين.

أيها المسلمون إني أنصحكم أن علم التوحيد هو جميع العلوم من الفلك وعلم النبات والحيوان والإنسان وطبقات الأرض وجميع ما خلق الله. يقول الله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[الأعراف: ١٨٥]، يوبخ الناس على تقاعسهم ووقوفهم عن النظر فيما خلق الله في السماوات والأرض، يسمي الله هذه الطائفة المفكرة في بديع صنعه علماء وأنهم يخشون الله.

ولعمري لا يخشى هؤلاء الناظرون الله إلاّ إذا كانوا ينظرون من طريق الدين، فالدين الإسلامي يحرّض على النظر، ومن فكر في هذه العجائب التي خلقها الله فإنه يحسّ في نفسه لله بالعظمة التامة والحب العظيم وهناك ينبغ في الإسلام ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾[النور: ٣٧]. هؤلاء هم العلماء الذين إذا كثروا في أمة الإسلام أضاءت بهم الأرض وازينت وأشرقت بنور ربها.

أيها المسلمون، أليس هذا كلام ربنا؟ أفليس هذا قول الله تعالى؟ يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، فجعل في خلق السماوات والأرض واختلاف اللغات والألوان دلالات للعلماء لا للجهلاء، وأيّ علماء هؤلاء؟ أهم علماء الفقه؟ أم علماء الجدل المسمى بالتوحيد؟ لا، لا، هو العلم بالفلك وعلم المواليد الثلاثة من معدن ونبات وحيوان وعلم طبقات الأرض وفروعها.

إن علم الفلك ليس يكون إلاّ بعد علم الحساب والهندسة والجبر، فهذه العلوم لا يتم علم الفلك إلاّ بها، وهكذا علوم عجائب الخلق في الحيوان والنبات والإنسان لا تتم إلاّ بالعلوم الرياضية أيضاً، والعلوم كلها شجرة واحدة أصلها ثابت في القرآن وفروعها في جميع أعمال الحياة وعنان السماء وأطراف هذه الدنيا. العلوم كلها متصلة متحدة متآلفة، فمن عطل بعضها حرم الجميع ولم ينل إلاّ ظواهرها.

فيا ليت شعري، ألم يقرأ علماء الإسلام قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل: ١٤]؟ ابتدأ الآية بجملة اسمية تفيد التأكيد، وجعل تسخير البحر لنا، وجعل فوائده أربعاً: أكل لحم السمك منه، واستخراج الدر والمرجان ليكونا حلية منه، وأن الفلك تجري فيه بين أوروبا وإفريقيا وآسيا وأمريكا وأستراليا، يقول العلماء: إننا نستفيد بذلك التجارة وتبادل المنافع في الأقطار المختلفة.

هذه عناية الله بخلقه رحمته بهم وتكريمه لبني آدم، كرّم الله بني آدم فحملهم في البر بالدواب والقطر، وفي البحر بالسفن، ورزقهم الطيبات، وفضلهم على كثير من خلقه، فالله جعل من تكريم بني آدم حملهم في البر والبحر المذكور في هذه الآية آية تسخير البحر، فقد سخره لتجري السفن فيه بأمره، وهي تحملنا وتحمل بضائعنا. هذه بعض عناية الله بالأمم، ولكن المسلم لما كرمه الله بهذه وأباح له استخراج الدر والمرجان من البحر، ولى جانبه وأعرض عن نعمة ربه وقال: ما لي وللدرّ والمرجان، وما لي وللسفن في البحار، فلتصنع السفن ألمانيا وأمريكا وفرنسا، ولتحملنا عليها إذا سافرنا، أما الدر والمرجان فهما لا فائدة فيهما، فنقول:

أيها المسلم، أيها العاقل، أيها الفقيه، انظر بعقلك أولاً وانظر في الآية، ألم يفتح الله لك خزائنه البحرية، ألم يقل لك هاهو مرجاني في البحر فلك أن تستخرجه؟ فيقول فقيههم وهو متكبر محتقر: أيّ فائدة من هذه؟أليس المرجان خرزات تنظمها النساء يجعلنهنّ زينة؟وأيّ فائدة في هذه؟نقول له: اقرأ علوم الأمم الحاضرة، اطلع على كتب الأمم العظيمة وأنها دخلت في قوله تعالى: ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[غافر: ٨٣]. فإذا استهزأت بهذا وأمثاله اتبعك الشبان وهم الذين يصيرون قادة فتكون عقولهم كعقلك، فيموت العرب وبقية أمم الإسلام، وذلك من كبرك وعظمتك والله يقول: ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[الزمر: ٧٢] ويقول: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ ﴾[يونس: ٣٩] ويقول: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾[الأنعام: ١٤٨] فالاستهزاء والتكبر سبب خراب بلاد الإسلام الآن.

فربما يجيبك بعد هذا الكبرياء ويقول لك: حدّثني عن منافع هذا المرجان، إذا قال لك ذلك فقل له: إن المرجان عبارة عن هياكل حيوية ترسب في أبدان حيوانات دنيئة جداً شكلها كشكل الأزهار ذات ألوان مختلفة كاختلاف أزهار الأرض نظاماً وبهجة، وهي أجمل منها بما لا يقاس، وهو يوجد حول جزائر بحر الروم في قاع البحر من ٣٠ قامة إلى ١٣٠ قامة، هو أشبه بشجر قائم في البحر بما لا يزيد ارتفاعه عن قدم، وأهمه يكون أمام تونس والجزائر ومراكش وبقرب نابولي وجنوى وسردينيا وكورسكا. أتدري من يغوص على هذا المرجان؟ يغوص عليه الفرنجة وهو ينمو في عشر سنين، وكل سنة يغوصون على قسم منها، ففي بعض السنين كانت الزوارق الإيطالية ١٥٠٠ زورق وفيها ٤٢٠٠ نوتي وكسبوا في تلك السنة أربعة ملايين ومائتي ألف فرنك، والفرنسيون والإسبانيون في تلك السنة كسبوا مليوناً وخمسمائة وخمسين ألف فرنك.

أليست تونس والجزائر ومراكش بلاداً إسلامية يأخذ الأوروبيون المرجان من بحرهم وهم لا يعلمون شيئاً؟ ويا ليت شعري، أليس الله يقول في آخر الآية: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[الروم: ٤٦]، وكيف يشكر المسلم على نعمة لم يعرفها؟ نعمة فتحت لأهل أوروبا بسبب علمائهم، وأقفلت على المسلمين بسبب جهل بعض رجال دينهم، ألا ساء مثل القوم المتكبرون الغافلون.

إن الله سيسأل كل من يقرأ هذا المقال من العقلاء في الإسلام، ولا يفكر فيه، ولا يجدّ في البحث والتنقيب، لأن هذا فتح لباب الفكر في آيات القرآن كلها ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

فلما سمع ذلك صاحبي قال: عرفت نوع الكتابة للعموم في هذا المعنى، فأرجو أن تفي بما وعدت به من كيفية التعليم في مدارس الإسلام لبلوغ السعادة حتى يتفقه الناس في الدين. فقلت: قد علمت فيما سبق أن النظر في عجائب السماوات والأرض هو العلم الواجب شرعاً، فأرى أن يبتدأ في القسم الابتدائي في المعاهد الدينية في بلاد الإسلام بمجموعة من المعادن والنبات والحيوان، ويذكر فيها نبذ من تلك العجائب والحكم الغالية بحيث تكون سهلة التناول، كأن يذكر الدر والمرجان ويبيّن مثلاً أن أنفس الزينة وهو الجوهر من حيوان بحري وهو المحار، وأن ألذّ المطعومات من حشرة في البر وهي النحلة الطائرة في الهواء، وأن أجمل ما يلبسه الناس من صنع دودة في الأرض وهو الحرير، فيقول

المعلم مثلاً: انظر كيف جعل الله عزَّ وجلَّ أجمل زينتنا وألذّ مطعومنا وأبهج ملبوسنا مصنوعات بدواب البحر والأرض والهواء، وهذه الصناعات من أضعف الحيوانات في الممالك الثلاث: الماء والتراب والهواء، ويكثر من أمثال هذا، وتكون جميع الدروس على هذا النمط، ويسير على هذا المنوال، ويذكر آية من القرآن ويترك الطالب يستنتج ويؤمن بالله ويفرح به. بهذا وحده يتربى الشعب الإسلامي، وبهذا وأمثاله يخرج نابغون، وهذا هو الذي جاء له القرآن، ثم يسير الطالب في كل المعادن من الحديد والنحاس والقصدير والذهب وغيرها مبيناً فوائده، معظماً خالقها مظهراً حكمته وبدائع صنعه؛ فيذكر قوله تعالى مثلاً في الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[الحديد: ٢٥] ولا يكثر من الإعراب ولا صنعة الكلام، بل يقول: انظر إلى هذه القطعة من الحديد وهو المسمى بالزهر، وهذه تسمى بالحديد المطاوع، وهذه تسمى بالحديد الصلب، وانظر الفرق بين الحديد الزهر والحديد الصلب.

ألا ترى أن الصلب يقبل الطرق والسحب، والزهر ليس كذلك؟ وترى الصلب يقبل القوة المغناطيسية، أما الزهر فليس كذلك لأن الصلب نقي مما بداخله، والأول مخلوط بأشياء غريبة عنه، ثم يقول: وهذا التنوع في الحديد لفوائد، ويشرحها ويذكر أنه من الجبال، وكيف خزن فيها، وكيف كان بمقدار الحاجة، وكيف هدى الله الناس لاستخراجه؟ وكيف كانوا قبل ذلك لا عمل لهم إلاَّ بالحجر ونحوه. ثم ينتقل إلى مجموعة من علم النبات ويشرح الزهر وجماله، وكيف يكون الإلقاح في زهر الحدائق والمزارع، ويبيّن كيف كان الريح والحشرات مسخرات لذلك الإلقاح، وأن ذلك من عجائب القرآن إذ قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[الحجر: ٢٢] الخ، وهكذا يريه عجائب الحيوان البري والبحري، كالحوت المسمى بـ«القيطس» الذي يكون طوله عظيماً ورأسه فيه الزيت المسمى بـ«زيت الحوت» وهو عشرات من البراميل، فيتعجب الطالب من حكمة ربه، وغير ذلك من العجائب.

وهذا العلم هو المسمى علم الأشياء، كان يدرس في مدارس مصر قبل الاحتلال وفي أوائله، ثم رفع بعد ذلك ورجع إليها الآن. هذا في القسم الأولي من المعاهد الدينية، أما في الثانوي فيقرؤون نفس علم النبات وعلم المعدن وعلم الحيوان والنظام العام في علم الفلك، حتى يشهد الطالب عجائب الإبداع والتكوين، ويتأمل كيف تطلع الشمس وتغرب بمواعيد محددة لا تنقص ثانية واحدة، ليفهم قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨]، ويفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن: ٥]، ولا يعرف الطالب ذلك إلاَّ إذا أخذ نموذجاً سهلاً جداً من الحساب، وقرأ نظام الكواكب السيارة والثوابت وعددها، وأنها مئات الملايين، وفهم أقدارها وأبعادها التي تعد بمئات الآلاف من السنين بسير الضوء.

هنالك يظهر في الإسلام ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٣٧] وكيف تلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله وهم يشهدون صنعه وآثار جماله وحكمته وبدائع صنعه في النجم والقمر والشمس والزهر والبر والبحر.

فإذا انتقل الطالب للقسم العالي في المعاهد الدينية فليخصص بعلم من العلوم العالية التي هي فرض كفاية، كالعلوم العربية أو الفقه وأصوله أو التفسير والحديث مثلاً كالهندسة أو علم النبات

والحيوان أو علم الكيمياء والطبيعة أو علم الطب أو البيطرة، كل هذه يطلبها الدين بصفة أنها فرض كفاية.

وعلى أولياء الأمور أن يجعلوا القسم العالي للاختصاص، ويجعلوا العلوم موزعة على قدر الحاجة، فلا يطغى الفقه على الهندسة، ولا علم الطب على العلوم الرياضية، وكما يجب أن يعتدل المرء في أحواله، فيربي القوى التي في نفسه تربية متساوية، فلا الذاكرة تطغى على المفكرة ولا المفكرة على المخيلة، هكذا يجب أن يكون أفراد الأمة متعلمين بقدر الحاجة إليهم.

هذا هو الصراط المستقيم، والله ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[البقرة: ٢٦٩]. اهـ.

ولما أتممت هذا المقال قال صاحبي المتقدم من أهل العلم والصلاح لما اطلع عليه: لقد أجدت كل الإجادة وفتحت باباً واسعاً لرقي الأمم الإسلامية في المستقبل، ولكني أريد أن أسألك: هل كانت الأمم المحمدية نائمة عما تذكره أنت الآن؟ فقلت: كيف تقول عما أذكره أنا الآن؟ ألم تقرأ ما تقدم في سورة «المائدة» عند قوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ٣١]، وإني ذكرت هناك كلام الإمام الغزالي في أن فروض الكفايات تشمل أعلى الأمور الدنيوية كالسياسة، وأوسطها كالحياكة وأدناها كالزبالة والكناسة، فالحرف كلها والعلوم كلها فروض كفايات، إذن ليس هذا الرأي حديثاً، وأذكر لك أيضاً الآن ما جاء في كتاب «جمع الجوامع» للإمام ابن السبكي وشرحه للجلال المحلي، فقد قال: إن فرض الكفاية مهمٌ يقصد حصوله من غير نظر بالذات إلى فاعله، وزعمه الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني وإمام الحرمين والشيخ أبو محمد الجويني أفضل من فرض العين، لأنه يصان بقيام البعض به الكافي في الخروج عن عهدته جميع المكلفين عن الإثم المرتب على تركهم له، وفرض العين إنَّما يصان بالقيام به عن الإثم القائم به فقط.

هذا نص كلام المتن والشارح، فإذن فرض الكفاية عند هؤلاء الأعلام وإن خالفوا غيرهم أفضل من فرض العين، فإذن يكون الملوك المنظمون للأمم أفضل من العلماء الذين قاموا بأمور العبادات، وعلى ذلك جاء في بعض كلام علمائنا: أيهما أفضل العالم أم الملك؟، فكان الجواب هكذا: من كان أثره للناس أكثر انتشاراً كان أفضل.

فلما سمع ذلك قال: هذا كلام العلماء ولكني أريد العمل، فهل قام المسلمون قديماً بفروض الكفايات؟ فقلت: إن المسلمين هم الذين بعثهم الله نوراً للناس كما بعث نبينا صلى الله عليه وسلم نوراً لنا.

فقال: هذه عبارات شائعة على الألسنة، وقد عوّدتنا أن يكون كلامك مبرهناً عليه، ومن ذا الذي يوافقك على أننا بعثنا لرقي الناس، مع أننا اليوم أقل الأمم علماً وعملاً. فقلت: نحن اليوم كما تقول، ولكن أسلافنا كانوا كذلك.

فقال: هذه دعوى لا دليل عليها. فقلت: قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧] فلم يجعله رحمة للمسلمين وحدهم، بل جعله رحمة

للعالمين، وليس يمكن أن يرحم صلى الله عليه وسلم الفرنجة مثلاً وأهل أمريكا واليابان والصين إلاَّ بواسطة أمته.

قال: هذا إغراق منك في القول، ورجوع عن طريق التحقيق إلى الخيال، فإما أن تقول هذا كلام سماعي فحسب، وإما أن تأتي بقول يقنع الناس قاطبة. فقلت له: سأسمعك الساعة ما يقنع الناس قاطبة وأقدّم قبله مقدمة فأقول: إن الله عزَّ وجلَّ يقول في آخر هذه السورة: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨]، فلحرصه صلى الله عليه وسلم أنذرهم بالقرآن وخوّفهم العاقبة، فقرؤوا علوم الأمم وأفادوا أهل أوروبا، وأهل أوروبا أفادوا العالم بعد ذلك.

ثم قلت: وهل يقنعك في ذلك شهادة علماء أوروبا؟ قال: نعم. قلت: هاك ما قاله العلاّمة «سدپو» أحد مشاهير علماء فرنسا المولود بباريس في ٢٣ يونيو سنة ١٨٠٨م الموافقة ١٢٢٣ هجرية، فقد جمع في عشرين سنة تاريخاً في سفر من مؤلفات من يوثق بهم من العرب والفرنج، ونشره في أوروبا، فتحول الناس هناك عما رسخ في أذهانهم وأخذوا يقدّرون العربية وعلماء العرب حق قدرهم، وظهر فضل العرب لدى الفرنج، وأنشؤوا في ممالكهم مدارس لتعلم اللغة العربية، وأخذوا يسارعون إلى حيازة الكتب العربية ويبذلون فيها النفيس، ولم يقتصروا على ذلك بل رغبوا في حوز صور مبانيهم وجميع ما كان لهم من الزينة ونحوها وآلات الملاهي وغير ذلك.

ولذا أخذ السياحون يجوبون البلاد الدانية والقاصية ليعثروا على ذلك غير مبالين بما يلقون من المشاق الهائلة، فحصلوا على ما في بيوت التحف والآثار من الأمثلة المتنوعة بقدر تنوع الحرف والبضائع وعلى ما في خزائنهم من الكتب التي هي جميع ما كتبه الإنسان من هزل وجد.

هذا هو نص ما قاله أستاذنا منشئ مدرسة دار العلوم قبل اليوم بخمسين سنة المرحوم علي مبارك باشا في مقدمة ترجمته لهذا الكتاب من الفرنسية إلى العربية، وهاك مقدمة الكتاب للمؤلف المذكور، الذي هو المقصود الذي به تعرف أيها الفاضل بأن العلوم والصناعات التي هي فروض كفايات، لولا آباؤنا من الأمة المحمدية لكان العالم كله اليوم في ظلام.

قال العلاّمة «سدپو» المذكور: ما زلت منذ نيف وعشرين سنة أبيّن ما للعرب من توسيع نطاق العلوم والتقدم في القرون التي بين عصر يونان إسكندرية مصر وأعصر الدول الحديثة الإفرنجية، ورأيت أن أذكر مجمل أخبار هذه الأمة المحتقرة لدى الفرنج من أمد بعيد، وأن أضاهي ما جمعته بما أذاعه غيري لأكون أول من دوّن تاريخاً عاماً في أخبار العرب، وهو ميدان عام واسع المجال ربما كان فوق طاقة الواحد من الرجال.

ثم أخذ يمدح الأمة العربية بجميل أخلاقها واستقلالها إلى أن قال: ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فربط علائق المودة بين قبائل «بحيث» جزيرة العرب، ووجه أفكارها إلى مقصد واحد، فعلا شأنها حتى امتدت سلطتها من نهر «التاج» المار بإسبانيا وبرتغال إلى نهر «الكنج» أعظم أنهار الهندستان، وانتشر نور العلوم والتمدن بالمشرق والمغرب، وأهل أوروبا إذ ذاك في ظلمة جهل القرون

المتوسطة، كأنهم نسوا نسياناً كلياً ما وصل إليهم من أحاديث اليونان والرومان، واجتهد العباسية ببغداد والأموية بقرطبة والفاطمية بالقاهرة في تقدم الفنون، ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية، فاقتصروا على السلطة الدينية التي استمرت لهم في سائر أرجاء ممالكهم، وكان لديهم من المعلومات والصنائع والاستكشافات ما استفاده منهم نصارى إسبانيا حين طردوهم منها، كما أن الأتراك والمغول بعد تغلبهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم، وأدوا إليهم مرتبات، ولما انحصرت العرب في «بحيث» جزيرتهم وصحاري إفريقيا، عادوا إلى عيشتهم البدوية مستقلين عمن عداهم، حتى ألزمتهم الدولة العثمانية الانقياد وأجحفت بهم فانقادوا متنظرين فرصة أراد الوهابية انتهازها في غرّة هذا القرن التاسع عشر من الميلاد، لعتق رقاب الأمة العربية من تسلط الأجانب عليهم، وفلم ينجحوا، ولبثوا مستعدين للعصيان بإشارة من كبرائهم، ولا مانع من حصول ذلك في ممالك تونس ومراكش وكذا الجزائر التي حكمتها فرنسا، فإن جميعهم على غاية من الاستعداد لإجابة رؤسائهم.

وهنا ذكر المؤرخين من الفرنجة قبله مثل «بوكوك» و«شولتنس» وغيرهما، إلى أن قال: والمستمدات الأصلية المشتملة على سير العرب لم تزل إلى الآن كنوزاً مغلقة، فإنا معشر الفرنج وإن وقفنا على حقيقة تواريخ أبي الفداء وأبي الفرج والمسين النصراني المعروف بين أهل الشرق بابن العيد، لكن ليس عندنا الآن إلا تراجم قطع من تواريخ ابن خلدون والمقريزي وابن الأثير، وتواريخ كثير من المؤرخين من العرب والفرس، ولعلنا نحوز جميعها مترجماً باللغة الفرنساوية، ومع ذلك يكفينا ما لدينا من تواريخ السلف في ضبط الحكايات وتحقيق الحق فيها، بل نقدر بها على فهم ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم غير مغترّين بما عتاده المؤلفون من ستر خلقه الباطني، كالقائل إنه كان رجلاً مجذوباً محتالاً طماعاً يتعذر حصر هواتفه، والقائل إنه كان ذا قريحة لا نظير لها، وإنه من نوادر الوجود التي يحدثها الله لإصلاح هذه الدنيا، فإن هذين القولين لا يلتفت إليهما، بل يجب رفضهما، والمعوّل عليه في وصفه صلى الله عليه وسلم ما قاله العلامة «أولسنير» فإنه فهم حقيقة الرسول وحكم دين الإسلام على جميع الممالك التي انتشر فيها على ما قاله في تذكرته التي وقعت موقع القبول سنة ١٨٠٩ ميلادية لاشتمالها على المأمول لدى أرباب مدرسة العلماء المشتغلين بالعناوين والكتابات على الآثار القديمة ثم بالعلوم الأدبية.

وأما تواريخ الخلفاء الراشدين وكذا الأموية في دمشق وقرطبة والعباسية ببغداد والفاطمية بمصر ووصف تمزيق الممالك الإسلامية المشرقية التي أغار عليها الأتراك ثم المغول فدوّنها الفرنج تدويناً حسناً وأضفنا إليها ما تركوه من أصولها وهو وصف التمدن العربي الذي تمكنت أصوله في آفاق الدنيا القديمة أقوى تمكن. ولا نزال إلى الآن نرى آثاره حين نبحث عن مستمد مبادئ ما نحن عليه من المعلومات الأوروباوية، فإن العرب في غاية القرن الثامن بعد الميلاد فقدوا الحمية الحربية وشغفوا بحوز المعارف حتى أخذت عما قليل مدائن قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومراكش والرقة وأصفهان وسمرقند تفاخر بغداد في حيازة العلوم والمعارف، وقرئ ما ترجم إلى العربية من كتب اليونان في المدارس

الإسلامية ، ويذل العرب همتهم في الاشتغال بجميع ما ابتكرته الأفهام البشرية من المعلومات والفنون وشهروا في غالب البلاد خصوصاً البلاد النصرانية من أوروبا ابتكارات تدل على أنهم أئمتنا في المعارف ولنا شاهد صدق على علو شأنهم الذي تجهله الفرنج من أزمان بعيدة مديدة .

الأول : ما أثر عنهم من تواريخ القرون المتوسطة وأخبار الرحل والأسفار وقواميس ما اشتهر من الأمكنة والرجال والمجاميع الشاملة لكثير من الفنون الفاخرة .

الثاني : ما كان لديهم من الصناعات الفائقة والمباني الفاخرة والاستكشافات المهمة في الفنون ، وما أوسعوا دائرته من علوم الطب والتاريخ الطبيعي والكيمياء الصحيحة التي مارسوها بغاية النشاط من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر من الميلاد « من سنة ٢٨٨ إلى سنة ٩٠٧ هجرية » ، وزعم المؤلف « شليجل » سنة ١٨٣٢ ميلادية الموافقة سنة ١٢٤٨ هجرية أن الهنود والصينيين أعلم من العرب ، وأخبر أنه سيقف على كنوز معارف هاتين الأمتين ، مع أنه لم يحصل بعد دعواه بعشرين سنة أجلّ الفوائد الفلكية والرياضية والجغرافية إلاّ من الكتب العربية القديمة .

نعم ألف الفرنج الباحثون عن الأمور الهندية كتباً كثيرة ، لكن لم يحصل منها أدنى تقدم فيما هي بصدده ، كما أن الفرنج المستخرجين فوائد من تواريخ المملكة الصينية التي هي أقدم الدول لم ينجحوا إلاّ في إشهارهم الصينيين أنهم أجهل أهل الأرض كالترك كما قاله المؤرخ أبو الفرج ، وأما المدرسة البغدادية المدوّنة للمعلومات التمدينية في الفترة التي بين عصر يونان الإسكندرية والأعصر الأخيرة ، فكانت مساعدة على استيقاظ أهل أوروبا من رقدة الجهالة ونشر أنوار المعارف في جميع ممالك آسيا ، فقد انتشر علم العرب « الفلك » في الهندستان بواسطة العلاّمة البيروني المغمور بمكارم السلطان الغزنوي حين انتقل إليها سنة ١٠١٦ ميلادية الموافقة لسنة ٤٠٧ هجرية ، كما نشره بين السلجوقيين العلاّمة عمر الخيام سنة ١٠٧٦ ميلادية الموافقة لسنة ٤٦٩ هجرية ، وبين المغول العلاّمة نصير الدين الطوسي مؤسس الرصدخانة بمدينة المراغة سنة ١٢٦٠ ميلادية الموافقة لسنة ٦٥٩ هجرية ، وانتشر بين العثمانيين سنة ١٣٣٧ ميلادية الموافقة سنة ٧٣٨ هجرية ، ونشره بين الصينيين العلاّمة « كوشيوكنغ » تلميذ الأستاذ جمال الدين سنة ١٢٨٠ ميلادية الموافقة سنة ٦٧٩ هجرية في عهد السلطان كوبلاي خان كبير عائلة الملوك اليونانية ، وشيد « أولوغ بغ » لعلم الفلك رصدخانة بسمرقند سنة ١٤٣٧ ميلادية الموافقة سنة ٨٤١ هجرية .

وانتهى اشتغال المشرقيين بالعلوم والفنون عقب زمان « أولوغ بغ » ، ثم اطلع أهل الغرب من أوروبا على أسرار تلك العلوم ، فأخذوا يشتغلون بها ، حتى جدّدوا في البلاد الإفرنجية التمدين واللغة العربية وفنونها الأدبية التي أخذت كل يوم في زيادة الانتشار بين الفرنج ، وما زلنا إلى الآن نستكشف أموراً مهمة من الكتب العربية القديمة وإن عزي ابتكارها زوراً إلى بعض المتأخرين من الفرنج ، ولا شك أن فتح أمتنا الفرنساوية إيالة الجزائر المغربية وكثرة علائقها بمسلمي إفريقيا « ممالك المغرب » يزيد فيما اهتم به الفرنج المولعون باللغات والآثار المشرقية من البحث عن كتب المعلومات العربية التي لم يحس سلف الفرنج ما فيها من جواهر المعارف الثمينة ، وما أعظم اشتغالنا بتلخيص جميع تاريخ الأمة

العربية التي ظهرت أخبارها أعجب مظهر وبهرت أنباؤها دون غيرها من التواريخ كل من قرأ وتبصر. ولذلك نلفت أبناء أوروبا على مر الزمان إلى تلك الآثار الجليلة التي خلفتها هذه الأمة. هذا ما قاله المؤلف في المقدمة.

ثم قال في صفحة ٢٣٥ عند الكلام على العلوم الطبيعية ما يأتي:

باب في العلوم الطبيعية التي كانت عند العرب

وفيه: مقدمة، وأربعة مباحث

المقدمة

قد اتسعت العلوم الطبيعية زمن اتساع العلوم الرياضية، ولكن لا نعرف عصر نشأتها لتسلسل التصورات في جميع الأشياء التي يجول العقل فيها، نعم الاشتغال بمعرفة حقائق الكائنات العلوية والسفلية، وتفصيل ما يتعلق بها، وضبط قياس الحركة والفضاء الذي تتم فيه بواسطة التأمل في الطبيعة حدث زمن أرسطاطاليس.

على أن ذلك البحث كان في الغالب متعلقاً بالأجسام العضوية، وهي الحيوان والنبات، ثم ارتقى ذلك زمن العرب إلى درجة البحث عن القوى الطبيعية والجواهر الأولية التي تحلل لإدخالها في مركبات أخرى، لأنهم كانوا يسكنون بحيث جزيرة العرب، ما بين مدينة مسكات ومكة، الذي به كثير من البهارات والصموغ البلسمية والجواهر النافعة والضارة بالإنسان، فالتفتوا إلى مزايا ما بأرضهم من النباتات النافعة في الطب والصنائع وزينة المعابد والقصور.

ومثلهم من في سواحل مالابار وسرنديب «سيلان» والسواحل الشرقية من قسم إفريقيا، فتحصل كل على مزية لم يعلمها الآخر إلا بواسطة تجارات أتت من مخزن «چرها» الذي بين الخليج الفارسي واليمن، وجابت بحيث جزيرة العرب حتى بلغت كنعان والشام.

وأما البحث عن الجواهر الطبية التي مدحه ديوسقوريدس لأهل مدرسة الإسكندرية، فمن مخترعات العرب أنهم المنشئون للأجزخانات الكيماوية، والموروث عنهم ما يسمى الآن بقواعد تحضير الأدوية التي انتشر بعد من مدرسة «سالرتة» في الممالك التي في جنوب أوروبا.

المبحث الأول في علم الكيمياء

قد أدّى إنشاء الأجزخانات والمادة الطبية اللتين هما أول ما يلزم لفن الطب إلى الاشتغال بعلم الكيمياء الذي كان ابتداء العرب في التمدن مبدأ للاشتغال به، وهو عبارة عن مجرد التحليل والتركيب، لا تركيب الذهب والفضة المسمى بالكيمياء السرية والإكسير والحجر المكرم، وقد أوصلت العمليات الهرمسية ـ وهي تراكيب الملاغم والمخلوطات المعدنية التي عملت في المعادن المطروقة ـ إلى أبدع الاستكشافات المعدنية، وعرف تركيب الكبريتيك، والماء المعشر، والماء الملكي، وتحضير الزئبق، وتخمير المواد الكؤولية، وغير ذلك من مؤلفات أبي موسى جعفر الكوفي المشتهر في القرن الثامن من الميلاد، والفخر الرازي المتوفى سنة ٩٢٣ من الميلاد.

المبحث الثاني

في علم النباتات والمادة الطبية والاقتصاد الزراعي

لسعة اطلاع العرب على مزايا النباتات أدخلوا في الأدوية نباتات جهل اليونانيون خواصها كالروائد وشحم التمر الهندي وخيار عنبر وورق السنامكي والإهليليجات والكافور، وعرفوا أنواع الطيب الزكية كجوز الطيب والقرنفل، وغرسوا عدة أشجار من ذوات الزهور المذكرة والمؤنثة، وعرفوا ما يتعلق بخصب آلات الذكورة والأنوثة، ورأوا استعمالهم السكر في الطب أفضل من استعمال القدماء العسل، فأدخلوه في مركبات كثيرة كشراب الورد وأشربة جُلاّبية ـ بضم فشد ـ ومعاجين كثيرة، واشتغلوا بعلم الجيولوجيا، وهو معرفة تركيب طبقات الأرض.

وتكلم ابن سينا في المادة الطبية على شجرة الأرز المسماة «ديودڤارة» النابتة في جبال هيمالايا، وجعلها نوعاً من الشجر المسمى «جونيبيرس» الداخل من تركيب زيت الترمنتينا.

وقد أنشأ عبد الرحمن الأول خليفة قرطبة بستان نبات بقربها، وبعث إلى الشام وغيره من الممالك المشرقية سياحين لجمع البذور النادرة، وكان قد غرس بقرب قصره في الرصافة أول نخلة في قرطبة.

وبالجملة: بذل العرب صادق الهمة والعزيمة في تعلم وتعليم جميع فروع العلوم المتعلقة بالمولدات الطبيعية.

ولذا أنصفهم المؤلف «ليبل» في كتابه الجديد بما حكاه من اشتغالهم بعلم الجيولوجيا، ونقل «دساسي» عدة فصول من كتاب القزويني المشهور باسم «بلين المشارقة»، واشتهر «حياة الحيوان» للدميري الذي هو عند العرب بمنزلة «بوفون» عند الفرنج، وبلغت العرب في علم الزراعة أقصى درج الكمال، وأحدثوا في إسبانيا السواقي ذات القواديس المعتادة الآن، وكان عندهم في الاقتصاد الزراعي معلومات شيبت بأوهام فاسدة، إلاَّ أنهم كانوا يعرفون طرقاً عملية تستحق التفات الفلاحين إليها.

المبحث الثالث في علم الطب

والمدرسة اليونانية العربية والفخر الرازي وابن سينا

أحضر ملوك الفرس الأكاسرة من ابتداء القرن الثالث بعد الميلاد العيسوي أطباء اليونان، فنشروا في البلاد المشرقية آراء أبيقراط الطبية، حتى سابقت المدرسة التي بجنديسابور مدينة الإسكندرية أيام البطالسة، ثم فتحت العرب البلاد فكان مركز التعليم أنطاكيا وحران، وظهر منهما أطباء جامعون في الغالب بين العلوم الرياضية والفلسفية، عارفون باللغة اليونانية كالعربية التي ترجموا إليها كتب أرسطو وإقليدس وبطليموس، منهم يحيى بن ماسويه طبيب هارون الرشيد، ألف في الطب كثيراً من المؤلفات المعتبرة عند المشرقيين، منها: شرحه المشتمل على ثلاثين كتاباً، وكتاب في تحضير الأدوية، ورسائل في أصناف الحمى والأغذية والنزلات والحمامات، وأنواع الصداع والشقيقة، وغير ذلك ترجم كثير من مؤلفاته إلى العبرانية، ويوجد بكتبخانات أوروبا كثير منها بالعبرانية والعربية، مات سنة ٨٥٥ ميلادية وله ثمانون سنة، فخلفه تلميذه حسين وأخذ من المأمون على كتاب ترجمه من اليونانية

إلى العربية زنته ذهباً، ترجم كتابي جالينوس وأبيقراط وغيرهما، وألف كتباً كثيرة في الطب والمنطق الفلسفي، واختبره المتوكل حيث سأله عن سمّ قاتل بمجرد تناوله، فقال: لا أعرف إلاَّ الأدوية الحافظة للصحة، فاتخذه طبيباً وأغدق عليه. توفي سنة ٨٧٤ ميلادية. ومنهم جبرائيل المشتهر في علاج كثير من الأدواء. والفخر الرازي محمد بن زكريا، قام بإدارة المستشفيات في بغداد والريّ وجنديسابور، وهو أول من أحدث المسهلات اللطيفة في الأجزخانات والتراكيب الكيماوية الطبية، واستعمال الخزام، وأول من ميّز القصب الحنجري عن القصب الراجع الذي يكون أحياناً مضاعفاً من جهة اليمين، وكان يرى أهمية التشريح في الطب الذي ألف فيه أكثر من مائة مؤلف، منها: كتاب ضخم سماه «الحاوي في علم التداوي»، ورسالة في الجدري والحصبة، استمدّ منها سائر الأطباء، وأهدى إلى الأمير المنصور حاكم خراسان في القرن العاشر من الميلاد أحد أبناء العائلة السمانية عشرة كتب حسنة الترتيب والأسلوب، طبعت في مدينة «ونديق البنادقة» سنة ١٥١٠ ميلادية، وهي أول ما بحث فيه عن الخمرة. عمي كبيراً فمنع أن يعالجه من الأطباء إلاَّ من عرف عدد أغشية العين، وساح في الشام ومصر وإسبانيا توفي سنة ٩٢٣ ميلادية. واشتهر بعده بخمسين سنة علي بن عباس الفارسي المجوسي، ألف في الطب كتاباً عشرين مجلداً، عشرة في قواعد الطب وعشرة في عملياته، سماه «الملكي» وأهداه إلى السلطان عضد الروم البويهي، ترجمه إلى اللاتينية اصطفان الأنطاكي سنة ١١٢٧ ميلادية، وطبعه ميخائيل كابلا سنة ١٥٢٣ في مدينة ليون بفرنسا، ولم يكن في حكماء العرب مثل الفخر الرازي وأبي علي الحسين ابن سينا المولود في «افشانة» من ضواحي شيراز سنة ٩٨٠ ميلادية، كان والده حاكماً على شيراز، وتعلم هو الطب في بخارى، وعالج وهو ابن ١٨ سنة الأمير نوح السماني، وشفي من مرض عظيم، فتقدم عند الملوك السمانية ووعده محمود الغزنوي الإغداق عليه إن أقام عنده، فأبى وداوم على التغرب في البلاد، وأقام عند قابوس حاكم إقليم جرجان، وجدد في ديوانه أعمال الطبيب «ايرازا ستراطس»، وجدد له موئلاً في مدينة الري حين كان سلطانها مجد الدولة، ثم في مدينة همدان حين اختاره ملكها شمس الدولة أن يكون وزيراً وطبيباً له، ثم دعاه علاء الدولة للقيام بوظيفتي الوزارة والطب بأصفهان، ألف كتباً من أجلّ المؤلفات منها «القوانين» وهي خمسة كتب ترجمت وطبعت مراراً، وكانت مؤلفاته ومؤلفات الرازي تدرس بمدارس أوروبا نحو ستة قرون تقريباً. مات سنة ١٠٣٧ ميلادية.

المبحث الرابع في مدرسة إسبانيا وابن القاسم وابن زهر وابن رشد وغيرهم

ظهر أيضاً في مدرسة إسبانيا من الأطباء جمع: منهم أبو القاسم خلف بن عباس المعروف عند الفرنج بالبوقاريس، وضع علم الجراحة ووصف آلاتها وكيفية استعمالها، وما يحصل في بعض الكيفيات من الأخطار، وعيّن لإخراج الحصوة موضع البضع الذي عيّنه متأخرو الجراحين من الفرنج ولم تعرف مؤلفاته بين الفرنج إلاَّ في القرن الخامس عشر من الميلاد. مات سنة ١١٠٧ ميلادية. وأبو مروان بن عبد الملك بن زهر، ولد في بلدة «بنافلور»، أدخل في المادة الطبية عدة أدوية، وأحدث في

علم الجراحة، فتح شعبتي التنفس، ووصف أمراضاً لم تكن موصوفة قبل، مثل المرض المعروف بالتهاب الحجاب المنصف للتامور المحيط بالقلب، وتعين لرد العظام المتنقلة إلى مواضعها وجبر المنكسر منها. ترجمت كتبه الكبيرة إلى اللاتينية غير مستوفاة الترجمة، استخدم عند الأمير يوسف بن تشفين صاحب مراكش فأغدق عليه. ومن تلامذة ابن زهر أبو الوليد محمد بن رشد، اتبع أصول الفلسفة الأرسطاليسية، وألف رسالة في الترياق، وكتاباً في السموم وأنواع الحمى، وشرحاً على كتاب أرسطاطاليس، وشرحاً على قوانين ابن سينا، وكتاباً ضخماً مشهوراً بـ«الكليات» طبع في مدينتي ونديق وليون وغيرهما.

وكان عبد الله بن أحمد بن علي البيطار أعلم الأطباء بعلم النباتات، ساح في البلاد المشرقية زمناً طويلاً، وأكرمه السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي والكامل صاحب دمشق، اشتمل مجموعه المسمى بـ«الأدوية المفردة» المقسم أربعة أقسام على وصف جميع النباتات والأحجار والمعادن والحيوانات ذات الخواص الطبية، أصلح فيه غلطات ديوسقوريدس وجالينوس وأوريان.

وبالجملة كان ملوك الشرق يدعون العلماء إلى دواوينهم ويستقبلونهم بأنواع التشريف والأموال الجزيلة، فكان منهم عدد لا يحصى حفظت أسماؤهم في التواريخ؛ اشتهر منهم في الطب: ثابت بن قرّة، الطبيب الفلكي سنة ٨٥٠. وأبو جعفر أحمد بن محمد الطالب الذي ألف سنة ٩٧٠ ميلادية في داء البرسام والسرسام وغيرهما. وعلي بن رضوان سنة ١٠٦٠ ميلادية. وجزلة بن جزلة سنة ١١٠٠. وعبد الرزاق سنة ١١٥٠. وهبة الله سنة ١١٥٥. والجلدكي الذي ألف سنة ١٢٥٢ كتاباً في الحجر المكرم المسمى أيضاً بـ«الكيمياء السرية والصنعة الإلهية». وأبو الفرج سنة ١٢٨٦. وإسحاق بن إبراهيم سنة ١٣٠٠.

باب فيما كان عند العرب من الفلسفة والإلهيات والفقه والمعارف الأدبية ومخترعاتهم في عدم اقتصار العرب على شرحهم فلسفة أرسطاطاليس

زعم الفرنج أنه لم يكن فلسفة عربية، وما ذاك إلاَّ لجهلهم بأشغال العرب، فإن جميع الدروس بمدارس أوروبا في القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفلسفية، وكانت ترجمة حسين الطبيب ويحيى النحوي كتب أرسطاطاليس مبدأ لاشتغال العرب بالمعلومات الفلسفية التي كان من رجالها الكندي ومحمد بن مسعود وأبو تمام النيسابوري وأبو سهل البلخي والإسفراييني والعميري، ثم ظهر الفارابي وابن سينا فكانا أشهر رجال الفلسفة لتدوينهما لها على الصورة المذهبية التي نقلها عنهما ابن باجة وأثير الدين الأبهري وعلي الخونجي وابن رشد وأبو الصلت ونصير الدين الطوسي، ثم جالوا في مدارس المغرب، ولا تظن أن العرب اقتصروا على تفسير كتب أرسطو، بل كانوا يعرفون تآليف أفلاطون لا سيما كتابه الأكبر المؤلف في الشرائع، وعدة كتب منسوبة إلى «فيثاغورس»، وكانوا يذكرون من قدماء اليونان كثيرين: أورفيه وأوميروس المحتوية أشعاره على الفلسفة الدينية، والفلاسفة السبعة: وانكزاغوس وايراقليط وديمقراط والالياطية وسقراط وتلامذته وإقليدس والفلسفة الاسطوانية، وكان

عندهم في الجزء الثاني من تاريخ الفلسفة مسائل فيمن كمل فلسفة أرسطو ومن شرحها، وفيما يخص مدرسة الإسكندرية، وكانوا يعتمدون أقوال «بلوتين» و«برقلوس»، ويلهجون كثيراً بالقضايا العلمية وكانوا واسطة بين زمن الفلسفة القديمة والفلسفة المدروسة في أوروبا، وكانت المجادلة بين أهل الظاهر منهم والباطن عدة قرون، فضل فيها بعض أهل المدارس المشرقية على بعض، وكان منهم معتزلة بصرية ومعتزلة بغدادية، وحكماؤهم الفلاسفة الذين ظهرت فلسفتهم على علماء الفرنج في القرون المتوسطة، بل وعلى أرباب السرائر الروحانية، ومثل ماري بونافنطور. انتهى.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: يا عجباً كل العجب، هذا القول لم أسمعه إلاً الآن، وكيف يكون أسلافنا من الأمة المحمدية هم آباء العالم كله؟ وكيف يكون ذلك شأنهم ونحن اليوم على ما نحن عليه جهال غافلون؟ فقلت: ذلك لثلاثة أسباب:

السبب الأول: أن ملوك الإسلام إن كانوا صالحين صلحت الأمة، وإن كانوا طالحين ضلت الأمة، لا فرق بين الأمويين والعباسيين في الشرق، والأمويين ومن بعدهم في بلاد الأندلس، فهؤلاء الملوك جميعاً إن استقاموا استقامت الأمة، وإذا فسدوا فسدت لجهلهم وظلمهم، فتضيع العلوم والصناعات التي هي فروض كفايات. مثال ذلك من كلام المؤرخ المذكور أن محمداً الحمّار في الأندلس بعد ما ظنّ المسيحيون أنهم كادوا يطردون العرب من الأندلس، أخذ يثير الهمة والتنافس بين أهل الصنائع، ويشوقهم إلى الاختراع، ويعطي مافآت لمن أتى بشيء من ذلك، فنجحوا وبرعوا في نسج أقمشة الحرير وغيره، وكذا في النبات براعة أهل قرطبة، وكفى بقصر السباع المعروف بالحمراء شاهداً على ما كان لأهل غرناطة من الغنى والمهارة في فن البناء، مع ما لهم من الاجتهاد التام بعلوم الفلك والطب والكيمياء والرياضة والنحو والمنطق.

وأخذ هذا الملك يعمل بغرناطة أعياداً لتمثيل الوقائع الحربية، وأعياداً لمناضلة الفرسان، ومواسم لمقاتلة الأثوار، وأخرى للتسابق، ولعب أخذ الخاتم، ويدعو أعيان الرعية إلى الأعياد والولائم العظيمة، ولم يكن ذلك نتيجة جوره، بل رفاهية المعيشة في سائر الرعية.

ولذا كانت مدينة غرناطة كرسي مملكته مأوى المسلمين المتشتتين، لكثرة خيراتها الجاذبة جميع من لم يرد الإقامة تحت حكم نصارى إسبانيا، وكثرت المهاجرة إليها حين أخذ الملك «جاك» يطرد المسلمين من مدينة «والنسة» سنة ١٢٤٩.

ولم يزل ملوك غرناطة متولين الحكم بها من سنة ١٢٣٨ إلى سنة ١٤٥٢ ميلادية محسنين ترتيبهم السياسي، فقد رتبوا في كل بلدة خفراء منها، وأعطوا جميع سكانها سلاحاً يستعملونه حالة هجوم العدو، فرفعوه مرات على ملوكهم المتنعين من أداء واجباتهم الملوكية، أو الذين لا يعبؤون بمشاورة الأمة، وجعلوا للعساكر المحافظين بالثغور إقطاعات من الأرض تكفيهم وعائلاتهم لتبعثهم على الوقاية من الأعداء، وألزموا أنفسهم مثل ملوك الأقاليم المغربية بالقيام بما يلزم طوائف الفقراء من نحو المأكل والمشرب، وأكثروا في الأسواق المبيع الضروري، ورتبوا في غرناطة التي دائرتها أكثر من ثلاثة فراسخ ضبطية، وفي كل ثمن منها ضابطاً، ورتبوا عساكر تدور ليلاً في الأماكن التي لم يكثر

طروقها، وعملوا قوانين لزمن إغلاق المحال العامة كالأسواق، وخصصوا كل حرفة بطائفة، وعاقب كثير منهم من أفرط في شرب الخمر، وأمروا اليهود أن يتميزوا بعلامة من غير إساءة معاملتهم، ومنعوا الربا في النقود، وابتكروا في كتابة الحجج والصكوك طرائق واضحة تمنع المنازعة، وشغلوا العلماء بتأليف رسائل في الصنائع العلمية، وانقاد الأمة والفقهاء لقوانينهم النظامية بعد أن كانوا إلى زمن هذه السلطنة مطلقي التصرف يفعلون ما شاؤوا، وأحدثوا لتأدية العبادة قوانين تنبئ عن كمال إيمانهم وعلو أفكارهم، وشرف التأديب والتهذيب الديني، منها انعزال النساء عن الرجال في المساجد وخروجهن قبل الرجال، وإكثار الطاعة في رمضان، وتوزيع الصدقات على الفقراء وأهلها، أو إبقاؤها لتنفق في عمارات عامة النفع، ومنع اجتماع الناس ليلاً، وإبطال الندب على الأموات عند دفنهم بقراءة أدعية على قبورهم، ودفن الموتى عارين عن التمائم وباقات الأزهار المعتادة قبل هؤلاء الملوك.

وكان المستعمل في قوانين العقوبات على الجنح والجنايات: الضرب بالسوط، والنفي عن الأوطان، وإشهار المذنب بوضعه على خشبة، فاستبدل هؤلاء الملوك ذلك بحبس المذنبين في مكان يشتغلون فيه، وأبطلوا رجم المذنبين، وأمروا بدفن من يقتص منه بالقتل مثل دفن سائر المسلمين.

وبما سلف يعلم أن مملكة غرناطة نظراً لما كانت عليه من الأمور الجليلة، تستحق أن تعتبر في التاريخ من الممالك الشريفة، لكن ساء حظها حيث لم يكن توارث سلطنتها مقرراً على قواعد متينة، فتولاها بعض الملوك الجديرين بتعجب الأجيال المستقبلة من عدلهم وحسن سياستهم، ملوك جبابرة ليسوا بكفء للسلطنة التي عجلوا زوالها من بحيث جزيرة إسبانيا.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: قد عرفت السبب الأول، وهو: أن المسلمين لما جعلوا الملك ميراثاً تولاه ملوك جهلاء فأضاعوا ما أسسه الفضلاء. قلت:

السبب الثاني: أن هذه العلوم التي بها حياة الإسلام حقيقة ما كان الناس يدرسونها باعتبار أنها دين، بل كانوا يدرسونها بأمر الملوك وتقرباً إليهم كما تقدم آنفاً، إذ كان المأمون يعطي زنة الكتاب ذهباً لمن يترجمه، ولذلك كنت تجد أكثر المترجمين من المسيحيين، كأن المسلمين ظنوا أن هذا مخالف للدين مع أنه هو قوام الدين.

السبب الثالث: أن علماء الدين كانوا لا يتكلمون على فرض الكفاية بتوسع، بل ترى ذلك في كتاب «جمع الجوامع» المنتشر في بلاد الإسلام في علم الأصول، لم يذكره إلاَّ في الكلمات اليسيرة التي رأيتها حتى نسي المسلمون عماد ديننا فقعدوا عنه، وذلك للجهل التام في الأعصر المتأخرة. فقال صاحبي: زدني من هذا. فقلت: أما الآن فلا، وإن أردت المزيد فسترى هذا المقام جميل المحيا، باهر الطلعة، باسم الثغر، شريف المنقبة، في سورة «إبراهيم» عليه الصلاة والسلام بمناسبة قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾[إبراهيم: ٥]، فهناك ترى أن موسى عليه الصلاة والسلام أرسل ليخرج قومه من الظلمات إلى النور، ونبينا صلى الله عليه وسلم أرسل ليخرج قومه من الظلمات إلى النور في نفس الآيات، وأن موسى ذكر قومه بأيام الله كما أمره الله، فذكرهم بخروجهم من ذلّ فرعون والمصريين وما بعد ذلك، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم ذكر قومه كما تقدم في سورة «الأنفال» وفي كثير من

الغزوات، مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنفال: ١١] إلى آخر ما ذكرناه من النعم التي هي ١٤ نعمة، وأنه يجب علينا في هذا الزمان أن نذكر أمة الإسلام بالحوادث السابقة من عصر النبوة إلى الآن، وستراه هناك مفصلاً مع الإيجاز، وترى عصر النبوة وما بعده من العباسيين والأمويين، وخراب بغداد والأندلس، وانتشار العلوم وتقلصها، وإذلال العلماء كابن رشد، وانتقال العلم إلى أوروبا، وضياع بلاد الإسلام بعد عزها، ثم ذكر علماء أوروبا في القرن السادس وما بعده إلى نهاية التاسع عشر، وأنهم حملوا العلم الذي أعطاه آباؤنا لهم، وأننا يجب علينا أن نسترجع المجد ونخدم الإنسانية لأننا لهذا خلقنا، فلنرجع إلى سيرتنا الأولى. فلما سمع صاحبي ذلك قال: سأنتظر حتى أقرأ تفسير سورة «إبراهيم»، ولكن بقي عندي سؤال وهو: لماذا نرى بعض المتعلمين من أبناء مصر وغيرها من المسلمين يعتقدون أن المسلمين الأولين ما عملوا شيئاً؟ ما السبب في ذلك؟ فقلت: السبب فيه أمران:

الأول: أن بعضهم بذلك يظهر تفوقه وعظمته على أبناء بلاده، وهذه العظمة لا تظهر إلاَّ بطمس معالم الأجداد وجحد الديانات، ليقول الناس إنه فيلسوف.

الثاني: أنهم لم يطلعوا على مثل ما نقلناه لك عن الفرنجة حتى يعرفوا ما عرفته الآن من هذا المقام، بل إن أكثر هؤلاء يجهلون تلك العلوم فلا يعرفون إلاَّ لغة من لغات الفرنجة، ويأخذون شهادات في تاريخ أو أدب أو نحو ذلك، فيفرحون بما نالوا ويموتون شهداء الجهالة والغرور. اهـ.

حديث جميل في عجائب القرآن ومدهشاته
إذ يشبه فيه الدين بشجرة ذات فروع

قال صاحبي: قد فهمت ذلك، ولكن أرجو أن تحدّثني حديثاً جميلاً يكون فيه سمر للبادي والحاضر أعرف به أن جميع العلوم يطلبها القرآن غير ما ذكرته سابقاً، حتى أزيد اطمئناناً وعلماً، ويثبت في قلبي أن ما فعله آباؤنا من التقاعس عن العلوم العصرية خطأ، وأن ديننا يطلبها جميعها، لا فرق بين دنيوي وأخروي.

فقلت: اعلم أن جميع العلوم كشجرة أصلها ثابت في العقول وتستمد من النور الإلهي، وفرعها يسمو إلى العلا ويمتد على طول الزمان، وإذا نمت الشجرة إلى أعلى فإن فروعها تكون قسمين: قسم منها في القلب، وقسم منها في الأطراف. والقسم الذي في القلب عليه مدار الشجرة والقسم الذي في الأطراف يحيط بالقلب، وأنت إذا بحثت الشجر كله وجدته على هذا النمط.

ولا جرم أن القلب في فروع الشجرة أهم من الأطراف، أفتوافق على ذلك؟ قال: نعم. قلت: انظر، أليست العلوم في الدنيا كلها على قسمين: قسم به حياة الأمم وسعادتها، وهي العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية. وقسم به حفظ البلاد والعباد، كالقوانين وكالطب وما أشبه ذلك؟ قال: نعم. قلت: فدين الإسلام له قلب كقلب الشجرة، وأطراف كأطراف الشجرة. قال: نعم. قلت: والقلب هي علوم الفلك والطبيعة من معدن ونبات وحيوان وإنسان وعلم النفس، وهكذا علم طبقات الأرض، وكذلك علوم الحساب والهندسة والجبر التي لا تتم حياة إلاَّ بها ولا يعرف الفلك إلاَّ بدرسها، وعلم

الفلك لا بد منه لأمور كثيرة، منها: سير السفن في البحار وهكذا. قال: نعم. قلت: وهذه العلوم بها شكر الله وبها التوحيد، وبها معرفة جمال الله، فبها حب الله، وبها عبادة الله، وبها شكر الله، وبها توحيد الله، والزيادة في التوحيد والزيادة في الشكر واجبان عينيان على كل قادر.

وقد أجمع العلماء على أن شكر المنعم واجب، ولا معنى للشكر إلاَّ على نعمة، ولا شكر على نعمة لا نعرفها، ولا معرفة لنعم الله حقاً إلاَّ بدراسة ما حولنا من السماء والأرض. وعلى مقدار دراسة ذلك يكون الشكر، إذ لا شكر على مجهول، ولا حب لله بغير سبب، وأهم الأسباب الوقوف على دقة صنعه، وجمال وضعه، وبديع حكمته. قال صاحبي: إذن هذه العلوم واجبة على كل مكلف وهذا محال. قلت: نعم محال، بل أنا أقول كل من قدر على المزيد منها بحيث لا يخلّ ذلك بأحواله وجب عليه لقول الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، وقوله: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى ﴾[البقرة: ١٥٢] ولا شكر إلاَّ بما علمت.

فهذا هو قلب دين الإسلام، وهو نفس علم التوحيد، وهو الذي به تحفظ الأمة نفسها وتنفع الأمم وتعلو، وهذا سرّ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]. فمن عكف على علم الفقه وهو قادر أن ينظر في جمال النجوم وبهجة القمر والشمس وجمال الزرع والزهر وبهجة الأنهار والبحار، فهو غير شاكر لله، بل هو غافل نائم ساه. وهذه حال أغلب المسلمين اليوم، فلا علم بالله، ولا سعادة في الحياة، ولا ثروة ولا استقلال، لأنهم أعرضوا عن هذه العلوم، وهذا نفسه هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٤-١٢٧].

فقال صاحبي: واهاً لك، واهاً لك، واهاً! أتتلو آيات سيقت في الكفر فتجعلها في المسلمين؟ فقلت له: يا عجباً لك! أليس يقول الله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ هو لم يقل: كفر بي، بل قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾، والمسلم بجهله هذه العلوم أعرض عن ذكر الله الحقيقي، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾[آل عمران: ١٩١] الخ. فقال: إذن أغلب المسلمين يحشرون عمياً.

قلت: لست أقول هذا، بل أقول: الإيمان بالله يورث دخول الجنة، ولكن عمى البصيرة يؤخر الدخول فيها، فإذا كان شكر الله واجباً، وزيادة التوحيد واجبة، فإن تركهما حرام، وهذه معصية من الكبائر، والكبائر القلبية أعظم جرماً من الكبائر الجسمية، وعليه يكون الضنك الذي حلّ بالمسلمين اليوم هو الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾.

إن الله عزَّ وجلَّ سيعذب المسلمين حقاً بعد الموت ويوم القيامة، كما عذبهم في الدنيا على ترك علوم تعدّ بالعشرات، وعلى ترك صناعات تعدّ بالآلاف، أمرهم الله بها فناءوا عنها، وبعضها واجب

عيناً، وأكثرها واجب وجوباً كفائياً، وأعظم المصائب على المسلمين ترك الواجب الكفائي، فالمسلم الواحد منا يعذبه الله يوم القيامة وفي الدنيا بترك أمته صناعة واحدة أو علماً واحداً.

هذا هو ما قاله علماؤنا رحمهم الله تعالى، فإذا مات أحدنا وهو يحمل من الأوزار بعدد العلوم والصناعات، أفليس يكون أعمى يوم القيامة؟ وكيف يكون بصيراً والله يقول له: ﴿ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[طه: ١٢٦]. فالمسلمون الذين يسمعون هذا القول ولا يقومون بنشره، يحشرون يوم القيامة عمياً على مقدار تقصيرهم، وهاهم الآن يعذبون في الدنيا بإذلال الأمم لهم، فإن تابوا وأقاموا بذلك، خفف عنا عذاب الخزي في الدنيا بإزاحة الأمم الظالمة عنا، وفي الآخرة بالخروج من جهنم.

فقال صاحبي: عرفت الكلام على قلب الشجرة الإسلامية، فأحب أن أسمع الكلام على القسم الثاني وهو الأطراف. فقلت: أما أطراف الشجرة الإسلامية فهي الفروع الفقهية والعلوم الإلهية من النحو والصرف وأمثالهما، فهذه العلوم مكملات ومتممات للقسم الأول محيطات به كإحاطة فروع الشجرة الجانبية بالفروع القلبية، ولا سبيل للقضاة أن يحكموا بالشريعة إلاّ بسياج يحفظ البلاد، والسياج الذي يحفظها هو الصناعات والعلوم الطبيعية والرياضية التي بها تنمو مصالح البلاد، وإلاّ فهل يقضي القاضي بين خصوم لا يعيشون، وإنّما الخصام لموجودين أحياء؟ قال: حسن ما قلت.

بيان أن تشبيه الإسلام بالزرع والشجر سيأتي في سورة إبراهيم وسورة الفتح

فهل ورد في القرآن ما يشير إلى هذا التشبيه الذي ذكرته؟ فقلت: نعم، سترى في سورة «إبراهيم» وفي سورة «الفتح» أن الله يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾[الآية: ٢٤-٢٥] ويقول: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾[الفتح: ٢٩] الخ.

إن الله عزّ وجلّ علم قبل أن ينزل القرآن أن المسلمين سيقعون في هذا الجهل والذل المشين، فأنزل هذين التشبيهين اللذين أبرزا العلوم كلها كأنها فروع لشجرة واحدة، فالإخلال بالقلب أهم من الإخلال بالأطراف، وسترى هذا المقام واضحاً في السورتين إن شاء الله تعالى.

حسن نظم القرآن في هذا التمثيل

ومن عجب أن الله عند الأمور المهمة يوقظ النفوس لها بالتعبير، فهاهو ذا في سورة «إبراهيم» يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ الخ. فانظر كيف قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ الخ، كما قال في سورة «البقرة»: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾[الآية: ٢٥٨]، فالإتيان بـ«ألم» إيقاظ لنا نحن، كأنه يوبخنا على عدم العناية بالعلوم المكنونة المخزونة في التعبير بالشجرة الطيبة ذات الفروع المذكورة، كما وبخنا على عدم التفكر في عظام الحمار كيف تكسى باللحم، أي على جهل علم التشريح ونحوه، كما تقدم في سورة «البقرة» موضحاً هناك، فأنا أذكر المسلمين أن ينظروا في سائر العلوم كما أذكرهم بعلم التشريح الذي هو أحدها.

ذكر حديثين

أحدهما بيني وبين عالم مسلم عظيم

والثاني بيني وبين الأستاذ «ادوارد براون» الإنجليزي

وهاأنا ذا أيها الأخ أحدثك حديثاً دار بيني وبين أحد أفاضل علماء الشيعة من جهات حضرموت مشهور الاسم عظيم المقام، وإنّما لم أذكر اسمه لأني لم أستأذن منه في ذلك لأنه مسافر وقت كتابة هذا الموضوع.

في يوم العيد الأكبر من سنة ١٣٤٤ هجرية زرت رجلاً عظيماً ـ رداً لزيارته ـ بالعباسية، ومنزله محط رجال العلم والأدب من سائر الأقطار، فما استقر جلوسي حتى قدم ذلك العالم الحضرمي الكبير، وكنت لم أره من قبل، وقد بلغني عنه قبل ذلك بأسبوع أنه يعترض على ما أكتبه في هذا التفسير، فلما جلس أخذ يذكّر المجلس بما لديه من علم جمّ، وبراعة في الحديث والعلم، فأعجبت أنا وأعجب الحاضرون به، ثم دار الحديث بيني وبينه على ما يأتي:

ما تقول في الوهابية الذين هم قد استولوا على الحجاز؟ ورأيت من كلامه أنه يبغضهم، وهكذا جرّ الحديث إلى الشيعة وأهل السنّة، فقلت له: إن جميع هذه الأمة على حق؛ فالوهابية والشيعة وأهل السنّة قوم مخلصون؛ وليس عند أحدهم إلا ما اعتقده هو، وعلم الفقه عند الجميع قد قام بما هو منوط به، إن علم الفقه به تحفظ العبادات والحقوق، وتحفظ البلاد بالقضاء.

ولا جرم أن هذه الطوائف كلها قد حافظت على بلادها وعلى عبادتها، ولكنهم جميعاً مقصرون، قال: جميعاً؟! قلت: نعم جميعاً. ألا ترى أن الخلاف بين الشيعة وأهل السنّة الذي جرى عليه المسلمون منذ ١٣ قرناً لا معنى لتكراره الآن؟ ومن اطلع على كتاب «المواقف» وغيره من كتب العقائد عرف كيف كان القادة يكيد بعضهم لبعض لأجل الملك، وهكذا ترى الملوك العباسيين قد فضّلوا مذاهب أهل السنّة حتّى لا يتبع الناس آل البيت، ويبقى لهم الملك، هذا الخلاف الآن مضى زمانه، ومن المحزن أن يعيش المسلم في القرن الرابع عشر ويتخيّل نفسه في القرن الأول الهجري.

وهاأنا ذا أقص عليكم قصصاً مع عالم إنجليزي شهير جاء إلى مصر في سنة من سني العشرة الأول من القرن العشرين المسيحي، أي: منذ حوالي عشرين سنة، يسمى: «ادوارد براون» وقابلني وحادثني في أمور الإسلام، وكان يجيد العربية والتركية والفارسية ولغات أخرى.

فقال: قد كلفتني دولتنا الإنجليزية أن أبحث في أهل السنّة والشيعة من المسلمين هل يتفقون؟! فسافرت إلى تركيا وجلست بين ظهرانيهم مدة، وهكذا إلى بلاد فارس وعاشرتهم، فرأيت مدهشات رأيتهم جميعاً يكرهون أهل السنّة، يتخيّلون أنهم هم الذين قتلوا الحسين رضي الله عنه، مع أن الحسين مضى له ١٣ قرناً، ولقد قال لي طالب من طلابهم: إنني قد حاربت مع الروس ضدّ الترك، حاربتهم بسيفي هذا لأني أفضّل الكلب على التركي لأنه سنّي. قال الأستاذ: وأنا موقن أن هذا الجبان ما ذبح دجاجة مدّة حياته، ولكن البغض ملأ قلبه، ثم قال: فعلمت من هذا أن هذين الشعبين لا يتحدان.

قال: وعجبت كل العجب من هذه البلاهة الحمقاء، كيف يرى هؤلاء أن قيصر الروس يجوس رجاله خلال ديارهم ويتغلغلون في البلاد، ويوشكون أن يبتلعوها، ثم يرجعون إلى ١٣ قرناً مضت، فهل الحوادث التي مضى عليها تلك القرون كلها تهمهم أكثر مما يبصرونه داخل بيوتهم، وما هو محيط بهم من كل جانب؟.

فقلت له: ذلك لأن المسلمين أكثرهم تركوا عقولهم ومواهبهم التي وهبهم الله تعالى، وتركوا القرآن الذي قال الله فيه في مثل هذا المقام: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة: ١٣٤]. قال الأستاذ ادوارد: وقدمت تقريراً لحكومتنا، وسردت فيه هذه الوقائع، وقلت: هذان الشعبان لا يتحدان. انتهى.

هذا رأيه إذ ذاك، ثم قلت بعد ذلك: فهذه المحادثة تبين مصائب المسلمين المقصرين في العلوم فقال بعض الحاضرين: أيّ العلوم تعني؟. قلت: إن في القرآن ٧٥٠ آية كلها في معرفة العلوم المحيطة بنا في الأرض وفي السماء، وما هي إلا العلوم الرياضية والطبيعية، فلماذا تركوها وحصروا عقولهم في علوم جدلية وظنية، أليسوا جميعاً ملزمين بالتوحيد؟ قالوا: بلى!.

قلت: أليسوا جميعاً مأمورين بشكر الله؟ قالوا: بلى!. قلت: كيف ناموا عن هذه العلوم؟! نعم ناموا عنها لأنها صعبة عليهم تحتاج لزمن عظيم ومشقات، فاستسهلوا الجدال والطعن والذم والقدح والرجوع إلى الوراء، وتركوا علوم آبائنا إلى أوروبا، وعلوم آبائنا التي لولاها ما كانت أوروبا ولا أمريكا ولا اليابان الحديثة ولا الصين الحديثة كما رأيته في كتاب «سديو» الفرنسي ـ وقد تقدم في هذا المقام ـ أمة تنام عن الحقائق وتقتنع بالجدل والشقاق والخلاف جهالة فاشية وموت أدبي.

الله الله فليقرأ السنّي كالوهابي والشافعي والحنفي، وليقرأ الزيدي والإمامي، ليقرؤوا كلهم هذه العلوم. ألم يقرؤوا قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾[الأعراف: ١٨٥]، ألم يعلموا أن هذه العلوم هي حياة أممهم؟. فقال بعض الحاضرين: ألست تخشى أن يردّ عليك بعض المشهورين في الفقه الإسلامي؟ فقلت له: اعلم أنه لن يقدر عالم أن يدفع ما قلته، لأني أقول: قال الله. وأقول: إن العقل قضى بكذا. وأقول: إن علماءنا السابقون نصوا عليه في كتبهم. فأيّ حجة لقائل بعد ذكر هذا؟.

العلوم شجرة متفرعة عن أصل ثابت وفرع في السماء، ولم ينزل دين من السماء، ولا حدث علم في الأرض، إلا كان أولاً منتظماً، ثم تفرع على مدى الزمان. وهاهو ذا الفقه أصله من العصر الأول، ثم تفرع طرقاً ومذاهب، والفقه كله من مائة وخمسين آية، فأين التفرع في سائر العلوم التي آياتها كثيرة جداً تعدّ بالمئات. فأقرّ الحاضرون جميعاً ما قلته واستحسنوه، بل فرحوا به، بل صاروا من أنصار هذه الدعوة.

ثم قلت لصاحبي: هذا وإني موقن أن هذا الذي أذكره سيعم أقطار الإسلام جميعها، وسيكون لهذا القول أنصار وأنصار ورجال عظماء يقومون به، وسينشر الله هذا في القريب العاجل. ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾[ص: ٨٨].

خاتمة

ختمت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، وقيل أيضاً فوق ذلك: إنها خاتمة ما نزل؛ على رأي. والحكمة في ذلك أن هذه السورة جاءت للقتال والجهاد والبراءة من المشركين وقد جاهد المسلمون بتبوك بعد غزوات أخرى. وهذا فيه ابتداء سقوط عروش لملوك العالم المعروف إذ ذاك، وقد وعد النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بفتح فارس والروم، ولم يفتحا في زمانه، فهاهو ذا يقول: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾، ومن توكلت عليه له ﴿ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾. وهذه الأمم التي أحاربها أقلّ من عرشه، فهو لا محالة غالبها، وستسقط تلك العروش في سلطان أمتي، وتصبح في عداد قوتها.

وسيأتي في سورة «النمل» حديث الهدهد وما قصته من ذكر العرش، إذ جاء فيها: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾[الآية: ٢٣]، إلى قوله: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الآية: ٢٥-٢٦] فنكر عرشها وعرف عرش الله، إشارة إلى أنه أعظم من عرشها، ولذلك نقل عرش بلقيس فأصبح أمام سليمان عليه السلام، الذي هو مرسل من عند رب العرش العظيم؛ فالعرش الذي هو للمخلوق أصبح في ملك من أرسل من عند رب العرش العظيم؛ في سورة «النمل»؛ فهاهنا ذكر العرش العظيم فقيل: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، ولم تذكر العروش الأخرى، بل اكتفى فيها بالحضّ على الغزوات لا غير. ويفطن الأذكياء إلى أن هذه العروش ساقطة لا محالة في يد المسلمين، كما أصبح عرش بلقيس بين يدي سليمان عليه السلام. وهذا من لطائف القرآن وعجائبه، وهي الحكمة في اختتام السورة بهذه الجوهرة الثمينة، ومن المناسبات قوله في أول سورة «يونس»: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾[الآية: ٣]

تذييل لتفسير سورة التوبة
وأن الرحمة فيها من أسرار الصلاة

اعلم أن سورة التوبة فيها سرّ الرحمة المتجلية في الصلاة. إن المسلم في صلاته يناجي ربه بالفاتحة والتشهد وبعض الأدعية، وكلها مرجعها الرحمة العامة وإرجاع الأمور إلى الله. ففي الفاتحة يقول المسلم: إن المحامد كلها لله على تربيته للعالم العلوي والسفلي الذي شملته الرحمة وعمّه الإحسان والعدل في الجزاء، فله وحده الخضوع والتوجه، وبه وحده الاستعانة، ومنه تكون الهداية للصراط السويّ، صراط المنعم عليهم، الذين هم وسط بين طرفين، وفي تشهده يفوض كل شيء لله، فالثناء في الفاتحة، والتعظيم في التشهد، خاصّان بالله تعالى، وهكذا سائر الأمور. وكما أنه طلب الهداية من الله في الفاتحة؛ أقرّ هنا بأن السلام عام من الله على الأنبياء وجميع الصالحين، ثم هو يناجي ربه طالباً ازدياد الرحمات على النبي صلى الله عليه وسلم وصالحي أمته، وإلحاقهم بالصالحين من الأمم السابقة، ثم يستعيذ بالله من العقبات التي تعوقه عن القربى لربه، وترى المسلم في الاعتدال من الركوع يقول نحو ذلك، فيحمده حمداً يملأ السماوات والأرض وغيرهما، ويبالغ في التبري من الحول والقوة، فلا عطاء لغيره ولا مانع لعطائه، وهنا لا ينفع الاجتهاد بلا إعانة، وهكذا.

فملخص ما يقول المؤمن في صلاته التبري من الحول والقوة والاعتماد على الرحمة الواصلة من الله إليه، وتفويض الأمور له وتسليمها إليه.

هذه هي المقصود من الصلاة، وهي لا تصح ولا بقاء لها ولا ثواب إلاّ إذا حضر قلب المصلي فيها، ومتى حضر أشربت هذه المعاني في قلبه ولا بد من العمل بها، لأن الإنسان يعمل بما يعتقده، واعتقاد المسلم إذن أن الله هو المربي، وهو المستعان، وله الخضوع، وله العبادة، ومنه الهداية، ولا عطاء لغيره، ولا عمل للعبد، وهذا كله تفويض تام.

هذه هي صلاة المسلم يكررها طول النهار وطول الليل، وأعماله الدنيوية تتخلل هذه الصلوات وإذا تخللتها أثرت في أحواله وأعماله وأقواله ما دام حاضر القلب في الصلاة.

وهنا بيت القصيد، هنا تجلى ما أريده في هذه الخاتمة، فلقد رأيت كيف تجلى المسلم عن الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن، وقيل له إياك أن تكون الثمانية أحب إليك من الله فإنها منه وإليه.

وفيها يرى المسلم أنه إن قتل فالقتل مغنم، وإن نصر فهو مغنم، وإن عاش عدوه أو مات فذلك كله مغنم للمسلم، لأن صدره اشتفى من عدوه بعذاب جهنم أو عذاب القبر إن مات أو بموته قتلاً بيد المسلم.

فالحياة في نظر المسلم كلها سعادة، فلا فوات المال يحزنه، ولا ذهاب العمر يؤذيه، وإن افتقر فالله سيغنيه إما في الدنيا وإما في الآخرة، فإذن يكون قلبه غنياً وهو منشرح الصدر.

فانظر كيف أصبح هذا الوجود كله والأحوال جميعها في حق المسلم رحمة وسلاماً تحقيقاً للرحمة المقروءة في الفاتحة المتكررة في كل صلاة، وللسلام الذي يرفرف عليه في كل تشهد.

فالمسلم إذن في رحمة وفي سلام دائمين، وأصبحت الرحمة في العقيدة الراسخة التي تغذيها تلك التلاوات، فالحرب والفقر والموت والهزيمة والنصر والحياة والغنى، كل هذه المتناقضات يصحبها الرحمة والسلام للمؤمن، وإذا أصابه النصب والتعب والمخمصة والفقر فهو في رحمة وسلام، لأن المسألة حوّلت من الماديات إلى المعنويات، ومن الظواهر إلى البواطن، وإذن سر الفاتحة وسر الصلاة قد تجلى تجلياً أعظم في سورة «التوبة».

هنا ظهر سر الصلاة، وسر «الفاتحة»، وسر التشهد، وسر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صالحي أمته، وسر القنوت وغيره.

ولعمري إن هذا كله هو سر الحياة وسر السعادة، أتدري أيها الذكي ماذا قال الحكماء والفلاسفة في هذا المقام؟ أتدري ماذا صنف الفلاسفة المتقدمون في هذه المسائل؟ إني أحيلك على ما تقدم في سورة «البقرة»، فلقد ذكرت لك هناك أن فيلسوفاً يسمى «قابس» قبل الميلاد بخمسمائة سنة ألف كتاباً يسمى «لغز قابس» لخصته لك هناك، ويرجع الأمر فيه إلى أن السعادة ليست في المال وجمعه، ولا الجمال وبهجته، ولا الولد وكثرته، ولا العلم وعزته، ولا الصيت وشهرته، ولكن في الصبر والثبات والرضا في مختلف الحالات، فإن شئت فارجع إليه، وإن شئت زدتك اليوم بياناً وأفدتك يقيناً وحكمة وإيماناً.

تعجب كيف اتفق العلم والدين، وكيف صنف الفلاسفة بعقولهم ما أنزل الوحي على نبيه، وكيف يرى بعض الناس أن هذه المواعيد الإيمانية والآيات القرآنية والبشارات الأخروية إنَّما جعلت لترغيب الجاهلين والضحك على أذقان الغافلين، ذلك لأنهم يظنون أنهم امتازوا عن بقية المسلمين إذا هم لا في العير ولا في النفير، فلا هم بقوا مع العامة المقلدين، ولا هم وصلوا إلى رتبة الحكماء المحققين.

فيا عجباً! كيف يضل العلم أكثر المتعلمين؟ وكيف يكون العلم ضلالاً والتنوّر به سراباً؟ إن الذين يسعدون في الدنيا رجلان: جاهل له إيمان، وعالم تام الحكمة والعرفان، فأما المتوسطون فهم الذين قتلتهم الحيرة والشك في هذه الحياة، فهم أبداً معذبون ويتلهون بالشهوات الجثمانية في هذه الحياة ظانين أنها هي السعادة إذ لا سعادة في سواها، وما الشهوات إلاَّ ﴿ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾[المرسلات: ٣٠-٣١]، فهم يتقون الحر بالنار، كالمستجير من الرمضاء بالنار، ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[التوبة: ٥٨].

حكاية الكوخ الهندي

ألف عالم من علماء أوروبا لا أذكر اسمه الآن كتاباً يسمى «الكوخ الهندي» فجعله سياحة من الغرب إلى الشرق، فطاف مصر وسوريا وسائر البلاد باحثاً عن الحق أين هو؛ فوجد المسيحيين والمسلمين واليهود جميعاً مختلفين، فقال في نفسه: أين السعادة إذن؟ فوصل إلى الهند واتصل بالبراهمة فلم يبيحوا له الاتصال برئيسهم، بل ألزموه أن يجلس في مؤخر المجلس بعد أن اغتسل، فأخذ يلقي أسئلة على آخر رجل في المجلس، وهذا يلقيه لمن يليه وهكذا حتى وصل إلى رئيسهم، وصورة السؤال: أين الحق؟. فكان الجواب أنه عند البراهمة، وبعد أخذ ورد وجدال هزئ الجمع بهذا الفرنجي فخرج يتعثر في أذيال خيبته، وبينما هو سائر إذ عثر بامرأة تبكي حظها وتندب أيامها، فسألها: ماذا دهاك؟ فقالت: إن زوجي مات ولم أحرق معه، وكل امرأة مات زوجها ولم تزجّ نفسها معه في النار فتموت تعتبر نجسة، فأنا نجسة فلا يكلمني أحد، فقال لها: وأنا مثلك لأني رجل مسيحي يعتبرونني نجساً، فاصطلحا أن يتزوجا، وعاشا في القفر يشاهدان جمال الله في طلوع الشمس وغروبها وجمال النجوم والقمر وبدائع الطبيعة في النبات والأنهار والحيوان والهواء الطلق، ثم رزقا ولداً. ومما اتفق لهذا الرجل أن مرّ به سائح فأخذ يحدثه وقال له: أنت سعيد؟ قال: إني لم أحسّ بالسعادة إلاَّ في هذه الحياة، فجمال الله مشرق عليّ أطالعه في نجومه وشمسه وقمره وزهره وشجره ونهره ومائه وهوائه وتغريد طيره وحسن صنعه، فأنا في أنوار وجمال وبهاء، وهذا ولدي قرة عيني وعين أمه، وقد ابتعدنا عن ضوضاء المدن ودخانها وآلامها وكذبها وقضاياها ونفاقها الخ. فقال له: كيف نلت هذه السعادة؟ قال له: بعد أن كملت نفسي بالمصائب وصبرت على النوائب، فالمصائب هذبتها، والنوائب صقلتها، وحوادث الأيام كملتها، وقوارع الدهر شذبتها، فأصبحت نفسي كالجلد المدبوغ ذهب نتنه وصلح عمله، فأما الذين لم تهذبهم الأيام، ولم تصهرهم المصائب، فهم أبداً في حزن وألم، فلا المال يغنيهم، ولا الجمال وحده يرضيهم، ولا الصيت يسعدهم، ولا الولد يكفيهم، فهم عرضة للهوان والذلة على

كل حال . فقال له : أيها الأخ ، كيف تقول إن احتمال النوائب يسعد ، مع أن النوائب هي الشقاء وهي المذلة وهي الهوان وهي العذاب ، وإذا لم تكن هي عذاباً فأين العذاب إذن ؟ لقد جعلت الجحيم نعيماً ، والغنى فقراً ، وقلبت القضايا ولم تصب الحقيقة ، فهل يكون الليل نهاراً ، أم يكون الظلام ضياء ، أم الموت حياة؟ إن هذا هو العجب العجاب ! .

فقال : اسمع يا صاح ، إن الجبل صعب المرتقى ، فإذا تحققت أن فوق الجبل حديقة غناء ، وطيوراً مغردة ، وأنهاراً جارية ، فأنت لا محالة مرتق إليه ، فما دمت في الارتقاء فأنت في عناء ، ولا يكون العناء إلاَّ حيث لم تصل إلى قمته ، ومتى وصلت إلى أعلى الدرجات فهناك لا ألم ولا شقاء ، بل هناك ما يسر القلوب ويشرح الصدور .

هكذا يكون المرء في الحياة ، فما دامت نفسه لم تصقل بالنوائب فإنه لا يزال في نصب وتعب ، ويهتم لها كثيراً ، فأما إذا استكملت نفسه بها فإنه لا يهمه أمرها وتمر عليه اللذات والآلام كما يمر الليل والنهار والصباح والمساء . فحمد صاحبه له هذا البيان وأدرك ما لم يعلم في المدارس من قبل .

فانظر أيها الذكي لدين الإسلام ، كيف رأيت في هذه السورة أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم بلا تعلم ولا فلسفة ولا حكمة عقلية ، قد نالوا هذه الأمنية ، وأصبحوا لا يبالون بالأهل والإخوان والحياة ، حتى قال أبو خيثمة : ظل ظليل ، وتمر يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله في الحر وشظف السفر والله لا يكون ، ثم ركب ناقته . وكيف رأيتهم يتذوقون التمرة ليشربوا الماء عليها ، وكيف رأيتهم راضين فرحين مبتهجين في قلوبهم ، وكيف رأيتهم يتقدمون للموت ، فالمال مبذول والعمر مبذول ، كل هذا بشيء واحد وهو الإيمان .

فانظر كيف فعل الإيمان ما عجز عنه العلم والفلسفة والحكمة ، وكيف جهل أكثر الناس أن السعادة راجعة للوجدان والفلسفة شرحتها والقرآن أبرزها .

انظر كيف كان أكثر الناس لا يعلمون ؛ ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الروم : ٧] وهم عن سعادة هذه الحياة نفسها معرضون ، وبأسرارها جاهلون ، وعن الحقائق غافلون ، و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[الأعراف : ٤٣] . اهـ .

ذكر المناسبة بين سورة التوبة والسورة التي بعدها وهي سورة يونس

اعلم أن المناسبة بين السورتين من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : أن سورة « التوبة » لآداب الجهاد وهداية الكافرين وقسم الغنائم وأكثر ذلك في السفر ، أما سورة « يونس » فإنها لتعليم الناس وهم آمنون مطمئنون .

الوجه الثاني : اعلم أن الله عزَّ وجلَّ علم قبل أن ينزل القرآن أن الأمم الإسلامية ستنبذ العلوم وبدائع آياته في سماواته وأرضه ظهرياً ، وبذلك يذلّ كثير منهم للأمم المحيطة بهم ، فلذلك يقول في آخر « التوبة » : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ﴾[التوبة : ١٢٢] الخ ، فأمرهم أن ينقسموا فريقين : فريق للسفر والجهاد ، وفريق للتفقه في الدين .

وعلم سبحانه أن هذه الكلمة سيصطلح الناس قروناً متطاولة بعد الصحابة والتابعين على اختصاصها بفروع من المسائل ليست هي كل الفقه كما تقدم بأوضح عبارة، فلذلك جعل هذه الكلمة في أواخر هذه السورة وأعقبها بسورة «يونس»، وشرح في أولها ما يفيد ذلك التفقه، شرحها شرحاً مستوفياً، يقول الله هنا لتبق طائفة يتفقهون في الدين ولينذروا قومهم الخ، وينكر على الناس تعجبهم من إرسال أحدهم لينذرهم ويبشرهم.

ثم أخذ يبيّن خلق السماوات والأرض، واستواء الله على العرش، وتدبير الأمر، وأنه أضاء الشمس، ونوّر القمر، وقدّره منازل ليعلم الناس الحساب، وأبان اختلاف الليل والنهار، وحذر من اليأس من الآخرة، والاكتفاء بالدنيا والاطمئنان إليها، والغفلة عن هذه الآيات السماوية والأرضية وغيرهما، ومدح الصالحين المهتدين.

وختم هذه الجمل بأن أهل الجنة يختمون دعاءهم بتنزيه الله وبحمده على تربيته للعالمين. لا جرم أن هذه هي مجامع التفقه في الدين. هذا الشرح المذكور في أول سورة «يونس» هو عينه ما ذكرناه سابقاً ونقلنا معناه من كتب اللغة ومن كلام الإمام الغزالي.

إن الله عزَّ وجلَّ ليس عن الخلق غافلاً، كما قال: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وسترى إن شاء الله عند تفسير هذه الآية كيف عرف علماء الغرب عجائب هذه الدنيا التي هي داخلة في هذه الآيات القرآنية، وعسى أن تطلع هناك على بدائع ألوان الحيوان وأشكاله التي عرفها القوم وعرفوا أن تلك الألوان وتلك الأشكال إنَّما خلقت لتكون وقاية لتلك المخلوقات الضعيفة من أعدائها القاتلات، فترى الحشرة تخلق على هيئة حصاة من حجر الصوان مثلاً ليجهلها الطائر الذي يعيش عليها فتبقى محفوظة إلى أمد.

فهكذا هنا ألهم الله الإمام الغزالي قبل نحو ٩٠٠ سنة أن يذكر العلماء بعده بأن الفقه الذي لم يعرفوا سواه إنَّما هو فقه اصطلاحي، ولكن التفقه المذكور هنا غير ذلك، وقد عرفته وعرفت أيها الذكي أنه يرجع في أكثره إلى أمرين اثنين: تهذيب النفس وإشراقها بالعلم. وهذان الأمران هما المذكوران في سورة «الفاتحة» التي ابتدئت بهذه الجملة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، ولفظ «العالَمين» يشمل العالم العلوي والسفلي، وهو مبسوط في تفسير «الفاتحة».

فجميع العلوم التي عرفها أهل أوروبا وأمريكا وبلاد اليابان هي الداخلة في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾. أفلا تعجب معي كيف ذكرت الجملة بتمامها في دعوى أهل الجنة ولم تذكر بهذه الهيئة بعد «الفاتحة» إلاَّ هنا.

وفي أثناء سورة «الأنعام» التي ذكر فيها عجائب السماوات والأرض، لا يحمد الناس محسناً عليهم إلاَّ إذا عرفوا نعمته وعلى مقدارها يكون إعظامهم له بقلوبهم وقيامهم بقضاء حوائجه بجوارحهم وثناؤهم عليه باللسان.

فهاهنا ثلاثة أمور: إعظام بالقلب وحبّ، هذا بالنسبة لله مطلوب، ولكن ليس هذا بالتكلف وإنَّما هو نتيجة الشعور بالنعمة والقيام بقضاء الجوارح، والأعمال هنا في حق الله مستحيل، فيرجع

ذلك إلى الإخلاص في خدمة الناس والعمل لإسعادهم، أما الثناء باللسان فإنما هو وظيفة اللسان، فاللسان هو آخر أنواع الشكر الثلاثة.

إذن الحمد نتيجة من نتائج الإنعام المذكور في قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، ولما أنعمت عليها، وعرفوا النعمة، قاموا بإعظامك بقلوبهم وخدموا أممهم ونطقوا بالثناء عليك، فقالوا: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، وهذه الجملة مذكورة هنا لتذكيرنا بنعم الله؛ وبعبارة أخرى: لتذكير المسلمين بقراءة عجائب السماوات والأرض التي ذكر منها هنا الشمس والقمر والحساب وتقدير المنازل الخ.

فهذه كلها من تربية الله للعالمين، فسورة «الفاتحة» ثناء ودعاء، والثناء في أولها بالحمد، وفي قسم الدعاء سبب الحمد وهو النعمة، ففي «الفاتحة» ذكر السبب بعد المسبب، ثم أقول هنا: فكما لم يغفل الله عن الحشرات وأنواع الحيوان فخلقها على أشكال وهيئات تكون سبباً في بقائها إلى أمد.

هكذا هو نظر الأمم الإسلامية الحالية قبل أن يخلقها فهيأ لها الأسباب ونظم الكتب وألهم العلماء، فشرحوا لفظ التفقه، مثل ما رأيته عن الإمام الغزالي، وبقي ذلك في الكتب مذكوراً والناس عنه غافلون. وبقي الخلف يتبع السلف تسعة قرون والأمم من حولهم يعلمون وهم نائمون.

وأول ضربة وقعت على عالم بعد موت الإمام الغزالي تلك الضربة التي وجهت إلى العلاّمة ابن رشد، إذ كفروه، لأنه مع ما بينه بين الغزالي من الخلاف وافقه في أن هذه العلوم كلها هي التوحيد وهي المطلوبة، فآذاه المسلمون وأهانوه، ويقال: إنهم بصقوا في وجهه، ومرة طردوه من المسجد، وأمر الملك بنفيه من العاصمة إذ ذاك بالأندلس، وبقي في بلدة لا يسكنها إلاَّ اليهود احتقاراً لشأنه، ثم رضي عنه ومات بعد قليل، فتناقص العلم من بلاد الإسلام، وذلّ المسلمون في أقطار الأرض ذلاًّ عظيماً، ذلك لأنهم جهلوا التفقه في الدين الذي أمر به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يعرفوا كيف ينذرون قومهم ويبشرونهم، بل عكفوا على قشور من العلوم.

يقولون للصبي إذا دخل المدارس الدينية: اقرأ فروض الوضوء، ويطيلون في ذلك إطالة، ويجعلون كل حياته في ذلك، ولا يظهرون له جمال الله وعجائبه وبدائع صنعه، ولا يشرحون له شرحاً مستفيضاً إخلاف الوعد والحقد والحسد وما أشبه ذلك، ولا يهذبون نفسه.

وصار ذلك خلقاً في الأمة الإسلامية، فذلوا ذلاًّ عظيماً، وفقدت الإنسانية عامة هذه الأمة المسكينة، فلم تنفع نفسها ولم تنفع الناس، وصارت عالة على الأمم فأذلوها، كما فعلت النحل في قفيرها إذا ترى ملكتها القائمة بتدبير ملكها قد حصل لقاحها فحملت، وهناك في القفير ذكران النحل، فتحمل سكان القفير من النحل المذكور على أولئك الذكران فتبيدهم من الوجود، لأن الله لا يبقي في خلقه ما لا عمل له.

هكذا الأمم التي خلقها الله، لما رأت الأمم الإسلامية غافلة جاهلة، حملت عليها فأخذت بلادها وجعلتها تحت إمرتها، إلاَّ تلك الأمم التي استيقظت كالترك والفرس وكالأفغان، فإنها لما استيقظت هذه الأيام أخرج الله عنها الفرنجة ﴿ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا ﴾ [الإسراء: ٨].

أقول: فمعنى التفقه الذي شرحه الإمام الغزالي بقي في الإحياء وقد نام عنه المسلمون، ناموا نوماً عميقاً لموت العلماء والمفكرين، وبقي المسلمون بعد تلك القرون مكتفين بعلوم الصوفية، حتى إنك ترى العلاّمة محيي الدين بن عربي قد أدخل جلّ الفلسفة في كتابه «الفتوحات المكية»، وخلطه بالتصوف حرصاً على العلم، ولم يرد أن يعلمهم الفلسفة والعلوم الحكمية وبدائع السماوات والأرض لأنها كفر عندهم، وقد رأوه فوق طاقتهم، فانحط المسلمون حتى جاء العصر الحاضر، فأعان الله على هذا التفسير وأعان غيري على تأليف كتب في ذلك، وهذا أوان مرقى المسلمين.

فلن يقدر صغار العلماء على الطعن في عالم ولا مفكر، لأن الأمم المتعلمة أحاطت بالمسلمين من كل جانب، فليس يقدر أحد من جهلة المسلمين على مناوأة ما يكتب الآن لنشر العلوم والتفقه في الدين الذي شرحه أسلافنا وغفل عنه من بعدهم، فنحن نستأنس بكلامهم ليعلم المسلمون أن هذه الآراء التي أذكرها في هذا التفسير ليست حديثة، بل قالها آباؤنا ونام عنها من بعدهم، وأن الله عزّ وجلّ أراد إيقاظ الأمة اليوم، ولا رادّ لما أراد، وستبقى هذه الأمة أمداً يعلمه الله، وسيحفظها كما حفظ تلك الحيوانات الضعيفة، فإنه يقول: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧].

وإني أسأل الله عزّ وجلّ أن يوفق عند تفسير هذه الآية برسم صور تلك الحيوانات التي حفظها الله بسبب أنه خلقها مشاكلة لما حولها من شجر أو حجر أو مدر، لتعلم أنه هكذا سيفعل بأمة الإسلام فيحفظها، لأنها ستكون مشاكلة للأمم في علومها ومعارفها، بل ستكون هي الأرقى.

فتبيّن بهذا أن التفقه في الدين قد جاء ملخصه في أول سورة «يونس» ليعرف هذا المعنى المسلمون ويخرجوا من جمودهم القديم إلى مجدهم الحديث، ويقرؤوا جميع العلوم، ويعرفوا آيات ربهم ويفرحوا بجماله، وتعمر بلادهم وهم مبتهجون.

وسترى أيها الذكي في سورة «يونس» من عجائب إتقان الصنعة الإلهية ما يبهر الأبصار، كالصور الكوكبية المرسومة بالمصور الشمسي، وذلك الصناعة البشرية التي وضعها قدماء المصريين في معابدهم وفوق جثثهم المحنطة. وكيف أبدع الله مئات آلاف من المجرات التي كل منها تشتمل على مئات آلاف الآلاف من الكواكب وعرف الناس أبعادها إجمالاً، وكيف عرفت ذلك الأمم حولنا، فرسمت بعض الصور السماوية بهيئة جميلة تسر الناظرين، وكيف حذر الله من الغفلة عن آياته سواء أكانت بصنع يديه كالصور السماوية أو بصنع عباده كمنطقة فلك البروج التي ستراها برسم قدماء المصريين. وهذا قوله تعالى في سورة «يونس»: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[الآية: ٥٨]. هذا تمام الكلام في الوجه الثاني من وجوه المناسبة بين السورتين.

الوجه الثالث: ختم الله التوبة بأنه جاء الناس رسول من نوعهم تعز عليه مشقتهم، حريص على إيمانهم، رؤوف رحيم بالمؤمنين منهم. ثم تلا ذلك في أول سورة «يونس» بأن هذا الكتاب الذي جاء به كتاب ذو حكمة، وقال: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [الآية: ٢]، فهذه الآية تكملة وتتميم لآية آخر السورة هنا. وليس في القرآن من سورة مبدؤها يوافق نهاية «التوبة» إلاّ سورة «يونس»، فظهرت المناسبة بين السورتين.

وهذه المناسبة كالتي بين سورتي «الطور» و«النجم»، ففي آخر الأولى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾[الطور: ٤٩]، وفي الثانية: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾[النجم: ١]. وكآخر «المائدة» وأول «الأنعام»، إذ يقول في آخر الأولى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦] إلى قوله: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾ [المائدة: ١٢٠]، ويقول في أول الثانية: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١] إلى قوله: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ [الأنعام: ٣] الخ. فخلق السماوات والأرض راجع لقوله: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ راجع لقوله: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ الخ. وهذا القرآن لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي غرائبه؛ والحمد لله رب العالمين. اهـ.

تكملة للكلام في مناسبة آخر سورة التوبة بأول سورة يونس

الفقهاء في الإسلام في الماضي وفي الحال والاستقبال

مرّ بك أيها الذكي الكلام في هذه المناسبة وأنها من ثلاثة وجوه، ومن أهمها: أن التفقه في الدين جاء في آخر «التوبة»، وجاء بعدها في الترتيب سورة «يونس»، وجاء في أوائلها ذكر ضوء الشمس ونور القمر إلى آخر ما مرّ، وأتبعه الآن بذكر ماضي الفقهاء وحاضرهم ومستقبلهم.

اللهم إن الحكمة والعلم أثمن ما في هذه الدنيا، وخير العلوم ما به يعرف الإنسان قيمة نفسه، وخير ما يكتبه المفكرون في الإسلام البحث في أحوال أمم الإسلام وعاداتها وأخلاقها، وهاأنا ذا باحث في الفقهاء بما يناسب المقام.

الفقهاء في عصر الصحابة

لقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كما مرّ بك من كلام الإمام الغزالي يعدّون الفقهاء أنهم هم أولو الألباب ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ويعدّون نعم الله عليهم ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]، وهم الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾[السجدة: ١٦].

الفقهاء بعد الصدر الأول

ذهب الصدر الأول فتضاءل التفقه في الدين وانحاز إلى ما هو معروف اليوم من الفروع العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، فأما ما عدا ذلك من خشية الله وحبه والولوع به والتفكر في جماله فذلك قضي عليه القضاء الأكبر وصار نسياً منسياً، وهذا هو العصر الذي كان فيه الإمام الغزالي في القرن الخامس الهجري، وقبله وبعده للآن.

الفقهاء في زماننا

قد قلت لك قبل هذا إن أكابر علماء الإسلام قاموا على تلك الطريقة العقيمة المنتشرة في أنحاء الإسلام إلى اليوم، وذمّوها وشنعوا القائمين بالدين، ولكن رؤساء الدين في الإسلام لم تزعجهم تلك الصيحات ولم توقظهم تلك المنبهات ولم يغيروا نهجهم، بل الخلف يتبع السلف، و﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون: ٥٣]، فتبع السني السني، والشيعي الشيعي، فالحنفي والشافعي والمالكي

والحنبلي والزيدي والإمامي، كل هؤلاء عاكفون على ما درسوه عن أشياخهم، موقنون أنهم أهدى من غيرهم عملاً وأشرف أملاً، نابذين ما عدا ذلك مما ليس لهم به علم، فحافظت الأمة على حصر أفكارها في واد ضيق، فنام المسلمون نوماً عميقاً أدى إلى اضمحلالهم إلاَّ قليلاً منهم فهم مستيقظون.

ثم اتسع نطاق التسمية بالفقيه، فلم يقتصر الناس في التسمية به على من يحفظ أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج والبيوع والرهن والسلم والإجارة والوديعة والهبة والميراث والدعوى والعتق والحيض والنفاس الخ، بل صار هذا الاسم يطلق على كل من حفظ القرآن عن ظهر قلب وإن كان من أجهل الجاهلين، وهذه طريقة منتشرة في بلادنا المصرية، يسمون من حفظ القرآن فقيهاً وإن لم يدرك من معانيه حرفاً واحداً. والله يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[القمر: ١٧]، وفي الحديث: «اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه»، وهذه التسمية لهذه الطائفة التي هي أعمّ من سابقتها قد تكون مصحوبة باحتقار نوعاً ما وباستهزاء، لسببين:

السبب الأول: أن هؤلاء غالباً كانوا قبل الآن يعلمون بالعصا والإذلال فتذل نفوسهم وتخنع.

السبب الثاني: أن النفوس الإنسانية فيها نور إلهي عام تخترق الحجب وتعرف بعض الحقائق، وإن لم تحسن التعبير عما تعقل، فهاهنا يظن العامة أن هذا الفقيه لحفظه القرآن عنده علم، وفي الوقت نفسه تعلم نفوسهم أن قيمته العلمية منحطة، ولكن لا يحسنون أن يعبروا عن ذلك.

آثار ما تقدم في الإسلام

فانظر كيف كانت الأمم الإسلامية صورة مكبرة لفقهائها، فلما كان في الصدر الأول أمثال أبي بكر وعمر، كانت الأمة شامخة الرأس عزيزة الجانب، ولما صار الفقيه محصوراً في الفروع في الأزمان المتأخرة أو حافظاً للقرآن، صارت الأمم الإسلامية كلها صورة مكبرة لفقهائها، فكما عكف الفقهاء على حفظ السور أو على حفظ الفروع وغفلوا عما سواهما، هكذا الأمة غفلت ونامت ثم ذلت وخضعت، ذلك هو تاريخ الأمم الإسلامية وفقهائها قديماً وحديثاً.

الفقهاء في مستقبل الزمان

أما الفقهاء في مستقبل الزمان في أمم الإسلام فإنهم سيكونون أشبه بالحكماء في أمة اليونان، فيكون الفقيه في دين الإسلام هو المتمكن من العلوم المطلع على حقائقها الباحث المدقق.

فإذا قرأ سورة «يونس» بعد «التوبة» كما تقدم، بحث في الشمس والقمر والمنازل المذكورات في أول السورة، وأتبع ذلك بفهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويتمادى في فهم «يونس» إلى أن يرى في آخرها أن الله نجى أجساد بعض الفراعنة لتكون تلك الأجساد البالية والعظام النخرة المحفوظة في الأبنية المشاهدة عبرة للأمم المتأخرة، فيدهشه ما يرى في مصر ـ كما ستراه موضحاً في سورة «يونس» قريباً ـ من إقبال الأمم من أعيان أمريكا وإنكلترا وفرنسا وألمانيا على الاعتبار بتلك الجثث المحنطة، والتفكر في تلك الصناعات العجيبة والدروس الشائقة المنيفة، وغرائب العلم، وعجائب الحكمة، والرسوم الفلكية المرسومة في محالّ عبادتهم وعلى الصناديق التي فيها أجسامهم.

وستنظر هذا هناك قريباً، وإذ ذاك يقول: هذه من معجزات القرآن، لأن الله لم يذم المعرضين عن آيات الله إلاّ في موضعين في «يونس»:

الأول: عند ذكر السماوات والأرض في أول السورة.

الثاني: عند ذكر الاعتبار بأجساد الفراعنة وأنها من آيات الله، وهذه الآيات لم يفكر فيها الناس إلاّ في هذه الأيام، إذن هذه معجزة قرآنية.

ثم ينتقل من ذلك إلى أن يحضّ الأمة على الاعتراف من بحور علم الأوائل من أيّ دين ونحلة وأمة، حتى إنهم يدرسون خرافات الأمم وأساطيرها ليستخلصوا منها الأخلاق والآداب التي كانت عليها تلك الأمم، فتزيد العقول حكمة والنفوس عظة، فبالأولى يدرسون رسوم مبانيها وهندستها وعلمها وحكمتها، ويفعلون ما تفعله ألمانيا اليوم وبقية أهل أوروبا، فإن لهم طوائف خصصوا كلاً منهم لعمل أو لعلم أو لتاريخ أمة، كما نعلم علم اليقين أن أهل ألمانيا عندهم قوم مختصون بالبحث عن علماء الشرق الأدنى مثلاً، وهكذا فالمسلمون أولى بهذا لأن الله يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة: ١٤٣] الخ.

نظر الفقيه في مستقبل الزمان في سور أخرى من القرآن

ثم إذا قرأ سورة «هود» بعد سورة «يونس» وجدها قد جاء في أوائلها شيء عجب، ذلك أن الله ضرب مثلاً لتدبيره في خلقه بالملك على عرشه، فإذا كان الملك يدبر أمر الرعية ويحافظ على ثغورها وتجارتها وزراعاتها وسياساتها، فهاهنا قبيل ذكر العرش يقول: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[هود: ٦]، فيضاهي الفقيه إذن بين عرش الملوك وعرش ملك الملوك.

فعرش الملوك لتدبير الجيوش وحفظ الثغور والبلاد الخ، وعرش ملك الملوك لنظام السماوات والأرض، وإغداق الرزق على الحيوان، والإحاطة به علماً، والمحافظة على حياته والتكفل به في غدوه ورواحه، ثم يرى هذا المعنى يدخل في قصص السورة، كقول هود: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦] ومن استقامة صراطه أن يأخذ بناصية الدواب وبناصية الإنسان. فكل حيّ تكفل الله به لا فرق بين الإنسان والحيوان.

ثم يتأمل الفقيه إذ ذاك فيقول: لماذا ذكرها هود وقد ذكرت في أول السورة؟ ثم يجيب على ذلك بأن علوم الحيوان في زماننا مدهشة عجيبة.

مثال ذلك ما ستراه في سورة «المؤمنون» في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، فإنك سترى هناك ما لا عين رأت من عيون الغافلين، ولا أذن سمعت من آذان المتكبرين، ولا خطر على قلب الجاهلين من حكم غالية وجواهر باهرة وغرائب مدهشة، إذ ترى رسوماً شمسية لأشكال حيوانية:

(١) كفراش ذي أجنحة تشبه في صورتها ولونها وشكلها أوراقاً جافة منبوذة.

(٢) وكنوع من الحشرات قد وقع على جذع شجرة عتيقة والتصق بها، فيظن من يراه أنه غصن ضخم من أغصانها قد قطع من أعلاه حديثاً.

(٣) وكدود الفراش الملون باللون الظاهر الباهر حتى يتبينه كل ناظر ويعرفه كل صادر ووارد، وهكذا من كل شاردة غريبة ونادرة عجيبة ستراها هناك برسمها إن شاء الله، وتطلع على سرّ هذه الأشكال وضرب تلك الأمثال، وتفهم فهماً حقاً معنى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾، وأن الفراش ذا الأجنحة التي تشبه الورق الجاف إنَّما خلقت على هذه الصفة لتكون تلك المشابهة وقاية لها من الطيور التي تصطادها فتعيش عليها، فمتى مرت عليها لم تميزها من الورق الجاف فلا تصطادها ولا تفترسها. وأما الحشرات الواقعة على جذوع الأشجار المناسبة لأغصانها فكذلك للاحتراس من أعداء تلك الحشرات.

وأما المسألة الثالثة فذلك أن هذا الدود الذي ظهر وانكشف بلونه وجسمه وتميز عن الشجر المحيط به، فإنَّما ذلك لأنه كريه الطعم قد جرّبه الطير المفترس قديماً فكرهه، فلذلك منحه الله لوناً زاهياً ليكون ذلك اللون علامة للطيور الآكلة للحشرات، تعرّفها أن هذا طعمه كريه فتجتنبه لمجرد منظره، ولولا هذا اللون الذي به امتاز ذلك الدود لكان دائماً محط أنظار تلك الطيور فتأتي به فتذوقه وتريد أكله فلا تقدر، فيكون الطير في شغل بما لا ينفع، وذلك الدود دائماً خائف وجل من ذلك.

بهذا يفهم الفقيه قوله تعالى في سورة «هود»: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[هود: ٦]، ويفهم لماذا أعاد هذا المعنى هود في قوله: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[هود: ٥٦]، فمن درس هذه العلوم وأتقنها أيقن أن الله نظر لكل حيوان نظرة خاصة، وأعطاه شكلاً ولوناً وحجماً يوافق كل الموافقة حاله.

فإذا عرف ذلك الفقيه عرف أننا معاشر بني آدم لسنا في حجاب عن نظر الخالق لنا، فإذن هو يعامل كلاً منا معاملة خاصة تناسب أحواله نتيجتها نافعة له.

فإذا رأينا لون الحيوان لحكمة وشكله لحكمة، حتى إنك سترى في تلك الآية أن من الحشرات ما إذا جثم على ورقة أو غصن يرى على شكل زرق الطيور، وذلك الشكل جعل وقاية له من الطيور الآكلات له، فهذه الحشرات حين وقوعها على شجر أو ورق أو حجر لا تلتقمها الطيور، وكيف تلتقم ما لا تشك في أنه رزقها، فبهذا يتبيّن الفقيه أن الله حقيق بالتوكل عليه، وأن كل ما نحن عليه من عز أو ذل أو حزن أو فرح أو إقامة أو حال لله فيه حكمة تضلّ عنا، كما تضلّ الحكمة عن تلك الحشرات التي أشبهت زرق الطيور لو كانت ذات عقل وقالت: لم خلقتني يا رب على شكل زرق الطيور ولم لم تخلقني بهيئة بهية كالحباحب المضيء في ليالي الظلام؟.

بهذا يفهم الفقيه الإسلامي لماذا قال هود ـ بعد قوله: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الخ ـ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[هود: ٥٦]، فإن أخذه بنواصي الدواب كما علمت وكما ستعلم عند تفسير سورة المؤمنون؛ آية ١: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ دليل على أنه آخذ بنواصي كل امرئ من بني آدم، وأن كل عمله فينا لحكمة تضل عنا فلنتوكل عليه.

وذلك الفقيه إذا قرأ أمثال ما سمعته في الطير وغير الطير في موسوعات الكتب الفرنجية كما اتفق لي في هذا المقام يأخذه العجب كل مأخذ لأمرين :

الأول : أن أمم الفرنجة المتأخرين قد برعوا في تلك المعاني التي هي حقاً وصدقاً تضمنها القرآن والمسلمون غافلون .

الثاني : أنه يدهش حينما يرى القوم يشرحون تلك العلوم لذات العلوم ، فتتسع قرائحهم وتنمو دولهم ويزيد رزقهم ، ولكنهم ـ كما رأيت أنا ـ لا يكترثون بذكر أنها فعل الخالق ، ولا بأن ذلك دالّ على جماله وحكمته إلاَّ قليلاً جداً مثل ما يذكره «اسبنسر أوليفر لودج» و«اللورد افبري» وأمثالهم ، فهؤلاء يذكرون الخالق تبارك وتعالى عند ذكر بعض هذه العجائب ، وأكثر القوم لا يهتمون بذلك ، وعليه سيكون فقهاء الإسلام مخالفين للأوروبيين في طريقة تدريس هذه العلوم ، ويصنعون في العلوم كما صنعنا بوجه ما في هذا التفسير ، فيحب الناس صانع العالم ويفرحون بالعلم غراماً دائماً ، هذا ما يراه الفقيه المستقبل في سورة «هود» .

ما سيراه الفقهاء الإسلاميون في سورة يوسف بعد هود

فإذا قرأ ذلك الفقيه سورة «يوسف» ، سمع الله يقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف : ٧] وأخذ يسرد نظام آداب يوسف في بيت العزيز ، إذ عفّ عن الشهوات ، وهذا هو تهذيب الشخص وآدابه في السجن ، إذ أحسن المصاحبة مع المسجونين من المصريين ، وأخذ يعظهم ويدعوهم للإيمان ، وهذا أشبه بتدبير المنزل ، ثم قبض على أزمة الأعمال العامة في الأمة المصرية والاقتصاد وتدبير الدولة ، فكأن هذا هو السياسة العامة ، وهذه هي نصف علم الفلسفة ، لأن الفلسفة قسمان : قسم علمي ، وقسم عملي .

القسم العلمي : هي الرياضيات والطبيعيات والإلهيات .

القسم العملي : تهذيب الشخص وتدبير المنزل وتدبير المدينة .

فهذه الثلاثة هي القسم العملي ، وهناك يسمعه يناجي ربه شاكراً له إنعامه عليه بالملك والحكمة الخ ، وطالباً منه وفاته على الإسلام ولحوقه بالصالحين .

ومعنى هذا أن الفقيه يقتدي بيوسف في الحكمة العملية بأقسامها ، وبعد تمام النعمة يشكر الله على نعمه التي أفاضها عليه ، ويشهد له بإبداع السماوات والأرض ، ثم يطلب الثبات على الإيمان واللحوق بالصالحين .

فإذا عرف هذا الفقيه في الإسلام أخذ يبحث في تلك الآيات في أول السورة والآيات في آخرها أي : التي قبل قصص يوسف ، والآيات التي بعد قصته بتمامها فيجد عجباً ، يجد أن التي في أول السورة جاء فيها أن هذه القصة فيها آيات للسائلين ، وأن التي في آخرها جاء فيها ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥] ، هنالك يأخذ في الفهم ويقول : يقول الله تعالى إن قصص يوسفً إنما هو آيات للذين يسألون ، ولكنه في آيات أخرى يقول : ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣] ، ويقول إن خلق السماوات والأرض من آياته ،

واختلاف الألسن من آياته، واختلاف الألوان من آياته، والشمس من آياته، والقمر من آياته، وهكذا كل مخلوق هو من آيات الله. ويقول تارة إنها للمتفكرين، وتارة للمؤمنين، وتارة لمن يعقلون، وتارة يقول إنها آيات لقوم يعلمون، أو يقول للعالِمين ـ بكسر اللام ـ وتارة يقول بعدها: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[فاطر: ٢٨].

ولكن في هذا القصص لم يذكر معه إلاّ السائلين عنه، وإذن يفهم الفقيه أن هذه القصة إذا كانت آيات للسائلين، فهناك ثلاث آيات لا تخص السائلين، بل تعمّ العلماء والعقلاء والمؤمنين، وهي التي في السماوات والأرض والناس يمرون عليها وهم عنها معرضون، إذن الآيات قسمان:

قسم مسموع؛ وهذا لمن اعتادوا أن يأخذوا العلم بالسماع والتقليد والاعتبار. وهذا القسم من العلم المسموع يفرح به الجاهل ويعتبر به العالم، فهو للجاهل علم، ولذي العقل اعتبار، كما قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[يوسف: ١١١].

أما القسم الآخر وهي الآيات المعقولة؛ فهي درجات بعضها فوق بعض للمؤمنين تارة وللعقلاء أخرى وللعلماء آونة.

ثم ينظر في سورة «يوسف» فيجد أن هذه القصة ليست كل آيات الله، بل هناك من الآيات مئات ومئات في مئات لا تحصى قد أعرض الناس عنها، بل من الآيات ما يختص بالعلماء الذين يدرسون العلوم ـ كما سيأتي ذكره في سورة «الحجر» في قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الآية: ١٩] ـ إذ نظام الأوراق وأنه موضوع بحساب رياضي هندسي له جداول متناسقة بديعة تشمل أوراق الفصائل النباتية مرتبة كترتيب تلاميذ المدارس في الفصول، كما ستراه مرسوماً مشروحاً موضحاً.

هنالك يأخذك أنت ويأخذ الفقيه العجب، إذ يرى نظاماً يجهله جميع أهل الأرض إلاّ علماء النبات. فهؤلاء عرفوا نظام الأوراق وجداوله المنتظمة والدوائر المشتملة على عدد من الأوراق معلوم مرسوم بأشكال حلزونية لها أعداد خاصة متناسبة كل المناسبة مع أوراق وأشكال النباتات الأخرى.

ثم يرى هو وترى أنت أن هذا كله معنى آية واحدة من كتاب الله تعالى، ومن الأدلة البديعة على إبداع وإحكام صانع هذه الدنيا.

ثم بعد ذلك ينظر نظرة أخرى، فيقول: اللهم إن هذا العلم اليوم غير معروف في بلاد الإسلام، اللهم إلاّ لمن تعلموا علم النبات تعليماً تاماً، وهؤلاء لا يعرفون شيئاً من الدين إن وجدوا في الشرق، واختصت هذه المعرفة بالعلماء بهذه العلوم.

إن قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[الروم: ٢٢] لم يظهر أكبر سره إلاّ في عصرنا، فإن اختلاف الألوان والألسنة لم تظهر خبايا سره إلاّ في هذه الأيام، إذ استبان أن ألوان الحيوان لها آثار في حياتها كما تقدم بعضه في هذا المقال، وكما سيأتي في قوله: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وفي غيرها، إذن سر القرآن يظهر في هذا العصر.

من ذا الذي كان يظنّ أن للألوان أثراً في حياة الحيوان، ومن ذا الذي كان يعرف أن جمال الزهرة سائق وداع للحشرة أن تدخل الزهرة فتشرب عسلها، من ذا الذي كان يعرف أن الحشرة التي تماثل زرق الطير لوناً وشكلاً قد جعل ذلك فيها لحمايتها وحفظها وبقائها؟. حقاً حقاً! إن هذا لا يفهمه إلاّ علماء قد اختصوا بهذا الفنّ، إن هذا سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾.

ولا جرم أن هذا من الآيات التي ليست للسائلين الذين لم يشترط فيهم أن يكونوا علماء، بل هي آيات للعلماء بهذه العلوم، وهذه معجزة جديدة يسجلها العلم للإسلام. هذا ما يفهمه الفقهاء في المسلمين بعدنا في سورة «يوسف».

نظر الفقيه الإسلامي في سورة الرعد بعد سورة يوسف

ثم ينظر نظرة في سورة «الرعد» فيجد أن الآيات الإلهية التي لم يذكر منها في سورة «يوسف» إلاّ التنبيه عليها والحثّ على الإقبال عليها قد كثرت في سورة «الرعد»، كرفع السماوات بغير عمد، ثم تمثيل عظمة الله وسلطانه مما يشاهد الناس في الدنيا من عروش الملوك وتدبير الجمهور ونظام المدينة فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[يونس: ٣]، ثم أخذ يفصل تدبير المملكة وحسن نظامها، فأبان أنه ليس هذا العرش كعروش ملوك الأرض الذين ينظمون الممالك، إلى آخر ما تقدم في السور السابقة في هذه المقالة، بل هنا ﴿سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الرعد: ٢] فأما ملوككم فأعلى ما تطلبه عروشهم وغاية ما يقصده وزراؤهم أن يسخروا الأمم لشهواتهم ويقودوا الجنود لتسخيرهم فلا مناسبة بين الملكين كما لا مناسبة بين التسخيرين.

ثم ذكر أنه مدّ الأرض وجعل فيها جبالاً وأنهاراً ونباتاً مكوّناً من ذكر وأنثى، وفي الأرض أماكن متجاورة مختلفة التربة للنظام العام، ثم ذكر البرق والرعد والسحاب، وأنه إذا كان الناس يخضع بعضهم لبعض بحسب القوة والضعف حتى إن الذليل ليخضع للقوي منكم.

فهاهو الله يسجد له من في السماوات والأرض وطائفة من الناس كما في ملوككم، وهناك سترى ويرى الفقيه الإسلامي بعدنا قوله تعالى في تلك السورة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[الرعد: ٨-٩]، ويطلع على المقادير الحسابية والهندسية في العوالم المختلفة ما بين علوية وسفلية، لا سيما القطع الثلجية التي لحظها القوم في الجهات الشمالية، إذ أنك سترى هناك أشكالها الهندسية المسدسة البديعة النظام المتلألئة المبتهجة التي عدّوها بنحو الألف، وقد رسموا منها جملة صالحة، وهذا الذي رسموه ستطلع عليه وتعجب من أن التسديس تام في كل شكل مع أن كل واحد من تلك الأشكال اختص بحكمة، بحيث إنك لا ترى شكلاً منها ـ مع اتحادها في التسديس ـ يوافق الآخر في إبداعه ونقشه ورقشه وبهجته وحسن نظامه، فبعضها ترى أضلاعه كأنها أغصان محلاة بالأوراق متقنة الصنع، مع أن كل مسدس من تلك المسدسات فيه ٦ مثلثات متساويات الزوايا، كل زاوية ثلثا القائمة ١٢٠ درجة.

وهكذا سترى هناك عجائب القطع المتجاورات، حتى أن امتزاج الرمل ببعض المواد كانت منه أنواع الزجاج المقعر والمحدب في وجه أو في وجهين، ونتائج ذلك في منافع الإنسان من تقريب الأشكال

تارة وتكبيرها أخرى، ومنافع ذلك في إصلاح خطأ الأقطار في عيني الإنسان، وهكذا ترى رسوم تلك الزجاجات وعجائبها مما يشرح الصدر وبه يهنأ الحكماء.

نظر الفقيه في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ثم ينظر الفقيه الإسلامي في سورة «إبراهيم» فيجد أنه تعالى في أول السورة أفاد أنه أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولم يخص الناس بالعرب، بل الأمم كلها هم الناس، وقال في هذا الصدد: إن الله أمر موسى أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور، إذن موسى لقومه.

وهذا هو الذي حصل الآن، فإن الذين يتبعون موسى في شريعته هم قومه وحدهم الآن، وإن كان التوحيد ليس خاصاً بهم، فنحن اتبعناه واتبعنا رسولنا صلى الله عليه وسلم في التوحيد، وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فقد قال الله فيه: ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[إبراهيم: ١]. فإذن نحن جئنا إلى الأرض بعد نبينا صلى الله عليه وسلم للناس كافة، لا لأمتنا وحدهم.

لهذا انتشر المسلمون في الصدر الأول في الكرة الأرضية، ولم ينتشر الدين اليهودي إلاَّ في بني إسرائيل، مع أنه قد نسخ بالبعث المحمدي.

وسترى في تلك السورة عجائب التذكير. جاء موسى لإخراج قومه من الظلمات إلى النور بنص الآية، وجاء نبينا صلى الله عليه وسلم بعده كذلك لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ثم إن موسى ذكّر قومه بأيام الله، وهكذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مأمور أن يذكّر قومه بأيام الله.

وسترى ويرى الفقيه في سورة «إبراهيم» ما الذي به ذكّر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من أيام الله المسلمين، كما ذكّر موسى قومه بأيام الله من أنهم كانوا أذلاَّء عند فرعون وقومه، ثم نجوا من ذلك وأنعم الله عليهم. ثم ما الذي يجب على علماء الإسلام بعدنا من تذكير شعوبهم بأيام الله في كل أمة بحسب الوقائع التي حصلت لها، وكيف تعتبر الأمم الإسلامية بتاريخها، وسترى هناك النموذج الذي ذكرته للأمم الإسلامية من تاريخها العام من عصر النبوة إلى الآن.

وكيف كان جهل ملوك الإسلام، وعلماء الإسلام في القرن السادس والسابع إذ هجم التتار والمغول على المسلمين، وهم قد جهلوا علم الجغرافيا، وعلم تعداد الأمم وأحوالها، كما ظهر جهل أمتنا المصرية من أمرائها وعلمائها، إذ دخل نابليون البلاد وهم كانوا يظنون أنهم أقوى من أوروبا كلها لجهلهم علم الجغرافيا، وقد ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣] فهزم جمعنا في أقل من ساعة من الزمان، ذلك كله للجهل العام، ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾[الزمر: ٤٧].

هكذا سترى هناك كيف أراد الفرنسيون أن يحتاطوا للناس عند وقوع الطاعون الذي هو من تربيتنا ومن نظام ديننا، وله في الأحاديث النبوية والآيات القرآنية شأن عظيم، فأخذ الناس يفرون من القاهرة لاعتقادهم هم وعلماؤهم أن هذا ليس من الدين، مع أنه في الحديث مذكور في قصة سفر عمر

رضي الله عنه في بعض غزواته، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾[البقرة: ٢٤٣].

ثم سترى ويرى الفقيه الإسلامي بعدنا في سورة «إبراهيم» المذكورة ذكر العلماء من أوروبا بعد ذهاب دولة الإسلام، الذين علموا الناس علوماً وصناعات نفعتهم من ابتداء نهضتهم التي جاءت على أنقاض دولتنا الإسلامية العلمية إلى زماننا الحاضر.

كل ذلك هناك، لنذكّر الناس بأيام الله في زماننا، كما ذكّر نبينا صلى الله عليه وسلم الأمم في زمانه، وكما ذكّر موسى قومه، وكما يذكّر فقهاء الإسلام بعدنا أممهم، ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣٣]. والحمد لله رب العالمين.

هذا ما قصدت ذكره هنا من آراء فقهاء الإسلام الذين سيكونون بعدنا، وهم الذين سينير الله بهم أمم الإسلام وغير أمم الإسلام تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

تمّ بحمد الله وحسن توفيقه

الجزء الخامس من كتاب «الجواهر»

في تفسير القرآن الكريم

ويليه الجزء السادس

وأوله سورة «يونس» عليه السلام

فهرست الجزء الخامس
من تفسير الجواهر